الطابق السابع

الجزء الثالث من
ثلاثية محطة دمشق

ديفيد مكلوسكي

الطابق السابع

ديفيد مكلوسكي

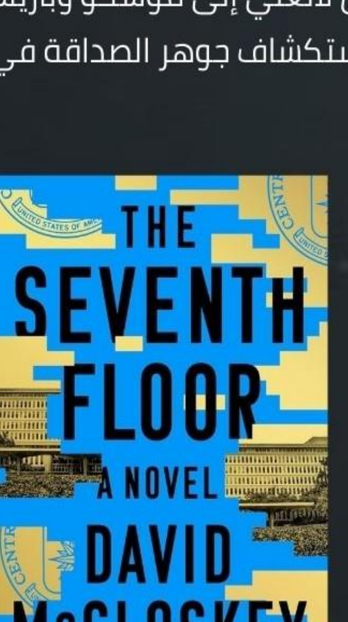
ستة من ضباط الاستخبارات المركزية (CIA).. هم أصدقاء الروح، وهم الأعداء الألداء. على مدار ربع قرن، احترفوا سرقة أسرار الآخرين. أما الآن، فعليهم سرقة أسرار بعضهم البعض.

تبدأ اللعبة بوصول روسي إلى سنغافورة وفي جعبته سر للبيع. ولكن عندما يُقتل الروسي، ويختفي سام جوزيف -ضابط الوكالة المُرسل للقائه- تتحول آرتميس بروكتر، رئيسة العمليات، إلى "كَبش فداء" لهذه الكارثة وتُطرد من الخدمة. بعد أشهر، يظهر سام فجأة على عتبة باب بروكتر حاملاً سراً متفجراً: هناك "جاسوس" روسي (Mole) محفور بعمق داخل أعلى الرتب في وكالة الاستخبارات المركزية.

وبينما تحقق بروكتر وسام، تتقلص القائمة لتنحصر في دائرة ضيقة من المشتبه بهم: هم أقرب أصدقاء بروكتر، وأشرس أعدائها في آن واحد. تتطلب هذه المطاردة أن تنبش بروكتر في ماضيها المضطرب داخل الوكالة، مما يضع الثنائي في مرمى نيران "سيد جواسيس" روسي داهية، مستعد لفعل أي شيء لحماية عميله في "لانغلي" مهما كان الثمن.

ماذا يحدث عندما توضع الصداقات التي صُهرت بالعرق والدماء -من معسكر التدريب في "المزرعة"، إلى جبال أفغانستان، وصولاً إلى المكاتب التنفيذية في "الطابق السابع"- على المحك النهائي؟ وهل نعرف حقاً حقيقة من نحبهم؟

من لانغلي إلى موسكو وباريس وما بعدها.. تأخذنا رواية "الطابق السابع" (The Seventh Floor) في رحلة لاستكشاف جوهر الصداقة في مهنة لا تعرف الولاء، ومعنى أن تحب مكاناً لا يبادلك الحب أبداً.



ترجمات مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks

ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks

الطابق السابع

THE SEVENTH FLOOR

للمزيد من الترجمات

t.me/wadistreambooks

ترجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم

مبادرة ترجم

Tarjim initiative

هيئة الأدب والنشر والترجمة

Literature, Publishing & Translation Commission

Translation funded by the Tarjim initiative

ترجمة / كاميليا

ديفيد مكلوسكى

DAVID McCLOSKEY

الطابق السابع

THE SEVENTH FLOOR

"مبنى الوكالة لا يبادلك الحب."

The building doesn’t love you back

—مَثَلٌ في وكالة الاستخبارات المركزية(CIA)

الجزء الأول

اقتحام

الفصل الأول

موسكو - روسيا
الوقت الحاضر

قلم الانتحار الخاص بـ الروسي – وهو من طراز «مون بلان» – كان قابعًا في الطابق العلوي. *كان يجدر بي الاحتفاظ به هنا في الأسفل*، هكذا أنّب نفسه، حتى وإن كانت **أليونا** تحوم حوله. فلو صدق حدسه بشأن تلك السيارات، فإن الوقت المتبقي أثمن من أن يُهدر.

أغلق درج مكتبه منزلقًا بهدوء، ثم أزاح أليونا برفقٍ عن ركبته.

ألحت قائلة:

– «فوق.. فوق.. فوق».

كانت يداها الصغيرتان ممدودتين، وأصابعها ترفرف في الهواء طلبًا للاحتضان، لكنّ انتباهه كان مسلوبًا نحو شاشات المراقبة. فما كان من أليونا إلا أن حشرت وجهها في فخذه وهي تطلق صرخةً طفولية، طابعةً على ساق بنطاله بقعًا حمراء لزجة.

نظر إلى الأسفل فزعًا، ليدرك سريعًا أن تلك البقع لم تكن سوى مربى الفراولة التي دهنها بنفسه على شطيرة إفطارها. في الأوقات العادية، كان أمرٌ كهذا سيثير حنقه، لكن ليس الآن. دغدغ بطنها، فانفجرت ضاحكةً حتى تكوّرت عند قدميه وسط قهقهاتها.

قال لها بحنانٍ شابهُ حزمٌ خفي لم يغب عن إدراك الصغيرة:

– «اذهبي وابحثي عن أمكِ يا حلوتي».

هرولت الطفلة مبتعدةً بسرعةٍ تفوق قدرتها كالمعتاد، وكادت أن ترتطم برأسها في إطار الباب وهي تغادر. تناهى إلى سمعه صوتُ خطواتها تندفع نحو المطبخ، حيث بدأ إبريق الشاي بإطلاق صفيره.

عاد ببصره إلى الشاشات: سيارتان سوداوان توقفتا في الممر. لا تحملان لوحاتٍ حكومية، لكنه كان يعلم الحقيقة. لمح على السيارة المتقدمة ذلك الأثر الفاضح؛ مثلثًا من الغبار يلطخ الزاوية اليمنى العليا للنافذة الخلفية الجانبية. إنها البقعة التي تعجز فرشاة غسيل السيارات في مرآب مبنى اللوبيانكا عن الوصول إليها.

لم يُحدّث الروسي نفسه ولو لمرةٍ واحدة بمرافقتهم؛ فقد حسم أمره في هذه المسألة منذ زمنٍ بعيد. ولكن لماذا منحوه هذا الخيار؟

كان يجب أن يكون هناك حبلٌ في فمي الآن، هكذا فكّر. كان يجب أن تكون ذراعيَّ مسمّرتين إلى جانبي، وقميصي وبنطالي منزوعين، بينما تعبث أيادٍ خشنة في طيّات السترة والجيوب بحثًا وتفتيشًا. ومع ذلك...

حدق في المربى التي خلّفتها أليونا على ساق بنطاله. غمس إصبعه فيها، ورفع كتلةً صغيرةً حلوة المذاق بإفراطٍ إلى لسانه.

كانت الساعة هي العاشرة صباحًا. صباح سبتٍ متثاقل في منزله الريفي «الداتشا». لقد فوّت طقوس سيره الصباحي لأنه و ڤيرا سهرا لوقتٍ متأخر، وأفرطا في الشراب، وبالتالي، استيقظا متأخرين.

استشعر أن صبر الرجال في الخارج بدأ ينفد لعدم خروجه إليهم. لقد صعدوا بسياراتهم نحو المنزل مقتفين أثر مساره المعتاد نحو الغابة، ودخان سجائرهم يتسرب من شقوق النوافذ المواربة. لثوانٍ معدودة، راقب الروسي السيارات المتوقفة ومحركاتها دائرة، محاولًا قراءة ما تبثه من طاقة. وما شعر به لم يرق له قط.

نادى بصوتٍ مسموع:

– «ڤيرا.. لديّ زوّار. خذي أليونا إلى الحديقة لقطف الفراولة. ربما نتناول بعضًا منها مع الغداء».

ظهرت ڤيرا عند باب المكتب، واستقرّت نظراتها فورًا على الشاشات.

سألت بنبرةٍ حادة بينما كانت أليونا تترنح في الدخول خلفها:

– «هل يتعلق الأمر بـ أثينا؟ لأنه سيكون من النبل أن يفسروا أخيرًا سبب طلبهم عودتك إلى الوطن بهذه العجلة».

أمرها قائلًا:

– «لا أدري. خذي أليونا إلى الخارج».

قالت:

– «لقد انتهينا للتو من ترتيب أمور أليونا في مدرستها، و–»

قاطعها بحدة:

– «إلى الخارج».

على الشاشات، كان خمسة رجال قد ترجّلوا من السيارتين.

نظرت إليه بقلق. ومع تنهيدةٍ خافتة، نهض ودفعها بلطفٍ للخروج بعد أن طبع قبلةً سريعةً على وجنتها، هامسًا:

– «سآتي لأخذكِ حالما يرحلون».

ثم حمل أليونا ودار بها في الهواء، دافنًا وجهه في خصلات شعرها العذب، الذي عاد كثيفًا وبراقًا بعد جلسات العلاج، فتذكّر حينها السبب الذي دفعه للقيام بما قام به. استنشق عبيرها طويلاً مرةً أخيرة وقبّل رأسها. لم يخالجه أي ندم. كان ليقبل بتلك المقايضة مجددًا. كان ليقبل بها ألف مرة.

أنزلها أرضًا وقال:

– «أحبكِ يا فراولتي الصغيرة».

قهقهت وهي تلوّح بإصبعها نحوه بابتسامةٍ صاخبة:

– «أنا لستُ فراولة يا بابا!».

تبعت أليونا أمها عبر المطبخ وصولًا إلى حديقة الخارج. ارتعشت شفته عند سماع صوت ارتطام الباب؛ فأليونا لا تتقن إغلاق الأبواب إلا بتلك الطريقة.

طرقت الأيادي الباب الأمامي لأول مرة. ففتح الدرج السفلي لمكتبه باندفاع، وانتزع القاع الزائف، ليجد المظروف الكبير المحشو بمظاريف أصغر.

احتوى أحد المظاريف على رسالةٍ لـ ڤيرا. كانت رسالةً رسمية، خاليةً من عواطف الحب، لكنها طيبة، بل وسخية كما يحب أن يعتقد. وهناك عشرون مظروفًا معنونةً باسم أليونا، رُبطت معًا بشريط مطاطي وأُرفقت بملاحظة تحمل التعليمات التالية: عليها أن تفتح واحدًا في كل عيد ميلاد، من الرابع حتى الثامن عشر، ثم عندما تبلغ العشرين، والثلاثين، والأربعين، والخمسين، والستين.

وحمل مظروفٌ آخر اسم ابنه البالغ، واحتوى على رسالة كُتبت بكل ما استطاع حشدُه من حبٍّ رغم خيبته فيه.

وبين طيّات تلك الرسالة، أُخفي مظروفٌ آخر أصغر حجمًا، مُعنونٌ إلى شقة في أثينا وقد أُلصق عليه الكثير من الطوابع البريدية. أرجوك، ضع الرسالة الأخرى في البريد نيابةً عني، هكذا خربش في تذييلٍ لرسالة ابنه.

الطرقات التي ازدادت صخبًا بينما كان يراجع الرسائل، توقفت الآن. وعبر الشاشات، رأى أحد الرجال يشرع في معالجة القفل.

في الحمام، حشر الروسي رزمة الرسائل عنوةً داخل حقيبة مكياج ڤيرا. وفي غمرة ذعره، ساوره القلق من أن تُكتشف الرسائل أثناء التفتيش الدقيق والحتمي القادم. لماذا لم يتنبه لخياطتها داخل ملابس أليونا – ربما في سترة – كما كان يعلم أنه ينبغي عليه فعله؟ لكن الوقت قد نفد: فُتح الباب الأمامي بصريرٍ مسموع بينما كان هو يلهث صاعدًا الدرج نحو غرفة النوم الإضافية.

جلس خلف المكتب القديم الذي يعلوه الغبار، وأرهف السمع لوقع الخطوات في البهو، وللهمهمات الخافتة، وصوت صعود الرجال على الدرج. وللحظةٍ عابرة، تساءل كيف كُشف أمره. لم يكن ليعرف. وشكّ في أن الأمريكيين سيعرفون ذلك أبدًا.

فتح الروسي درج المكتب بعنف. التقط قلم الـ «مون بلان».

صرخ بصوتٍ جهوريٍّ في اتجاه الدرج:

– «ابنتي هنا أيها الحيوانات.. بحق السماء».

اقتحم الغرفة شابٌ ضخم الجثة، حليق الجانبين كأحمقٍ متمرد. وتبعه رجلٌ ثانٍ عن كثب. اتسعت عيونهما ذهولًا عند رؤية القلم.

قال لهما:

– «عارٌ عليكما يا صبيان».

زلق القلم إلى فمه، وأطبق الروسي فكيه على أسطوانته، غارسًا أسنانه في كبسولة السيانيد القابعة في جوفه. تناهت إلى سمعه كلمات جاك، من أيام بوغوتا البعيدة: *ثلاثة أنفاس يا صديقي، وكوّر يديك فوق وجهك.*

نفذ ذلك، متجرعًا الهواء في شهقات: واحد، اثنان. وفي الثالثة كانوا قد قفزوا فوق المكتب وانقضوا عليه، فاصطدموا بالجدار وسط الشتائم والصراخ والتدافع. قلبوه على ظهره، وانتزع أحدهم قلم الـ «مون بلان» من فمه.

لكنّ الروسي كان قد مات بالفعل.

***

الفصل الثاني

سنغافورة
بعد أيام

في تلك اللحظة، لم يُشغل سام جوزيف باله بالتفكير في الفداحة المروعة لما نطق به غوليكوف، ولا بالدماء التي بات سكبُها حتمًا، أو الحيوات التي ستتحطم قريبًا بجريرة تلك الكلمات. كل ذلك مؤجلٌ لوقتٍ لاحق.

كان عليه أولًا أن يحفظ تلك الكلمات. وكان لزامًا أن تكون ذاكرته حاضرةً بدقةٍ متناهية، تمامًا كما عبرت الرسالة شفتي غوليكوف.

كان سام يتخذ من غرفة طفولته «قصرًا للذاكرة»، فيودع كل كلمة، بالترتيب، داخل صناديق التخزين الملونة القابعة تحت السرير، تلك التي كان يحفظ فيها قطع «الليغو». ولكن لكي يطبع الرسالة في ذاكرته، كان عليه التأكد من سماعها بوضوح. ورغم أن غوليكوف كان جالسًا بجواره على طاولة «الباكاراه»، إلا أنه كان يواجه صعوبةً جحيمية في ذلك.

الميكروفونات الدقيقة التي تعمل بالسترونتيوم كانت قد أدت عملها ببراعة في «لانغلي» – يا للمفاجأة – لتتعطل فور وصولها سنغافورة. لذا، لم يملك بديلًا.

أشار ملف المحلل النفسي الخاص بـ غوليكوف إلى أنه يتحدث الانغليزية بطلاقة. لم يكن ذلك صحيحًا. لقد أُجبر سام على عقد اللقاء في صالة كازينو، وهي بيئة تعج بالكاميرات وتتنافى تمامًا مع المكان الذي تود أن تلتقي فيه بروسيّ. كما أن مخططات طوابق الكازينو التي استُخدمت لرسم مسرح هذا «اللقاء الخاطف»، حددت أن غرف «الباكاراه» ذات الرهانات العالية منزوية

بعيداً عن صخب الصالة الرئيسية، وبالتالي – حسب تقدير البرقية التي كتبها – كان من شبه المؤكد أن تكون هادئة بما يكفي.

كان ذلك زائفاً أيضاً. زائفاً بجنونٍ يثير الحنق. فثمة صف من ماكينات القمار ذات الرهانات العالية يقبع خارج غرفة «الباكاراه» مباشرة، يُصدر جلبةً تشبه صوت درعٍ حديدي دُحرج على السلالم. وكان الوقت فجر الجمعة، الساعة الثانية، في فندق «ساندز»: الطاولات متلاصقة حد التلاحم. كان الضجيج الممزوج بثرثرة البشر والتشويش الذهني هو الجو المفضل للكازينوهات، بل ولـ سام جوزيف نفسه، على الأقل حين يقامر بماله الخاص. أما الآن، فهذا الصخب يهدد عمليته، ناهيك عن الكاميرات، ولم يكن هناك هامشٌ للمناورة.

طلب من غوليكوف أن يعيد ما قاله مرةً أخرى. هذه المرة، كانت نبرة الروسي لا تزال خشنة، كأنها مُسحت بورق الصنفرة والزجاج المهشم، لكن لغته الانغليزية الفظّة تباطأت لحسن الحظ إلى وتيرةٍ غاضبة ومتمهلة.

ابتسم سام، وكأن الروسي قد شاركه دعابة، ثم مال بجسده بعيداً عنه ليخزن الرسالة في ذاكرته بينما يتفحص أوراقه. كان هناك عشرة آلاف دولار من أموال دافعي الضرائب في الرهان. وفي هذا الشأن، كانت تحذيرات قسم المالية صارمة، وإن كانت بلا أنياب في نهاية المطاف: أنت مطالب بالانتباه، وعليك خسارة أقل قدر ممكن من المال.

تحت حافة الطاولة، وضعت يد سام اليسرى بطاقة مفتاح غرفته في حجر الروسي. وفي اللحظة ذاتها، ألقت يده اليمنى أوراقه للموزع وهمس:

– «ساعتان».

لم يكن لينفذ عملية التسليم لو ظنّ أن أمره قد كُشف؛ ولكن للحظةٍ خاطفة، وبينما كان الروسي يدس البطاقة في جيبه، اجتاح سام الشك، وتساءل عما إذا كان أحدهم يراقب.

راهن غوليكوف على اللاعب في تلك الجولة، وخسر. ثنى أوراقه وقذفها عبر بساط الطاولة الأخضر، ثم تجرع جرعةً دسمة من الويسكي.

قال وهو يلوح بيده قاطعًا الهواء:

– «كفى.. انتهيت».

أعطى الموزع إكرامية، وربت بيديه على الطاولة، ثم نهض. ومع إيماءاتٍ ودية وتمنياتٍ بحظٍ طيب لـ سام وبقية اللاعبين، ابتعد بخطواتٍ واسعة. لمح سام عيني غوليكوف تجولان في أنحاء الغرفة. خوفٌ في محله، هكذا فكر سام. نقطة لصالحه. وحدها الحالات النفسية المستعصية – المعتلون اجتماعيًا والمصابون بجنون العظمة – هي التي لا تتصبب عرقًا عند ارتكاب الخيانة.

لم تكن «الباكاراه» لعبة سام المفضلة: فهي خرافة محضة، بلا مهارة. لقد خسر بالفعل خمسين ألف دولار من أموال دافعي الضرائب الأمريكيين في ست عشرة دقيقة. الجولات القليلة التالية ستضع العشرين ألفًا المتبقية على المحك. في تلك اللحظة، كان قلقه بشأن معاملات قسم المالية الورقية يفوق قلقه من تبعات ما شاركه بوريس غوليكوف للتو.

على مدار الدقائق العشر التالية، استعاد سام توازنه قليلًا: قلص خسارته إلى ثلاثين ألف دولار فقط. ثم، مع إكرامية شحيحة للموزع، يمكنه تبريرها عمليًا للمتذمرين في المالية، غادر المكان. خرج من غرفة الرهانات العالية إلى صالة الكازينو الرئيسية، تلك الساحة الفسيحة التي تكتظ بالطاولات وتعلوها منحوتات ذهبية شاهقة، وتضج بالطاقة.

مسح سام المكان بحثًا عن حراسٍ واضحين أو أي رفاق من الوفد التجاري الروسي، لكن المكان كان مزدحمًا لدرجة يستحيل معها معرفة ما إذا كان الخصم قد كشفه أو كشف غوليكوف. ولم يعتقد أن هناك طريقة لتغيير ذلك. اشترى قهوة وتجول في الكازينو. توقف بضع مرات: الحمام، طاولة «بلاك جاك» لبضع جولات، وأحد البارات.

لا شيء مريب.. كان يشعر بالارتياح، رغم ما أخبره به الروسي. لم يستوعب الأمر تمامًا بعد، وعلاوة على ذلك، كان سام في وضعٍ عملياتي، ينفذ خطة محكمة كُتبت لهدفين: حماية العميل، وجمع المعلومات. تحليل المعلومات

هو وظيفة شخص آخر، وعقله مزدحمٌ بالفعل، يعمل بطاقة قصوى. لم يكن هناك متسعٌ إلا لضغط اللحظة الراهنة، وما يعنيه ذلك لمناخ العملية.

وبينما كان كأس الـ «جين تونيك» في يده – دون أن يمسّه – صعد إلى غرفته، حيث سكب الشراب في الحوض. وضع صينية خدمة الغرف في الممر؛ وعلق لافتة «ممنوع الإزعاج» على المقبض؛ ودس منديلًا تحت الباب. في الثواني القليلة من النقاش غير المباشر التي تمكنا من إجرائها على الطاولات، اقترح سام هذا كإشارة أمان. الوضع آمن. أغلق الباب، حريصًا على إبقاء المنديل في مكانه، بارزًا للخارج.

من جيب مخفي في جانب حقيبة سفره، أخرج كيسًا رقيقًا مبطنًا بمادة تشبه رقائق الألومنيوم. فتح السحاب، وتحسس النقود بإبهامه ثم وضع الكيس على الخزانة قرب التلفاز. مائة ألف دولار: الدفعة المقدمة المصرح بها إذا كانت معلومات الروسي ذهبية. نبعٌ لحربٍ أخرى مع قسم المالية.

على طاولة القهوة، رتب زجاجة «فودكا» من نوع «راشن ستاندرد»، وكأسين، ومجموعة مقبلات: زيتون، مكسرات، رقائق، وفشار. ألقى بالأقلام والدفاتر في درج المكتب. لا تدوين للملاحظات أثناء الجلسة، هكذا قررت وكالة الاستخبارات المركزية. قد يدفع ذلك غوليكوف إلى حافة الانهيار. وإذا كان الروسي يحاول أن يبيعنا ما أشك فيه، كما قال الرئيس، فإن الرجل سيكون مذعورًا بما يكفي بالفعل.

جلس سام للانتظار، وكان سيئًا في الانتظار. كان يعلم ذلك، وكذلك مجلس مراجعة الأداء، وإن كانوا قد صاغوا الأمر بكلمات مختلفة قليلًا (يعاني من صعوبة في التحكم بالاندفاع). كانت قدمه تنقر السجاد بإيقاع ثابت. كاد أن ينهي وعاء الفشار، ثم أنهاه بالفعل، فوضع الوعاء في الخزانة، بعيدًا عن الأنظار، ليتجنب الظهور بمظهر من بدأ الطعام قبل ضيفه. اتخذ موقع حراسة عند المكتب، حيث كان الطعام بعيدًا عن متناوله.

***

بعد ساعة، انتصب سام واقفاً عند سماع نقرة بطاقة المفتاح وصوت المقبض. دخل رجلان لم يتعرف عليهما إلى الغرفة. كانا يرتديان بذلات رسمية. جالت عيونهما في الأرجاء بحثًا عن تهديدات: أشخاص آخرين، أسلحة، أو أشياء قد يحولها إلى أسلحة. تحركا بانسيابية، كرجال اعتادوا دخول غرف الآخرين بانتظام. تراجع سام نحو المكتب، حيث مصباح بقاعدة رخامية.

قال سام، وهو يخطو نصف خطوة أخرى نحو المصباح:

– «اخرجا من غرفتي».

قال الرجل ذو الشعر الأشقر بإنجليزية ذات لهجة ثقيلة:

– «أنت صامويل جوزيف».

لم يكن سؤالًا. لكنه أجاب على تساؤل سام: إنهم روس. فكّر بأيهما يبدأ. كلاهما بنفس الطول والبنية تقريبًا. تفحص عيني كليهما بحثًا عن ضعف، وقرر: صاحب الشعر الداكن.

لكن الرجل ذا الشعر الداكن سحب مسدسًا مزودًا بكاتم صوت ووجهه نحو سام.

– «تتحرك، أقتلك. أنا لا أتردد. اجلس يا صامويل جوزيف».

جلس سام، وقلبه في حلقه. لا شك أنهم استخدموا مفتاح الغرفة الذي مرره للروسي على الطاولة. إذا كانوا قد كشفوا غوليكوف، فما حاجتهم إليه؟

قال الأشقر وهو يرفع زجاجة «الستاندرد» الممتلئة ليؤكد مقصده:

– «فودكا كثيرة لشخص واحد.. أظنها كثيرة جدًا بالنسبة لأمريكي».

استرخى على الكرسي المقابل لـ سام. بينما تحرك الرجل ذو الشعر الداكن، الذي لا يزال واقفاً، خلفه.

سمع صوت سحاب حقيبته. وصوت تكديس الملابس والأحذية عبر الأرضية.

قال سام وهو يلوي عنقه ليرى ما يفعله الرجل:

– «مشكلة إدمان».

قوبل بالطرف غير الودي لمسدس الرجل ذو الشعر الداكن، الذي نكزه بعنف: در وجهك.

طرقع الأشقر بأصابعه قائلًا:

– «انظر هنا. وإلا، حطمنا وجهك».

قال سام:

– «أعتقد أنكما في الغرفة الخطأ».

– «لماذا تحدثت إلى بوريس غوليكوف؟»

أزيز السحاب للمرة الثانية يعني أن صاحب الشعر الداكن قد وجد كيس النقود. راقب سام عيني الأشقر تتسعان قليلًا، ثم أشارت يده طالبًا المال، الذي رُمي أمامه على الطاولة.

– «هذا لـ بوريس؟».

رد سام:

– «هذا كازينو. المال للمقامرة. ومن بحق الجحيم هو بوريس؟».

– «ماذا قال لك بوريس على الطاولات؟».

– «من هو بوريس؟».

قال الأشقر:

– «اسمع، نحن لسنا رجالًا صبورين. أنت ترانا، وتعرف. أنت تعمل لصالح الـ CIA. ونحن نعرف هذا أيضًا. ونعرف أن بوريس أراد الدردشة. الآن، أنت جلست بجوار بوريس الليلة. رأينا ذلك. وإليك الأمر: يجب أن نعرف ما قاله. يجب أن نعرف. تخبرنا بما قاله، تخبرنا بكل شيء، ونحن نخرج من هنا، والأمور طيبة وعال العال».

مسح يديه ببعضهما للتأكيد، ثم أردف:

– «لكن العب دور الغبي، وسيصبح لدينا بعض المشاكل. مفهوم؟».

سأل سام:

– «هل بوريس هو الروسي الذي كان على طاولتي؟ الرجل الذي خسر كل شيء، أهذا صحيح؟ ليس لدي أدنى فكرة عن سبب وجودكما في غرفتي أو من يكون هو. والآن اخرجا».

– «صامويل جوزيف، لا تلعب دور الغبي الآن. أخبرنا حالًا بما قاله لك بوريس».

أصر سام:

– «أنا لا أعرف بوريس خاصتكم».

نظر الأشقر عبره مباشرةً، نحو شريكه، وعرف سام تلك النظرة – لقد رآها في عيون العملاء، ومحققي الأمن، واللاعبين عبر طاولة البوكر. نظرة رجل اتخذ قراره.

التقط الأشقر أحد أوعية المقبلات، وقذفه عاليًا نحو السقف.

يميل البشر بطبعهم لمراقبة الأشياء المقذوفة في الهواء.

وبينما كان يراقب المكسرات تتناثر عبر الأرضية وكأنه في غشوة، شعر سام بوميض حركة خلفه. شعر بوخزة في كتفه. غمرت الحرارة جسده وأطرافه. وحين وصل الدفء إلى دماغه، بدأ رأسه يثقل بشدة، وكأن عنقه لم يعد صالحًا لحمل رأسه. ثم تهاوى سام للأمام، ليرتطم بزجاجة الفودكا.

الفصل الثالث

لانغلي، فيرجينيا
الولايات المتحدة الامريكية

كانت أرتميس أفروديت بروكتر تضيّق عينيها وهي تحدّق في انعكاس شمس الصباح الصاعدة، التي تراقصت بريقًا برتقاليًا على سطح كأس البيرة خاصتها. صفعت بطاقتها على البار وأصدرت تعليماتها بإبقاء الحساب مفتوحًا، ثم أخذت كأسها وانزلقت إلى مقصورتها المعتادة بانتظار ثيو.

كانت بروكتر من رواد "فيينا إن" الدائمين، لكنها عادةً ما تكون كائنًا ليليًا، ورغم شهرتها بكونها فاسقة لا تُطاق، إلا أن هذه كانت مرتها الأولى التي تطلب فيها الخمر وسط زحام الإفطار، والله يشهد على ذلك. اختفى نصف الكأس في الجرعة الأولى، وما تبقى منه تلاشى مع رنين الجرس المصاحب لدفع ثيو مونك للباب. وحين وصل صديقها القديم إلى الطاولة، رفعت كأسها الفارغ وهزّته.

قالت:

– «حسابي مفتوح».

ضيّق ثيو عينيه في الكأس وشمّه بابتسامة ساخرة. عاد بكأسين، وصدره يصفر وهو يحشر نفسه في المقصورة، مزحلقًا واحدًا تجاه بروكتر. فرك قماش سترتها الصوفية المجعدة التي كانت ترتديها بالأمس.

سأل:

– «مشية العار؟».

– «ياليت. غادرت المكتب قبل ساعة».

بنظرة استنكار لبيرة الشروق، وضع نادل لا تعرفه بروكتر قوائم الطعام على الطاولة. ودون أن يلتقط إحداها، طلب ثيو خبزًا محمصًا، ولحمًا مقددًا، وبيضًا نصف ناضج.

قالت بروكتر وهي تدفع القوائم إلى حافة الطاولة:

– «أنا أشرب إفطاري».

سأل ثيو بعد أن أصبح النادل خارج مرمى السمع:

– «لا أخبار من سنغافورة بعد؟».

– «صمت لاسلكي. المحطة تُشغّل مخبريها في فندق الرمال "ساندز"».

– «هناك تفسيرات كثيرة».

– «وكلها سيئة».

أشار صمت ثيو إلى موافقته. أشاح ببصره نحو النافذة وتجرع كمية لا بأس بها من البيرة. لقد شربت مع ثيو بشكل متقطع وفي كل مكان حول العالم لقرابة ربع قرن. الشراب يجعله كالحرباء: ثرثارًا أو صامتًا، كئيبًا أو مرحًا، لطيفًا أو قاسيًا—قد يتقمص أي مزيج أو قدر من هذه الصفات، وأحيانًا خليطًا فوضويًا منها جميعًا، خلال جلسة شرب واحدة.

أصبح صمته أكثر وضوحًا في السنوات الأخيرة. صداقتهما تمتد إلى أيام «المزرعة» (The Farm[1])، وعلى مدى أكثر من خمسة وعشرين عامًا، قالا معظم ما يلزم قوله—والكثير مما لم يكن له لزوم.

وصل طعام ثيو. كان يغمس اللحم المقدد في صفار البيض السائل حين وقفت بروكتر—وكأسها الفارغ في يدها—وخطت خطوتين نحو البار، ثم توقفت. وضعت الكأس جانبًا وطلبت قهوة.

قال ثيو حين انزلقت عائدةً إلى المقصورة:

– «من الحكمة على الأرجح.. ألا تكوني ثملة أثناء إيجازك الأول مع المدير الجديد كليًا فين غوسفورد ونائبته للعمليات ديبورا سويت».

---

[1] المزرعة :(*The Farm*) اسم حركي لمنشأة "كامب بيري" بولاية فيرجينيا، وهي المركز السري لتدريب ضباط العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية.(*CIA*)

ردت بروكتر:

– «لست واثقة يا ثيو. إذا كنت بكامل وعيي، قد أخبر نائبة المدير بما أشعر به حقًا، وهو أنه أمرٌ لا يصدق بحق الجحيم، أن يدير هذان الاثنان المكان. ويا له من إيجاز أول جحيمي عن روسيا. أعني، لقد باشرا العمل منذ متى؟ أسبوع؟ أسبوع واحد، ولدينا بالفعل كارثة مشتعلة».

قال وهو يتأمل بكسل قطعة اللحم المتفحمة التي كان يمررها عبر البيض:

– «لا يتطلب إحراق الحاوية وقتًا طويلًا يا أرتميس، أنتِ تعلمين ذلك».

سألت:

– «متى كانت آخر مرة تحدثت فيها مع أي منهما على أية حال؟».

مسح بقعة صفار عن زاوية فمه ونظر شاردًا في الفراغ، مفكرًا في الأمر.

– «ربما بعد ستة أشهر من أفغانستان. كان فين بطلًا معتمدًا بالطبع. والدنيا دانت له».

تمتمت:

– «بطل.. تباً».

– «لقد عرضت المساعدة».

نخرت ساخرة:

– «لقد حاولت.. وهناك فرق».

نظرت بشوق إلى كأسها الفارغ.

تابعت:

– «آخر شيء ذي مغزى قلته لأي منهما كان بعد أفغانستان مباشرة، في مستشفى لاندشتول، حين كنا طريحي الفراش. لم أذهب إلى أي من حفلتي تقاعدهما».

قال ثيو محققًا انتقامه:

– «لم تكوني مدعوة.. وهناك فرق».

– «وهل كنت أنت؟».

– «بالطبع لا».

ارتشفت بروكتر قهوتها، بينما وظّف ثيو خبزه المحمص ليكون ممسحة للبيض.

اقترح، وكسرة خبز تتدلى من شفتيه:

– «ربما سام في نوبة سكر.. حادث سيارة. هرب مع عاهرة بقلب من ذهب. سرق النقود من صندوق مصروفاته السري. محشّش».

– «أنت لا تعرف سام، كما أنك أحمق. إما أنه يختبئ، أو ميت، أو محتجز لدى الروس. احتمالات الاختباء تتضاءل مع كل ساعة تمر».

قضم ثيو قطعة أخرى من الخبز، مغيّرًا الموضوع بعبوس وإيماءة. سأل:

– «هل حصل شاغلو الطابق السابع[2] الجدد على إيجاز بشأن عملية سنغافورة هذا الأسبوع؟ لقد كان الوضع مزدحمًا لدرجة أنني لا أذكر ما إذا كانت قد طُرحت حين كانوا في نيويورك».

– «لقد وصلتهم الخلاصة. ربما ليس كل التفاصيل».

قال ثيو وابتسامة بدأت تشق طريقها إلى شفتيه:

– «حسنًا، أنا واثق من أنهم سيتفهمون الأمر. ففي النهاية، فين و ديبس رفيقان قديمان».

لأول مرة منذ يومين تقريبًا، رسمت بروكتر ابتسامة باهتة. صفع ثيو منديله على طبقه النظيف.

– «لنذهب. يجب أن ننسق مع ماك و غاس قبل أن نقفز في فرّامة اللحم هذه».

***

[2] الطابق السابع (*The Seventh floor*): مصطلح يُطلق على مكاتب مدير الوكالة وكبار قادتها في الطابق السابع من المقر الرئيسي للـ*CIA*، ويرمز لأعلى مستويات السلطة والقرار.

حين دخلا مكتبه في الطابق الرابع، كان ماك ميسون، رئيس العمليات في «البيت الروسي» Russia House[3]، في الوضعية الطبيعية لضابط الاستخبارات: منكبًا على حاسوبه، يقرأ برقيات المراسلات.

كان ماك يتمتع ببشرة سمراء وأذنين كبيرتين تمنحانه مظهرًا ودودًا، وشعرٍ اكتساه الشيب طوال فترة معرفتهم به. وهي فترة تعادل تلك التي عرف فيها بروكتر و ثيو بعضهما البعض. كان هو الآخر في دفعتهم بـ «المزرعة»، ثم في أفغانستان حيث قتلوا وكادوا يُقتلون معًا. حين استدار بكرسيه، أدركت بروكتر أنه كان يقاوم رغبة عارمة في تحطيم شاشة الحاسوب بقبضته.

على عكس بروكتر، بدا أن ماك قد ذهب إلى منزله لبضع ساعات الليلة الماضية. عرفت ذلك لأن قميصه الأبيض كان لا يزال منشيًا، حتى وإن فضحته عيناه المنهكتان.

تحلق بروكتر و ثيو حول طاولته، لكن ماك ظل في مكانه، يوزع نظراته، في صمت مضطرب، بين الحاسوب ولوحة لذئب متجول معلقة على جداره.

قالت بروكتر أخيرًا:

– «ما الخطب؟».

في تلك اللحظة، دخل غاس رابتيس المكتب، وهو العائد لتوّه من مهمة قُطعت قبل أوانها كرئيس محطة في موسكو، ورفيق آخر من دفعة «المزرعة». بدا نفق توتره مظلمًا لدرجة أنه لم يلحظ وجود بروكتر أو ثيو.

سأل ماك:

– «هل تقرأ هذا؟».

زمجر ماك:

– «فوضى ملعونة».

صاحت بروكتر أخيرًا:

– «ما الذي يحدث بحق الجحيم؟».

[3] البيت الروسي (*Russia House*): اللقب الداخلي للقسم المسؤول عن إدارة كافة عمليات التجسس ومكافحة التجسس المتعلقة بروسيا (والاتحاد السوفيتي سابقاً) داخل وكالة الاستخبارات المركزية.

التفت إليها غاس، ووجهه يشتعل بمزيج من الحيرة التي توشك أن تنقلب غضبًا:

– «العميل "بوكانير BUCCANEER" قد مات، هذا ما يحدث. التقطنا نُبذة إشارات استخباراتية SIGINT خلال الليل. مجرد مقتطف، أعترف بذلك، لكننا رصدنا أحد موظفي الكرملين يخبر صديقًا له أن ضابطًا في الاستخبارات الخارجية الروسية SVR، عاد مؤخرًا من أثينا، قد انتحر أثناء اعتقاله».

قال ماك وهو يستدير نحو حاسوبه ليقرأ البرقية:

– «في الاعتراض.. يقول الموظف إن شائعات كانت تحوم حول إعادة بوكانير إلى الوطن بشبهة التجسس».

ألقى رابتيس نظارته على الطاولة.

قال:

– «تبًا.. تبًا».

وكان ذلك مثيرًا لقلق بروكتر العميق، لأنها كانت المرة الثالثة فقط في قرابة ثلاثة عقود التي تسمع فيها غاس رابتيس يسب، وهي تذكرها جميعًا: في أفغانستان، ورصاصة في كتفه؛ وفي جورج تاون، قبل خمسة عشر عامًا ربما، حين انزلق على الجليد في آخر مرة نجحوا فيها في جعله يسكر؛ والآن، في هواء «البيت الروسي» الهادئ المعاد تدويره، وهو يتأمل الكارثة التي تتكشف أمام الـ «براتفا».

الـ «براتفا» Bratva: اللقب الجماعي لرباعيّهم داخل وكالة الاستخبارات المركزية CIA. مافيا «البيت الروسي». ماك ميسون، رئيس العمليات؛ ثيو مونك، مكافحة التجسس؛ غاس رابتيس، القابع الآن في منصب مؤقت بـ لانغلي لكنه كان حتى وقت قريب يدير العمل الميداني في موسكو. وأخيرًا بروكتر، في «موسكو إكس»—المسؤولة العليا عن برامج العمليات السرية القذرة والمجيدة التي تستهدف بوتين وحاشيته. لقد تعرجت مسارات الـ «براتفا» وتباعدت في السنوات التي تلت «المزرعة». لكنهم بطريقة ما، نجحوا في أن يبقوا أصدقاء في الغالب.

سألت بروكتر:

– «لا أخبار من سنغافورة بعد؟».

هز ماك رأسه.

– «المحطة تعتقد أن السنغافوريين سيسلّمون لقطات كاميرات مراقبة الكازينو، لكن الأمر قد يستغرق بعض الوقت. عدا ذلك، صمت».

انضم إليهم على الطاولة، ناشرًا فوق سطحها الخشبي المتهالك ومليئًا بالخدوش نقاط الحديث الملطفة التي أعدوها جميعًا في وقت متأخر من الليلة الماضية لاجتماعهم مع المدير اليوم. طقطق ماك قلمه الأحمر وبدأ يشطب في النص بعنف.

قال:

– «اسمعوا يا رفاق، بعد ساعة واحدة لدينا أول إيجاز رسمي عن روسيا في الطابق السابع لـ...».

نخع شيئًا من حلقه، متحضرًا لنطق الأسماء:

– «لصديقينا القديمين، المدير فين غوسفورد ونائبته للعمليات ديبورا سويت».

نطق ماك الألقاب بنغمة ساخرة ممطوطة. استدار بكرسيه نحو سلة المهملات وبصق فيها.

– «ومن حسن حظنا، أننا نأتي ولا نحمل معنا سوى المشاكل. لقاء خاطف فاشل في سنغافورة، وضابط حالة مفقود، وعميل ميت في موسكو».

قال غاس:

– «سيسلخون جلودنا بسبب كل هذا».

قال ثيو:

– «سيسلخوننا لمجرد وجودنا هنا».

وافقت بروكتر:

– «سيكون من الصعب اختيار شكوى واحدة فقط.. فالشكاوى كثيرة جدًا بحق الجحيم».

الفصل الرابع

لانغلي

بدأ حفل «لم الشمل» – الذي كان في حقيقته جلسة تأديبٍ بيروقراطيةً متخفيةً تحت اسمٍ بريءٍ هو «تحديث المدير الخاص: روسيا» – في تمام التاسعة. كان «وفد الحرب» الحاضر أقل عددًا من المعتاد في إيجازات الشأن الروسي؛ فقد أصرّ رئيس موظفي غوسفورد على حضور الأربعة الكبار فقط، وترك الصغار خلفهم، رجاءً.

تجولت بروكتر، و ماك، و غاس، و ثيو في غرفة الانتظار بالطابق السابع خارج مكتب المدير. تلك الغرفة التي يحرسها عملاء مكتب الأمن الوقائي الخاص بالمدير «DPS». كانت منطقة الجلوس تشرف على الرواق الرئيسي القاطع لجناح المدير؛ الأثاث جديد، ثمرة عملية تجديد حديثة، وعلى عكس معظم قاعات الانتظار في الـ CIA، كانت الصحف والمجلات – لدهشة بروكتر العارمة – حديثة الإصدار.

ومع ذلك، بدا المكان غريبًا وموحشاً لـ بروكتر لأنه أصبح الآن غرفة انتظار فين غوسفورد. إنه مكتبه هو في الطابق السابع لـ «لانغلي».

لو أنك سافرت عبر الزمن، فكرت بروكتر، *وأخبرتني أننا سنكون هنا بانتظار فين، لقلتُ إنه من الأرجح أن أستيقظ ذات صباح لأجد وجهي مُدبّسًا في السجادة.* وبالنظر إلى طبيعة عملها، لم يكن ذلك مستحيلًا تمامًا. لا، بل كان من الأرجح أن تشغل هي هذا المكتب في الطابق السابع – وأن يتجمد الجحيم قبل أن يمنحها أحد كرسي المدير.

في تلك اللحظة، لم تجد مكانًا للجلوس. فالأسبوع الأول من ولاية أي مدير يكون مكتظًا بإيجازات المعلومات الخلفية، لذا وجد بروكتر ورفاقها الغرفة والرواق المجاور يعجان بالمحللين. وبلا موطئ للجلوس، وقفوا بمحاذاة الجدار حتى خرجت، بعد عشرين دقيقة، مجموعة من «مركز مهام الشرق الأدنى» من قاعة الاجتماعات، وبدت عليهم صدمة المعركة، وكأن قنبلة انفجرت في منتصف الإيجاز، أو كما علّق ثيو لاحقًا ساخرًا: وكأن المدير قد أنزل بنطاله أمامهم.

عبر غوسفورد و ديبس الرواق من قاعة المؤتمرات إلى مكتب المدير.

نادى فين على أحد المساعدين الخاصين:

– «سنجري الاجتماع التالي هنا».

وعليه، طُلب من بروكتر وأصدقائها الدخول مباشرة، تاركين خلفهم غرفةً تغص بالمحللين المتوترين، الذين ذكّرهم تململهم ونقر أصابعهم وهمهماتهم بقطيعٍ من العجول التي بدأت تدرك أنها تُساق إلى المذبح.

غالبًا ما كان وجود بروكتر في أي غرفة غير مرحب به. كان شعورًا مألوفًا، لكنها لم تتذكر أنه ضربها بمثل هذه القوة من قبل. لم تكن هناك ابتسامات، والتواصل البصري كان مترددًا يميل إلى التهرب، والمصافحات كانت متخشبة – ألا يوجد عناق مبارك لرفيقٍ قديم؟ – وباردة برودة الأسماك، وكأن كفيّ بروكتر ملطختان بالقذارة أو أنها تستضيف فطرياتٍ يمكن رؤيتها عن بعد.

بعد تبادل التحيات، والإنهاك بادٍ على الجميع، اتخذت الـ «براتفا» مقاعدها أمام غوسفورد و سويت. أو، كما عرفتهما بروكتر في سالف الأيام: فين و ديبس.

بدا كلاهما كما هما تقريبًا، حسبما رأت بروكتر. كانا يبدوان بحالٍ جيدة، وكان ذلك مخيبًا للآمال. فـ فين و ديبس كانا من نوعية «الأعداء الأعزاء» الذين تتمنى، بعد مرور عقد من الزمان، أن يكونوا قد اكتسبوا وزنًا هائلًا، أو فقدوا شعرهم، أو ربما فقدوا طرفًا بسبب السكري أو النقرس أو تقلبات عدوى

غريبة ومؤلمة. كنت تود أن تتعثر بهذا النوع من الخصوم في حفل لم شمل لتجدهم يهوون نحو القاع – وربما تفصلهم ليلة واحدة عن الارتطام به، لتحظى بمتعة المشاهدة.

ولكن عند التدقيق، رأت بروكتر أن الأمر أسوأ. بدا كلاهما، بطريقة ما، أكثر سمرة وأقل تجاعيد. (بوتوكس؟ لابد أنه كذلك، أليس كذلك؟). تلك الجيوب التي حملوها يومًا تحت عيونهم أُودعت الآن لدى جانب الـ «براتفا» من الطاولة.

احتفظ غوسفورد بخوذة شعره الأسود الفحمي، واحتفظت ديبس بقصتها الجليدية التي تصل للكتف. قيمة ساعة غوسفورد ربما تفوق راتبه الحكومي الجديد. أما ديبس – التي كانت تتبختر بفستان ضيق بلون أبيض ناصع يصل لمنتصف الفخذ، ويبدو وكأن رداءً لعيناً متصلٌ بكتفيه – فقد بدت لـ بروكتر أكثر رشاقة، وكأن صديقتها القديمة قد أعلنت أخيرًا، خلال العقد الفائت، انتصارها على خمسة عشر رطلًا من شحوم «الغرب الأوسط». كانت هناك أسباب أعمق بكثير لكرههما، لكن هذه الأسباب كانت كل ما تحتاجه بروكتر حاليًا.

ثم ارتكب غاس، المسكين غاس، خطأ الاجتماع الأول – وإن لم يكن الوحيد بأي حال.

قال:

– «فين.. أهلًا بعودتك ومبارك المنصب».

صححه غوسفورد، وهو ينظر إلى غاس من خلف أصابع شبكها على طريقة أستاذ جامعي بغيض:

– «سيدي المدير».

شعرت بروكتر بعينيّ ديبس تثقبانها. نظرت للأعلى وحاولت الابتسام، ولدهشتها، حاولت ديبس الابتسام بالمثل. لكن شفاههما الملتوية كانت أقرب للتكشير منها للابتسام، كشخصين مصابين بالإمساك في مواجهة، وسرعان ما استسلمت بروكتر حين بدأ غوسفورد بالحديث.

قال:

– «أعلم أننا نتشارك تاريخًا سويًا. لكن من المهم أن تعاملوني – وتعاملوا ديبورا – كرؤسائكم. أنا المدير، و ديبورا هي نائب المدير للعمليات، وسيوحي الأمر بمحسوبية فجة إذا لم نحافظ على التراتبية المهنية».

لم يومئ أحد أو يبدِ أي اعتراف بهذا التصريح. ساور بروكتر شعور بأنه لو طُرح الخيار على الطاولة، لربما استقال اثنان منهم في الحال.

كسر غوسفورد الصمت وهو يميل للخلف وينفض ربطة عنقه:

– «ومع ذلك.. هذا.. جنون. دعونا نعترف بذلك، أليس كذلك؟ لنقلها بصوت عالٍ. جنون. لا توجد كلمة أخرى. كلنا معًا مرة أخرى. يا لصغر العالم، يا لصغر العالم. هل مرت فترة منذ أفغانستان؟ لابد من ذلك. أكثر من عقد. يا إلهي. حسنًا، سيكون لدينا وقت لنتجاذب أطراف الحديث لاحقًا».

هراء! فكرت بروكتر. والحمد لله على ذلك.

أكمل قائلًا:

– «لكنني أخشى أن جدولي مزدحم اليوم. والآن، إلى العمل».

قاد ماك و غاس الدفة، ساردين لـ غوسفورد و ديبس الحقائق كما توفرت لديهم حول الموت الغامض في موسكو. وحين انتهيا، كان دور بروكتر لتغطية ملف سنغافورة. «إنها عمليتك يا أرتميس»، قالها غاس بنبرة رجل يلقي بجمرة ملتهبة، «يجب أن تتولي ذلك».

انحدر الإيجاز من التكلف إلى السوء، ومن السوء إلى الأسوأ. تحديدًا حين أوضح ماك ردًا على سؤال من ديبس حول مدى يقينهم من موت العميل بوكانير – «واثقون جدًا، يا سيدتي»، قالها مختنقًا بكلمة «سيدتي» متأخرًا – تحول غوسفورد إلى الغضب، وهو نمط يحاكي سلوكه حين أدار «مركز مكافحة الإرهاب» قبل عقد من الزمان. حينها، كان ينسب لنفسه فضل عمليات لم يلعب فيها سوى دور ثانوي، ويجرف كل المشاكل نحو ديبس، وأحيانًا يفقد صوابه ويصب جام غضبه على مرؤوسيه لأسباب تافهة، وكثير منها – إن لم

يكن جلّها – محض خيال. كان فين غوسفورد سياسيًا، وهي كلمة تخثرت في أذني بروكتر كافتراءٍ دنيء.

قال غوسفورد:

– «يا للهول.. وكم عدد الأصول المتبقية؟».

وجه ماك نظره للسقف، يحسب الأرقام:

– «مخبران داخليان آخران، وثلاثة في الخارج، وربما نصف دزينة من الحالات "المجمدة"، غير نشطة لعام على الأقل».

سأل غوسفورد:

– «وهل كان بوكانير هذا أفضلهم؟».

ردت بروكتر:

– «بمراحل».

نظر إليها غوسفورد بصدمة لأنها تجرأت على التحدث.

تابعت:

– «قبل أن يرسلوه إلى أثينا، كان أرفع مصادرنا رتبة داخل الاستخبارات الخارجية الروسية SVR».

قالت ديبس وهي تقلب كومة من الأوراق:

– «أتذكر ذلك المصدر من وثائق إيجاز الأسبوع الماضي. تعلمون أن قضية سنغافورة هذه التي سنناقشها بعد لحظة تعيد للأذهان ما أخبرنا به العميل "ريمورا ريمورا" قبل ثلاثة أيام. أليس كذلك؟».

نباح غوسفورد قاطعها:

– «توقفي عندك.. توقفي.. توقفي. من هو "ريمورا"؟».

لقد كان يقاتل، ولطالما قاتل، ليرسي دعائم المحادثات التي تجنح بعيدًا عن متناوله في الحال. ولم يكن يمانع كثيرًا إن انقلب القارب أثناء تلك العملية.

قال ثيو، ووجهه يتقع:

– «أحد ملفاتي. عقيد، نائب رئيس القسم الخامس[4] في الاستخبارات الخارجية الروسية SVR. رجالهم في أوروبا».

قالت ديبس وهي تتصفح المزيد من أوراقها:

– «التقينا به قبل بضعة أيام».

وضعت نظارة بإطار أصفر خردلي على وجهها حين وصلت للورقة المنشودة. بللت إبهامها وقلبت الصفحة.

قالت ووجهها لا يزال مدفوناً في التقرير:

– «قدم ريمورا معلومات مبهمة حول تهديدات ضد الأمريكيين في آسيا. لم تكن..» – وهنا تنحنحت ديبس وأمالت رأسها نحو غوسفورد – «..معلومات تستوجب التحرك».

نظرة من ديبس بدت كافية لإقناع غوسفورد بأن خط الاستجواب هذا يجب أن ينتهي هنا.

فقال:

– «سمعت أن لدينا مشكلة في سنغافورة».

زحزحت ديبس النظارة عن وجهها وأشارت بها نحو بروكتر.

– «هي ستضعك في الصورة».

وها أنا ذا.. تحت عجلات الحافلة اللعينة، فكرت بروكتر وهي تنظر للأعلى. توقيت مناسب.

بدأت ببضع دقائق من التمهيد، وكيف أن شخصاً من داخل الكرملين يدعى غوليكوف، وعبر وسيط، مرر رسالة إلى محطة موسكو. كان في جولة بشرق آسيا، ضمن وفد تجاري روسي يمشط المنطقة بحثاً عن شركاء للمساعدة في كسر العقوبات، وبما أننا نعلم أنه مقامر فاسد، فـ...

قاطعها غوسفورد:

---

[4] القسم الخامس: وحدة تابعة لجهاز الأمن الفيدرالي (*FSB*) تعمل كجهاز استخبارات خارجي موازٍ لجهاز (*SVR*)، وتختص بالعمليات في دول الاتحاد السوفيتي السابق في أوروبا وآسيا (الجوار القريب).

– «سمعت أنكِ أرسلتِ ضابطًا يعمل في المقر الرئيسي. لمَ لمْ تستخدمي شخصًا محليًا؟».

– «لم أرغب بالمجازفة بحرق ورقة أحد في المحطة، ولم أرد إشراك السنغافوريين؛ فهم مخترقون ويسربون الأخبار كالمجانين، وغالبًا ما تجد "الهدايا الثمينة" طريقها إلى بكين، و...».

قالت ديبس:

– «بدلًا من ذلك رأيتِ أنه من الأسلم استخدام ضابط موصوم بالعار للتعامل مع اللقاء. ضابط لديه مشكلة قمار. و "بوف"، اختفى. ومعه أكثر من مائة ألف دولار من أموال دافعي الضرائب، ناهيك عن رأس محشو بأعمق أسرارنا».

ردت بروكتر:

– «مهلًا.. مهلًا. سام هو، أو كان، لاعب بوكر محترفًا. وليس مدمن قمار. كان لديه غطاء ناصع للسفر إلى سنغافورة وذريعة مغرية للتسلل بجوار غوليكوف على الطاولات. وهذا ما حدث، ثم...».

انقضت ديبس مجددًا:

– «هل انشق؟ هل هو في نوبة سكر؟ فورة قمار؟ ماذا؟».

الحقيقة هي أنه لا جدوى من مجادلتهم. يا إلهي، كانت تعلم أن لديهم أسبابهم، خاصة ديبس. بروكتر كانت تستحق بعض العذاب لما فعلته بتلك المرأة المسكينة في أفغانستان، لكن الآن أصبحت القدم في الحذاء الآخر، حذاء عسكري ضخم وعصري بلا شك، ويصلح للسحق والدعس. كانوا يكرهونها، ببساطة ووضوح. وربما يكرهون الآخرين أيضًا، وإن كان بحماسة أقل بكثير. غوسفورد و ديبس كانا سياسيين، و بروكتر كانت كابوس السياسي: متطرفة ذات كفاءة، محصنة ضد الهراء، ترفض الركوع، حتى عندما يكون ذلك منطقيًا تمامًا. الثلاثة الآخرون من الـ «براتفا» سيلعقون بعض الأحذية إذا لزم الأمر، ورغم أن ذائقتها كانت متنوعة، إلا أنها لم تكن تملك المعدة لذلك بعد. الكثير

من الناس كرهوا أرتميس أفروديت بروكتر، واعتبرت كراهية كل واحد منهم نقطة لصالحها.

قالت بروكتر مقتضبة:

– «إنه مفقود. في الوقت الراهن لا نعرف أي شيء آخر».

قالت ديبس:

– «لنلخص الأمر، خياران. الأول: أنكِ قدتِ ضابطًا موصومًا، مدمنًا للقمار، إلى فخ روسي. الثاني: أنه هرب بثروة صغيرة من دولارات دافعي الضرائب، ومن المرجح أنه الآن على الطاولات يبددها».

قال ماك:

– «أحداث موسكو.. وموت بوكانير، تشير إلى الخيار الأول. فخ».

اشرأبت الرؤوس أو التفتت حين انفتح الباب وظهرت امرأة. إنها بيترا ديفاين، رئيسة ما يُسمى تقنيًا «وحدة التحقيقات الخاصة»، والمعروفة شعبيًا باسم «عيادة الجلدية[5]»: صائدو الجواسيس في الـ CIA.

وكما هو الحال دائمًا وفي كل مكان، كان كبير صائدي الجواسيس في أي جهاز تجسس امرأة عجوزًا. في حالتنا هذه، امرأة ترتدي فستانًا فوضويًا يصل للأرض تعلوه سترة رمادية غريبة، ونظارات بعدسات سميكة كقعر زجاجة الكولا، وعش طيور من الشعر الرمادي المجعد، ولغدًا يتدلى كديك رومي. هالة «سيدة الكنيسة» الباردة كالحجر. رغم أنه في حالة بيترا، لم يكن ذاك اللغد بحاجة للاهتزاز طويلًا قبل أن تدرك أنها لن تعزف على الأرغن أو تدير مأدبة خيرية.

عادةً ما تكون «كبيرة أطباء الجلدية» امرأة ذات ولاء لا غبار عليه، وعقود من الخدمة، وصفر ذكاء سياسي. يبني «أطباء الجلدية» مصفوفات معقدة لتتبع الشذوذ في التقارير الاستخباراتية، بحثًا عن قاسم مشترك أو دليل خفي

---

[5] متجر الجلدية (*The Dermatology Shop*): لقب وحدة التحقيقات الخاصة (*SIU*) في الوكالة، وهي الجهة المسؤولة عن "صيد الجواسيس" (*Mole Hunting*) وكشف الخونة والاختراقات الأمنية داخل صفوف الـ *CIA* نفسها.

لخسارة غامضة. رأت بروكتر مصفوفة بيترا: خريطة معقدة لطريق يؤدي إلى لا شيء.

راقبت بروكتر شفة ديبس تلتوي بينما كانت بيترا تجر قدميها للداخل وتتخذ مقعدًا.

قالت ديبس:

– «ظننت أننا حذفناكِ من قائمة المدعوين لهذا الاجتماع».

تفحصت المرأة ديبس للحظة، ثم قالت بجفاء:

– «أوه؟ ولماذا قد تفعلين شيئًا كهذا؟».

أغلق غوسفورد عينًا واحدة ليحدق في بيترا، وكأنها ربما من نوع المخلوقات التي يُفضل رؤيتها عبر منظار – تلسكوب، ميكروسكوب، أو منظار بندقية، اختر ما شئت – وظنت بروكتر للحظة أنه سيجبرها على الاعتذار، كما لبفعل مع غاس في بداية الاجتماع. تمنى جزء منها أن يفعل، لأن ذلك سيشعل الاجتماع نوويًا، مشهدًا حقيقيًا، وستطغى سحابة فطر انفجاره على الشجار بينها وبين ديبس. بدلًا من ذلك، فتح غوسفورد عينه الأخرى، ورمش.

وقال:

– «إنها بخير يا ديبورا».

غمغمت بيترا بشيء ما، مبتسمة لحذائها الأسود الضخم بينما جلست في المقعد الفارغ بجوار بروكتر. التقطت بروكتر رائحة فريدة تنبعث من ملابسها: وبر الكلاب.

قالت بيترا:

– «كنتم تتحدثون عن الفخاخ. وهذا على الأرجح ما حدث. لأن الأمور لا تسير هكذا أبدًا، ليس بشكل طبيعي. بالتأكيد، الأمور تتعقد وتفوح رائحتها في هذه المهنة، بصدق وبكثرة. كلنا نعلم ذلك. لكن لدينا مشاكل كثيرة جدًا في آن واحد. استدعاء معقد لـ بوكانير من أثينا، ثم سقوطه ميتًا بعد أيام قليلة من عودته غير المجيدة لروسيا. وفي نفس اليوم، صبيّكِ سام» – أمسكت بكتف بروكتر بقبضة تشبه قبضة حيوان الغرير – «يختفي دون إذن في سنغافورة

بعد محاولة عقيمة لاستنطاق روسي يحمل أخبارًا بالغة الأهمية للـ CIA. المهنة لا تسير بهذا الشكل. وبما أنكم جميعًا تراوغون بالرقص حول الحقيقة الواضحة، دعوني أصيغها لكم: لدينا مشكلة كبيرة».

آمين، فكرت بروكتر.

انفعلت ديبس:

– «لا أحد يملك دليلًا على ذلك. هناك تفسيرات أخرى؛ خرق في الاتصالات، أخطاء في المهارات الميدانية، حظ عاثر».

متجاهلًا ديبس، رمق غوسفورد بيترا بنظرة جليدية.

– «وماذا تقترحين أن نفعل حيال هذه المشكلة؟».

– «ألقِ نظرة فاحصة وشديدة على الأمور يا سيدي».

نطقت بلقب «سيدي» وكأنها ركلة في الساق.

أردفت:

– «أجرِ تحقيقًا كاملًا وسليمًا لتحديد موقع الخرق».

قال غوسفورد:

– «تريدين "صيد ساحرات"؟ محاكمات استعراضية؟ هل أسمع هذا بشكل صحيح؟».

سند ذقنه على يده ليحدق في بيترا.

– «أقلب المكان رأسًا على عقب في أسبوعي الأول بالمنصب؟ على أي أساس؟ كلنا نعرف مدى فظاعة تلك الأمور. سيحدث ذعر، وتسريبات، وفي النهاية لن نجد شيئًا على الأرجح. مجرد إحراق للمكان لمشاهدة النار».

قالت بيترا:

– «لا يمكنك أن تعرف أنك لن تجد شيئًا حتى تبحث. وأنا أخبرك، أعتقد أن لدينا مشكلة».

قالت ديبس:

– «يا ربّاه.. كفى من هذه الأوهام السوداوية».

تشتت انتباه غوسفورد. تفحص البطاقة الصغيرة التي تحمل جدوله اليومي، وتجهم، ناظرًا للبطاقة أولًا، ثم صوب بروكتر.

قال:

– «علينا إيقاف هذا الاجتماع هنا. اعثروا على ضابط الحالة. أبقوا مكتب نائب المدير للعمليات مطلعًا على أي مستجدات. هذا كل شيء. انصراف».

لم يسبق لـ بروكتر أن حضرت اجتماعًا ـ في الـ CIA يختتم بكلمة انصراف رسمية: كادت أن تسجل ضحكتها الثانية ـ في ذلك الصباح الكئيب.

خرجوا يجرجرون أقدامهم من المكتب، ربما بنفس المظهر الذي بدت عليه المجموعة التي سبقتهم، كما فكرت بروكتر، وكأن غوسفورد قد أنزل سرواله أو أمرهم بالصعود فوق حافة خندق.

كانت بيترا تغمغم لـ بروكتر:

– «مشاكل كبيرة.. لدينا مشكلة لعينة كبيرة داخل هذه الجدران».

الفصل الخامس

موسكو

جمع ريم زوموف بين الهاتف في يد، وحفنة من الأقراص في اليد الأخرى. كان صنبور الحمام مشغولًا بملء كأسه. استمع إلى التقرير للحظات حتى قال الصوت على الطرف الآخر، وقد أفزعه الصمت:

– «هل ما زلت هناك يا ريم ميخائيلوفيتش؟».

أغلق ريم الماء.

– «أجل.. أكمل».

وفي أثناء ذلك، قام ريم – الذي كان يرتدي رداء الحمام في هذه الساعة – بصفع الأقراص من يده لتستقر على سطح المنضدة، ثم شرع في فرزها إلى كومتين: على اليسار، تلك التي تصيبه بالنعاس؛ وعلى اليمين، تلك التي لا تفعل.

إلى اليسار: القرص البرتقالي للنوم، والأصفر لظهره، والبني ذو الرائحة الكريهة لضغط دمه. كُنست هذه الأقراص من على المنضدة لتعود إلى العلبة البلاستيكية ذات المقصورات المخصصة لكل يوم من أيام الأسبوع. وبينما كان يوازن الهاتف بين أذنه وتشنج عنقه، ابتلع الملّين الوردي للبواسير، والقرص الأخضر لالتهاب المفاصل، والأخضر الأفتح للغدة الدرقية، والقرص الأحمر الصغير ثماني الأضلاع، زكي الرائحة، للكوليسترول.

اختتم العقيد تقريره بالتزامن مع ابتلاع الملين: ساد الصمت الخط الهاتفي، ولم يقطعه سوى أصوات غرغرة ريم وابتلاعه، مختتمًا بقرقعة كأسه على الرخام.

قال ريم:

– «أريد سائقًا أمام شقتي خلال عشر دقائق».

أنهى المكالمة وتوجه إلى غرفة النوم. رفعت نينيل نظرها عن كتابها وهي في الفراش.

سألت:

– «ستخرج؟».

– «أجل».

– «تبدو غاضبًا».

– «أنا كذلك فعلًا».

أطبقت الكتاب بعنف، وأزاحت الأغطية.

– «سأختار لك بدلة».

***

راقب المدينة المظلمة تطفو عابرةً خلف نوافذ سيارته. البدلة شديدة السواد التي اختارتها نينيل تماهت مع سماء الليل، ومع طلاء السيارة، وجلد مقاعدها. كان مموهًا: بيروقراطي بلا ملامح ينزلق في ليل موسكو.

كانت البدلة قديمة، اشتراها من روما حين كان «مدير المحطة» هناك. كانت ذات حياكة متقنة، ولا تزال تعانق جسده بشكل جيد. منذ تلك الجولة، أضاف ريم إلى حياته عتامة عدسة العين، والتهاب المفاصل، و– بفضل والده – ضغط دم مرتفع وراثيًا، لكنه لم يزد رطلًا واحدًا في وزنه.

توقفت السيارة تحت ضوء مصباح الشارع. لمح غبارًا على حذائه، فانحنى بحذر ليمسحه. كانت نينيل قد اختارت الحذاء أيضًا، لكنه لم يرتده منذ زمن بعيد، ونسيت هي تلميعه في خضم العجلة. لم يكن باليد حيلة. نينيل ترى الصورة الكبيرة، أما ريم فيرى كل ما عدا ذلك.

والشيء الوحيد الذي كان ريم يراه الآن هو الخطر الذي يحدق بأهم أصوله الأمريكية، المعروف داخل «الغابة[6]» باسم الدكتور «ب»؛ وكان هذا هو السبب الذي جعل المدير، في الأسبوع الماضي، يسمح لـ ريم بالبقاء في الخدمة متجاوزًا سن التقاعد الإلزامي.

قرأ ريم الملاحظات العملياتية من اجتماع ذلك الأسبوع مع الدكتور «ب» ما لا يقل عن عشر مرات. لقد استجوب ضابط الحالة المسؤول عنه بخصوص لغة جسد الدكتور «ب»، ونبرة صوته، و «نحو ملامح وجهه»: كل تفصيل منها كان لوحًا في البنيان العاطفي لأثمن اختراق حققه جهاز الاستخبارات الخارجية الروسية SVR داخل الـ CIA – على الإطلاق.

الخلاصة: كان الدكتور «ب» متوترًا وقلقًا، وبدا هذا واضحًا حتى من الملاحظات المكتوبة، لكنه لم يكن مذعورًا. كان الدكتور «ب» أربط جأشًا من أن يذعر، رغم أن العميل كان قلقًا – ومحقًا في ذلك، تمامًا كـ ريم – من أن دراما هذا الأسبوع قد تعرض مهمتهما المشتركة للخطر. شعر ريم بقدر من الفخر لأن الفوضى لم توقف إنتاجية الدكتور «ب». فقد تمكن من مشاركة كومة من تقارير الدكتور «ب» مع المدير هذا الصباح، بما في ذلك بضع قطع تحليلية من الـ CIA ومحاضر مداولات مجلس الأمن القومي الأمريكي حول روسيا. أما «الغنيمة» الصينية المطلوبة، فقد وعد الدكتور «ب» بأنها ستأتي تاليًا، ربما بحلول الخريف.

لقد اتُخذت مخاطر جسيمة في ذلك الأسبوع بالذات لحماية الدكتور «ب»، وخشى ريم – لا، بل كان يعلم – أن المزيد منها سيكون ضروريًا في الأسابيع والأشهر القادمة. لكن هذا حديث لوقت لاحق. الليلة، لدى ريم عمل لينجزه. عليه إجراء تقييم للأضرار. ولديه تسريبات يجب سدها. وسرعان ما أصبحت موسكو شريطًا برتقاليًا من الضوء خلف سيارته. كان ريم سعيدًا لأنه لم يتناول الأقراص الأخرى؛ فهو منهك بما يكفي بالفعل.

---

[6] **الغابة:** (*The Forest*) اللقب الدارج لمقر قيادة جهاز الاستخبارات الخارجية الروسية (*SVR*) في منطقة "ياسينيفو" بموسكو، نسبةً لموقعه المنعزل والمخفي وسط الأحراش الكثيفة.

***

في أزمنة أكثر سعادة، كان دير القديسة كاثرين ديرًا للراهبات. كان الدير مطليًا بلون أصفر عباد الشمس الذي يتوهج بغرابة في الظلام، وتتقدم مبانيه صفوف من الأعمدة البيضاء. اختار ريم الدير لأنه لا يتطلب الكثير من أعمال المرافق الدنيوية التي تصاحب عادةً إنشاء سجن غير رسمي. الجزء الأصعب، في النهاية، كان نقل الراهبات، اللواتي خضن قتالًا شرسًا لم يكن ليتخيل صدوره من نصف دزينة من السيدات في السبعينيات من العمر. في النهاية، رُفع الأمر إلى المدير، الذي اتصل برئيس الإدارة الرئاسية، والذي لا شك أنه لوح ببعض المال أمام البطريرك. فُرقّت الراهبات إلى دير بالقرب من نيجني، وأصبحت كنيستهن القديمة غرفة احتجاز لصندوق مجهز خصيصًا. أما القبو الحجري الكئيب فقد جُهّز كغرفة استجواب. رغم أن ريم لم يحب تلك الكلمة. كان يؤمن بأنها مجرد «محادثات»، حتى وإن كان الطرف الآخر مقلوبًا رأسًا على عقب أحيانًا، معلقًا من ذراعيه حتى يفقد الوعي، أو محبوسًا لفترة في عالم يشبه الحلم من الضوء والضجيج الدائمين.

من موقع ريم، بدا فم صامويل جوزيف ملتويًا في ابتسامة مرحة، لكن ذلك لم يكن سوى تشوه بصري: فقد كان مقلوبًا رأسًا على عقب، وقدماه معلقتين في العوارض الخشبية. وقف محقق بجانبه. للحظة، راقب ريم جسد صامويل يتدلى متأرجحًا من جانب لآخر، بينما كانت مكنسة شعره تكنس الأرضية الحجرية برفق.

نُقل الأمريكي من سنغافورة عبر مسار رحلة «مقطرة بالكيتامين» شملت شاحنات، وحاويات شحن، وطائرات نقل عسكرية، ومروحيات. كان في دير القديسة كاثرين منذ ساعتين فقط. قضى معظمهما مقلوبًا رأسًا على عقب، لزحزحة ما بداخله قليلًا تمهيدًا للبدء.

أمر ريم المحقق:

– «أنزلوه».

جلسا إلى طاولة خشبية ملطخة ببقع زيتية. هنا، فكر ريم، لا بد أن الراهبات كنّ يعدن طعامهن. كان صامويل يرتدي بدلة سجن رمادية فضفاضة. عيناه محاطتان بحمرة وجائرتان بفعل حقن الكيتامين أثناء النقل، ووجنتاه محتقنتان بالدم من وضعية التعليق المقلوب. طلب ريم الشاي، وشرباه في صمت. لم يلتقِ صامويل بعينيه. حين أنهى ريم شايه، بسط راحتيه على الطاولة وعدل جلسته على الكرسي بوجل. اللعنة على البواسير.

قال ريم:

– «لقد قابلت بوريس غوليكوف في سنغافورة».

– «قابلت رجلًا يدعى بوريس. لفترة وجيزة. على الطاولات. حديث عابر. لم أعرف اسمه حتى اختطفني رجالك. هذا الاحتجاز غير قانوني. هذا...».

قاطعه ريم:

– «ماذا أخبرك؟».

– «احتجازي هنا غير قانوني».

– «لقد قلت ذلك بالفعل. ماذا أخبرك؟ ماذا أعطاك؟».

– «سألني عن الويسكي الخاص بي».

– «ماذا كنت تشرب؟».

– «ماكالان».

– «كم عمره؟».

– «لا أعرف».

– «أي نوع من الرجال هذا الذي لا يعرف عمر الويسكي الخاص به؟».

– «عشر سنوات».

– «ماذا كان يشرب غوليكوف؟».

– «سبرينغ بانك. هذا ما كنا نتحدث عنه. هذا كل ما تحدثنا عنه».

– «ماذا مرر إليك؟».

– «أخبرتك. لا شيء».

– «لماذا كان بحوزتك مائة ألف دولار نقدًا في غرفة فندقك؟».

– «إنه كازينو».

– «ألم تحول المال إلى حساب في الكازينو؟».

– «أفضل النقد. أشعره حقيقيًا».

– «أنت ضابط في الـ CIA».

– «لست كذلك. أنا موظف في السلك الخارجي».

ضحك ريم.

– «آه. نعم. لكنك كنت تحمل جواز سفر سياحي في سنغافورة».

– «كما قلت، كنت في سنغافورة للمقامرة. لا للعمل».

– «رحلة طويلة من أجل الورق. لاس فيغاس تبعد، كم، ثلاث ساعات طيران عن واشنطن؟».

– «أحب زيارة أماكن جديدة».

توقف ريم للحظة وهو يتأمل الرجل الماثل أمامه.

– «كيف حال أرتميس أفروديت بروكتر هذه الأيام؟».

– «من؟».

قال ريم:

– «لا تعرفها؟ يا للأسف.. إنها تحفة. جوهرة جهازكم البائس».

مال ريم بجسده للأمام في الكرسي.

– «فهمت من ملفاتنا أنك خضعت للاستجواب في سوريا، ولو لفترة وجيزة. انظر، نحن من درب أجهزة الأمن السورية، لذا ربما تظن أنك ستقاوم ما سنخضعك له. لكنك لا تستطيع. وإليك السبب: لا توجد ساعة هنا. يمكننا احتجازك للأبد. لا أحد قادم. هم لا يعرفون أين أنت، ولا من أخذك. أوه، بالطبع هم يشكون في الأمر، لكن لا يمكنهم إثباته، ولا يوجد أثر يقود من سنغافورة إلى روسيا. لذا، سنحتجزك هنا، مهما استغرق الأمر من وقت، حتى تعطينا ما نريد. أخبرني لماذا كنت في سنغافورة وماذا قال لك بوريس، وسأقوم شخصيًا بتوصيلك إلى السفارة الأمريكية. يمكن أن يحدث ذلك الليلة. يمكن أن يحدث في هذه اللحظة. عليك فقط أن تخبرني. نحن لسنا

وحوشًا. وأنت تعلم كيف نعمل. أفلام الجاسوسية تصورنا نحن الروس ونحن نقتلع الأظافر ونصعق الكلى والخصيتين بالكهرباء ونضربك حتى تفقد الإحساس بأنابيب الرصاص وربما نضع رصاصة في عنقك لزيادة التأكيد. وكأننا المافيا الأمريكية. وهل تعلم ماذا؟ بعد بضعة أسابيع مما سنخضعك له، ستتوسل إليّ من أجل تجربة الصعق بالكهرباء النظيفة نسبيًا، أو بعض الجروح الخفيفة. ستتضرع للحصول على ضربٍ بأنبوب. لأنك، ما لم تتعاون، ستسافر إلى غابة أكثر ظلمة وشؤمًا بكثير. لن تسمع شيئًا، أو سيكون الصوت صاخبًا جدًا لدرجة أنك لن تسمع سواه. لن يكون هناك ضوء، أو سيكون ساطعًا لدرجة تعميك عن الرؤية. ستكون وحيدًا، وحيدًا جدًا، وحين لا تكون كذلك ستتمنى لو كنت. ستفقد كل إحساس بالمكان والزمان والرضا والحقيقة والجمال. ستتوسل ليجرحك أحدهم، فقط لتشعر بشيء ما».

وقف ريم وأمسك بظهر الكرسي.

– «حسنًا، كان ذلك كثيرًا. وسوداويًا للغاية. يا صامويل، أنا من المديرية الرئيسية الأولى سابقًا. فنان، ولست سفاحًا. يجب أن أقول إنني لا أحب هذا الجزء من العمل، لكن لدي أسبابي، رغم كل ما في هذا من بغض. لذا: انطقها. غوليكوف. ماذا قال لك؟».

– «أخبرني أنه كان يشرب سبرينغ بانك».

نظر ريم إلى الكاميرا فوق الباب.

– «انتهينا الآن. ضعوه في الصندوق».

***

كان صندوق سام عالمًا ساكنًا بجنون من الضوء المعمي والظلام المطبق، الصمت المتجمد والضجيج الهادر. كانت هناك ستة أضواء مثبتة في السقف، خلف بلاستيك سميك. بسكويتات، وخبز، وقطع من السمك المخلل تصل عشوائيًا على طبق مطاطي، موضوع على صينية مطاطية تحمل كوبًا مطاطيًا مملوءًا بالماء. مرحاض دلو مطاطي يقبع في إحدى الزوايا. لم يفض

أبدًا ومع ذلك لم يستطع تذكر أن أحدًا أفرغه قط. كان يرتدي بدلة سجن رمادية يتدلى من ساقيها ثمانية عشر خيطًا مهترئًا. لقد عدّها عشرات المرات.

داخل الصندوق، لم يتمكن من الوقوف بشكل كامل. لكنه استطاع الاستلقاء. واستطاع الجلوس مسندًا ظهره للجدار. كان صندوقه مربعًا: عشر خطوات ونصف، من الكعب إلى إصبع القدم، تأخذك من جانب إلى آخر. الجوانب كانت مكسوة بقماش سميك. لا توجد مسامير أو براشيم ظاهرة. حين تضاء الأنوار، كان بوسعه تمييز نجوم حمراء صغيرة مطبوعة على القماش.

ذات مرة، في الزاوية العلوية للصندوق على يمين الباب، رصد قطعة قماش مهترئة. حين شدها، انفتح الباب وأمروه بالتوقف. لم يتحدث إلى بشر منذ وقت طويل جدًا لدرجة أنه استمر في الشد فقط – كان يأمل في شجار، في دردشة، في أي شيء، كما قال ذلك العجوز، شخص يجعله يشعر بشيء ما – فاقتحم رجلان الباب. حقنوا كتفه، وحين استيقظ كان القماش قد أُصلح. ذاكرته، ووجوده، اختزلا في الصندوق وتلك الليلة في سنغافورة. وصل إلى قناعة بأنه لم تكن له حياة قبل هذا. الـ CIA لم تعد موجودة. ولا بروكتر. ولا ناتالي. الحياة كانت عملية فاشلة في سنغافورة وهذه الزنزانة، التي افترض أنها في روسيا لكنه بالطبع لم يكن ليعرف. أحيانًا كان يتساءل عما إذا كان صندوقه في غرفة أسفل الرواق في فندق «ساندن».

كانوا يعرفون من هو، بالطبع. لقد تقاطعت طرقه مع الأجهزة الروسية في سوريا، قبل سنوات، كما قال العجوز. فهموا أنه من الـ CIA. لكن أن يبقوه هكذا؟ المخرج الوحيد هو كتمان الشيء الوحيد الذي أرادوه. إذا أخبرهم بما شاركه غوليكوف، فلن يطلقوا سراحه أبدًا. قد لا يطلقونه في كل الأحوال، لكن بمجرد أن يخبر ذلك العجوز بما قاله غوليكوف، فلن يسمحوا له بالمغادرة أبدًا، ولا حتى في صندوق. الطريق الوحيد للوطن هو إبقاء الأمر عميقًا في الداخل.

حين يصل البسكويت، يغوص سام في قصر ذاكرة غرفة طفولته، جاثيًا ليسحب الصناديق الملونة من تحت سريره، فاتحًا إياها ليكشف كلمات غوليكوف، كل كلمة بترتيبها الدقيق، كما نُطقت في تلك اللحظة الخاطفة على الطاولة.

كان ينطق بالحقيقة صامتًا لقطعة البسكويت. يأكلها، ثم يبدأ في عد النجوم الحمراء الصغيرة.

الفصل السادس

لانغلي

كان التعذيب البيروقراطي الذي تعرضت له أرتميس بروكتر مبرحًا، ومُدارًا – حتى النهاية – من مسافة آمنة ومحسوبة، تجنبًا لأي فوضى. كانت أول طعنة سكين هي استبعاد بروكتر رسميًا، ودون إبداء أسباب، من إيجازات المدير حول روسيا. وتلتها الخطوة التالية بتقليص طاقم «موسكو إكس» الخاص بها إلى مجرد هياكل عظمية. كان لدى بروكتر فريق من المحللين والتقنيين حشدتهم لمشاريع خاصة، فاستولى «الطابق السابع» عليهم، وجاء البريد الإلكتروني الملطف الذي تلقته ليشرح أن من الضروري مركزة «موارد المؤسسة» تلك داخل المديرية. في يوم الإثنين كانوا جميعًا يجلسون في مكاتب «موسكو إكس»، وبحلول موعد غداء الثلاثاء، كانت تلك الحظائر والمقصورات قد جُردت حتى آخر دباسة.

لم يكن موعد خضوع بروكتر لجهاز كشف الكذب قد حان قبل عام آخر، لكن الأمن أجبرها على الخضوع لواحد على أية حال، وقرنه بتحقيق خلفية مضنٍ تضمن الاتصال بالأصدقاء والأقارب والجيران. حاولت هي أن تحافظ على ظهور منخفض؛ والآن أصبح لديها متطفلون حكوميون يتسللون حول الحي السكني يسألون عما إذا كانت أرتميس بروكتر تقيم حفلات صاخبة أو تشم الكوكايين في فنائها الخلفي. لم يقلقها التحقيق – فليس لديها ما تخفيه – لكنها كانت هائجة بشدة، وذلك، حسنًا، كان هو الهدف بالضبط. بحلول أواخر الربيع، استُحضرت أربع وعشرون شكوى لـ «تكافؤ الفرص في التوظيف» (EEO) من ضباب مسيرتها الطويلة، ركزت جميعها على ما اعتبره الرئيس

أسلوبها الإداري المتفرد – والفعال بوحشية – والذي وُصف في الشكاوى بأنه «سلوك يخلق بيئة عمل ترهيبية، أو عدائية، أو مسيئة للأشخاص العقلانيين».

كانت بروكتر مرشحة للترقية إلى «الخدمة الاستخباراتية العليا» (SIS)، لكن بعد شكاوى تكافؤ الفرص وتحقيقات الخلفية، سُحب ملفها من التداول. وفي لفتة خبيثة نوعًا ما، أشارت المذكرة الرسمية التي توضح قرار اللجنة إلى محاولة ابتزاز روسية قبل بضع سنوات انتهت باعتداء بروكتر دون مراسم على الضابط الذي قدم العرض، وذلك بعد أن أراها مجموعة من الصور العارية التي التُقطت لها وهي مخدرة. وصفت المذكرة ذلك بأنه «هفوة مهنية»، وأضافت: «واحدة في سلسلة طويلة أدت إلى التخطيط العملياتي الحالي لـ سنغافورة». ورغم أن اسم صديقتها القديمة ومنصبها لم يرتبطا بعد بهذا التعذيب، إلا أن بروكتر رأت يد ديبس في كل ذلك. هنا، وبعد أكثر من عقد، كان انتقام ديبورا سويت.

ومن بين كل الإهانات التي عانت منها في تلك الأشهر، ربما كانت انتهاكات مكتبها هي الأكثر إثارة للغيظ. نُقل متجر «موسكو إكس» المنهوب والمتقشف إلى الطابق الأرضي – القبو – في مواجهة آلة الـ «هوت دوغ» مباشرة. ثم قام الأمن بزيارة مفاجئة وحرر لها مخالفة لخرق لائحة الوكالة رقم 32–498 (القواعد والعمليات المتعلقة بحيازة وتخزين الأسلحة في ممتلكات الوكالة).

قالت للرجل:

– «إنه مجرد مضرب بيسبول.. وانظر، إنه للزينة».

الحقيقة هي أن المضرب، الموقع من قبل كل عضو في فريق «كليفلاند إنديانز» لعام 1997 في السلسلة العالمية، قد استُخدم كسلاح، لكن ليس مؤخرًا، ولا داخل المقر الرئيسي.

سألته:

– «ما مشكلتكم مع كليفلاند؟».

ولم تتلق ردًا قط. صادر ضباط الأمن المضرب ببساطة، وذهب إشعار المخالفة إلى ملف بروكتر، الذي كان يزداد سمكًا بسرعة خلال تلك الأشهر الكئيبة.

سرعان ما تنوعت أدوات التعذيب، متفرعة من الآليات الرسمية للوكالة إلى أشكال غير رسمية من التسلية. كل صباح، وحين تشعل بروكتر الأضواء، كانت تجد نماذج إعلانية مكدسة بعناية على كرسيها لفرص عمل في أماكن أخرى: «ماكدونالدز»، بوفيه «سيسيز بيتزا»، عيادة لأمراض المستقيم في شمال فيرجينيا، وجميع أنواع نوادي التعري، و«غولدمان ساكس»، ومنشور من موقع «كريغزلست» في قسم «لقاءات عابرة» يطلب شخصًا خاضعًا، وشركة «باين آند كومباني».

خلال الأسبوع الأول من يونيو، بدأت صور قذرة بالظهور حول مكتبها: مخبأة في كوب قهوة، في درج مكتب، محشورة في ملفات. كان الزوار نادرين في تلك الأيام القاتمة، مقتصرين غالبًا على ضيف عابر بعد جولة لشراء الـ «هوت دوغ»، ولكن خلال اجتماع نادر، امتقع لون وجه أحد الرجال ووضع شطيرته جانبًا تمامًا. استدارت بروكتر لترى إحدى الصور جاثمة فوق رف كتبها الفارغ. همّت بتوضيح أنه مقلب دبره أصدقاؤها – إنها ليست لي، أقسم بذلك – لكنها لم تستطع سوى الضحك. أضف إلى ذلك أن ديبس لم تعد صديقتها أصلًا. ماذا عساها أن تفعل؟ انتشر الخبر، وحرر الأمن لها مخالفة لذلك أيضًا؛ خرق للائحة الوكالة رقم 16–210 (المواد المحظورة في مباني الوكالة وأنظمة المعلومات، مثل الكحول، التبغ، المخدرات غير القانونية، المحتوى الإباحي، إلخ).

كان من حق غوسفورد تمامًا أن يطردها، أو يخرجها بلطف مع تربيتة على الظهر، أو يرسلها في مهمة تافهة وعبثية بعيدًا عن المقر الرئيسي – وهو ما يحدث طوال الوقت مع كبار الضباط الذين يقتربون من الخمسين ولديهم عشرون عامًا من الخدمة الخارجية في رصيدهم – لكن «القتل الرحيم» لم يكن مطروحًا بوضوح. كان ذلك ليقطع وصلة الترفيه. فكرت بروكتر في الاستقالة،

ليس خجلًا بل لحرمان ديبس من انتقامها المُرضي، لكنها لم تكن لتستسلم ما دام سام مفقودًا.

عاشت بروكتر وفق قاعدتين: احمِ عميلك، واجمع المعلومات الاستخباراتية. كانت سنغافورة فشلًا ذريعًا على الصعيدين، والأول هو الأشد وطأة. وبصرف النظر عن ألم تعذيب ديبس، ستصمد بروكتر طالما كان بإمكانها المساعدة في إعادة سام إلى الوطن.

كان ماك و غاس و ثيو، رغم أنهم ليسوا مفضلين بأي حال، يبدون بحال أفضل من بروكتر داخل «حلبة صراع» غوسفورد، وسخروا مكونات «البيت الروسي» للبحث عن سام. قضت بروكتر ساعات في مؤتمرات الفيديو مع محطة سنغافورة، تنقب في كل قصاصة استخباراتية متاحة، وكل خيط – سلكت كل الطرق، رغم أنها انتهت في النهاية إلى لا شيء. كلفت الضباط المتخفين (NOCs[7]) المتجهين إلى روسيا بتشغيل شبكاتهم، ونبش أي أدلة حول مكان وجود سام. لاحقت محطة موسكو والسفارة للضغط على الروس للحصول على إجابات، وواصلت القيام بذلك عبر قنوات خلفية حتى بعد أن أصدر أباطرة الطابق السابع مرسومًا بأن تتوقف فورًا.

لكن بحلول أوائل الصيف، لم تكن الـ CIA تملك أدنى فكرة عن مكان سام. برد الأثر في سنغافورة. هل هو في حفرة ما؟ سجن روسي؟ في رحلة روحية في جبال الهيمالايا؟

استمرت بيترا ديفاين وفريقها سيء الحظ من «أطباء الجلدية» في الوعظ للقلة الذين يستمعون بأن الوكالة لديها مشكلة. مالت بروكتر للموافقة، لكن لم يكن هناك أي دليل على الإطلاق، ومما استطاعت جمعه، فإن «عيادة الجلدية» قد تحطم، تمامًا كـ «موسكو إكس»، وأصبح الآن مستنقعًا راكدًا، مع لعب بروكتر دور الناسك الأكبر.

---

[7] عملاء الغطاء غير الرسمي (*Non-official cover*) (*NOC*): ضباط استخبارات يعملون تحت سواتر مدنية مموهة (كرجال أعمال) دون حصانة دبلوماسية، مما يعرضهم للمحاكمة المباشرة حال انكشافهم.

هذا هو نشيج النهاية، فكرت بروكتر، وهي تدير فريقًا من المحللين في القبو، على مسافة شمٍّ من آلة الـ «هوت دوغ». حتى بروكتر، التي كانت قدرتها التخيلية على المعاناة متطورة للغاية، ناضلت لاستيعاب سرعة وعمق انحدارها.

***

كان لا يزال هناك الفصل الأخير، وبدأت تلك الكرة بالتدحرج في يوم ثلاثاء من أواخر يونيو، باستدعاء إلى مكتب غوسفورد. في ذلك الصباح، كان ضوء الشمس أثناء مسيرتها من «الموقف الأرجواني» البعيد (حيث صودرت امتيازات موقفها المخصص لدرجة GS-15 وسط عملية ابتزاز ديبس) ساطعًا ونقيًا. كانت سجينة في ساحة السجن، تحدق في السماء الزرقاء، المتألقة والبعيدة المنال.

لم تُدعَ للصعود إلى الطابق السابع منذ ما يقرب من عشرة أسابيع، وكانت الدعوة – التي وصلتها عبر مكالمة هاتفية من أحد المساعدين الخاصين للمدير – مقتضبة وغير محددة بجنون. استنتجت أن هذه هي النهاية. القط، الذي مل أخيرًا من التلاعب بالفأر، سيغرس أنيابه الآن في عنقها.

انتظرت في الغرفة الخارجية لمكتب المدير. إنه متأخر عن موعده يا آنسة بروكتر، كان المساعد الخاص يطل ليقول ذلك. لا يا آنسة بروكتر، لا داعي للمغادرة، سيحدث ذلك في أي دقيقة الآن.

ارتدت بروكتر أفضل بنطال جينز لديها مع سترة صوفية فوق قميص أبيض نُظف حديثًا، والذي أخفى بالكاد حمالة صدرها الجالبة للحظ، تلك ذات اللون الأصفر الفلوري وعليها نخلات صغيرة بلون أخضر نيون. زوج من نظارات الطيارين «أفياتور» كان يطل عبر الغرفة من موقعه فوق عش شعر بروكتر الأسود المجعد. في كل مرة كانت تتجول فيها داخل الحظائر بحثًا عن تحديث، كان المساعد يقطب حاجبيه ناظرًا للساعة ثم لـ بروكتر.

عرضت بروكتر:

– «لدي عمل لأقوم به، يمكنني العودة.. لا مشكلة».

مط المساعد شفته السفلى، وتجهم وجهه عند ذكر تغيير الجدول.

– «أخشى أن ذلك لن يناسب جدول المدير».

بعد ساعة، دحرج أحد عمال تقديم الطعام عربة تحمل بقايا مائدة من المعجنات، وكعك البيغل، والفاكهة، والمافن عبر الرواق، وركنها خارج المطبخ الصغير الضيق، ويفترض أن ذلك لجمعها لاحقًا من قبل موظفي غرفة طعام الوكالة.

الآن، من المعروف عن أرتميس بروكتر أنها تشارك حين يتعلق الأمر بـ «مافن الشوكولاتة»، ويزداد الأمر حين تكون مكتئبة بجنون، وهو شعور لم تعتبره حقيقيًا أو صالحًا لكنها مع ذلك كانت تعيشه بكثافة مؤخرًا. وتلك المائدة، المائدة المسكينة كانت تجلس هناك وحيدة تمامًا. وقفت بروكتر، وتمطت، ومشت لتلقي نظرة على وضع المافن. وكان هناك واحدة بالشوكولاتة، أتصورتم ذلك؟ وفي حالة ممتازة. وضعت بروكتر المافن في طبق مع بعض الفاكهة وعادت لمقعدها.

لاحقًا ستعترف بأن الطعم لم يكن صحيحًا. القوام كان طباشيريًا أكثر مما قد تحب أو تتوقع. لكنها كانت جائعة – الغضب المتدحرج منخفض الحدة جعلها تتضور جوعًا – واختفت المافن في حوالي خمس قضمات. جلست للانتظار.

بعد بضع دقائق، ظهر المساعد ليقودها إلى المكتب المكسو بألواح خشب البتولا.

كانت ديبس على الطاولة. و غوسفورد يكتب شيئًا في دفتر ملاحظات على مكتبه، وسماعة الهاتف الآمن MLP محشورة بين أذنه وكتفه.

ابتسامة ديبس كانت غريبة، فكرت في ذلك حتى في تلك اللحظة، دوامة من الغرور والازدراء الخالص. بينما كان غوسفورد ينهي مكالمته، ربتت ديبس على كرسي بالطاولة.

وقالت:

– «تفضلي بالجلوس يا أرتميس».

جلست قبالة ديبس، وسمعت بروكتر صوت غرغرة، ثم شعرت بركلة من داخل معدتها، كأن شيئًا يريد الخروج. ثم أصدرت ضوضاء أخرى، بشرية تقريبًا، صرخة من داخل جسدها.

سألت ديبس:

– «ماذا كان ذلك؟».

– «أنا جائعة فقط».

أغلق غوسفورد الهاتف وانضم إليهم على الطاولة. حين شبك ساقيه، أطلت ديوك حمراء صغيرة من فوق حذائه. لو كانوا لا يزالون أصدقاء لعلقت على الديوك في جواربه، لكنهم لم يكونوا كذلك، لذا أشاحت بنظرها لتجنب الإغراء. مال بجسده للخلف، مسندًا رأسه على راحة يده – وهي إشارة غوسفورد لمونولوج وشيك، كان الله في عونها.

قال:

– «لقد كان لكِ مسيرة حافلة يا أرتميس. يجب أن تكوني فخورة. لكن، بعد مراجعة تقييم أدائك الأخير وجبل الإشعارات والشكاوى، أعتقد أننا نتفق على أن الوقت قد حان للتغيير. حان الوقت لفصلك التالي. حان الوقت للمضي قدمًا بعيدًا عن الـ CIA».

كانت تعلم أن ذلك قادم، علمت به منذ أشهر، ومع ذلك كان الشعور مؤلمًا وطريًا؛ كانوا يسحبون أحشاءها من حلقها وقد بخلوا في التخدير.

قالت:

– «لا يمكنني الموافقة على ذلك. لا أعتقد أن هناك فصلًا آخر. أعتقد أن هذا هو الأخير».

قال غوسفورد:

– «أوه، بالله عليكِ الآن.. أنا واثق أنكِ ستدبرين شيئًا. القطاع الخاص يمكن أن يكون مجزيًا جدًا، ماليًا وغير ذلك. لن يرمش جفن لأي من "لصوص واشنطن" الجديرين أمام خبرتك المليئة بالألوان والتقلبات. بل العكس تمامًا.

بالتأكيد هناك مغامرات أكثر دناءة لتُكتب في قصة حياة أرتميس بروكتر. المكان، رغم ذلك، لن يكون داخل هذه الجدران».

سألت بروكتر:

– «تحتاجون لكبش فداء لـ سنغافورة؟ أهذا هو الأمر؟».

قالت ديبس:

– «هذا يلمح للبراءة. أنتِ محظوظة فقط لأننا لا نرسلك إلى "البرنامج[8]" أولًا، ونخبر الناس أنكِ في مكان ناءٍ في اليمن بينما أنتِ في الواقع تجفين في زنزانة سكارى ممولة من دافعي الضرائب في ماريلاند. وهو أمر، لنواجه الحقيقة، قد يكون مفيدًا».

قال غوسفورد وهو يرمق ديبس بنظرة حادة:

– «الآن، مهلًا، مهلًا. أدرك أنه لا قيمة لانتقادك بأثر رجعي يا أرتميس، والأكثر من ذلك أنني أفهم أن استنكاري لن يكون له أي تأثير».

أصدرت معدتها تلك الضوضاء مجددًا، لكن الآن لم تكن واثقة ما إذا كان ذلك هو سبب نظرة القرف التي تموجت عبر وجهه.

تابع قائلًا:

– «إضافة إلى ذلك، أنتِ، ماذا، على بعد سنة تقريبًا من الخمسين؟ حتى ذلك الحين سنرسلك في مهمة مؤقتة طويلة داخل البلاد، مهمة بصفر مسؤولية. وبعدها، ستتمكنين من تحصيل معاش FERS الخاص بالكامل، أليس كذلك؟ لديكِ أكثر من خمس سنوات مخزنة في العمل الميداني. وضعك ذهبي. اذهبي وسافري في العالم الواسع الكبير واستمتعي ببعض المرح».

ملس غوسفورد ربطة عنقه وابتسم ووقف، محاولًا إنهاء الاجتماع. بقيت بروكتر في الكرسي. تقلبت معدتها مع غرغرة رطبة أخرى. وبجهد جهيد، ابتلعت ريقها. كانت مؤخرتها غارقة في العرق.

قالت بروكتر، وهي تصلي لتخرج نبرتها متزنة:

---

[8] **البرنامج** (*The Program*): مصطلح يُطلق على برنامج وكالة الاستخبارات المركزية السري للاعتقال والاستجواب (*RDI*) الذي أُنشئ بعد 11 سبتمبر، وتضمن سجوناً سرية (مواقع سوداء) وتقنيات تحقيق قاسية.

– «فقط دعوني أحتفظ بما تبقى من "موسكو إكس". حتى نجد سام. أو مكاناً في الميدان حيث يمكنني أن أكون مفيدة. معظم هذا سيُحل في الميدان على أية حال. أريد المساعدة. ويمكنني أن أكون مفيدة لكم بالمساعدة في إعادته».

نظر إليها غوسفورد بكل شفقة وعينين زجاجيتين وقال:

– «أضعك في الميدان؟ ليس بعد سنغافورة. وعلى أية حال، العمل المهم يجري هنا في المقر الرئيسي يا أرتميس».

– «ماذا؟».

شظايا ضحكة أفلتت بعد علامة الاستفهام.

نظروا لبعضهم البعض، عيناً بعين، مع ابتسامات صغيرة تلتوي على شفاههم، وكأن ازدراءهم المتبادل والواضح لبعضهم البعض كان ربما مسلياً. دبدب غوسفورد عائداً لمكتبه، أمسك بالخط الأخضر، وأخبر مساعده بتمرير مكالمته التالية خلال دقيقتين. خبط الهاتف في مهده وأشار للباب.

– «انتهينا هنا يا أرتميس. انصراف».

تظاهر بقراءة بطاقة ملاحظات سحبها من جيب بدلته. تململت بروكتر في الكرسي.

قالت:

– «رغم خلافاتنا، لدي سجل حافل في الميدان. سجل قوي. أنا من درجة GS-15 ومؤهلة أكثر من اللازم لأكثر من نصف محطاتنا. يمكنكم وضعي في أي مكان للمساعدة في إعادته».

عوت معدتها مرة أخرى. كان العرق يتلألأ على منبت شعرها وشفته العليا.

تمتم بسم:

– «خلافاتنا.. يا للسخرية. لقد خططتِ وأشرفتِ على عملية للإيقاع بمسؤول روسي باستخدام ضابط حالة موصوم، مما أدى للموت المحتمل للروسي، واختفاء ضابطنا، وخسارة كارثية للأموال التشغيلية. "حساء خراء"

قُدم ساخنًا بفضل هوس الترحال الماجن والفزاعة الشاملة، أرتميس بروكتر!».

ضحك غوسفورد، ثم نظر بعيدًا خارج النافذة وغمغم: «أنتم أيها الناس»، وهو ما وجدته بروكتر غريبًا لأن أنت واحد منا أيها الناس اللعينون يا فين، أنا وأنت، نأتي من نفس المكان. تجعد أنفه باشمئزاز، وكأن بروكتر تنضح بخلطة روائح عفنة. كان ينقر ببطاقة الملاحظات التي تحمل جدوله.

كانت بروكتر ممزقة: عناد محض أبقاها مزروعة في الكرسي، بينما المرض الذي يزحف داخل جسدها جعلها تخطط بجنون للخروج. استقرت عيناها على «نجمة الاستخبارات»، المؤطرة لتزين الجدار فوق مكتبه. لم تكن النجمة قد عُلقت في زيارتها السابقة، خلال أسبوع غوسفورد الأول في الوظيفة وسط تداعيات سنغافورة. منذ زمن بعيد تصالحت مع نتيجة كارثة أفغانستان، لا جدوى من نكأ الجراح. لكنها الآن كانت حرفيًا أمام وجهها. لم تتحدث بروكتر قط عن نجمتها؛ أبقتها في الدرج اللعين حيث تنتمي. أتريد وسامًا؟ انضم للجيش اللعين.

هذا الرجل اللعين! محتال استشاري نصاب كُرم لإطلاقه النار على قدمه، وهو الآن مدير الـ CIA وقام بترقية صديقتها السابقة الفاشلة في «المزرعة» ديبس، ممسحة عديمة الفائدة من ضباط الحالة، وعاهرة جشعة، ولاعقة أحذية سياسية بامتياز، لمنصب نائب المدير للعمليات، قافزًا فوق بروكتر وكل أصدقائها الذين كدحوا في الداخل لسنوات، الذين استحقوا أوسمتهم بصمت، دون أن يثروا. أعداؤها عادوا إلى المدينة لقتلها.

وللتو، تبرزت بروكتر في سروالها أيضًا. ومع اعتبار ذلك ربما الإشارة المتفق عليها، قامت المافن بهروبها الثاني من السجن، هذه المرة صعودًا من معدتها إلى الحرية الحلوة للسجاد عند قدميها، ليشكل الهروب المزدوج الوقح أدنى مستوى وصلته أرتميس أفروديت بروكتر في ربع قرن داخل الـ CIA.

كان بعضه على حذائها. انزلقت من سترتها، وفي محاولة عبثية لحجب الفوضى، ربطتها حول خصرها. الصدمة على وجه ديبس توقفت قليلًا قبل أن

تتحول إلى نظرة العارف، وعادت بروكتر بذاكرتها إلى أفغانستان، تراقب طاقم مرافق القاعدة ينظفون ما فعلته بـ ديبس. استنتجت بروكتر أنه عقار «إيبيكاع» في تلك المافن – على الأقل هذا ما كانت لتستخدمه هي.

كان غوسفورد يضع يده على فمه. وقف بجانب مكتبه، وقد وصل هناك، ربما، بالقفز للخلف كقط مذعور.

– «أرتميس، اذهبي لطبيب».

قالت:

– «سأكون بخير.. ديبس سممتني، هذا كل ما في الأمر».

وقفت، وانحنت فورًا لتتقيأ فراغًا، ثم ترنحت لمنتصف الطريق نحو الباب. إطلاق النار المزدوج والتسميم استنزفا رغبتها في القتال. التفتت إليهم، مدركة أن أفكار الوداع من صديقة سابقة مع بقعة على سروالها بشكل شبه القارة الهندية لن تلقى قبولًا حسنًا على الأرجح، لكن كان عليها مراعاة ضميرها، إضافة إلى أنها لن ترى أيًا منهما مجددًا أبدًا:

– «أحدهم وشى بـ سام. تلك الطبيبة الجلدية، بيترا، رغم أنها مزعجة كشوكة في المؤخرة، إلا أنها ليست مخطئة. لدينا مشكلة كبيرة هنا».

استعاد غوسفورد حدته قائلًا:

– «أتمزحين معي؟ يجب أن نتخلص من طاقم الجلدية عديم الفائدة ذاك».

مع غوسفورد و ديبس، كانت الرغبة في القتال، في الرد، لا يمكن كبحها، ميكانيكية حتى. فعل، ورد فعل.

قالت بروكتر:

– «تلك فكرة غبية لعينة يا فين».

طرق أحدهم الباب.

قال غوسفورد:

– «عفوًا؟».

طرقة أخرى، أكثر إلحاحًا.

صرخ غوسفورد طالبًا دقيقة أخرى. كانت عيناه تشتعلان. وجه ديبس كان قناعًا، لكن تلك العيون، حسنًا، اللعنة عليها: ربما كانت تبتسم.

قال غوسفورد:

– «الفكرة الغبية يا أرتميس، هي قلب هذا المكان رأسًا على عقب لمطاردة أشباح. والآن أريد منك الاعتذار».

– «ماذا؟».

هذه المرة أفلتت الضحكة كاملة.

– «بحقك».

– «اعتذري لي، الآن، لكونك وقحة ومتمردة».

قالت:

– «لن أفعل ذلك.. لأنها فكرة غبية. وفيها نذالة وقحة، إن كنت تحتمل الصراحة».

***

بدأ تجريد بروكتر من رتبتها فورًا بعد جلسة تنظيف في دورة مياه بالطابق السابع. عرض فين الأولي بالانزلاق السلس نحو التقاعد قد سُحب في أعقاب فوضاها، ورفضها الاعتذار، واختيارها للألفاظ النابية. في مكتب بحجم خزانة مكانس، وقعت رسالة استقالتها تحت أعين ضابط دعم متهالك، جعلها بعد ذلك تعمل عبر كومة من الوثائق بسمك دليل الهاتف، فحواها أن بروكتر ستتلقى زيارة من «فرقة البلطجية[9]» أو – الأسوأ – محامي الحكومة إذا فتحت فمها بكلمة. لم يعطوها حتى «الحقيبة الزرقاء»، هدية الشكر الراقية لعقود من الخدمة، مع العلم والميدالية والشهادة التي تحمل توقيع الرئيس الآلي.

رافقها ضابطا أمن إلى مكتبها، حيث جمعا جوازات سفرها (الدبلوماسي الأسود باسمها الحقيقي؛ والأربعة الزرقاء السياحية بأسماء مستعارة). أعادا لها مضرب البيسبول المصادر. لم يستغرق حزم الأمتعة تحت المراقبة وقتًا

[9] **فرقة البلطجية (*Goon Squad*):** مصطلح عامي يُطلق على فرق الإنفاذ أو المجموعات شبه العسكرية المكلفة بالمهام القذرة، الترهيب الجسدي، والاعتقالات العنيفة.

طويلًا لأن مسكن بروكتر كان متقشفاً، دائمًا وفي كل مكان، إضافة إلى موجة التطهير الأخيرة التي بحثت عن أي صور قذرة مخبأة. إلى «صندوق الاحتفاظ» ذهبت قطعة معدنية ملتوية من سيارة «ميتسوبيشي باجيرو»، وسجادة من السوق القديم في دمشق، وصورة عزيزة لـ فلاديمير بوتين يسقط على الجليد أثناء مباراة هوكي. تلتها الصورة الوحيدة على مكتبها: لقطة لها وهي تبتسم وتضحك مع ملكة الأردن.

جمعت كومة من الجوائز، وتنويهات الوحدة الجديرة بالتقدير، ونجمة الاستخبارات المغبرة الخاصة بها، وألقت بكل ذلك في أكياس الحرق المخططة بالأزرق والأحمر من أجل الترميد المستقبلي.

ثم التقطت الصندوق، وألقت بمضرب البيسبول على كتفها، وركبت المصعد للأعلى، وضابط أمن على كل جانب. خرجت من الـ CIA للمرة الأخيرة. أرتميس أفروديت بروكتر: عضو جديد في الجماهير غير المصرح لها أمنيًا. نكرة. لأنه حين تكون خارجًا، فأنت خارج.

عند المخرج سلمت أحد الضباط شارتها الزرقاء، ودارت حول البوابات الدوارة، وتمشت، والصندوق تحت ذراعها، والمضرب على كتفها، عابرة براري مواقف سيارات لانغلي إلى برية الحياة المدنية.

الفصل السابع

لانغلي

نادتها رغبةٌ عارمةٌ في معاقرة الخمر، لكن قرار طردها وقع يوم الجمعة، والجمع في فصلي الصيف والخريف – على الأقل منذ أيام أفغانستان – يعني البيسبول. حقيقة أنها طُردت كان من شأنها، نظريًا، أن تسقط أهليتها للعب (فهو في النهاية دوري داخلي للـ CIA)، لكن لو تجرأ أحدٌ وشكك في مشاركة لاعب الوسط لفريق «محاربو الحرب الباردة»، فإن اعتراضه سيُدفن في صمت. بروكتر مشهورة بأنها مثيرة للمشاكل؛ طُردت بالفعل هذا الموسم من مباراتين لمجادلتها الحكام، ومن ثالثة لانزلاقها نحو القاعدة الثانية، والحذاء مرفوع، مما أدى لإفساد لعبة مزدوجة بنجاح.

ألقت حقيبة مضربها دون اكتراث على مقعد استراحة اللاعبين محدثةً ضجة معدنية. قطب ثيو، رجل القاعدة الأولى لـ «المحاربين»، أنفه من رائحة البيرة التي تفوح منها.

سأل:

– «أحضرتِ لي واحدة؟».

– «لا شرب في ملعب الكرة يا ثيو. أنت تعرف ذلك».

– «صحيح».

انحنى ليربط حذاءه الرياضي.

– «فقط قبل وبعد».

كانت قد ذهبت للمنزل للاستحمام واحتساء بعض المشروبات قبل القيادة للملعب. لم يكن الغياب خيارًا مطروحًا. قبل عشر سنوات، جهزوا ملعبًا

بدائيًا وأنشأوا دوريًا عفويًا في القاعدة بـ شكين، أفغانستان. المحفز الأول لم يكن بروكتر أو الـ «براتفا» – ولا حتى الـ CIA – بل جنديان من المارينز لعبا في دوري الدرجة الأولى (Single-A) قبل تجنيدهما. بدأت مشاركة الـ CIA كنوع من المزاح: ثيو، مثلًا، حقق ضربة واحدة صحيحة من أصل تسع وأربعين في ذلك الموسم، ولم تكن بروكتر أفضل حالًا. فعينها الضاربة أصابها الوهن منذ لعبت في طفولتها.

ولكن بمرور الوقت، وبالتأكيد الآن في دوري لانغلي الداخلي، أصبحت المباريات محرقة تُقدَّم فيها قرابين التوتر والأحقاد، وكل تلك الإهانات التافهة والهراء الماص للطاقة الذي يحدد شكل الحياة في مقر الوكالة.

على مر السنين، كان هناك اتفاق ضمني غير منطوق، ولكنه راسخ وجماعي، بأن أفضل تكريم للغائبين هو أن يستمر الباقون في اللعب.

في شكين، اعتادوا رمي الكرات الأولى بعد وقت قصير من توقف وابل الصواريخ على القاعدة. نزل أحد فرق المارينز للملعب لمباراة ليلة الجمعة بعد أن فقدوا رجل القاعدة الثانية في كمين لطالبان يوم الثلاثاء. كان سام هو رجل القاعدة الثالثة لـ «محاربو الحرب الباردة»، ولعبوا افتتاح الموسم بعد خمسة أيام من اختفائه.

الليلة، وبينما يتدفق أصدقاؤها إلى دكة البدلاء، لم يسألها أحدٌ عن حالها، أو لماذا حضرت لمباراة بيسبول بعد ساعات قليلة من إنهاء مسيرة أربعة وعشرين عامًا في وكالة الاستخبارات المركزية بطريقة كارثية. سيأتي ذلك لاحقًا، مع الشراب في «فيينا إن». أولًا، لديهم عمل لينجزوه مع فريق «مفترسو مركز مكافحة الإرهاب».

هرولت بروكتر نحو وسط الملعب. كان هواء الليل كحمام دافئ على بشرتها؛ وتوهج الأضواء كأن السماء شُقت لتكشف عن الجنة؛ ونسيم المساء يحمل رائحة الفشار والتراب النظيف والعشب المقصوص. مضغت كومة من العلكة كالمجنونة. كانت تشعر بنشوة خفيفة تدور برأسها. لا ماضي، لا مستقبل. إنها تلعب البيسبول مع أصدقائها.

غاس، الرامي الأساسي لـ «المحاربين» والرياضي الأكثر موهبة بينهم، كان بإمكانه الرمي بسرعة تتجاوز السبعين ميلًا بقليل، وفي جعبته رمية لولبية مقبولة، وإن كانت غير ثابتة. في دوري الهواة، كان ضرب كراته شبه مستحيل. رامي «المفترسين» – محلل شاب ونحيل يعمل على شبكات تمويل الجهاديين – جلب معه مهاراته أيضًا. بحلول الشوط السادس – قواعد الدوري تنص على سبعة أشواط، ولا وقت إضافي – كان ملتقط الكرات لـ «المحاربين»، وهو ضابط تقارير، يشكو من ألم في الفخذ.

قالت بروكتر:

– «سألتقط الكرات أنا. لقد قضيت وقتًا طويلًا من الطيران على ركبتي».

غمزت لـ غاس، الذي ضحك.

– «لن تلتقطي كراتي.. ذراعي استُهلكت».

وهذا ترك ماك ليرمي في الشوط السابع.

قضت بروكتر النصف الثاني من الشوط السادس في دكة البدلاء، جالسة بجوار ماك، تعمل على كيس من بذور عباد الشمس في صمت مجيد ومؤنس. رجل القاعدة الثالثة، وهو محلل أخذ مكان سام، اقترب وجلس بهدوء لبضع لحظات، رغم أن بروكتر استشعرت أن لديه كلمات لها، وأنها لا تريد سماعها. ضرب غاس كرة أرضية نحو التوقف القصير. اثنان خارج اللعبة. بصقت. يا للقرف، فكرت. سيقول شيئًا ما.

قال:

– «أرتميس».

نظرت إليه عابسة.

– «أردت أن أقول إنني سمعت.. وأنا آسف».

كان صوته ضعيفاً، كأنه يتحدث في مكنسة كهربائية تعمل.

قالت:

– «نعم.. حسناً».

تابع رجل القاعدة الثالثة:

– «إنه هراء.. ما حدث».
وبخه ماك:
– «وفّر كلامك.. نحن نلعب البيسبول».
أبقى نظره مثبتًا على اللعبة، وفمه يطحن البذور.
ثيو، كالعادة، خرج بضربات ثلاث (Struck out). هذه المرة وهو يتفرج. ثلاثة خارج اللعبة.
بدأت بروكتر بارتداء معدات الملتقط. استبدل ثيو المضرب والخوذة بقفازه وقبعة «المحاربين» البروليتارية الحمراء البسيطة.
تمتم:
– «اللعنة.. أنا فاشل».
كان ثيو فاشلًا بالفعل، وهي سمة في حياته أكثر منها خطأ عابرًا، تمتد لما هو أبعد من حدود ماسة البيسبول لتشمل زيجاته وعادات شربه. خارج الملعب، كانت بروكتر تسعد بتذكيره بهذه الإخفاقات، لكن في الدكة، اكتفت بصفع مؤخرته وهي تتبختر في طريقها إلى موقعها خلف اللوحة.
كان شوط ماك مهتزًا. ضابط تحديد أهداف يُدعى توبين، ملتقط فريق «المفترسين»، تقدم للضرب مع وجود اثنين خارج اللعبة وعدائين على القاعدتين الثانية والثالثة. بعد كرة خارج المنطقة، هرعت بروكتر إلى تلة الرامي لتقول كلمة.
قالت:
– «إنه مرتاح جدًا في الصندوق. يتخذ وضعية المالك للمكان. يجب أن تكون الموسيقى موجهة لذقنه يا ماكنتوش. إذا واصلت تفويت الرميات للخارج، فسيمد مضربه ويدحرج شيئًا ما عبر الخط متجاوزًا ثيو، وسنكون في ورطة».
صفعت مؤخرة ماك هي الأخرى، وهرولت عائدة للوحة.
الرمية التالية جاءت عالية وضيقة، كادت تسلخ مرفقي توبين حين قفز متراجعًا خارج الصندوق.

قال توبين محملقًا ـ في بروكتر:

– «يا للهول.. قولي لـ ماك أن يهدأ. إنها مجرد لعبة».

ردت وهي تضرب قفازها وتتخذ وضعية القرفصاء:

– «لا عجب أنه تم تخطيك ـ في ترقية الدرجة 14. أنت أحمق يا توبين».

أشارت لرمية سريعة للداخل. هذه المرة تأرجح توبين وأخطأ، وضربت أرجحته الخلفية المبالغ فيها (متعمدة! الوغد) خوذتها، وارتدت عن قناعها، وأرسلت قطعة علكتها إلى التراب.

قالت وبصقت:

– «يا إلهي العظيم».

قال توبين:

– «أوبس.. آسف. وقد تلقيتِ صفعة واحدة اليوم بالفعل. خطأي».

التقطت القناع، ودفعت كتفها بكتفه وهي ـ في طريقها لتلة الرامي.

قالت:

– «لا يزال يزاحم اللوحة. لقد تم تحذيره والآن علينا التنفيذ. والقاعدة الأولى، حسنًا، القاعدة الأولى مفتوحة يا ماك».

همس ماك ـ في قفازه:

– «الأضلاع؟».

– «إذا استطعت».

صفعت مؤخرة ماك بقفازها وتموضعت خلف اللوحة. مرفقا توبين كانا متدليين بترف فوق اللوحة، يستفزانهم، إهانة ليست فقط لها ولأصدقائها شخصيًا، بل لكل الرماة والملتقطين ـ في كل مكان وزمان. لكمت قفازها، وعدلت القناع.

قالت:

– «زحزح نفسك اللعينة عن اللوحة. أنت تملك الصندوق، لا اللوحة. أنت معتدٍ يا توبين. أنت تتجاوز الخطوط. وقد أُعذرت».

قال توبين غير مبالٍ، وهو يلوح بالمضرب نصف تلويحة بانتظار الرمية:

– «لماذا أنتِ هنا، تثرثرين بفمك اللعين، بعد ما حدث اليوم؟ يجب أن تكوني في مكان ما، ثملة».

يُحسب لـ ماك أنه وضع بعض «الصلصة» في الرمية؛ الكرة السريعة سجلت إصابة مباشرة في كلية توبين اليسرى، فانثنى كالمفصلة عند الخصر وأسقط المضرب مع أنّة جعلت بروكتر تبتسم. ظل واقفاً هناك في الصندوق، ويداه على ركبتيه.

التقطت بروكتر الكرة من التراب ورمتها لـ ماك.

– «خذ قاعدتك يا توبين. تحرك».

وصفعت مؤخرته هو الآخر.

– «هيا».

كان من المثير للدهشة في روح الدوري أن «المحاربين» لم يروا بأسًا في ضرب زميل عمل بالكرة، وأن كلا الدكتين بدأتا تتدفقان للملعب، وأن توبين كان بوضوح متحمسًا لاندفاع نحو التلة ومقاتلة زميل ضابط هو، في الواقع، رئيسه. شعرت بروكتر بقدر من الفخر بهذا. لأنه إن لم تستطع الدخول في نوبة غضب قاتلة بسبب لعبة بيسبول، فمن أنت حقًا؟

اعتدل توبين، واندفع نحو التلة. وأوتار غضبها – المشدودة بخوف منذ اختفاء سام، وسلسلة الإهانات في العمل، وأخيرًا الطرد اليوم – رنت بداخلها، وكانت تلاحق توبين، تركض لحماية ماك، الذي رفع قبضتيه، يتمايل، منتظرًا.

لحقت بروكتر بـ توبين قبل أن يصل لـ ماك، وقفزت على ظهره لتسقطه في غبار التلة. قدرت أن لديها ثانيتين قبل أن يصطدم الفريقان في وسط الملعب ويسحبوها عنه. الصوت الوحيد كان طنينًا في جمجمتها. وأنفها المحشور في التراب ينقب عن روائح الغبار والجلد والدم. تسلقت فوق توبين، وصارعت يديه بعيدًا عن وجهه، ولكمته مباشرة في أنفه.

***

بعد الشجار، تعثرت المباراة نحو نهاية جنونية: تعادل سلبي. لم يعتذر أحد أو يحاول تلطيف الأجواء – وهو ما قدرته بروكتر – تخلى الحكام عنهم، وذابت الفرقتان عائدتين لدكة البدلاء لحزم الأمتعة.

قال ثيو وهو يغلق حقيبته بحركة مسرحية، ويضغط قميصًا داخليًا على جلد خده المخدوش:

– «تبدو ليلة العشرة مشروبات».

ذهبوا إلى «فيينا إن»، الأربعة، وفي الجولة الأولى، في مقصورتهم المعتادة، لم يتحدثوا إلا عن المباراة والشجار. ومع الدخول في الجولة الثانية، نكزها ماك أخيرًا لتروي القصة الكاملة لاجتماعها مع غوسفورد و ديبس. لم توفر أي تفصيل، وصولًا إلى جلسة التنظيف المرتجلة في حمام الطابق السابع وهرولتها المخزية الأخيرة خارج الباب. أنهت بيرهتا، وانتقلت للثالثة – الليلة ماك هو من يدفع – و غاس، بارك الله فيه، كان دائمًا يقول هذا وكأن امتناعه عن الشرب ليس مفروغًا منه: قال غاس إن الليلة علي حسابه الشخصي. «اشربوا قدر ما تشاؤون».

سأل ماك:

– «هل سنتسع في سيارتك الكورولا يا غاس؟ في المرة الماضية كانت معدات اللاكروس العرقانة للتوأم فيها. كانت ضيقة قليلًا. وكريهة الرائحة قليلًا».

قال غاس:

– «معي الميني فان هذه المرة. سيكون لدينا مساحة كافية لتمديد أرتميس في الخلف».

رفعت بروكتر مشروبها، مزيلة بضع بوصات منه بجرعة طويلة متعطشة. وضعت الكأس، واستبدلته بكيس الثلج، الذي أعادته لأذنها اليسرى الحمراء الملتهبة.

قال غاس وهو ينقر كيس الثلج الخاص به:

– «ظننت أن توبين سيقلع تلك الأذن».

قالت بروكتر لـ غاس:

– «وصلتَ في الوقت المناسب تمامًا. اتضح أنه من الصعب إزالة أذن بينما يضربك أحدهم بخوذة بيسبول».

سأل ثيو:

– «ماذا تتوقعين أن كان في المافن؟ إيبيكاع، أم ماذا؟».

– «على الأرجح. لم أرفض مافن شوكولاتة في حياتي. ديبس تعرف هذا. ماك، أنفك ينزف مجددًا».

قال ماك: «أوه، تباً»، واحتضن أنفه في الخرقة التي وضعها جانبًا على الطاولة.

قال ثيو، وهو يدور كيس الثلج من الخد المخدوش إلى الخد الملعون:

– «كنا نعرف بشأن الزبادي».

قال ماك عبر الخرقة الدامية:

– «إنه وحشي فحسب.. والتناظر؟ غير واقعي. ديبورا سويت تحمل ضغينة. ضابطة حالة سيئة، وحاملة ضغائن استثنائية. الحق يُقال».

نظرت بروكتر حولها إلى أصدقائها. حاولت إقناع نفسها بأنها قد تكرر نمط عملها المألوف، الراسخ عبر ربع قرن في الـ CIA: ابقِ على قيد الحياة، توارَ عن الأنظار، عد إلى الميدان بطريقة ما. لكن كانت هناك نهائية هنا لم تستطع احتواءها. طوال حياتك أنت في الـ CIA، ثم فجأة لست كذلك.

شيء ما قد مات، فكرت. بالأمس كان يحتضر، والآن مات.

ورغم هذه الأفكار التي تشقلبت في عقلها، قدرت بروكتر أن أصدقاءها القدامى لم يقدموا تعازي سكرية عديمة الفائدة، ولم يسألوها ذلك السؤال الأكثر دناءة: كيف تشعرين؟

بدلًا من ذلك، تبادلوا القصص عن الشجار، و«المزرعة»، و شكين، وعقود الحياة التي تقاسموها. ضحكوا على زوجة ثيو الثانية والدمار الأسطوري لأحواض أسماكه الثمينة؛ وعلى المقلب المجيد بالصور القذرة الذي نفذوه جميعًا في «المزرعة»، حين كانوا شبابًا لا يُقهرون. ضحكوا على

ديبس والزبادي وتأملوا مجددًا ـ في الأمتعة النفسية التي حملتها بوضوح طوال هذه السنوات، لتنفذ حيلة مثل مهزلة اليوم على مرؤوس وصديق سابق.

سرعان ما أصبحت بروكتر ثملة تمامًا. كان غاس و ثيو، على الجانب الآخر من المقصورة، يضحكان، وقد انجرفا ـ في نقاش خاص بهما، بدت مقتطفاته، لأذن بروكتر، فاحشة بشكل رائع. واحدة من قصص ثيو المميزة، كما افترضت، سمعتها اثنتي عشرة مرة: ليلته الجامحة ـ في «بار طالبان» بمحطة كابول، والذي تعتبره المكان الأكثر مجونًا الذي وطأته قدمها، وهذا يشمل ناديًا قرب ليكلاند يُدعى «فيست».

لكن ماك، بجوارها، بدا متأملًا، غارقًا ـ في التفكير. مالت نحوه.

قالت:

– «هل تظن أن المكان متعفن حقًا؟ وأن بيترا محقة ولدينا مشكلة؟».

قال ماك:

– «محتمل. ومحتمل أيضًا أن الروس ارتكبوا خطأ ـ في سنغافورة، أنا لا أعرف حقًا».

– «التوقيت غريب بالتأكيد. الكارثة تقع بمجرد تنصيب غوسفورد ورجاله، بعد اطلاعهم وحصولهم على كل إيجازات المقدمة. كم عدد "فراخ الإوز" (Goslings) الذين جلبهم للداخل معه؟».

فكر ماك ـ في الأمر.

– «ربما عشرة، خمسة عشر مستجدًا للطابق السابع. نصفهم على الأقل لم يكونوا ليجتازوا جهاز كشف الكذب لو اضطروا للتقديم».

قالت:

– «قائمة طويلة من المشتبه بهم».

وتركت الموضوع.

التفت ليحدق فيها مباشرة.

قال:

– «اسمعي يا أرتميس، من نافلة القول إننا سنفعل كل ما بوسعنا لإعادة سام. لن أنطق بكلمة أخرى عن هذه الفوضى، لكني أريدك أن تسمعي هذا مني».

كانت كلماته مستحضرة من أعماق طبقات صدئة من الثقة والعار، والذنب والعجز. لو سألوها كيف تشعر – ومرة أخرى، هم أقرب من أن يعاملوها بهذه القسوة – لما عرفت ماذا تقول. لكن، ودون قول شيء، عرف ماك ما تحتاج لسماعه.

أرجعت رأسها للخلف متجرعة شرابها.

قالت:

– «شكرًا.. شكرًا لقولك ذلك».

أمال ماك رأسه نحوها، ونظرا عبر الطاولة طلبًا للدخول في قصة ثيو، لأن قصتهما وصلت لنهايتها. كان غاس يدمع من الضحك، و ثيو يصل الآن لبيت القصيد: استعاد ضابط الحالة وعيه، مقيدًا بسلاسل إلى نافورة، وينقصه خمسة وسبعون ألفًا من الأموال التشغيلية.

حين توقف غاس عن الضحك، رفعت بروكتر كأسها لأصدقائها. كان هناك كل شيء ليُقال، لذا لم يكن هناك شيء، وفي قرقعة صامتة ومهيبة لكؤوسهم، شربوا نخب النهاية.

قال ثيو:

– «لم أظن أن الأمور ستسير هكذا.. لأي منا. تخيلت خطابات، وامتنانًا، وشعورًا بالانتصار. بأننا خضنا السباق وأنهيناه جيدًا».

قال ماك:

– «أنت ثمل».

– «حسنًا، وماذا في ذلك؟ هل أنا مخطئ أيضًا؟».

قال غاس:

– «أنت في الغالب ثمل.. أنت دائمًا ثمل في الغالب يا ثيو».

تابع ثيو:

– «أنا أقول فقط، إنني رأيت نهاية مختلفة، أتعلمون؟ نهاية أفضل. لنا جميعًا، أعني».

اختفى آخر ما في كأس بروكتر، وقرقعه الزجاج على الطاولة.

قالت:

– «أنا أيضًا. أعني، تعادل سلبي؟ ما هذا بحق الجحيم؟ تخيلت أننا سننتصر».

الفصل الثامن

ماكلين، فيرجينيا

كانت بروكتر تجز عشب حديقتها، وقد بدأ الخمر يداعب رأسها، حين وصل الطرد. كانت ظهيرة يوم خميس، بعد أسبوعين من الطرد: التقت ماك لاحتساء بيرة في «فيينا إن»، جعلتها اثنتين، ثم جرّت قدميها للمنزل لتناول أخرى فوق عناء العمل في الحديقة تحت قيظ الحر. بعد الجز، قامت بالتشذيب، وإزالة الأعشاب الضارة، ثم نفخت القصاصات إلى أحواض الزهور، الجرداء والصخرية إلا من طائر طنان بلاستيكي بأجنحة دوارة، تركه المالكون السابقون خلفهم.

ركنت آلة الجز بجوار سيارتها الـ RAV4 الجديدة في المرآب، وجمعت البريد من الصندوق والطرد من الشرفة. ألقته فوق كومة البريد التي كانت، في هذه المرحلة من انحدارها، تلتهم معظم مساحة منضدة المطبخ. لم يكن فقدان مساحة المنضدة مهمًا: فالمساحة العقارية المطلوبة لإعداد وجبات الطعام كانت في انحدار هي الأخرى. سخنت بيتزا جاهزة «Party Pizza» في الميكروويف، ووضعت الشيء كله على طبق ورقي متين، وفتحت بيرة أخرى، وترنحت نحو غرفة المعيشة. غاصت في الكرسي المائل قبل أن تدرك أن جهاز التحكم عن بعد كان فوق التلفاز، بعيدًا تمامًا عن متناول يدها. أكلت في ذهول صامت، وعقلها ينطفئ تدريجيًا حتى زقزق هاتفها في جيبها.

قالت:

– «كامينغز.. شكرًا لمعاودة الاتصال».

– «استمعت لرسالتك يا آرتي. لم أفهمها».

– «لم تفهم ماذا؟».

– «كل شيء. تريدين وظيفة؟ ما هذا بحق الجحيم؟».

– «قد أحتاج لمكان».

– «أنتِ في الولايات المتحدة؟».

– «أجل».

– «متى ستأتين للزيارة؟».

– «لست واثقة. ربما قريبًا».

– «هل انتهيتِ من كونك جاسوسة؟».

– «لست جاسوسة».

– «صحيح. أيًا كان. هل تتقاعدين؟».

– «شيء من هذا القبيل».

كانت منحنية فوق سلة المهملات. ألقت علبة البيتزا، والطبق، وعلبتي البيرة، مشكلة طبقة جيولوجية جديدة فوق طبقة الليلة الماضية: طبق، وأربع علب بيرة «Coors»، وعلبة بيتزا أخرى.

قال كامينغز:

– «شيء من قبيل أنهم طردوا مؤخرتك أخيرًا؟».

– «بدأت تقترب. اسمع، إذا أعطيتك إشعارًا قبل بضعة أسابيع، هل يمكنني الحصول على وظيفة؟».

– «في المتنزه؟».

– «وأين بحق الجحيم غيره؟ هل تملك أي أعمال أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا كلي آذان صاغية».

أصدر كامينغز صوتًا غريبًا، خليطًا بين أزيز وقهقهة.

– «حسنًا، حسنًا. بالتأكيد. سنجد شيئًا ما».

بعد المكالمة وقفت وحيدة في مطبخها. كانت قد اشترت المنزل من ضابط آخر في الـ CIA بعد إبعادها عن العمل الميداني لتهبط في «قفص التأديب» (Penalty Box) – عامان من العمل المكتبي في لانغلي تحت إشراف

الكبار. قضت عقوبتها، لكن العديد من صناديق النقل من تلك الفترة كانت لا تزال غير مفككة، تقوم مقام الطاولات ومساند القدمين في غرفة معيشتها. في تلك الأشهر الأولى كان دافعها محض كسل، لكن في السنوات الفاصلة وصلت لقناعة راسخة بأن تفريغ الصناديق سيعني الهزيمة، اعترافًا بأنها تنتمي لـ «قفص التأديب». لم يكن هناك أثاث في غرفة الجلوس بالطابق الأول، التي عبرتها في طريقها للأعلى. احتوت غرفة النوم الثانية على رف أثقال ومجموعة من الدمبلز، والأشرطة المطاطية، والأوزان الحرة التي ربما صُنعت خلال إدارة نيكسون. كانت المعدات مساهمتها الأساسية في ديكور المنزل.

رفعت صوت قائمة تشغيل موسيقى الرقص الإلكترونية (EDM) لأقصى حد. القائمة: تمارين الدفع، ضغط، ضغط الصدر، تمارين البطن، أشرطة المقاومة، رفع الأثقال (snatches & cleans)، الرفعة المميتة. لم يكن هناك هيكل للتمرين. المعاناة كانت الهدف الوحيد. قرب منتصف التمرين كان هناك عمل موحٍ مع الأشرطة كاد أن يقطّع ساقيها. بحلول الرفعة المميتة لم تعد تسمع أفكارها، والضغط المتراكم داخل معدتها من البيتزا والبيرة أصبح بركانيًا لدرجة اضطرتها لأخذ استراحة قصيرة.

بعد الاستحمام، ارتمت بروكتر مرة أخرى في الكرسي المائل، هذه المرة تقلب بين قناة التسوق QVC ومباراة بيسبول. في رحلة عودتها للمطبخ، ومن زاوية عينها، لمحت الطرد على المنضدة. جعلها ملصق الشحن تقطب حاجبيها. الطرد مر عبر الجمارك. انحنت لتلقي نظرة.

عنوان المرسل: هلسنكي.

قالت:

– «يا للهول.. ما هذا الهراء».

كقاعدة عامة، في الميدان كانت تقلق بشأن القنابل، لكن أرتميس بروكتر كانت تعتقد أنك جبان إذا لم تفعل الأشياء بنفسك: إصلاح السيارات، جز العشب، ونعم، فتح بريدك اللعين بنفسك. إضافة لذلك، على جزيرة هيدرا اليونانية، أرتها عرافة عجوز – حين كانت أرتميس أفروديت بروكتر في التاسعة

من عمرها – موتها، وهذا، حسنًا... جالت عيناها نحو كومة القمامة ذات الطبقات، ونحو الصندوق الذي لا يزال محزومًا ويعيش حياته الثانية كمسند قدمين، وإلى كومة البريد التي تهدد بإغراق محمصة الخبز خاصتها. هذا، فكرت، ليس هو الموت. وإذا كان كذلك، فلا بأس. رحمة. شقت الصندوق. بداخله كان صندوق آخر. شقت ذاك أيضًا.

ناظرة للداخل، تساءلت بروكتر في البداية إن كانت هذه سخرية وداع من ديبس، لكن عنوان بريد هلسنكي لم يكن له معنى، وهبطت معدتها من المعرفة المفاجئة والمؤكدة للجهة التي أرسلته. كان الصندوق محشوًا بصور عارية لـ أرتميس بروكتر. التقطت جميعها قبل عامين خلال عملية فاشلة في دوشنبه، وجميعها كانت موجودة بالفعل هناك على الشبكة العنكبوتية ليراها الجميع. لم يكن هذا تهديدًا – على الأقل ليس بعد – هذا كان توقيعًا روسيًا. بداخل ذلك الصندوق كان هناك قرص مدمج (CD) وصندوق آخر، صغير ومخملي. يبدو أن الروس لا يزالون ينسخون الأقراص المدمجة، الحمقى. وضعت ذلك جانبًا. صكت فكيها ناظرة للصندوق المخملي. زفرت بعمق. فتحته بنقرة. خصلة شعر. قارورة دم. مربعان من الورق المقوى ملطخان ببصمات أصابع. كانت صفارة إنذار تدوي في جمجمتها.

يجب أن يُؤخذ هذا إلى لانغلي، قال صوت بعيد. لا ينبغي إدخال القرص في كمبيوتر شخصي. اركبي سيارتك الآن وقودي إلى المقر الرئيسي، قال الصوت. لكنها كانت تنقب في خزانة. كانت تزيح كتبًا مغبرة لم تُقرأ وصناديق أكثر غبارًا لم تُفتح. كانت تمزق حاوية لأسلاك طاقة قديمة وبطاريات. هناك، اللابتوب القديم. الصوت المزعج اللعين الذي يصرخ حول الالتزامات تجاه الـ CIA تلاشى، ولم تعد تسمع الآن سوى عواء صفارة الإنذار. كانت مسؤولة عن صديقها. إضافة لذلك، هم أرسلوا لها الصندوق اللعين على أية حال. إضافة وإضافة: كانت قد شربت. إضافة وإضافة وإضافة: هي لم تعد تعمل لدى الـ CIA.

شغلت اللابتوب وأدخلت القرص وضغطت تشغيل – وانتظرت. كمبيوتر قديم بطيء. قاومت بروكتر إغراءً شديدًا لتحطيمه لفتات، لكنها كانت بحاجة لهذه الآلة العتيقة. وجدت بعض العزاء، وهي تراقب عجلة الانتظار تدور، في معرفة أنها ستحطمه لاحقًا.

شاهدت بروكتر الفيديو كاملًا مرة واحدة، مدفوعة بواجبها تجاه صديقها. كانت الدقائق الأربع الأولى وابلًا من لقطات معدلة ومجمعة لتهيئة المشهد: لقطات له جالسًا على طاولة، يقول اسمه، ينفي أنه من الـ CIA، ثم يقدم ما بدا وكأنه اعتراف متعرج. كان في غرفة مظلمة أمام جدار من الطوب. ليفرتوفو[10]؟ من المستحيل المعرفة. بدا أنحف تدريجيًا مع تقدم الفيديوهات، وكأنهم قبل كل تسجيل جديد كانوا يغرفون المزيد منه. الدقائق من الرابعة للعاشرة كانت سلسلة من اللقطات الصامتة: لقطة علوية له يخرج من غرفة؛ جالسًا، مقيدًا، في كرسي؛ رجلان – وجهاهما خارج الكادر – يرفعانه حتى تتدلى أصابع قدميه على الأرض وترتفع كتافه تقريبًا فوق رأسه. لدقيقة كاملة راقبته يتأرجح مقلوبًا رأسًا على عقب. التأرجح كان إيقاعيًا، مسالمًا تقريبًا. شعره المتدلي يلامس أرضية خرسانية. عيناه جاحظتان. كانت هناك بضع لقطات لـ سام مستلقيًا عاريًا بجوار هيكل عظمي لامرأة، ملفوفًا بين ذراعيها اللتين تحملان آثار الحقن.

الدقائق من العاشرة للرابعة عشرة كانت الأصعب مشاهدة. مرة أو مرتين رغبت بشدة في إطفائه. لكنها لم تستطع.

أجبرت نفسها على مشاهدة تلك الدقائق الأربع التي كان فيها سام جوزيف ممددًا على الأرض، ووجهه محشور في الجدار. كان يتمتم، لكنها لم تستطع تمييز كلمة واحدة. أحيانًا كان يبدو وكأنه يبتسم، وكان الأمر موحشًا لدرجة اضطرتها للنظر بعيدًا. في الدقيقة الرابعة عشرة، قال صوت مرح، بالروسية:

---

[10] سجن ليفرتوفو: معتقل التحقيق سيء السمعة التابع للأمن الفيدرالي (*FSB*) في موسكو، والمخصص تاريخياً لعزل واستجواب الجواسيس وكبار السجناء السياسيين.

– «صامويل لديه أطباء. لديه زوار. يتم إطعامه. لا ينام جيدًا لكنه بخلاف ذلك بخير. إنه يعدّ. إنه يعد ليمضي الوقت!».

لم توقف الرنين في جمجمتها إلا بالتقاط كرسي وقذفه نحو الجدار عبر غرفة المعيشة. بالكاد سمعت صوت الارتطام. انتهى الفيديو بلقطة لـ سام يمنح الجدار تلك الابتسامة الميتة والراوي يقول مجددًا: ضابط الـ CIA صامويل جوزيف يعد ليمضي الوقت!

الفصل التاسع

موسكو

قال كيرتس:

– «أعتقد أنه سيكون من الأفضل إخبارهم بالحقيقة».

كان ظهره مستندًا إلى جدار الصندوق، وركبتاه مضمومتين إلى صدره. رفيق زنزانة سام الجديد يتحدث الانغليزية بنغمة غير قابلة للتحديد، أصر كيرتس على أنها لهجة «بنسلفانيا الهولندية»، لكنها مع ذلك بدت أجنبية. وحين يُضغط عليه، كان كيرتس يسحبهم إلى غابة كثيفة من القصص حول طفولته في بلدة صغيرة قرب لانكستر، والتي لم يستطع سام تذكر اسمها، وحتى كيرتس بدا أحيانًا وكأنه يتلعثم في نطقها. لولا كل أكاذيبه، لكان كيرتس كاهنًا. كان يتمتع بجو اعترافي، وقدرة دؤوبة على توجيه حتى أكثر المحادثات شرودًا لتعود إلى موضوعه المفضل: الحقيقة.

سأل سام:

– «ولماذا ذلك؟».

– «لأنهم حينها سيطلقون سراحنا».

كان سام يحصي وجباته منذ وصول كيرتس. لم يستطع التأكد من الساعات، ناهيك عن الأيام أو الأسابيع أو الأشهر، لكنه كان يعلم أنه شارك خمس عشرة وجبة مع كيرتس.

قال سام:

– «لن يطلقوا سراحنا يا كيرتس».

أخفى كيرتس وجهه بيديه وأطلق زفرة يائسة.

– «كيف يمكنك أن تكون متأكدًا؟».

– «لقد كنت أخبرهم بالحقيقة.. وها أنا ذا».

***

بعد وجبتين، كان سام و كيرتس يجلسان على طرفي نقيض من الزنزانة، يحدقان عبر بعضهما البعض. شعر سام بأن كيرتس يحاول قراءة أفكاره. أما سام، من ناحية أخرى، فقد كان يعد السطر الخمسين من النجوم على الجدار، وقد فقد العد بشكل جنوني أثناء محاولته تذكر كم نجمة يحجبها رأس رفيقه في الزنزانة.

بدأ كيرتس:

– «لا أعتقد.. أن بروكتر كانت لتوافق على طريقة تعاملك مع هذا».

قال سام، وعيناه تستعيدان تركيزهما لتستقرا على كيرتس:

– «من؟».

طأطأ كيرتس رأسه وخطف قطعة بسكويت أخرى من صينيته.

– «هل تريد الموت هنا؟ ماذا عن والديك؟ ناتالي؟».

سأل سام:

– «كيف قلت إنك عرفت بشأن سنغافورة؟».

تنهد كيرتس بمسرحية، ثم عرض حكايته الملتوية: كيف كان ضابطًا متخفيًا بعمق لصالح محطة موسكو. كيف اختطفه الروس من شوارع موسكو في اليوم الأول وجلبوه إلى هنا. كيف عرف كل شيء عن غوليكوف. كان يعرف بأعجوبة، مثلًا، أن غوليكوف قد شارك سرًا مع سام، وتوسل لـ سام أنه لو أخبرهم فقط بما هو، فربما يخرج كلاهما حرًا. «لدي زوجة وطفلان صغيران»، كان يقول ذلك، ثم يجهش بالبكاء. كان كيرتس نادبًا استثنائيًا؛ يمكنه إطالة الأمر لما يبدو كساعات؛ العويل والشهيق، وفي النهاية، الصراخ الذي يصل لدرجة حدة جعلت سام يتمنى لو يستبدله بأصوات الضرب التي يضخونها عبر مكبرات الصوت غير المرئية، تلك التي لم تكن سوى صرخات.

لا بد أن أداء كيرتس قد دفع المستمعين الروس للجنون، لأنه بعد وجبة واحدة من ذلك، فتح رجلان الباب بعنف وسحلوه للخارج. الصراخ، كما فكر سام، كان قد خفت بحلول ذلك الوقت. حاول آسريه تمثيل جلسة تعذيب دموية وصاخبة بشكل كارثي لـ كيرتس خارج باب الصندوق مباشرة، مكتملة بجلبة من الصراخ، والهمهمات، والصيحات الشاكية، والغرغرة، وأزيز مثقاب غير مرئي. استمر ذلك لما قد يكون ساعات. ثم توقف فجأة كما بدأ. في النهاية، أحضروا سام إلى غرفة بها شاشة تعرض كيرتس راكعًا أمام جدار. جلس محقق مجهول الاسم قبالة سام. معًا، راقبا كيرتس على الشاشة لبضع ثوانٍ ذات مغزى.

نباح المحقق:

– «ماذا أخبرك غوليكوف؟».

– «سألني عن الويسكي الخاص بي».

– «إذا لم تخبرنا، فسنقتل السيد هاسب».

– «كيرتس؟».

– «نعم. كيرتس هاسب. ضابط زميل في الـ CIA».

دخل رجل إلى إطار الشاشة؛ كان يحمل مسدسًا بجانبه. تعلقوا جميعًا هناك للحظة. عبر مكبرات الصوت سمع سام أنين كيرتس.

كرر الرجل لـ سام:

– «ماذا قال لك بوريس غوليكوف؟».

– «سألني عن الويسكي الخاص بي».

تنهد المحقق ثم أجرى مكالمة هاتفية قصيرة. دوى صوت طلق ناري عبر مكبرات صوت الشاشة. ترنح كيرتس للأمام. أظلمت الشاشة قبل أن يتمكن سام من رؤية مدى إتقان الرجل لتقليد جسد هامدة يرتطم بالخرسانة.

قال سام:

– «الحمد لله».

***

أيقظه من نومه خمش أظافر عبر وجهه وجبهته، وفوقه في الظلام استقرت ملامح وجه. لم يستطع الشعور بساقيه. لم يستطع تحريك ذراعيه. لم يستطع التقاط أنفاسه. انزلق لسان في فمه، طويل وأفعواني، يدغدغ لثته والجانب الخلفي لأسنانه. احتضنت يدان رأسه وشعر بضغط شخص يجلس فوق صدره. حين تراجع اللسان، سمع، وكأنه من مسافة بعيدة، صوتًا أنثويًا أجش لم يستطع فهمه. لامست يداها جسده: شعره، خديه، كتفيه. ثم عادت أظافرها للعمل: بضع ضربات خمش قشطت الجلد عن وجهه. حاول الصراخ لكنه وجد أنه لا يستطيع إصدار صوت. غاص لسانها مجددًا في فمه، هذه المرة يحفر نحو حلقه، محاولًا سحب النفس من رئتيه. حين انفكت شفتاها عن شفتيه، بدأت رطوبة لسانها تنزلق على طول عنقه.

***

فتح عينيه على ضوء معمي وهدوء مسالم. كانت امرأة تشبه الهيكل العظمي، بعينين حالمتين ومنهكتين، تجلس متربعة أمامه. شعرها الرقيق كان ذهبيًا شاحبًا ويتدلى بلا حياة حتى كتفيها. وجهها كان مفرغًا من الحياة؛ وآثار الحقن تغطي ذراعيها. كانت تضع أحمر شفاه فاقعًا وتبتسم ابتسامة ميتة بدت وكأنها تنزلق إلى داخل صدره.

قالت بإنجليزية متقنة النبرة:

– «حين تنام يا صامويل.. أنا أزورك حين تنام».

***

أحيانًا حين يستيقظ، كانت ترتدي بدلة سجن زرقاء منشية. وأحيانًا كانت عارية.

***

كانت رائحة شعرها نظيفة ومنعشة، كالزهور. بشرتها كانت بيضاء وقذرة، بلون الحليب الممزوج بالرماد.

***

أسنان ملتوية بفوضوية تبرز من خلال ابتسامتها الميتة. لكن أحمر شفاهها لم يكن ملطخًا أبدًا. كان أشد درجات الأحمر سطوعًا رآها في حياته.

***

قرر أنها لا تملك اسمًا. لم يكن لها اسم قط.

***

كان عمودها الفقري كسلسلة من اللؤلؤ. كانت ممدة على الأرض بجانبه. كانت هي الملعقة الصغيرة وهذه المرة كانت عارية. كان المكان هادئًا. الأضواء مضاءة. لم تكن لديه ذاكرة لآخر وجبة له. لم يستطع تذكر عدد النجوم الحمراء الصغيرة على الجدران، ناهيك عن أين توقف. منذ وصول المرأة، أنجز القليل جدًا من العد.

استشعرت حركته وقالت:

– «لم يكن عليك فعل ذلك بي. أنا مريضة جدًا. وأنت ستكون مريضًا أيضًا».

تدحرج مبتعدًا عنها. ثبت نظره على النجوم الحمراء الصغيرة وبدأ العد.

***

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وسبعة وعشرون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وثمانية وعشرون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وتسعة وعشرون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وثلاثون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وواحد وثلاثون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة واثنان وثلاثون.

الضباب كان يزحف.

كانت لديه القوة ليضع علامة عند النجمة التي توقف عندها. انتصار. لقد سجل انتصارًا. غط في النوم.

***

استيقظ على رائحة ما تركته هي في الدلو. كانت تجلس متربعة في الجانب البعيد من الغرفة تلف شعرها حول أصابعها كأشرطة الزينة. كان بإمكانه تذوق أحمر شفاهها على لسانه. هذه المرة كان هو العاري. وهي ترتدي بدلتها الزرقاء.

قالت:

– «سمعت أن لديك سرًا. هل ستخبرني؟ سأذهب بعيدًا إذا أخبرتني».

تدحرج نحو الجدار. ضيق عينيه. صوب. وجدها.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وثلاثة وثلاثون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وأربعة وثلاثون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وخمسة وثلاثون.

أحد عشر ألفًا وأربعمائة وستة وثلاثون...

***

أغلق ريم المجلد وأطفأ فيديو صامويل جوزيف ورفيقته، الفتاة الغولية التي التقطوها من زاوية شارع في موسكو بوعود بكميات لا نهائية من الهيروين. فحص ساعته: لديه حجوزات الليلة في مطعم «الأرنب الأبيض». المطعم كان إسرافًا بالنسبة لراتبه كبيروقراطي، والموعد الفاخر كان عربون سلام لـ نينيل لأنه لم يفعل شيئًا مؤخرًا سوى العمل. جربته الرغبة في الإلغاء – لديه موعد مع المدير في الصباح الباكر ولا يزال هناك المزيد من الأشرطة للمراجعة – لكنه لن يفعل. ريم متزوج منذ كان في الثالثة والعشرين، معظم ذلك الوقت من نينيل. كان يعرف أين رُسمت الخطوط. ارتدى سترة بدلته، أطفأ أضواء مكتبه، وغادر للعشاء مع زوجته.

قالت نينيل، متحدثة فوق شوكة مليئة بالبازلاء علقتها أمام فمها:

– «أنت هادئ الليلة».

كانت ترتدي فستانًا أزرق داكنًا واللآلئ التي أحضرها لها من طوكيو. شعرها الرمادي كان مرفوعًا. لطالما أحب أنها لم تصبغه، كما فعلت بعض عشيقاته. جمال نينيل كان ملكيًا وخالدًا؛ فلماذا تفسده بشبابٍ رخيص مزيف؟

كانت طاولتهما بجوار نافذة تطل على نهر موسكفا وأضواء شارع أربات. غرفة الطعام الصاخبة كانت مصممة على شكل نصف أسطوانة: طويلة، بنوافذ نصف قمرية على طراز «الآرت ديكو» في النهايات، وشاشة قماشية مشدودة عبر السقف كجلد منطاد. المقاعد الجانبية كانت سيئة التنجيد وكان عليه تغيير

وضعيته باستمرار. كان يعمل على حساء الهليون والقراص وشعور غامر بالهبوط تجاه اجتماعه غداً مع المدير. كان لا يزال جائعًا جدًا.

تذمر قائلًا:

– «العمل».

لم يسترسل. مع نينيل، لم تكن هناك حاجة.

سألت وهي تومئ للنادل:

– «كيف هو حساءك؟».

– «جيد.. جيد جدًا».

رشف ملعقة ليؤكد وجهة نظره وحضّر نظرة عبوس للنادل النشال المقترب.

قالت نينيل:

– «أتمنى لو تطلب المزيد من الطعام. أضلاع اللحم البقري، ربما؟ طبقه المفضل. إنها ليلة خاصة».

وصل النادل.

– «كأسًا آخر، من فضلك».

ألف وستمائة روبل، فكر ريم. مضافاً للضرر الذي ألحقته نينيل حتى الآن يجعل المجموع... 12,830. وهي ستطلب الحلوى، وربما مع نبيذ الثلج أيضًا.

قال ريم محبطاً لأن النادل لم يلحظ حتى نظرة عبوسه:

– «لست جائعًا جدًا».

– «أحقاً؟ أم أنك تجري تمريناً رياضيًا مرهقاً آخر في رأسك؟».

مع همهمة استياء، أخذ رشفة من مياهه المعدنية وغمس ملعقته مجددًا في الحساء.

– «لا تكوني سخيفة. لقد تحدثنا عن هذا».

– «أجل.. تحدثنا».

عاد النادل بكأس نبيذها. هذه المرة نجح ريم في إرسال نظرة عبوسه، التي طردت النادل قبل أن يتمكن الرجل من بيع شيء آخر لهما.

قالت وهي تأخذ رشفة:

– «حسنًا، بما أن الأمر يلقي بظلال كئيبة، لم لا تخبرني عن هذه المشكلة في العمل؟ ما الذي يزعجك؟».

– «أوه، الأمر بخير. دعيننا لا نفسد العشاء بحديث العمل. أخبريني عما تقرأينه. رأيت كتاب "الغابة النرويجية" على منضدتك الليلية. هل عدتِ لقراءته؟».

كانت نينيل تنقر بظفرها على قاعدة كأسها. عينها اليمنى انغلقت قليلًا – لكنها كانت حريصة على متابعته بثبات بكلتيهما – ومالت للخلف في كرسيها، وهي وضعية تتخذها حين تأخذ دقيقة لترش الزجاج المطحون عبر نبرة صوتها.

قالت:

– «ستة أشهر قبل تقاعدك المؤجل أصلًا، وأنت تتعرق قلقًا من العمل. وتسمح له بإفساد حفلات عشاء مبهجة! سأعطيك خيارًا يا ريم. خيارين. الأول هو أن ندردش حول تقاعدك الوشيك. يمكنك الإجابة على أسئلة أساسية، جميعها حتى الآن تم تحويلها أو تجاهلها. قد تتضمن: ما هو شعورك تجاه التقاعد؟ ماذا تخطط أن تفعل بوقت فراغك؟ هل ستحدد موعدًا لرحلة لنحتفل، كما ناقشنا؟ تصحيح: كما توسلت وطالبت بالتناوب؟ وقد تنشأ أسئلة أخرى، حسبما يقتضي الحديث».

صوب الآن نظرة عبوسه نحو رمح هليون يكسر سطح حسائه.

– «ما هو الخيار الآخر؟».

– «تتحدث عن هذه المشكلة في العمل، بالطبع».

– «ذاك إذًا».

وصل الموظفون لتنظيف أطباقهم. قبل أن يتمكن النادل من عرض الحلوى، لوح له ريم بالانصراف.

– «الفاتورة».

قالت نينيل وهي تربت بمنديل على شفتيها، وهو ما تفعله حين تمسك لسانها:

– «حسنًا إذًا.. أكمل».

قال:

– «أنا مسؤول عن أمن شخص ما. شخص مهم جدًا لنا. وأنا قلق من أنه في خطر. أو سيكون في خطر قريبًا. من الصعب الشرح دون الدخول في تفاصيل».

– «ماذا يمكنك أن تفعل حيال ذلك؟» – ارتفعت يدها – «بصرف النظر عن إفساد عشائنا؟».

يا إلهي، فكر. كان ظهره للمطعم، لكنه استطاع بسهولة تخيل نظرة الغرور على وجه النادل. في الواقع، كانت هي كل ما استطاع تخيله.

قال:

– «أعتقد أنني أعرف كيف أحمي هذا الشخص، هذا المصدر. لكن لفعل ذلك... حسنًا، سيتعين علي فعل شيء سيء للغاية يا نينيل. لا توجد طريقة أخرى لصياغة الأمر. ولست متأكدًا أن المدير سيدعم قراري، رغم أنه قد يريد مني فعل هذا الشيء على أية حال، لأنه يقضي على مشكلة محتملة ويضع كل اللوم المستقبلي مباشرة عند قدمي. لست حتى متأكدًا أن هذا الشيء السيء ضروري. كالعادة، الأمر كله مربك. وكله على كاهلي».

قرقع بملعقته في الوعاء. أفكار صامويل جوزيف جرفت شهيته.

قالت نينيل:

– «أنت متعصب. جندي جيد. مدمن عمل، سمِّه ما شئت. اختر ما يحلو لك. تحتاج أن ترفق بنفسك. ستنتهي في ستة أشهر يا ريم».

قال: «باه»، وعدل جلسته باحثًا عن الراحة. نظر خارج النافذة، متجاوزًا نينيل. ومضت صورة عبر عقله: الأمريكي ممدد في الصندوق، والفتاة المقطرة بالهيروين تمتص وجهه. ماذا بحق الجحيم كان ذلك؟

– «إنه في عمر بيوتر. ويشبهه نوعًا ما. لست متأكدًا أنني أستطيع فعل ذلك. لست متأكدًا إن كنت بحاجة لذلك ولست متأكدًا إن كنت أستطيع. كانت لدينا قواعد يومًا ما يا نينيل. في سالف الزمان كانت لدينا القواعد اللعينة. الآن لكي تتقدم عليك كسرها. إنه أمر ملعون».

– «عمن تتحدث؟ من الذي يشبه بيوتر؟».

عالجها بنظرته المتوسلة المعتادة. كانت تقول: هنا تمامًا يا نينيل، هنا وجدتِ الخط الأحمر.

قالت وهي تلتفت للنافذة:

– «حسنًا. لكن من يهتم بالتقدم؟ أنت متقدم يا ريم. أنت متقدم جدًا، أنت على بعد ستة أشهر من الانتهاء».

وصل النادل.

قالت نينيل:

– «سنتناول الحلوى رغم كل شيء».

قال النادل:

– «رائع. سأحضر القوائم».

خطا خطوة واحدة مبتعدًا قبل أن يوقفه صوت نينيل.

– «لا داعي. أعرف ما نريد. سأخذ فطيرة الراوند» – المجموع الجديد: 13,420 – «وهو سيأخذ... ريم عزيزي، ماذا تريد؟».

– «لست جائعًا».

– «سيأخذ كعكة العسل. وسنأخذ أيضًا كأسين من نبيذ الثلج مع الحلوى. وقهوة لكل منا بعد ذلك. شكرًا لك».

هرول النادل مبتعدًا، وفي خطواته قفزة فرحة.

سألته:

– «كم الضرر الآن؟».

انقض على كأسه ليتفادى عينيها. لحوالي عشر ثوانٍ لم يتحدث أحد. ثبتته نينيل بابتسامة غير لطيفة. تنهد.

– «لا أعرف».

– «أي سعر نسيت؟».

– «لم أنسَ. تحتاج أن تعرف شيئًا لتنساه».

– «أيّ» – كان بإمكان نينيل بمهارة ضغط فقرات من التوتر في كلمات مفردة – «نسيت؟».

– «نبيذ الثلج».

– «ألف ومائتان للكأس».

فكر للحظة. أعاد طي المنديل في حجره.

– «سبعة عشر ألفًا وخمسمائة وسبعون».

مالت نحو الطاولة لتمسك بيده.

– «عزيزي، هذه النزوة الصغيرة لديك ستكون لا تُطاق في إجازتنا بعد تقاعدك».

قال وهو يعصر كفها:

– «أوافقك الرأي.. لنلغِ الرحلة إذًا».

الجزء الثاني
أصدقاء أعزاء وأعداء مبجلون

الفصل العاشر

كيسيمي، فلوريدا،
بعد ثلاثة أشهر.

لم يكن التمساح "بيتي النعسان" نعسانًا في الحقيقة. كان الأجدر أن يُسمّى بيتي الشرس أو بيتي اللئيم. فهو، في نهاية المطاف، "عضّاض" معروف. واللعنة، لقد عضّها هي شخصيًا مرتين.

الأولى كانت بالقرب من كوعها تمامًا حين كانت لا تزال تتعلم أصول المهنة. قضت بسببها ظهيرة كاملة في المستشفى بـ هانترز كريك. الأمر يحدث للجميع؛ فالمسألة مسألة "متى"، وليست "لو"، كما كان كامينغز يقول. أما الثانية فكانت في يدها اليسرى. وهو أمرٌ مخجلٌ قليلًا.

كانت تحاول الإمساك بـ بيتي الآن، لكن يديها كانتا مثل الزبدة الزلقة في هذا الحر الرطب. سحبت بيتي من البحيرة الطينية. كان يرسم نصف ابتسامة مرعبة، وقدمه العرجاء تخلّف ندوبًا في الرمل. غرزت صندلها في الأرض وجرجته عبر الشاطئ. كان الجمهور يصرخ، بصوت أعلى من المعتاد، والغرائز البدائية تتصاعد: ثمة دماء قادمة. لقد شاهدت هذا الفيلم من قبل، يا إلهي، لقد شاهدته كثيرًا. سيقوم الأطفال بنشر الفيديو على وسائل التواصل الاجتماعي، وبحلول المساء سيصل إلى قناة «FOX 35» ومحطات أورلاندو الأخرى. ثمة شهرة معينة تأتي مع العنف، لكنها غالبًا ما تكون سيئة للأعمال؛ فزبائن «غاتورفيل[11]» يدركون سريعًا أن الدور قد يكون عليهم تاليًا.

---

[11] غاتورفيل (*Gatorville*) أو غاتورلاند: موقع سياحي في فلوريدا وتحديدًا في مدينة أورلاندو، يُلقب بـ "عاصمة التماسيح"، واشتهر عالمياً بتقديم عروض ترفيهية حية لمصارعة التماسيح وإطعامها.

توقفت للحظة لالتقاط أنفاسها، فشرع بيتي النعسان في الزحف عائدًا نحو البحيرة. تهادت عبر الرمل خلفه، وأطبقت يديها على ساقيه الخلفيتين، ثم اعتلت ظهره محاولةً تغطية عينيه لتتمكن من إطباق فكيه. انزلقت قبعة «كليفلاند إنديانز» الخاصة بها في الرمل الرطب، وتهدل شعرها الأسود الأشعث ليغطي عينيها.

كان بيتي النعسان هائجًا. ولم تلمْه. ثمة فتاة بشرية فوق ظهره تصفع وجهه وتجره من ذيله خارج بحيرته الحبيبة.

لوّح بذيله بعنف، وبدأ يلتوي ويتلوى ليغرس أسنانه في ذراعها. كانت مركزة الآن، تضغط بزمامه في الرمل بقوة عضلاتها، وتغطي عينيه. بيد واحدة، انتشلت القبعة من الرمل ووضعتها على رأس التمساح الوغد.

جزت على أسنانها وهي تهمس في الميكروفون المثبت على قميصها:

– «إليكم لقطة لا تُفوّت يا قوم».

سقطت القبعة سريعًا، لكنها خمنت أن الأمر كان محرجًا قليلًا للتمساح، وهي تؤيد تمامًا إحراج بيتي النعسان انتقامًا للعضتين. وبمجرد أن حشرت خطمه في الرمل، زلقت يدها نحو شفتي التمساح – أو أيًا كان اسمهما بحق الجحيم – وأطبقت فكيه بإحكام. كانت تمتطي كتفيه. رفعت رأس بيتي النعسان في الهواء بحيث أصبح أسفل خطمه موجهًا مباشرة نحو الجمهور. ارتفعت همهمة من المدرجات، وهمست هي في أذني التمساح الصغيرتين بأنها تملكه، وأن هذا هو مستنقعها.

حينها، جلد التمساح الهواء بذيله، ففقدت توازنها وسقطت في الرمل، متمتمةً «جحيم مقدس، تبأً» في الميكروفون المفتوح، بينما انقض التمساح نحوها والجمهور في حالة هيجان، الآباء يحجبون عيون الصغار؛ كان هذا هو نوع الأزمات الذي قد يستلزم علاجًا نفسيًا لاحقًا، من تلك الأنواع الغريبة التي لا يغطيها التأمين. قفزت فوق سياج، وفكا التمساح يطبقان على بعد بضع بوصات خلف سروالها القصير، وتدحرجت في غابة من النخيل، والشتائم تملأ

الميكروفون وتدوي عبر مكبرات الصوت. كان كامينغز يندفع إلى الحلبة خلف بيتي النعسان.

كان يصرخ:

– «أرتميس! أرتميس، اللعنة. اللعنة، يا أرتميس، عودي إلى هنا. أرتميس!».

***

بمجرد أن أعادوا بيتي النعسان بأمان إلى بحيرته، وبعد أن وزعوا الاعتذارات والمبالغ المستردة وشتى أنواع قسائم الهدايا، وبعد أن حذروا المحامين في كيسيمي من طوفان الدعاوى القضائية القادم لا محالة، وبعد أن دخنت بروكتر ثلاث سجائر «فرجينيا سليمز» على المدرجات الخاوية، أجلسها كامينغز في مكتبه ليصرخ في وجهها.

فكرت في الأمر: في غضون بضعة أشهر، طُردت من الـ CIA والآن ربما من "غاتورفيل". ضربة مزدوجة لم تحدث لأحد من قبل، وربما لن تتكرر. لكن كامينغز لم يكن يريد طردها، بل أراد الصراخ فقط. الأيدي العاملة كانت نادرة دائمًا في «غاتورفيل». لم يكن بوسعه تحمل تكلفة البحث عن شخص آخر.

سألته بعد أن انتهى من الصراخ:

– «هل ما زلت تريدني أن أغطي عرض "الجامبارو[12]" غدًا؟».

أشار إلى الباب:

– «اغربي عن وجهي واللعنة».

كانت مقطورتها السكنية تربض على بضعة فدادين قبالة بوغي كريك أجرها لها كامينغز بسعر رخيص؛ رقعة رملية كثيفة بأشجار البلميط والبلوط تجاور مستنقعًا يغلي في القيظ. مملكة بروكتر في «ولاية الشمس المشرقة» كانت تتباهى بمطبخ صغير مع ركن جلوس، وغرفة نوم، وحمام، وغرفة

---

[12] الجامبارو (*The Jumparoo*): عرض شهير في منتزه "غاتورفيل" بفلوريدا، تقفز فيه التماسيح بضخامة خارج الماء لالتقاط الدجاج النيء من حبل معلق أو من يد المدرب.

معيشة ضيقة تعمل كمخزن أيضًا. الأريكة كانت مترهلة، تركوازية اللون ومطبوعة بالزهور. ومعظم الستائر كانت من الخرز.

ركنت بروكتر سيارتها الـ RAV4 بجوار رف الأثقال الصدئ. كان المستنقع يضج بأزيز الحشرات. الهواء رطب، والسماء مثقلة بمطر لم يهطل بعد. في الداخل، رفعت صوت موسيقى الرقص الإلكترونية (EDM) عاليًا لدرجة جعلت نوافذ المقطورة ترتجف وستائر الخرز تترقرق.

ولتشتيت نفسها عن منغصات اليوم، اعتنت بالترسانة الصغيرة المحشورة تحت سريرها. أولًا، مسحت بقطعة قماش مبللة بزيت التنظيف ماسورة صديقتها العزيزة، بندقية «موسبرغ» عيار 12. تاليًا، نظفت مقبض مضربها العزيز ثم طلته بقطران الصنوبر، مادة ذلك لمسافة لا بأس بها أعلى الماسورة لزيادة الاحتياط. بندقية M4 كانت في حالة ممتازة. فكرت في تفكيك وتنظيف الرشاش الآلي Mk 48 الذي يلقم بالحزام، لكنها لم تستطع استجماع الطاقة. عادت الحقائب تحت السرير.

تجرعت كأسًا من الجن وارتمت عبر الملاءات. ومع انهمار أولى قطرات المطر التي أغرقت نقيق الضفادع وقرقعتها، غطت بروكتر في النوم.

***

في اليوم التالي، وزع كامينغز عقاب بروكتر على مهزلة بيتي النعسان: لمدة ثلاثة أسابيع ستغطي عروض «غاتور-مانيا» في الحادية عشرة والنصف والثانية والنصف، ثم تعلق الدجاج الكامل وجيف الخنازير لعرض «الجامبارو» في الرابعة عصرًا.

قال وهو يشبك يديه الممتلئتين أمام فمه ويميل بكرسيه للخلف، وهي عادته حين يكون راضيًا عن نفسه:

– «ويا أرتميس، أنتِ من سيدير عملية التفكيك والتنظيف».

عروض «الجامبارو» كانت تدر مالًا وفيرًا لـ كامينغز، لكن بروكتر لم تكن تطيقها: فمهمتها – التفكيك، المعروف أيضًا بالتنظيف – كانت عذابًا أليمًا، كمسح الأرضيات بعد يوم طويل في الكولوسيوم. أحشاء الخنازير والدجاج

كانت تتطاير عبر أقسام الممر الخشبي، حيث تُداس وتُهرس داخل الشقوق بفعل السياح المندفعين للاحتماء. بحلول وقت متأخر من الظهيرة، كان الذباب يتجمع، ورائحة الجو نفاذة، وكان على بروكتر استخدام «عصا اللحم» لتنظيف الدماء والأشلاء من بين الألواح. العصا كانت، في الواقع، مقبض مكنسة بُرد ليدخل بين الشقوق. وأحيانًا كانت تعلق.

كانت تشد الشيء بقوة حين لمحت طيفه واقفًا عند الطرف البعيد للممر الخشبي. بدا كما هو. ماذا كانت تتوقع؟ ظهرًا منحنيًا؟ عينين غائرتين؟ صلعًا؟ لحية سجن؟ كان يقف منتصبًا، وعلى وجهه نصف ابتسامة عند رؤية «عصا اللحم». الجيوب حول عينيه كانت أكثر ترهلًا، لكن ما لم تكن تعرف أين قضى صيفه، فلن تلاحظ شيئًا مريبًا، عدا ربما أن الرجال الوسيمين ذوي العضلات المفتولة كانوا عملة نادرة في «غاتورفيل»، وحين يظهرون، غالبًا ما يكونون محاطين بالأطفال.

تحررت العصا فجأة، فألقتها جانبًا. حين وصلت إليه، جذبته لعناق. لعدة لحظات بقيا هكذا. لم ترد أن تفلته. ولم تكن لديها أدنى فكرة عما ستقوله.

كانت تعلم أن سام قد خرج، بالطبع. اتصل ماك حاملًا الأخبار يوم التبادل، حين عاد سام إلى أرض الوطن. وزار ثيو «غاتورفيل» قبل أسابيع، بينما كانوا يستجوبون سام في «المزرعة». قضت هي و ثيو الوقت في الشرب غالبًا، وقد باح ببعض التفاصيل: حدثت مقايضة. قام ماك و غاس بشيء بطولي غامض. جسديًا، سام بخير.

سألته حينها:

– «وعقليًا؟».

رد ثيو:

– «الوقت مبكر.. مبكر جدًا للحكم على ذلك».

كان فمها ينفتح للحديث حين قال:

– «تعلمين أن هناك كمية لا بأس بها من الدم على هذا القميص يا زعيمة».

تراجعت نصف خطوة للوراء، وشدت القميص، وهو قطعة زرقاء مسودة طُبع عليها تمساح أمهق مغمور في المستنقع، وعيناه تطلان فوق السطح.

قالت:

– «دم خنزير.. مخاطر المهنة».

نظر سام للأسفل. كانت بضعة تماسيح تضرب الماء الأجاج تحتهم.

جذبته لعناق آخر، نسختها هي من طغيان العاطفة.

وقالت:

– «اسمع، أنا لا أجيد هذا النوع من الخطب. لذا، ما رأيك أن تفترض أنني قلت بالضبط ما يجب أن أقوله في لحظة كهذه؟».

– «لقد فعلتِ للتو».

– «أقدر ذلك. ومن الجيد رؤيتك. حقًا وصدقًا. أعترف أنني مندهشة لأن "غاتورفيل" مدرجة ضمن جولة عودتك للولايات المتحدة».

كانت تلك دهشة، وليست كراهية للذات – فتلك ستكون عاطفة لا تليق بـ بروكتر قطعًا. ورغم أن تاريخها مع سام يمتد لأكثر من عقد، إلا أنها خمنت أنه لن يكون متحمسًا جدًا للقيام برحلة شاقة إلى ثالث أكبر منتزه ترفيهي بطابع التماسيح في وسط فلوريدا، ليتبادل أطراف الحديث المرح مع المرأة المسؤولة عن العملية التي أرسلته إلى معسكر اعتقال في موسكو طوال الصيف.

قال وهو يشير بذقنه نحو «عصا اللحم» المرمية:

– «مع فرصة جديدة للحياة، كيف لي أن أفوت هذا؟ متى ينتهي عملك؟».

فحصت ساعتها.

– «قريبًا جدًا من الآن».

مسحت الممر الخشبي بنظرها.

– «يبدو أنني أنجزت معظمه».

– «ألديكِ مكان يمكننا التحدث فيه؟».

– «أليست هذه زيارة اجتماعية؟».

حاول اصطناع ابتسامة، لكن جلد وجهه بدا وكأنه يشتد أكثر على جمجمته حين أطبق فكيه وتلاشى المرح من عينيه.

تمتم سام بصوت خافت وخشن:

– «يجب أن يكون خاصًا.. لدينا مشكلة يا زعيمة. مشكلة كبيرة».

***

كانت الشمس قد تلاشت، والمستنقع يضج بالضفادع وصراصير الليل حين انعطفت نحو الطريق الرملي المؤدي لمقطورتها. ركب سام في مقعد الراكب. بعد مغادرتهما «غاتورفيل» – بشكل منفصل – التقطته من مطعم في كيسيمي؛ لم يرد أن تسافر سيارته المستأجرة إلى منزلها.

خطت إلى الرمل، وقوست ظهرها لتتمطى.

قالت:

– «دعني أستعيد تألقي.. أشطف الدم وما شابه، وبعدها يمكننا الخوض في العمل. في هذه الأثناء، خذ راحتك».

بعد أن استحمت، أعدت بروكتر كأسين من الجن والتونيك في أكواب تذكارية بلاستيكية من «غاتورفيل». جمعت علبة سجائر «سليمز» وقداحة، واختارت منفضة سجائر على شكل كوب من «غاتورفيل»، ذاك ذو الحافة الذهبية والمقبض المشكل كذيل تمساح. انزلقا للجلوس في الركن المنجد.

كان سام جوزيف ضابط حالة ونجمًا صاعدًا اتخذ قرارًا سيئًا: وقع في حب عميلة[13]، سورية، خلال خدمتهم في دمشق، جولة بروكتر الأولى كرئيسة. أرسله «مجلس مراجعة الأداء» في الـ CIA إلى «قفص التأديب» – عامان خلف مكتب تحت إشراف الكبار – لكنه تعافى، وشق طريقه عائدًا للميدان لبضع جولات حتى وُجّه إلى المقر الرئيسي، حيث التقطته بروكتر، وهي في رحلتها عبر «القفص» أيضًا، لضمه لـ «موسكو إكس».

قالت وهي تجهز لنفسها سيجارة:

– «جاغرز.. أهلًا بك في الجنة».

---

[13] إشارة لأحداث رواية "محطة دمشق" الرواية الأولي في الثلاثية

بيرت أو. غولدجاغر كان «الاسم المرح» لـ سام، الاسم المستعار المستخدم في مراسلات البرقيات لتجنب طباعة اسمه الحقيقي على الوثائق. وغالبًا ما كانت بروكتر تستخدم «جاغرز» بدلًا من اسمه المسيحي.

دفعت السجائر والقداحة نحوه، لكنه رفضها بيده.

قال وهو يضرب ستارة الخرز بيده:

– «يا له من مكان.. هل يملكه ابن عمك؟».

– «لا، اشتريته بالكامل. التقطته في طريقي للأسفل».

– «قصدت منتزه التماسيح».

– «آه.. صحيح. نعم. كامينغز. ابن الأخ الأكبر لأمي. الأرض ملك للعائلة منذ الأربعينيات».

أطلقت سحبًا من الدخان وهي تتحدث، والسيجارة مثبتة بين أسنانها.

– «الأجر ليس عظيمًا، لكن لدي معاشي التقاعدي، والامتيازات رائعة».

عند هذه النقطة كشر سام، فوضعت بروكتر يدًا مهيبة على قلبها.

– «إضافة لذلك، آكل وأشرب على حساب "غاتورفيل". وهناك خصم ثلاثون بالمائة في متجر الهدايا».

رفعت كأسها التذكاري باستحسان.

– «عشرة بالمائة فقط في "الإمبوريوم" المتجر الشامل، رغم ذلك».

– «وهل هناك فرق بين متجر الهدايا والإمبوريوم؟».

مع نفثة أخيرة طويلة من سيجارتها، سحقت العقب في الكوب ونقرت مقبض ذيل التمساح بإصبعها.

– «الإمبوريوم أكثر فخامة».

قال وهو يجيل بصره في المقطورة، بنبرة رجل يعلق على طفح جلدي غامض:

– «تجهيزات معتبرة هنا».

– «إنها مقطورة مفردة العرض يا جاغرز. وأنا عازبة كالجحيم، لذا فالأمر يناسبني».

أشعلت أخرى وأدارت قبعة البيسبول للخلف بحيث واجه شعار «الزعيم واهو» الحائط.

قال سام:

– «تعلمين يا زعيمة.. لم يعودوا يُسمون "الهنود" بعد الآن، ولا ينبغي لكِ ارتداء تلك القبعة المسيئة».

– «يا إلهي.. خطأي. الرجل الذي ضُبط يضاجع عميلته يشعر بالإهانة. أنا آسفة جدًا».

أدارت القبعة للأمام وابتسمت ابتسامة عريضة وبيضاء. ثم تلاشت الابتسامة.

كان يضحك خافتًا.

– «أنتِ وغدة بحق يا زعيمة».

– «لم أعد زعيمة.. مجرد وغدة. بالمناسبة، ماذا يجعلك تفعل الآن؟».

– «عدت لامتطاء المكاتب في "موسكو إكس".. أعمل لصالح غاس. حين عدت للوطن خبأوني في "المزرعة" قليلًا، سمحوا للعائلة و ناتالي بزيارتي، قضاء بعض الوقت معًا ولكن في غرف الاستجواب المغلقة، أنتِ تعرفين كيف تسير الأمور. ثم بدأ العمل الجدي: استجوابات الأمن ومكافحة التجسس، تدوين كل شيء، تنقيب عميق من الأطباء والأطباء النفسيين. التتويج كان شهرًا من الإجازة الإلزامية. اتصل بي غاس قرب النهاية، وسألني إن كنت أريد استعادة وظيفتي القديمة».

– «وها أنت ذا».

– «وها أنا ذا».

ارتجف هاتفه في جيبه. نظر للاسم، وقطب أنفه، وطبع ردًا. زقزق الهاتف برد، فحشره عائدًا في جيبه.

سألت بروكتر:

– «ناتالي؟».

– «أجل».

– «ماذا تقول؟».

– «إنها تفتقدني».

– «حسنًا، بالطبع تفعل، فأنت استثنائي. ذكرني: منذ متى وأنتما معًا؟».

– «أكثر من عام بقليل».

– «وهل تعلم ناتالي أنك هنا؟».

– «لا».

– «أين تظن أنك موجود؟».

– «فيغاس».

ضحكت.

– «تعلم يا جاغرز، معظم الرجال يكذبون على حبيباتهم بشأن وجهتهم كي يذهبوا إلى فيغاس. بدلًا من ذلك، أنت تستخدم فيغاس كذريعة لرحلة إلى المستنقعات خارج كيسيمي، وأنت، حسبما أفترض، لست هنا حتى من أجل الجنس أو رذيلة أخرى. ولتتويج كل ذلك، أنت تكذب على المرأة التي انتظرتك بوفاء لتخرج من سجن روسي، والتي، إذا أسعفتني الذاكرة، جوهرة تتلألأ من كل الزوايا، ومشرقية أيضًا. بعبارة أخرى: نقطة ضعف سام جوزيف. والآن، انظر، لقد قطعت طريقًا طويلًا وكذبت لتصل إلى هنا، لذا أتخيل أن هناك أمرًا ثقيلًا قادمًا. يجب أن تشعر بالحرية لرميه عليّ متى كنت مستعدًا».

التقط سام علبة السجائر وجهز لنفسه واحدة. نفخ سحبًا ممزقة عبر ستائر الخرز للحظة، مفكرًا، كما خمنت، في كيفية البدء.

قال:

– «أحتاج لسرد الأمر من البداية. اضطررت لإخبار الروس بقصة، والوكالة بأخرى، و ناتالي وأهلي بثالثة، وسيساعدني أن أعطيكِ النسخة النظيفة، من الغلاف للغلاف».

قالت مع رشفة سريعة:

– «ابدأ من حيث تريد.. لدي وقت وفير».

قال سام:

– «التواريخ ضبابية قليلًا.. بسبب ما هو واضح. لكن البرقية وصلت من موسكو في صباح...».

توقف عن الحديث وحدق متجاوزًا إياها. بدا وكأن عقله قد تعطل.

بداية سيئة، فكرت. قد يكون هذا شاقًا.

قالت:

– «تلك البرقية وصلت من محطة موسكو في صباح الخامس عشر.. الخامس عشر من مارس. يصعب عليّ نسيان ذلك اليوم الآن».

– «صحيح. بحلول ظهيرة اليوم التالي كنت قد أتممت ترتيباتي لـ سنغافورة – الغرفة، النقل السطحي، مصروف الجيب. حولت المال لحسابي وأخذت المائة ألف نقدًا للدفعة المقدمة لـ غوليكوف. وافقتِ أنتِ على البرقية النهائية ووقعتُ أنا إيصالات المال».

قالت بروكتر:

– «وقعتها باسم "دافي داك"، كما سمعت. الإيصالات».

قال ضاحكًا:

– «سمعتِ؟ ألم تنظري؟».

– «لا أحد ينظر للإيصالات اللعينة باستثناء "سنافر" المالية، وهم من اشتكوا لي. لكن أكمل».

– «في الصباح التالي أقلعت من دالاس. هبطت في سنغافورة في الظهيرة التالية وتوجهت مباشرة لطاولات "الباكاراه" ذات الرهانات العالية لاستطلاع غوليكوف. لا أثر له. أعني، واللعنة، الرجل أعطانا فندقًا ونافذة زمنية مقدارها يومين، لكن المكان ليس صغيرًا. صعدت للاستحمام وشرب "ريد بول"، ثم تجولت في الفندق لاستكشاف طبيعة الأرض: المخارج، التدفق، نقاط الأمن الثابتة، وكيف يتحركون. استطلعت خطوط الرؤية لغرف "الباكاراه" العالية. عدت للطاولات قليلًا، ثم هدأت. لا أثر للرجل، الساعة السابعة صباحًا، ونعرف أن الوفد في اجتماعات طوال اليوم. صعدت، ونمت. استيقظت عند الظهر، وحاولت التخلص من إرهاق السفر بالتعرق في الصالة الرياضية».

بينما كان يتحدث، كان سام يفرك ستائر الخرز بين أصابعه وكأنه يسبح بمسبحة.

– «في تلك الليلة عدت لطاولات "الباكاراه". غرفة الرهانات العالية. ليس تلك المخصصة للحيتان. بل المستوى الأدنى. كل مقعد مشغول. ورأيت غوليكوف. يلعب ويتلفت حوله كأنه مرعوب. صرفت أموالي، تجرعت مياهًا فوارة عند البار، وعدت لمقعد عند طاولته. وكنت محظوظًا. كان هناك مقعد فارغ، بجواره تمامًا. طلبت ويسكي، ماكالان، وذكرت عرضًا أنه خلال جولة حديثة في فيغاس جربت نوع الأربعين عامًا. ارتبك الرجل في أوراقه عند الإشارة، لكنه تمالك نفسه، وقال إنه يشرب سبرينغ بانك. شربنا ولعبنا بضع جولات أخرى، ثم مال نحوي قليلًا ليقول شيئًا. لقد حجبت هذا عن الروس. وعن الوكالة...».

بانتظار أن يكمل، تساءلت بروكتر مجددًا إن كان عقل سام قد شرد عن المسار. طال الصمت، وبدا أن سام يتلاشى داخل أفكاره الخاصة، والتي استشعرت بروكتر أنها تتراقص بين تردد في صياغة ما حدث تاليًا بكلمات، أو ربما، عجز عن تذكر الأحداث أصلًا. لفترة من الوقت نقر كأسه.

قالت وهي تنهض ببطء من كرسيها لجلب المزيد من الثلج من المطبخ الصغير:

– «خذ وقتك يا رجل، لا تستعجل من أجلي».

حين استقرت عائدة في مقعدها، نظر إليها سام بوجه بدا حازمًا وخائفًا في آن واحد.

بدأ سام، وكلامه يتباطأ:

– «غوليكوف.. أخبرني بهذا...».

نخع حلقه، وتوقف للحظة وجيزة، ثم تصلب، كأنه يستعد للقفز من منحدر، أو يتحضر لارتطام حادث سيارة.

– «لدي اسم لأبيعك إياه. اختراق للاستخبارات المركزية من قبل الاستخبارات الخارجية الروسية SVR. رفيع المستوى جدًا. لديكم جاسوس روسي مزروع في لانغلي».

كانت بروكتر تحدق مباشرة في سام، وأصابعها تتتبع بلا هدف حافة كأسها.

سألت:

– «أهذه كلمات غوليكوف؟».

– «كل حرف منها».

الفصل الحادي عشر

كيسيمي

لم تملك بروكتر إلا أن تتساءل في قرارة نفسها عمّا إذا كان صديقها القديم قد بدأ يخلط الأمور في ذاكرته؛ فأربعة أشهرٍ تقريبًا في غياهبِ زنزانةٍ روسيةٍ كفيلةٌ بأن تجعل أيَّ شخصٍ يغرق في أضغاث أحلامٍ محمومة، فكيف إذا كان قطًّا عجوزًا مثل سام جاغرز؟ بالتأكيد لن تلومه أرتميس بروكتر على ذلك، بل لعلّها كانت ستلومُ نفسها وتتحملُ جزءًا من الوزر، فهي التي شهدت ولادة تلك العملية الفاشلة. لكنّها أدركت بحدسها أنَّ الوقت ليس للمساءلة، والأدهى من ذلك —وهنا دهمتها موجةٌ من الغثيان— أنَّ كلامه كان منطقيًا إلى حدٍّ لعين.

قالت بروكتر وهي تزيحُ ستائر الخرز بحدة:

– «هذا يفسرُ بعض الأمور.. لقد حصلوا على مفتاح غوليكوف، أليس كذلك؟ ذلك الذي مررته إليه.»

أجاب سام:

– «هذا ما افترضتُه. لقد اقتحموا غرفتي، وسألوني عما أخبرني به غوليكوف، وعندما لم يرقهم جوابي، حقنوني بشيءٍ ما.. أظلمَ العالمُ في عيني.»

ومن تلك النقطة، استرسلَ في سردِ ذكرياتٍ باهتةٍ عن استيقاظه في ظلامٍ دامس؛ تارةً في صمتٍ يجمدُ العظام، وتارةً وسط زئير محركات، ومرةً أو مرتين على وقعِ تكسّرِ الأمواج ورائحة البحر. خَمّن أنَّ جزءًا من رحلته كان داخل حاوية شحن. وفي كل مرةٍ كان يصحو فيها، كان يسمعُ أصواتًا، ويشعرُ

بوخزةِ إبرةٍ في ذراعه، ليعودَ الظلامُ ويطبقَ عليه من جديد. بدأت التحقيقاتُ معه بعد أن تُرِك معلقًا من قدميهِ لعدة ساعات، ثم زاره رجلٌ طاعنٌ في السن، يتحدثُ الانغليزية بطلاقةٍ لا تشوبها إلا لكنةٌ خفيفةٌ جدًا. لم يخبره أحدٌ قط أنه في روسيا، لكنه لم يجد مكانًا آخر يمكن أن يكون فيه.

قال سام:

– «تعتقد الوكالة أنهم احتجزوني في منشأةٍ خارج موسكو. لم أكن مدرجًا رسميًا في أيِّ سجلات، على حدِّ علم "البيت الروسيّ"، أو على الأقل هذا ما أخبروني به.»

سألته بروكتر:

– «لكنها لم تكن ليفرتوفو؟»

– «لا، أنا متأكدٌ من ذلك.»

قالت بروكتر:

– «هذا الرجلُ العجوز الذي زارك.. هل عرفت من يكون؟»

– «عرضَ عليَّ المحققون صورًا في "المزرعة". إنه رجلٌ يُدعى ريم زوموف.»

– «وماذا أراد أن يعرف؟»

– «هل يعني لكِ هذا الاسمُ شيئًا؟»

– «ربما.»

تابع سام موضحًا أنَّ الغاية النهائية كانت واحدةً لدى الجميع؛ ورغم أنه خاضَ معهم أحاديث –كان بعضها مهذبًا– حول خبرته السابقة في الوكالة، وشبكة اتصالاته، وفترته في سوريا، إلا أنَّ "غوليكوف" و"سنغافورة" استحوذا على جلِّ اهتمام المحققين، بما في ذلك زوموف. كان السؤالُ تحديدًا: هل أعطى غوليكوف لسام أيَّ شيءٍ أثناء وجودهما على طاولات اللعب؟ ورقة؟ أسماء؟ معلومات؟ وحدات تخزين؟

استطرد سام قائلًا:

– «كنتُ أعلم أنهم سيقتلونني لو أخبرتهم بما قاله غوليكوف. وضعوا أشخاصًا معي ـفي الزنزانة، وحاولوا إقناعي بالكلام. رجلٌ ادّعوا أنه من وكالة المخابرات المركزية، وامرأة..»

ولمدةِ دقيقةٍ كاملةٍ مريعة، ستين ثانيةً بحساب الثواني، اكتفى بالتحديق في الفراغ، وكأنه يعيشُ مجددًا شظايا الجحيم التي لا تزالُ عالقةً ـفي ذاكرته. وعندما استأنف قصته أخيرًا، أخبرها أنَّ تلك المرأة لم يكن لها اسم. ثم صمت، وعيناهُ مسمرتان على الخرز، ورأسهُ يتمايلُ قليلاً كما لو كان يَعُدُّ شيئًا ما، تمامًا كما ظهر ـفي الفيديوهات التي أرسلوها.

همس سام وهو يخاطب الخرز:

– «حتى الآن، لستُ واثقًا إن كانت تلك المرأة حقيقية.»

مرّ صمتٌ دام دقيقتين؛ وهو وقتٌ طويلٌ جدًا لجلوسِ شخصين وجهًا لوجهٍ ـفي مقصورةٍ ضيقة.

أنصتت بروكتر إلى ضجيج المستنقع الذي بدأ يعلو مع صمتهما، وتركت الغضب يغمرُ روحها. كانت قد وضعت كأسها جانبًا احترامًا لسام، وبقيت جالسةً معه حتى يستطيعَ انتشال نفسه من ذلك المكان الذي غرق فيه، أو مما فعلته به تلك المرأة.

وفجأة، ودون سابق إنذار، واصل حديثه:

– «أخيرًا، توقف كل شيء. وضعوا غطاءً على رأسي، واقتادوني إلى الضوء، ثم إلى حافلة، فإلى طائرة —سمعتُ صوت المحركات— وعندما هبطنا كانت السماءُ تمطر، وكان هناك وفدٌ من الوكالة ـفي استقبالي. أخبروني أننا ـفي فيينا. كان ينبغي أن يكون شعوري الأول هو الارتياح، لكنه كان الذعر.. كنتُ ـفي مأزق.»

قالت بروكتر:

– «الجاسوس المندس قد يكون هو من يحققُ معك.»

– «بالضبط.»

– «من كان على متن الرحلة؟»

– «ديبورا سويت، وماك ميسون، وثيو مونك، وغاس رابتيس، وبعض التابعين الآخرين.»

سألته:

– «أأنت متأكدٌ من ذلك؟ لا بأس ألا تكون متأكدًا بعد كل ما مررت به.»

– «أنا متأكدٌ تمامًا. لقد كنتُ شديد التركيز.»

ذلك الجزءُ منها الذي أراد تصديقه منذ البداية، والذي كان يهمشُ الآن شكوكها حول سلامة سام العقلية –لأنَّ وجود خائنٍ أفسد عملية سنغافورة يعني أنَّ الخطأ ليس خطأها، وبالتأكيد ليس خطأه– شَعَر بالانقباضِ عند ذكر تلك الأسماء. تلك القائمةُ جعلتها ترغب في التوقفِ عند هذا الحد، وإخبار سام بأنَّ عليه أن يتقبل خسارته، وينسحبَ إلى "فيغاس" مع ناتالي ويمضي في حياته. كانت هي ستستمرُ في الشرب، وسرعان ما سينسيانِ الأمر برمته.

لكن خلف عيني سام، أبصرت نزعةً هوسية: رغبةً عارمةً في استئصالِ الخائن الذي وضعه في صندوق، ومحو ذكريات المرأة التي طاردته هناك، رغبةً في الانتقام؛ وهو دافعٌ يجدُ دائمًا صدىً في نفس أرتميس أفروديت بروكتر. أشعلت سيجارةً أخرى.

– «من أدار جلسات الاستجواب بعد عودتك؟»

– «تولى فريقٌ من الأمنِ المهمة. طافَ عليَّ أشخاصٌ من "البيت الروسيّ" والطابق السابع بالطبع، كل الوجوه المعتادة. حتى المديرُ جاء وجلس معي جلسةً من نوع: "كيف حالك يا بطل، أنا فخورٌ بك".»

– «هل أولى أحدُهم اهتمامًا غير عادي بما قلته؟»

– «ليس حقًا.»

– «هل غابَ أحدٌ بشكلٍ ملحوظ؟»

– «لا.»

قالت بروكتر:

– «إذن، ماذا أخبرت الوكالة في نهاية المطاف؟»

– «كل شيء، باستثناء كلمات غوليكوف عن الجاسوس المندس.»

– «هل أخبرت أيَّ شخصٍ آخر بما قاله؟»

– «ومن غيركِ يمكنني أن أُخبر؟»

– «يا جاغرز، أنت تخرقُ كومةً من لوائح الوكالة والقوانين الفيدرالية بحديثك معي في هذا الأمر. ناهيك عن إخفائه خلال استجواباتك الرسمية.»

– «أتظنين أنني لا أعرف ذلك؟ وماذا كان عليَّ أن أفعل؟ قائمةُ الذين عرفوا بأمر غوليكوف كانت صغيرة، وتضم مدير العمليات وبعض الأشخاص داخل "البيت الروسيّ". لا أظنُّ حتى أنَّ غوسفورد كان على علمٍ بالأمر.»

قالت:

– «ومعظمهم أصدقائي.. ألهذا السبب جئت إليّ؟»

– «جئتُ إليكِ لأنكِ صديقتي، ولأنكِ أصبحتِ خارج المنظومة. ثم ماذا تقصدين بقولكِ "معظمهم"؟»

– «تجمعني علاقةٌ قديمةٌ بـ "ديبس" و"ماك" و"غاس" و"ثيو". كنا جميعًا في نفس الدفعة بـ "المزرعة". كنتُ مقربةً من "ديبس"، لكن ليس بعد الآن. هؤلاء كانوا —بل لا يزالون— أعز أصدقائي على ما أظن.»

ابتسم سام —والحمد لله على ذلك، فلم تكن بروكتر لتسعدَ برؤية ابتسامةٍ أكثر من سعادتها بابتسامته تلك— وقال:

– «ظننتُ أنني صديقكِ المفضل.»

– «بعد أن نقتلَ حفنةً من الأشرار معًا، ثم ننجو من الموتِ بأعجوبةٍ بعد تفجيرٍ انتحاري مباشرةً.. حسنًا، بعد أن نمرَّ بشيءٍ من هذا القبيل، نرحبُ بك في المركز الأول في القائمة. عليك أن تفعل أكثر من مجرد التعرضِ للسجنِ من أجلي يا جاغرز.»

حاولت أن تغمز له بعينها، وتساءلت —في فكرةٍ غريبةٍ تمامًا على عقلها البارد— عما إذا كانت قد تجاوزت الحدود.

لكنه قال:

– «سأحاسبُكِ على هذا الوعد.»

ورمقها بابتسامةٍ ساخرة، وبدا الأمرُ وكأنهما عادا للمزاحِ مجددًا في "محطة دمشق". كان جاغرز حينها ضابط عملياتٍ صاعدًا، وكانت هي في أولِ مهمةٍ لها كرئيسةِ محطة، وكان العالمُ كله ملكَ أيديهما.

أزاحت كأسها جانبًا بقوة، حتى كادت تسقطُ من على الطاولة.

كان ينظرُ إليها بتمعنٍ شديد، وهمس بصوتٍ يكادُ يُسمع:

– «هل تصدقين الأمر أيتها الزعيمة؟»

هل شعر بتشككها السابق؟ أم أنه هو نفسه لم يكن متأكدًا؟

أجابت بروكتر:

– «أتمنى لو لم أصدق. لكن مقتل "بوكانير"، وانكشاف غوليكوف، واختطافك..» —وحركت ثلاثة أصابع في الهواء— «كل ذلك حدث في غضونِ يومين. الآن، يمكننا أن نسمي ذلك مصادفة، فالحماقاتُ تحدثُ دائمًا. لكن سجنك.. حسنًا، هذا هو اللغز، أليس كذلك؟ فالأمرُ يبدو منطقيًا أكثر إذا كانوا يخشون أنَّ لدى غوليكوف شيئًا قيمًا يبيعه.»

سأل سام:

– «من كان "بوكانير"؟»

لقد نسيَت أنَّ سام لم يكن مخولاً بالاطلاع على تلك القضية، وعند عودته، لم يكن لدى الاستخبارات الروسية أو المحققين أيُّ سببٍ لإخباره.

قالت بروكتر:

– «عقيدٌ في جهاز الاستخبارات الخارجية الروسي (SVR) كنا نشغله منذ نحو خمس سنوات. تم استدعاؤه من أثينا، وقَتل نفسه أثناء اعتقاله في منزله الريفي خارج موسكو.»

– «وهل حدث هذا في نفس أسبوع سنغافورة؟»

– «في نفس اليوم.»

قال سام:

– «إذن نبدأ من هناك. نقارنُ بين "قائمتي المطلعين" (BIGOT lists[14])
لعمليتي سنغافورة و"بوكانير". نرى من كان لديه صلاحية الوصول لكلتيهما، ومن هي الأسماءُ المشتركة. هذا، على الأقل، يجب أن يكون سهلاً.»

قالت بلهجةٍ قاطعة:

– «مطاردةُ الجواسيس ليست سهلةً على الإطلاق. إنَّ خوضَ غمارها — بل مجرد العثور على جاسوس— يشبهُ تمامًا أن تتقيأ ما في جوفك وأنت تركبُ لعبة "تيلت-أ-ويرل" الدوّارة؛ سيعودُ القيءُ ليرتطمَ بوجهك مباشرةً.»

– «اسمعي، أنا أتفهمُ ذلك، أنا فقط.. تباً!»

ارتطم خفاشٌ أو طائرٌ أو كائنٌ لعينٌ من كائناتِ المستنقع بالمقطورة. سُمِعِ في الخارج صوتُ صريرٍ مكتوم وخفقانُ أجنحة. كاد سام أن يسقطَ من مقعده على الأرض من أثر المفاجأة.

قالت بروكتر:

– «تصبحُ الأمورُ غريبةً هنا في الخارجِ عند حلولِ الليل.»

[14] قائمة بيغوت (*BIGOT list*): سجل حصري بأسماء الأفراد المصرح لهم بالاطلاع على تفاصيل عملية سرية محددة أو برنامج حساس، لضمان حصر المعلومات في أضيق نطاق ممكن.

الفصل الثاني عشر

كيسيمي / الطريق السريع 95 شمالاً

اتسمت الساعات التالية بتصاعدٍ مُرضٍ لوتيرة التخطيط والإعداد العملياتي. لقد كانت عودةً حقيقيةً إلى الميدان لامرأة أمضت ربع قرن تلعب هذه «اللعبة»، ولم تُنسها شهور البعد القليلة أيًا من سحرها. فكرة إدارة عملية لا علاقة لها بالتماسيح جعلتها تجوب المقطورة جيئةً وذهابًا وهي تتحدث؛ وجعلتها تصطنع ما يشبه الابتسامات – ليس بإفراط، انتبه، بل مرة أو مرتين فقط – وجعلتها تركن زجاجة الجن جانبًا لتصف أكواب القهوة على طول مقعد الركن، وهو تحول غير مسبوق في ساعات ما قبل الفجر، على الأقل منذ وصولها إلى فلوريدا قبل ثلاثة أشهر.

النقاش حول الوثائق التي يمكن لـ سام الوصول إليها بشكل معقول، وكيفية قيامه بذلك، كاد يصيبها بدوارٍ من فرط النشوة. حدث هذا حتى قبل أن تبدأ القهوة في ممارسة سحرها – فالآلة كانت لا تزال تغرغر على المنضدة. وجدت بروكتر نفسها، وهي التي لم تكن يومًا من هواة الأعمال الورقية، مأسورةً تمامًا وهي تُتمّم كتابة تقرير مفصل بشكل مؤلم عن تجربة سام في سنغافورة، وفي روسيا، وعما قاله لمستجوبيه في الوكالة فور عودته. تلاشى الوقت بمتعة وهما يضعان خططًا للجزء الخاص بـ فيرجينيا الشمالية من العملية: المنزل الآمن، خطة الاتصالات، تخزين الوثائق، المصروفات النثرية، وحجتها للسفر.

وكما كان الحال غالبًا في الداخل، كان التركيز على «ماذا» و«كيف» وتفاصيل العملية أكثر متعةً من النظر إلى الصورة الأوسع، لا سمح الله.

فالمشاهد تغدو مزعجة كلما وسّعت الزاوية، ممتدةً عبر أفقين مهددين؛ أفق يصور بروكتر و سام كسجينين، والثاني يصور صديقة مقربة كخائنة، وربما كلاهما، إذا سارت الأمور نحو المنحدر، كما يحدث عادةً. تجاهُل هذا الواقع جعل التمرين أكثر متعة بكثير، لكن بحلول الفجر أفسد سام الأمر، حين سأل عن رأيها في حقيقة أن هذه العودة غير الرسمية للميدان ليست مجرد أمرٍ غير مستحب أو صعب، بل هي جناية خفيفة.

ردت بحدة بعد أن سمعت ما يكفي:

– «وماذا في ذلك؟.. هل لديك أفكار أفضل؟».

كانت تقف عند المنضدة، وآلة القهوة المنهكة قد أصبحت غير متعاونة مع بزوغ الضوء الأول.

قال بلا قناعة:

– «أذهب إلى غوسفورد».

– «وهو يذهب إلى سويت. يلقي بالأمر في طبقها».

كانت تنقر الأزرار بجنون.

– «يقول لها: تولي الأمر يا ديبس. ثم ماذا؟».

هزت الإبريق بعنف.

– «لدينا مشتبه به رئيسي يدير التحقيق. ثعلب داخل قن الدجاج».

وجهت صفعة لغطاء إبريق القهوة، فأضاء المؤشر. عادت إلى مقعد الركن وحدقت في سام بينما بدأت الآلة تغلي لتدب فيها الحياة.

– «هل بدأت قدماك تبردان خوفاً من الإدانة؟ أم أنك فقط تمارس عبثاً غير مجدٍ باحتمالات فارغة؟».

قال بعد لحظة صمت:

– «الخيار الثاني.. العبث غير المجدي. لكن فكرة أخذ وثائق من المبنى؟ إنها تثير قشعريرتي».

نهضت بروكتر لصب كوب آخر. لم تكن الآلة قد أنهت نصف دورتها، وامتلأ لوح التسخين بالقهوة حين رفعت الإبريق لملء كوبها. صاحب إعادته هسهسة وغرغرة.

قالت:

– «المكان بأكمله موجود لسرقة الأسرار.. تذكر ذلك».

***

بحلول منتصف الصباح كان سام قد رحل. وحين قادت سيارتها إلى «غاتورفيل» لم يكن ذلك للتحضير لعرض «الجامبارو»، بل لتخطر كامينغز بحاجتها لإجازة بضعة أسابيع. حين ألح في طلب التفاصيل، لم يحصل على شيء.

تمتم وهو يدير كرسيه بعيدًا لمراجعة الجداول الملصقة على الحائط:

– «هذا الهراء .. كنتِ خارج اللعبة، والآن يسحبونك إليها مجددًا، أهذا هو الأمر؟ تتركينني في فوضى عارمة يا أرتميس».

– «لا أفهم الإشارة، لكن نعم، أدرك أنني أتركك في مأزق».

– «هل يمكنك تغطية عروض "الجامبارو" غدًا، على الأقل؟».

– «لا أستطيع. وأنا آسفة حقًا لذلك».

– «أنتِ لا تبدين آسفة حقًا. تبدين سعيدة بحق الجحيم، ورصينة أيضًا، فوق البيعة. وما قصة نصف الابتسامة المريبة تلك؟ ما هو الشيء المهم للغاية الذي تتركين عملك فجأة لأجله؟».

– «أتمنى لو كنت أستطيع القول».

ضحك، وبقلم أحمر وجرعة من المسرحية بدأ يشطب اسمها من الجداول.

– «تعلمين يا أرتميس، بالنسبة لجاسوسة، أنتِ كاذبة فظيعة».

***

لأسباب شخصية أكثر منها عملياتية، قادت بروكتر سيارتها نحو فيرجينيا الشمالية. لطالما شعرت بالحرية على الطريق، وبالسلام مع العالم

حين ينبسط عبر زجاجها الأمامي. وفي هذه الرحلة كان ذلك صحيحًا في الغالب؛ رغم أن الطريق كان «I-95» والاختناقات المرورية كانت تدفعها أحيانًا لنوبات غضب عابرة.

والأهم من ذلك كله، أن بروكتر أطالت أمد الرحلة لأنه، في ظل تقاعدٍ وضع كل شيء في المرآة الخلفية، لاحت هنا الآن فرصة لتذوق شعور أن يكون كل شيء أمامها مجددًا. كانت بروكتر محترفة قديمة، وكانت تدرك بالغريزة أن قوس العمليات يميل عادةً نحو الخيبة والفوضى. لكن على الطريق، كان بإمكانها الاستمتاع بوهم أن هذه العملية ستكسر القاعدة.

في غضون أسبوع، ستصبح هذه التخيلات مستحيلة. لكن على الطريق؟ كل شيء مباح. بحلول جاكسونفيل كانت قد أقنعت نفسها بأن النهاية ستكون مختلفة. وبحلول سافانا، ظنت أنها قد تكون نهاية سعيدة حتى.

الفصل الثالث عشر

كريستال سيتي، فرجينيا / لانغلي

من أجلِ عمليتها غير الرسمية في شمالِ فرجينيا، اختارت بروكتر بيتًا رثًّا مكوّنًا من ثلاثِ غرفِ نوم، يقعُ على بُعدِ بضعةِ أرصفةٍ من الشارعِ الثالثِ والعشرين في كريستال سيتي. بدا البيتُ وكأنّه كان يومًا سكنًا شعبيًا؛ صندوقٌ من الطوبِ الأحمر المتداعي، تتباهى جدرانُه بلونِ الأسنانِ الكالحة، ويفترشُ أرضَه سجادٌ عفن، وتسكنُ أركانَه تلك الروحُ الخاوية التي تخلّفها العقاراتُ المستأجرةُ المنهكة. عند وصولِها، وجدت أكوامًا من علبِ الجعةِ الملقاةِ على الشرفة، وبقعَ خردلٍ متناثرةً على النافذةِ الخلفية. أما الجارُ الوحيدُ الذي كان يجرؤ على الخروج، فكان رجلاً فيتناميًا طاعنًا في السن، يرتدي منامةً مخططةً بألوانِ أعوادِ الحلوى، ويظهرُ على فتراتٍ منتظمةٍ لتدخينِ سجائره. استأجرت العقارَ لمدةِ شهرين، ودفعت الثمن نقدًا من «الصندوقِ الأسود» للمصاريفِ السرية.

كان البيتُ يقعُ على مسافةٍ قصيرةٍ سيرًا على الأقدامِ من الغرفةِ التي حجزتْها في فندق كراون بلازا. لم يكن بوسعِ هاتفِها المحمول أو سيارتها الـ RAV4 أن يقتربا من هذا المنزلِ أبدًا — ليس في ظلِّ وجودِ الوثائقِ المسروقةِ التي تنوي مراجعتَها وتخزينَها هناك. لم يكن لدى بروكتر أيُّ وازعٍ أخلاقيٍّ أو مهنيٍّ يمنعُها من إجراءِ هذا التحقيق، لكنّها كانت حريصةً كلَّ الحرصِ على تجنبِ قضاءِ عقوبةٍ في السجنِ كخاتمةٍ للأمر؛ لذا صمّمت هي وسام القواعدَ الحِرفيّة للعمليةِ وفقًا لذلك.

أمضتْ بعدَ ظهرِ اليومِ الأول في شراءِ البقالة (وكلُّها مجمدات)، ثم انطلقت في جولةٍ سريعةٍ عبر شمالِ فرجينيا لاقتناءِ طابعةٍ وماسحٍ ضوئي، وأقراصٍ صلبةٍ خارجية، ومحطةِ طاقةٍ محمولةٍ من طراز Jackery، وأكوامٍ من دفاترِ الملاحظاتِ والأقلام، وحصائرَ مطاطية، ومجموعةِ مفكاتٍ دقيقة، وحاسوبٍ محمول. ومن متجرِ إلكترونياتٍ يديرُه ألبانيون، اشترت نقدًا هاتفين ذكيين من طراز BLU View 2 مع شرائح اتصال مسبقة الدفع. حمّلت على كلٍّ منهما تطبيق Roblox، وهي منصةُ ألعابٍ إلكترونيةٍ عرفتْها بفضلِ أطفالِ زميلِها كامينغز. كانت بروكتر قد فُتنت بإدمانِ هؤلاءِ «الوحوشِ الصغار» على اللعبةِ بعد أن شرحَ لها ابنُ أختها —دون أن يشيحَ بنظره عن الشاشةِ لحظةً واحدة— أنّه نعم، يمكنكِ إرسالُ رسائلَ لأيِّ شخصٍ في اللعبة، انظري يا خالة أرتميس، تجعلين شخصيتكِ الصغيرةَ تكتبُ شيئًا على لوحةٍ وترفعُها، ولا، لا تحتاجين إلى رقمِ هاتفٍ أو بطاقةِ ائتمانٍ أو بريدٍ إلكتروني أو أيِّ شيءٍ للتسجيل.. كيف تظنين أنني دخلتُ هنا أصلاً؟

قالت بروكتر حينها لابنِ أختها ذي العشرِ سنوات:

– «يا للهول! هذا يغيرُ قواعدَ اللعبةِ تمامًا.»

كقاعدةٍ عامة، كانت بروكتر تمقتُ ألعابَ الفيديو، لكنّها كانت تُفتن —دائمًا وأبدًا— بالطرقِ المبتكرةِ للتواصلِ المجهول، وأدركت على الفورِ أنَّ هذا النظامَ يمكنُ أن يكونَ ركيزةً فعالةً في منظومةِ اتصالاتِ العميل. وفي أواخرِ ليلتهما الطويلةِ في فلوريدا، وضعت هي وسام خطةً بسيطةً تعتمدُ على «الظهورِ والاختفاء»، وجدولاً زمنيًا محددًا لتسجيلِ الدخولِ إلى Roblox لتفقدِ الرسائل. كانت محطتُها الأخيرة في جولتها الشرائية هي متجرُ بقالةٍ صغيرٍ كئيب، حيث ابتاعت كرتونةَ سجائر Virginia Slims ومجموعةً من الولاعاتِ الفوسفوريةِ المزينةِ برسومِ حرباءَ أو ربما سحالي. فكرتْ في نَفَسِها: في الأيامِ الخوالي الجميلة، كانت التقنياتُ اللازمةُ لمثلِ هذه العمليةِ تتطلبُ خمسَ سنواتٍ من عملِ المهووسين في مديريةِ العلومِ والتكنولوجيا وملايين الدولاراتِ من أموالِ الضرائب.. أما الآن، فكلُّ ما أحتاجُ إليه هو متجر إلكترونياتٍ عادي.

بحلولِ الساعةِ التاسعةِ ليلاً، كانت تنتظرُ في مرآبِ السياراتِ تحت مستشفى إينوفا فيرفاكس، حيث كان سام، منذ عودته من روسيا، يعقدُ اجتماعاتِه المنتظمةَ مع طبيبٍ نفسي متعاقدٍ مع الوكالة. كانت تلك المنطقةُ الشاسعةُ القريبةُ من تقاطعِ الطريقِ الخمسين والطريقِ السريع I-495 تمنحُهما قدرًا معقولاً من الخفاء، وبالإضافةِ إلى وجودِ سببٍ وجيهٍ لزياراتِ سام المتكررة، كانت تمتازُ بمجاورتِها لمقرِ شركةِ المقاولاتِ الدفاعية DynCoTel، والتي ستكونُ جزءًا بارزًا في «الهوية الزائفة» التي ستستخدمُها مع أصدقائها. كان الصندوقُ الذي يحتوي على الهاتفِ في صندوقِ سيارتها. انحرفت سيارتُه الـ Acura لتتوقفَ في المكانِ المجاورِ لها. فتحتْ صندوقَ السيارة، وسرعان ما اختفى الصندوقُ الصغيرُ داخل حقيبةِ ظهره. أغلق سام الصندوقَ ومضى مبتعدًا.

***

في الساحةِ الأماميةِ لبيتِ كريستال سيتي، وبينما كانت الحشراتُ تشنُّ هجماتٍ انتحاريةً على مصابيحِ الشرفة، افتتحت بروكتر كرتونةَ السجائرِ الجديدةِ تحت أنظارِ الجارِ الفيتنامي الواقفِ على عتبةِ منزله. جلسا في ذلك الصمتِ العارفِ بين شخصينِ يدركان بغريزتِهما، وفي آنٍ واحد، أنّهما سيتقاسمانِ المكانَ لا الكلمات.

في الداخل، رفعت بروكتر صوتَ موسيقى الـ EDM بينما كانت تنزعُ فعليًا المكوناتِ اللاسلكيةَ للحاسوبِ والطابعةِ لقطعِ أيِّ اتصالٍ ممكن («فجوة هوائية»)، وضمانِ عدمِ وصلِ الأجهزةِ بالإنترنتِ أبدًا. حمّلت نظامَ تشغيلٍ على وحدةِ تخزينٍ لاستخدامِه على الحاسوب. وضعت فطيرةَ بيتزا في الميكروويفِ وراقبتْها وهي تدور، والفقاعاتُ تعلو وتهبطُ مع كلِّ دورة. كانت قطراتُ المطرِ الكبيرةُ ككراتِ الرخامِ تلطمُ نافذةَ المطبخ؛ بدا منظرُها آسرًا، فغرقت في نوعٍ من الغيبوبة. بدأ الدخانُ ينبعثُ من الميكروويف، وجثةُ البيتزا المتفحمةُ لا تزالُ تمتطي المنصةَ الدوارةَ في الداخل. انطلقَ جرسُ إنذارِ الدخانِ

بعويلِه المزعج. سحبتْ كرسيًا لتتمكنَ من الوصولِ إليه والضغطِ على الزرِّ لإسكاته، ثم فتحت النافذةَ على مِصراعيها لتستقبلَ المطر.

***

ترجّل سام من سيارته في موقفِ سياراتِ لانغلي في صباحِ يومٍ من أيامِ أكتوبر دافئٍ بشكلٍ غير معتاد. كان لديه مكانٌ مخصص، والحمدُ لله على ذلك، لأنَّ الموقفَ خلفَه كان ممتلئًا عن آخره، والسياراتُ تمتدُّ لعشراتِ الصفوفِ وصولاً إلى طائرةِ التجسس A-12 Oxcart المعروضةِ في الطرفِ البعيد.

كانت حشودُ لانغلي تهرولُ مارةً به: رؤوسٌ منكسة، يحملون صناديقَ الغداء، وكلُّ رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ (أولئك المتدربون اللعناء) يتصببون عرقًا في هذه المسيرةِ القسريةِ فوق الأسفلتِ الذي ينضحُ بحرارةٍ موهنةٍ من شمسِ الصباح. لم يكن لدى سام مشكلةٌ مع معظمِهم كأفراد، ولكن، كأيِّ رجلٍ ميدانيٍّ أصيل، كان يمقتُهم كجماعة. ارتدى سترتَه الرياضيةَ ليخفيَ بقعَ العرقِ التي بدأت تظهرُ على قميصه، وسحبَ حقيبةً رياضيةً من الصندوقِ واندمجَ مع الحشودِ المتجهةِ إلى الداخل.

كانت عمليةُ السرقةِ هذه ستمثلُ المناسبةَ الأولى التي قد يستغلُّ فيها سام دورَ «المنبوذِ البيروقراطي» لصالحه. لقد قضى فترةً في «قفص التأديب» بعد أحداثِ سوريا، قضى معظمَها وهو يأملُ أن يتسللَ شخصٌ ما خلفَ مكتبه ويخنقَه بسلكٍ ليريحَه من بؤسه. كانت لانغلي تنجحُ دائمًا في أن تكونَ مملةً ومتغطرسة، فئويةً وبيروقراطية؛ هي مركزُ الأعصاب، ومع ذلك فهي معزولةٌ تمامًا عن المكانِ الذي تقعُ فيه الجاسوسيةُ حقًا: الميدان. لم يكن يحبُّ السيرَ الصباحيَّ الكئيبَ عبر مواقفِ السيارات، ولم يطقْ يوماً رائحةَ الردهاتِ المعقمة، ولا تلك الهوةَ السحيقةَ بينه وبين العمليات. وأكثر ما كان يكرهُه هو نفسُه عندما يشعرُ بالرغبةِ في التدخلِ في الشؤونِ الميدانية، تمامًا كما كان يكرهُ موظفي المقرِّ الذين فعلوا الشيءَ نفسَه معه خلالَ جولاته الخارجية. في إسطنبول وبغداد والقاهرة ودمشق، كانوا يطلقون على المقرِّ اسمَ «مفكُّ البراغي ذو العشرةِ آلافِ ميل»، الذي يديرُ الأمورَ من ملجئِه المريحِ في لانغلي

المعبّأِ بهواءٍ معادٍ تدويرُه وبرائحةِ "الدونات". حتى إنَّ فريقَ البيسبولِ في الطابقِ السابعِ سُمي بـ «المفكّات».

كان كونهُ غيرَ ذي أهميةٍ الآن هبةً من السماء. فالمساحةُ الواسعةُ التي مُنحت له بسببِ الفترةِ التي قضاها في روسيا كانت تعني أنَّ أيامَه تخلو من أيِّ إزعاجٍ إداري. وبدأ يدركُ أنَّ التصفيةَ البيروقراطيةَ لفرع «موسكو إكس» قبل طردِ بروكتر منحته حريةً هائلةً في غدوِّه ورواحه. أصبح غاس رابتيس الآن رئيسًا لفرع «موسكو إكس»، لكنَّ سام نادرًا ما كان يراه في مكتبِ بروكتر القديمِ القريبِ من مقصورتِه في القبو؛ إذ اتخذ غاس مكتبًا مؤقتًا في الطوابقِ العليا في خزائنِ «البيت الروسيّ» الرئيسية، بعيدًا عن منبوذي «موسكو إكس» الذين يشرفُ عليهم الآن.

كانت هذه الخطوةَ الحقيقيةَ الأولى. مع بروكتر، لم يكن هناك سوى الكلام، أما الآن، فسيكونُ هناك فعلٌ ملموس؛ ستكونُ هناك أوراق. كان عملُه في الوكالة —ولطالما كان كذلك— هو السرقة، لكنّه عادةً ما كان يسرقُ أسرارَ الحكوماتِ الأجنبية، لا أسرارَ حكومته، وكان الخطرُ دائمًا هو قضاءُ فتراتٍ قصيرةٍ في سجونٍ أجنبية، لا الحبسُ بجانبِ ريك آميس[15] في سجن تير هوت. كان بوسعِ المرتزقةِ السياسيين اختلاسُ ما شاؤوا من الموادِ المصنفة، أما ضباطُ المخابراتِ الكادحون، فكانت القوانينُ تُطبقُ عليهم بحذافيرِها. طوالَ الصباح، كانت معركةٌ تحتدمُ داخل سام جوزيف حول حكمةِ هذا الطريق، وكان يصلُ، مرارًا وتكرارًا، إلى النتيجةِ ذاتها: في صندوقه، كان يَعُدُّ النجومَ الحمراءَ الصغيرة، ويصلي ألا تزورَه تلك المرأةُ المجهولةُ في منامه، عاجزًا عن فَهْمِ سببِ وجودِه هناك أصلاً، إن لم يكن بسببِ عطبٍ ما في جهازِه هو. لذا، لا بديلَ عن المضيِّ قُدُمًا.

وفي ظلِّ غيابِ غاس، وعدمِ وجودِ أكثرَ من حفنةٍ من الموظفين في المكاتبِ المفتوحةِ عبر الخزنة، شرعَ في العمل. ستكونُ الحزمةُ الأولى من

---

[15] ألدريتش "ريك" آميس: ضابط مكافحة تجسس في الـ CIA تجسس لموسكو لسنوات، وتسببت خيانته في كشف وإعدام العديد من العملاء الأمريكيين، مما جعله أحد أكثر الجواسيس ضرراً في التاريخ الأمريكي.

الوثائقِ مباشرةً: ملفُّ «سنغافورة» بالكامل، وبرقياتُ «غوليكوف»، وقائمةُ المطلعين على تقارير «بوكانير»، والتي ستحددُ من داخلِ الوكالةِ كان لديه حقُّ الوصولِ إلى معلوماته. ولحسنِ الحظ، وبحكمِ دوره في «موسكو إكس» وتذكرِ بروكتر لرقمِ هويتها وكلمةِ مرورها في الوكالة، تمكن سام من الوصولِ إلى هذه الحصيلةِ رقميًا. ولمدةِ ساعتين، طبعَ البرقياتِ ورسائلَ البريدِ الإلكتروني.

وعندما كان الزملاءُ يمرون بجانبه، كان ينتقلُ إلى أخبارِ البيسبولِ على الجهازِ غيرِ المصنف. وُضعت الوثائقُ المطبوعةُ في الحقيبةِ الرياضية. وبعد تسجيلِ الخروج، أخذ غداءَه من الثلاجة، وعلقَ الحقيبةَ على كتفه، وتوجهَ إلى الصالةِ الرياضيةِ لممارسةِ تمرينٍ قصيرٍ ومشتت. بعدها، استحمَّ واشترى كيسًا من المقرمشاتِ من آلةِ البيع، وصعدَ لارتكابِ جناية.

***

إنَّ إخراجَ الوثائقِ من مقرِّ وكالةِ المخابراتِ المركزيةِ أمرٌ بسيطٌ للغاية؛ فلا توجدُ أيُّ إجراءاتِ تفتيشٍ على الإطلاق.

سار سام ببساطةٍ عبر أجهزةِ قراءةِ البطاقاتِ والحقيبةُ الرياضيةُ تتدلى بجانبه. لا اعتراضات، لا تعقيدات. رمى كيسَ المقرمشاتِ الفارغَ في سلةِ المهملاتِ القريبةِ من الباب، وقادَ سيارتَه لمدةِ عشرين دقيقةً إلى عيادةِ الدكتور بورتنوي في مجمع إينوفا فيرفاكس، حيث ركنَ في جزءٍ من المرآبِ الأزرقِ كان يعتقدُ أنه يخلو من الكاميرات. لمحَ سيارةَ بروكتر الـ RAV4 عند دخوله؛ كانت تجلسُ في مقعدِ السائق، وصندوقُ السيارةِ مفتوحٌ قليلاً. فتحه على مِصراعيْه، فكان التجهيزُ تمامًا كما شرحتْه شخصيةُ بروكتر في لعبة Roblox (والتي كانت تشبهُ بروكتر الحقيقيةَ بشكلٍ لافت): الطابعةُ والماسحُ الضوئي، الموصلانِ بمحطةِ الطاقةِ المحمولة، كانا جاهزين لاستقبالِ الوثائق. أخرجَ الرزمةَ من حقيبته، وضعَها في الدرج، وضغطَ على زرِّ المسح. أغلقَ الصندوقَ عند سماعِ صوتِ الصافرةِ ودورانِ الجهازِ المطمئن. سيعودُ لاستلامِ الأصولِ بعد انتهاءِ موعدِه مع بورتنوي. لمحَ خصلاتٍ من شعرِها الأسودِ المجعدِ من خلفِ الزجاج، بينما كان بقيةُ جسدِها مغمورًا في الظلال.

***

في ذلك المساء، في البيتِ الآمنِ في كريستال سيتي، وبينما كانت الملفاتُ الممسوحةُ ضوئيًا مبعثرةً على أرضيةِ الشقة، بدأت بروكتر العملَ على إعادةِ بناءِ الجدولِ الزمني المحمومِ الذي سبقَ أحداثَ سنغافورة. رسمتْ تسلسلًا زمنيًا بخطٍ يشبهُ خربشةَ الدجاج، تقلبُ في دفاترِ الملاحظاتِ الصفراء، وتقارنُ التواريخ، وترتبُ الأحداثَ لترى ما إذا كان بالإمكانِ استبعادُ بعضِ الأسماءِ أو تأجيلُ النظرِ فيها. خُططت العمليةُ بعجالةٍ شديدة، وكان أصدقاؤُها مشتتين جغرافيًا لدرجةِ أنها لم تستطعْ تذكرَ اللحظةِ التي علمَ فيها كلُّ واحدٍ منهم لأولِ مرةٍ بتواصلِ غوليكوف وسفرِ سام إلى سنغافورة للقائه.

أعادت بروكتر قراءةَ رسالةِ غوليكوف المرفقةِ بالبرقية. كان رجلُ أعمالٍ مكسيكيٌّ أمريكي، من معارفِ غوليكوف العاملين في موسكو، قد سلمَها في البدايةِ إلى السفير، الذي اتبعَ التعليماتِ الموجودةَ على المظروفِ الداخلي وسلمَها إلى القائمِ بأعمالِ رئيسِ المحطة، نائبِ غاس السابق. كانت الجملةُ الجوهرية، التي ظهرت في البرقية، هي: «لديَّ معلوماتٌ بالغةُ الأهميةِ لحمايةِ أمنِ وكالةِ المخابراتِ المركزية». ولإثباتِ حسنِ نواياه، أرفقَ غوليكوف محاضرَ اجتماعٍ لمداولاتِ مجلسِ الأمنِ الروسي بشأنِ أوكرانيا. وكتبَ أنَّ على لانغلي اكتشافُ طريقةٍ للتواصلِ معه بشكلٍ آمن — إذ سيكونُ مسافرًا في آسيا في الأسابيعِ القادمة. اقترحَ غوليكوف رمزَ الاختصارِ المتعلقَ بـ "الويسكي"، والذي استخدمه سام على طاولاتِ اللعبِ في سنغافورة.

رأت أنَّ البرقيةَ والرسالةَ المكتوبةَ قد وصلتا إلى «البيت الروسيّ» في صباحِ الخامسِ عشر من مارس. هنا استلمت ذاكرةُ بروكتر زمامَ الأمر: تم تصنيفُ البرقيةِ كأولويةٍ قصوى قبل الاجتماعاتِ اليوميةِ بوقتٍ طويل، لكنَّ ماك وثيو كانا خارجَ المكتب. وكذلك ديبس وغوسفورد — كانا لا يزالانِ في نيويورك، وإن كانا يتلقيانِ الإيجازات. تذكرت ذلك لأنَّ غاس — الذي كان حينها قادمًا لتوهِ من موسكو، وينتظرُ دورًا أكثرَ ديمومةً في لانغلي، واعتُبرَ العضوَ في فريق «براتفا» الأقلَّ احتماليةً لإثارةِ غضبِ غوسفورد أو ديبس —

أُرسلَ إلى محطةِ نيويورك للتأكدِ من أنَّ الإدارةَ الجديدةَ تشعرُ بأنَّ «البيت الروسيّ» لعبَ دورًا إيجابيًا في المرحلةِ الانتقالية. وتذكرت أنَّ غاس كان أولَ من رصدَ البرقية؛ فقد كان يستيقظُ باكرًا، وينهي مراجعةَ حركةِ البرقياتِ في موعدٍ لا يتجاوزُ السابعةَ والنصف. وتذكرت أنَّ ملاحظةً منه كانت تنتظرُها على جهازِها ذلك الصباح، يطلبُ فيها منها الاتصالَ به، وتركَ رقمًا لمكتبِه المؤقتِ في نيويورك.

هل قرأت ديبس البرقية؟ هل تم إطلاعُ غوسفورد عليها؟ لم يكن هناك أيُّ رد، ولا أيُّ حركةٍ برقيةٍ من أيٍّ منهما بشأنِ هذا الأمر. ومن خلالِ فرزِ البرقيات، رأت أنَّ ثيو قد أبدى رأيَه رسميًا لأولِ مرةٍ صباحَ يومِ السابعِ عشر، أما ماك فبحلولِ منتصفِ بعدِ الظهر. كلاهما عادَ باكرًا من إجازاتٍ منفصلة؛ كان ماك مع لولو في ريفِ نيويورك، بينما كان ثيو يحتسي الشرابَ على متنِ قاربٍ ويدّعي أنه يمارسُ الصيد. وتذكرت أنه بحلولِ صباحِ الثامنِ عشر، كان كلاهما قد انخرطَ في «كارثةٍ محققة» ظهرت في إحدى قضايا ثيو — ولدى بروكتر ذكرياتٌ غامضةٌ عن تورطِ ديبس في ذلك — وتُركت عمليةُ سنغافورة لها. دوّنت ملاحظاتِها في الدفتر، مستعينةً بذاكرتِها والبرقياتِ وجدولِ سفرِ وفدِ غوليكوف. رسمت بروكتر نجمةً صغيرةً بجانبِ تاريخي التاسعِ عشر والعشرين من مارس. فلكي ترسلَ موسكو بلطجيتَها إلى سنغافورة، كان لا بدَّ لها أن تعرفَ اسمَ غوليكوف والخطوطَ العريضةَ لرسالته بحلولِ ذلك الوقت. وفكرت أنَّ التوقيتَ كان مناسبًا، وإن كان بصعوبةٍ بالغة.

مزقت بروكتر ورقتين من دفترِ ملاحظاتِها. كتبت في رأسِ كلٍّ منهما اسمَ عمليةٍ مخترقة. الأولى: غوليكوف. والثانية: بوكانير، ذلك المسكينُ الذي انتحرَ قبل اعتقاله. وبمراجعةِ إعادتِها لبناءِ أحداثِ سنغافورة وقائمةِ المطلعين على تقارير «بوكانير»، كتبت أسماءَ الضباطِ الذين كان لديهم صلاحيةُ الوصولِ إلى كلتيهما، مفترضةً أوسعَ نطاقٍ ممكنٍ لعمليةِ سنغافورة. في الخارج، رعدتِ السماء، وضربت أولى زَخاتِ المطرِ النوافذ. شطبت بروكتر الأسماءَ التي لم تظهر في القائمتين معًا. وتساءلت عمّا إذا كان اختراقُ «بوكانير»، ومحاولةُ

اعتقالِه وانتحارُه في نهايةِ المطاف، خطأً من جانبِ موسكو، عما إذا كان شخصٌ ما خارجَ مكتبِ زوموف قد تحمسَ أكثرَ من اللازم؛ لأنَّ ذلك استبعدَ محطةَ موسكو من القائمة؛ إذ كان التعاملُ مع «بوكانير» يتمُّ في أثينا، وتقاريرُه تُرسلُ مباشرةً إلى «البيت الروسيّ» والطابقِ السابع.

عندما انتهت، جلست لفترةٍ طويلةٍ تراجعُ الأسماءَ التي ظهرت في القائمتين. معظمُهم كانوا أصدقاء، حاليين أو سابقين. هل يمكنني تصديقُ هذه القائمة؟ فكرت: لا، ليس حقًا. من الأسهلِ الاعتقادُ بأنَّ سام قد فقدَ صوابَه. ومع ذلك.. «لدينا مشكلةٌ كبيرة»، كما قالت بيترا. كان بوسعِ بروكتر قبولُ النظرية — فهي ليست مجنونة. لكن قبولُ هذه القائمة؟ إنه أمرٌ يثيرُ الغثيان. كانت هناك أسماءٌ أخرى، لكنَّ أربعةً منها برزت بوضوح: ماك، وغاس، وثيو، وديبس.

قررت أنَّ الوقتَ قد حان للتحدثِ مع أصدقائها. التحدثُ إليهم فقط، واللهُ يعلمُ أنَّ لديها أسبابًا كافيةً للحديثِ معهم جميعًا. مزقتِ الورقتين إلى شرائطَ رفيعة، ثم ألقتْها في المرحاضِ وجذبتِ السيفون.

أنذرتْها الأرقامُ الحمراءُ لساعةِ الميكروويفِ باقترابِ الفجر، وأنذرتْها معدتُها بأنّها أهملت عشاءَها. سارت بروكتر نحو المطبخِ والتهمت علبتين من بسكويت «ريتز» في نوبةِ جوعٍ قهريةٍ مضطربة، وهي تراقبُ العاصفةَ وهي تغسلُ موقفَ السياراتِ وتحيلُه إلى بركةٍ زيتيةٍ عكرة.

الفصل الرابع عشر

غريت فولز، فيرجينيا

كان التجسس هو عمل عائلة ميسون منذ أن خدم جده لأبيه مع أنغلتون في إيطاليا أثناء الحرب. ووالد ماك نال نصيبه من الحروب أيضًا: قاتل في فيتنام ثم انضم للـ CIA، حيث أصبح مسؤولًا أسطوريًا عن إدارة المجاهدين الأفغان في الأيام الهادئة لنهاية الحرب الباردة. وكما هو الحال مع معظم السلالات الحاكمة، بدأت الأمور تتأرجح قليلًا مع الجيل الثالث، ولفترة وجيزة قبل انضمامه للـ CIA، حاول ماك التنازل عن مسؤولياته. أراد تجربة حظه كرسام. لم يكن يتحدث كثيرًا عن تلك الحقبة، لكن بروكتر خمنت أنه في مرحلة ما من السنوات التالية للجامعة، دفع مزيج من الفشل الفني وصفعة على الأذن من والده العجوز بـ ماك للعودة إلى عمل العائلة.

ونال ماك نصيبه من الحروب هو الآخر. حين قذفت به أحداث 11 سبتمبر إلى لعبة مكافحة الإرهاب، والآن، حين شغلته حرب باردة ثانية مع روسيا، كما شغلته والده من قبل. كان عقد ماك الأول في الـ CIA متوسط المستوى تمامًا؛ بل إنه كان متأخرًا عن الركب، معتمدًا على اسم عائلته دون إنجاز حقيقي يذكر. فـ غاس، على أي حال، كان يدير قاعدتهم في أفغانستان رغم أنهم جميعًا كانوا في نفس دفعة «المزرعة». لكن أفغانستان غيرت ماك. لقد جُعل بطلًا عن استحقاق، ومنذ ذلك الحين قرر أن يشد العزم ويلعب اللعبة التي قاومها طويلًا. كانت بروكتر مدينة له منذ أفغانستان، واختارت رد الدين برفضها الحقد على نجاحه، رغم أن الحقد – لأكثر من سبب – كان سيكون مرضيًا للغاية ومن حقها تمامًا.

من بين جميع منازل أصدقائها، كان منزل ماك و لولو الأكثر إشراقاً، والأخف حملًا. الروح هنا كانت روح حفلات، وحتى لو وصلت، كما فعلت هي، قبل موعد الشرب المقبول اجتماعيًا، كان المكان يبدو دائمًا على وشك الاحتفال. لماذا كان ذلك؟ هل هو زواج آل ميسون المنفتح وشبه الحر؟ أم التصميم العصري من منتصف القرن، الذي لم تستطع بروكتر وصفه حقاً سوى القول إنها شعرت دائمًا بأن المنزل قد استضاف حفلات لتبادل الأزواج قبل وصول آل ميسون بوقت طويل؟

دخلت لولو وهي تجر قدميها حاملة صينية عليها أطباق من الفشار، والمعجنات المملحة، والمكسرات. صب ماك السكوتش. لساعتين شربوا وضحكوا وسردوا قصصًا قديمة حتى قال ماك، مع نكزة رقيقة لركبة زوجته، إنه و أرتميس لديهما بعض حديث العمل على جدول الأعمال. لولو، المحترفة القديمة في تلقي الطرد المهذب من محادثات زوجها، تركتهم مع ابتسامات وقبلات على الخد.

تسلل بروكتر و ماك إلى المنزل الخلفي، حيث كان يكدس كل اللوحات التي رفض العمل عليها ورفضت لولو السماح له بتدميرها. عابرين الأرضية المبلطة لغرفة تفوح منها رائحة الغبار والورق القديم، صعدا إلى الطابق العلوي نحو المكتب المكتظ بالصناديق، حيث أصبح الهواء أكثر ركودًا. كان ماك يحمل زجاجة السكوتش وكأسين جديدين. الهواتف تُركت في المنزل الرئيسي.

قادهما نحو كرسيين مريحين موضوعين تحت النافذة، وسكب السكوتش في الكأسين، ومناولًا إياها واحدًا.

قال:

– «تمنيت حقاً لو أعطيتني إشعارًا أبكر قبل قدومكِ إلى هنا. كان بإمكاننا ترتيب شيء ما».

قرقعا الكأسين وجلسا.

قالت:

– «تجمعت الأمور في اللحظة الأخيرة.. ولن أبقى هنا طويلًا».

– «وأين تجرين المقابلات؟».
–« DynCoTel .. لصوص واشنطن، أعرف، أعرف. وفّر تعليقك، أنا بحاجة للمال. دور في تهديدات الداخل» .
– «أخبريني إن كان بإمكاني المساعدة.. رغم أنني لا أظن أنني أعرف أحدًا هناك».
– «سأفعل. وشكرًا. أنت و لولو ثابتان؟ الأمور جيدة؟».
– «جيدة، جيدة. كل شيء جيد. لولو مشغولة ببعض العقود. وأنا كنت مدبسًا في المكتب».
– «أوه، بالله عليك».
– «ماذا؟».
– «لا تكن متواضعًا تافهًا. أنت بطل الآن، هذا ما أسمعه على الأقل».
– «يا إلهي.. من هو مصدرك في هذا؟».
– «الناس يتحدثون يا ماك، الناس يتحدثون».
ابتسم ابتسامته السهلة والودودة، تلك التي يستخدمها لاستمالة العملاء، وللبقاء على قيد الحياة في غابة الـ CIA تحت إدارة فين غوسفورد. الغرور، فكرت. مع ماك عليك اللعب على وتر الغرور.
تابعت:
– «أعني، الصحف غطت بعضًا من الأمر، لكني أريد التفاصيل. السبق الصحفي يا رجل. أخبرني كيف تمت المقايضة. حصلت فقط على مقتطفات من ثيو حين جاء لرؤيتي. لا يزال لدي تصريحي الأمني، حتى وإن طردوني».
***
هكذا استعادت الـ CIA سام.
النسخة التي سمعتها بروكتر من ثيو جاءت مع تحذير بأنه كان في جولة سكر رُوّج لها كرحلة صيد. «بعثة استكشافية» كان المصطلح الذي استخدمه، وكان قريبًا بما يكفي ليغامر بدخول وسط فلوريدا للتوقف في «غاتورفيل».
ظهر ومعه أربع زجاجات «سيغرامز»، محددًا بوضوح جدول أعمال زيارته،

التي كانت ضبابية. ومضات قصيرة من الوضوح غارقة في وحل الشراب والمزاح الودي. لكن في صباح أحد الأيام استعادوا وعيهم بما يكفي لإجراء محادثة بشرية حول الأمر. كان ثيو يساعدها في تثبيت دجاجة كاملة على خط «الجامبارو»؛ وهو يجهد نفسه للأعلى، وقميصه يرتفع ليكشف عن بطنه الأبيض الطباشيري، سألها إن كانت قد سمعت القصة الكاملة عن فيينا. عما فعله ماك و غاس.

تظاهر ثيو بصفع إحدى الدجاجات. طائر صغير سيء، قال. شيء صغير سيء. جذب البكرة ليرسلها عبر الماء ومد يده في المبرد ليخرج أخرى.

– «تصارعين هذه السحالي اللعينة يا أرتميس؟».

قالت:

– «أفعل.. أفعل بالتأكيد».

حدق بتمعن في الماء وهو يرتشف بيره، وللمرة الثانية في ذلك اليوم، سأل:

– «أي نوع من السمك لديكم هنا؟».

ضباط الحالة في الـ CIA قوم مهووسون. الاهتمام بالتفاصيل، وفرز الحقائق والمعلومات، هي أساسيات المهنة. عرفت بروكتر عددًا لا بأس به منهم انغمسوا في هذه الموهبة خارج المبنى كهواة متعصبين. العديد من تلك الملاهي كانت مفيدة، بل وعملية: سام جوزيف كان لديه البوكر؛ وكانت تعرف رجلًا في قسم أمريكا اللاتينية القديم أدار عمل نجارة محترفًا من مرآبه. آخرون، مع ذلك، مالوا نحو المرضي، هوايات واهتمامات من النوع الذي يفضله الأطفال المتوحدون. حفظ ترتيب فرق البيسبول التاريخي، في حالة عرفتها بروكتر. وفي حالة ثيو: معرفة موسوعية بتربية أسماك الزينة الغريبة.

قالت:

– «ثيو، كما أخبرتك سابقًا، ليس لدي أدنى فكرة».

– «ربما سمك القاروص الطاووسي (Peacock Bass)؟».

– «ماذا؟».

– «رأيت بعض أسماك وحيد القرن (Unicorn Tangs) مكتملة النمو في الأحواض بالمتجر حيث اشترينا هذا».

فرك كتف قميصه. مطبوعًا فوق صورة لتمساح يقفز من الماء، وفكاه مطبقان حول خنزير معلق، كانت الحروف الحمراء الكبيرة: بوني كراشر بيني يجلبها بقوة. وتحتها: غاتورفيل، فلوريدا، الولايات المتحدة.

قالت بروكتر:

– «هذا متجر الإمبوريوم».

– «أعتقد أنني رأيت أيضًا سمكة بليكو الشمس (Sunshine Pleco). وكان هناك حوض مجهز ليكون بيئة أمازونية حيوية...».

قاطعته بروكتر، وهي تشعل سيجارة وتنفخ سحابة دخان باتجاه البحيرة المالحة:

– «ثيو، أعلم أنك استبدلت زوجتك بحوض سمك، لكن أنا، لا أعرف شيئًا عن السمك اللعين، ولا أهتم بمعرفته. لذا، وكما شرحت هذا الصباح، توقف عن السؤال. أخبرني ماذا حدث مع سام».

قال ثيو بخيبة أمل:

– «حسنًا.. طوال الصيف كنا نتعرض للضرب المبرح. غوسفورد و ديبس كانا يستعدان لتطهير "البيت الروسي"، أقسم بذلك، بحثًا عن المزيد من أكباش الفداء لأن البيت الأبيض كان غاضبًا. لم يكونوا غاضبين لأنه مفقود في حد ذاته – لم يكترثوا لـ سام قط. كان الأمر أكثر قلقًا من احتمال حدوث فضيحة إذا ظهر الأمر للعلن، ومع تلك الأشرطة الفظيعة التي أرسلها الروس لكِ وهي تطفو هناك، إضافة لخطر أنهم قد يرسلونها لمكان آخر لرفع قيمة تفاوض سام، أو لمجرد خلق فوضى ومشاكل لنا. حسنًا، بدا الانفجار مرجحًا إلى حد كبير. بصدق أعتقد أن غوسفورد كان ليفضل أن يقتل الروس سام، ويضعوا رأسه على رمح خارج الكرملين، وينتهي الأمر. لكن الروس ليسوا بتلك الرحمة. في مرحلة ما، أدرك عباقرة الطابق السابع أنهم قد يرغبون في حل المشكلة اللعينة وإعادته للوطن، تخيلي ذلك».

مع نخرة، أرسل ثيو دجاجة أخرى فوق الماء.

– «لماذا لا يقفزون يا أرتميس؟».

حدقت في الماء.

– «التمساح الوحيد الموجود هنا الآن هو أحد الصغار الذي أكل بالفعل اليوم ولا يهتم كثيرًا بهذه الدجاجات – أو بنا، على ما يبدو. المرح الحقيقي يبدأ حين نفتح البوابة الأخرى».

أشارت بسيجارتها نحو البحيرة، حيث تجمعت ظلال التماسيح حول البوابة المغمورة. ثلاثون دقيقة حتى عرض «الجامبارو» القادم: شهوة الدم كانت في الهواء.

قالت:

– «أكمل».

– «مزيد من الدجاج؟».

– «أجل، حوالي عشرة أخرى. وأيضًا القصة».

قال ثيو وهو يجلس القرفصاء من أجل طائر آخر:

– «حسنًا.. خرجنا بفكرة لحل المشكلة. موظف من البيت الأبيض قاد سيارته إلى لانغلي لعقد اجتماع وقال، في وجوهنا مباشرة: جدوا حلًا. أريد خيارات، ولا شيء مستبعد من الطاولة».

علق الطائر، ناظرًا إليه بفخر.

سألت بروكتر:

– «من كان هناك في الاجتماع؟».

للا شيء سوى السياق.

قال ثيو، مع إيماءة بذيئة ومشكوك فيها تشريحيًا بقبضتيه:

– «أنا، ماك، غاس، ديبس. نخبة العقول».

قرقرت الدجاجة عبر الماء على بكرة تصدر صريرًا.

تابع ثيو:

- «وكنا نتبادل الحديث في هذا الاجتماع.. كان الجو غير رسمي للغاية، ورمى ماك بفكرة: نختطف واحدًا من عندهم. ليست علم صواريخ بالطبع، فكرنا فيها من قبل. لكنها عدوانية للغاية. قال ماك إننا بحاجة لركلهم في خصيتهم ليتوقفوا عن قرصنا. يا له من اجتماع. واحد من الأفضل على الإطلاق».

قالت بروكتر:

- «خطف روسي.. أمر كبير نوعًا ما، أليس كذلك؟ ماذا كان... أوه تباً! ثيو!».

كان قد انزلق عن الرصيف، وكان الآن يصرخ ويضرب الماء بجنون بالأسفل. رأت بروكتر التمساح الصغير يتجه نحو الجلبة، ومع ذلك قفزت لتجره نحو السلم، راكلةً بضع مرات باتجاه التمساح، الذي أكدت له لاحقًا أن اهتمامه نبع من الفضول أكثر من الجوع.

بمجرد أن تسلقا عائدين للممر الخشبي، تولت الأمور اليومية الكئيبة - التي غالبًا ما تُخرِج النقاشات المهمة عن مسارها- القيادة بقوة: كان على بروكتر و ثيو تغيير ملابسهما. كامينغز، الذي رأى نهاية مشهد السقوط، كان لا بد من طمأنته بأنها، لا، لم تكن ترمي العمل على صديقها المنحرف. لا، ثيو لم يكن ينوي رفع دعوى قضائية. نعم، ستجعل مؤخرتها تلمع نظافة لإدارة «الجامبارو». بحلول وقت انتهاء العرض، كان ثيو مخمورًا تمامًا، ولم تكن هي بعيدة عنه.

قال متلعثمًا تلك الليلة، رافعًا كأسه لها:

- «لست سباحًا ماهرًا يا أرتميس.. لست مائيًا جدًا».

وهذا، نظرًا لحبه للأسماك، كان ببساطة مذهلًا. في صباح اليوم التالي، كان مستيقظًا باكرًا للحاق برحلة طيران. اكتشفت لاحقًا أنه سرق إحدى قبعات عملها، الوغد.

***

فوجئت بروكتر بأن ماك – الراوي الأكثر موثوقية من ثيو بكثير – روى نفس القصة. التقط الخيط من حيث توقف ثيو تمامًا، وهو أن البيت الأبيض أشار إلى انفتاحه على اقتراح الـ CIA باستهداف ضابط استخبارات روسي. إذا تمكنت لانغلي من احتواء الأمر، فسيقوم البيت الأبيض بتسوية الجانب القانوني، وضمان تكييف العمل السري الجاري بخصوص روسيا ليناسب عملية كهذه. تطلب الأمر بلدًا يوجد فيه روس ذوو قيمة لموسكو، ويفضل أن يكون الجهاز المحلي مزيجًا من الود، والتردد، وعدم الكفاءة.

قال ماك:

– «أي تخمينات؟».

– «يجب أن تكون فيينا».

– «مدينة الجواسيس. وكان ريمورا»، تابع ماك مع رشفة طويلة من السكوتش، «هو العقدة الحاسمة هنا».

تذكرت بروكتر العميل ريمورا بالطبع، رغم أنها لم تطوره، أو تجنده، أو تشغله. كان أحد أفضل الأصول الروسية للـ CIA. عقيد محلق عاليًا، نائب رئيس القسم الخامس في الاستخبارات الخارجية الروسية SVR (أوروبا)، جنده ماك و ثيو قبل عامين في المغرب. وكان يُدار داخليًا بواسطة غاس في موسكو. تذكرت بروكتر أن غوسفورد و ديبس قد أبديا اهتمامًا خاصًا بـ ريمورا عند تسلمهما زمام الأمور، رغم أن ذكرياتها هنا كانت ضبابية؛ لم تستطع تذكر بالضبط لماذا كانا متحمسين جدًا للحالة.

قال ماك:

– «التقطت أنا و ثيو أول اختراق من ريمورا. والذي هو» – مفكرًا للحظة، ورشفة أخرى من السكوتش، وضوء خفيف يتدفق عبر عينيه – «منتصف يوليو. الأسبوع الثاني أو نحو ذلك. كان ريمورا مطلعًا على نقاش في SVR حول ما يفعله الروس بـ سام. سمع أن سام هُرب من سنغافورة إلى سجن غير رسمي خارج موسكو. غير متأكد كيف بالضبط، لكن حاوية شحن كانت جزءًا من الأمر. نحن بالطبع أردنا معرفة لماذا بحق الجحيم أخذوه. وقال

ريمورا إنه سأل وقوبل بـ "اللعنة لو كنت أعرف" وهزات أكتاف من الجميع. بلطجية الـ SVR كانوا هم المنفذين في سنغافورة. النظرية السائدة في دوائره كانت أنهم تحمسوا قليلًا لتلقين أمريكي درسًا، وبالغوا في الأمر».

قاطعته بروكتر:

– «ماذا قال ريمورا إنه حدث لـ غوليكوف؟».

كشر ماك بوجهه.

– «ذبحوه في غرفته بالفندق مثل خاشقجي[16]. اعترضه غوريلات روس، لكنه حاول الهرب، وحدث شجار، ومات. قطعوه، حسب الزعم، وهربوا الجثة في الصباح. يبدو أن الأجزاء حشرت في مجموعة حقائب».

سألت بروكتر مختارة كلماتها بعناية:

– «وكيف.. كيف فسر ريمورا الاهتمام بـ غوليكوف في المقام الأول؟ كيف عرفوا أنه كان يقابل سام؟».

ضاقت عينا ماك باتجاه أحد صناديق اللوحات، ثم تحولتا بثبات نحو بروكتر.

– «ساورتني بعض الشكوك.. حول سلسلة عهدة هذه المعلومات، يجب أن أقول. لا أعتقد أن ريمورا كان يكذب، أتساءل فقط عما إذا كان تناقُل القصة من شخص لاخر قد شوّه القصة لدرجة أنه كان يغرف لنا هراء التقطه في الممرات. لكن، في كل الأحوال، قال ريمورا إن زميلًا عضوًا في الوفد التجاري قد أبلغ عن غوليكوف لأحد مراقبي الأمن أثناء الرحلة الآسيوية. قال إن غوليكوف شوهد وهو يختلس وثائق سرية من السفارة خلال المحطة في بانكوك. غوليكوف مقامر معروف، ووفقًا لـ ريمورا، كانت الشائعات تقول إنه غارق في ديون خطيرة. على أية حال، الغوريلات رأوه يتحدث لـ سام في الكازينو. صعدوا للأعلى لسؤاله وتفتيش غرفته، وفجأة، بوم، انحرفت الأمور. زعم ريمورا أيضًا أن الغوريلات ضبطوا غوليكوف ومعه وثائق على بضع

---

[16] جمال خاشقجي :صحفي سعودي تم اغتياله داخل قنصلية إسطنبول عام 2018، في عملية اغتيال سياسي أثارت أزمة دبلوماسية عالمية وإدانات حقوقية واسعة.

ذاكرات فلاش في الأعلى، خليط من محاضر مجلس الأمن، وميزانيات متنوعة، ومذكرات رئاسية داخلية، وحقيبة محتوى مسروق من بانكوك. كان غوليكوف هناك لإبرام صفقة، والغوريلات قصوها في منتصف الطريق».

سألت بروكتر:

– «إذًا كان خطأ أن يختطفوا سام؟».

– «وفقًا لـ ريمورا».

– «إذًا لماذا لم يعيدوه ببساطة في سنغافورة؟ يطلقون سراحه؟».

– «حسنًا، وأنا هنا أخمن يا أرتميس، أتصور أنه بحلول الوقت الذي أمسكوا به، شعر ذلك الفريق أنه يجب جلبه إلى موسكو، وبحلول الوقت الذي خدروه وهربوه من سنغافورة، وضربوه، ولا شك أجروا حديثًا قاسيًا جدًا حول ما إذا كان غوليكوف قد مرر له أي شيء، بحلول ذلك الوقت كان قد دار نقاش داخل الكرملين حول ما إذا كان يمكن استخلاص ثمن لعودته. بمجرد وصوله لروسيا، ماذا يمكن للروس أن يفعلوا حقًا؟ يعترفون بخطئهم؟ هذا لا يشبههم. انظري إلى أوكرانيا. انظري إلى الحرب الباردة. انظري إلى خمسمائة عام من التاريخ الروسي. لن يحدث».

قالت بروكتر:

– «إذًا هذا هو الدافع الروسي لإرسال الأشرطة لي، والإعلان عن أنهم يملكون سام؟ التسويق؟ هز القضبان لنجلس وننتبه؟».

قال ماك:

– «أعتقد ذلك. إشعال كارثة استخباراتية من الدرجة الرابعة في واشنطن، حسنًا، هذا كله مكسب لهم. بالتأكيد، سيبدون وحشيين لاختطاف رجلنا، لكن، مهلًا، أوكرانيا وكل ذلك، الوحشية أخبار قديمة، وهذا يرفع قيمة سام كورقة تفاوض لأنهم الآن يعرفون أننا نعرف، وهكذا».

قالت بروكتر:

– «لكن ليس لدينا شيء للمقايضة.. فيكتور بوت[17] ذهب. هانسن[18] مات. آميس خارج الطاولة. لا يوجد "غير شرعيين" (Illegals) في السجن».

كان كأس ماك لا يزال جاريًا – وكأس بروكتر ليس كذلك – لذا جرع ماك كأسه ووقف لملئهما. واضعًا إصبعه على أنفه، استرخى ماك في كرسيه ومسح الغرفة، ماسحًا عبر صناديق اللوحات وكأنه يجري جردًا غير منطوق. قال:

– «بالضبط.. لم يكن لدينا شيء لمقايضته به. كان علينا تغيير ذلك. وكان لدينا ضوء أخضر من البيت الأبيض لنكون عدوانيين. أوروبا هي ملعب ريمورا، لذا طلبنا منه القائمة في فيينا وتقييمه للمكانة السياسية لكل ضابط هناك. وجدنا مستشارًا للمقيم (rezident)، جنرالًا له صلات عائلية في الكرملين. قال ريمورا إنه كان في فيينا لبضعة أشهر. نوع من النزهة، يقضي صيفًا ممتعًا في النمسا. عرف ريمورا أين أسكنوه لأنه كان مكانًا باهظًا للغاية. من هناك، لم يكن الأمر بتلك الصعوبة. غاس كان هناك معي».

– «فقط كيّستموه وأخذتموه؟».

– «الرجل كان يمشي من القصر المستأجر للسفارة كل صباح. تقريبًا في نفس الوقت. قاد "مركز الأنشطة الخاصة SAD" عملية خطف وسحب من شاحنة؛ أخذناه إلى الجبال خارج سالزبورغ، منزل خاص صغير لطيف، ومريح جدًا. أبقيناه هناك حتى تمكنا من إجراء التبادل».

قالت بروكتر:

– «سمعت أنكم كنتم قساة معه.. وأنه لم يكن مريحًا جدًا للروسي».

كانت ابتسامة ماك ابتسامة تلميذ فخور.

---

[17] فيكتور بوت: تاجر سلاح روسي لُقّب بـ "تاجر الموت" لتسليحه مناطق النزاع عالمياً، سُجن في أمريكا وأُطلق سراحه في صفقة تبادل أسرى شهيرة عام 2022.

[18] روبرت هانسن: عميل مخضرم في مكتب التحقيقات الفيدرالي (*FBI*) تجسس لموسكو لمدة 22 عاماً، ويُصنّف كأخطر خرق استخباراتي وأكثر الجواسيس ضرراً في تاريخ المكتب. تم القبض عليه عام 2001 وحكم عليه 15 مرة بالسجن مدى الحياة. وتوفي في السجن عام 2014.

– «سمعتِ ذلك، أليس كذلك؟ ممن؟».

– «الناس يتحدثون».

ابتسم مجددًا – هذه المرة بمرح أقل بكثير. حرك مفاصل أصابعه.

– «كانت هناك جوانب من تلك الرحلة استمتعت بها أكثر مما ينبغي».

– «أنا واثقة أن الوغد استحق كل ما ناله».

توقفت، آخذة رشفة من شرابها.

– «وأنت.. أنت تستحق وسام الاستخبارات التقديري. كان يجب أن أقولها بالفعل. لكن مبروك».

قال ماك مبتسمًا:

– «تريدين تصفيقًا؟».

أكملت:

– «انضم لوزارة الخارجية. وتريد ميدالية؟ انضم للجيش».

قرقع كأسه بكأسها.

– «نحن نفكر بنفس الطريقة حول هذه الأشياء اللعينة. لست في هذا العمل من أجل الأوسمة».

– «حسنًا، إنها ذهب للأمان الوظيفي. تجعل من الصعب على ديبس أو غوسفورد دفعك للخارج. و غاس أيضًا».

– «تفعل ذلك. للخير وللشر».

ساد صمت، ثم قال ماك:

– «سام، بالمناسبة، يبدو أنه بخير، نظرًا للظروف».

– «جيد سماع ذلك. إذا كان لدي وقت سأرى إن كان بإمكاني المرور لقول مرحبًا».

– «سيعجبه ذلك، أنا واثق».

استقرا في صمت ودي آخر. تذكرت الآن أن العملية التي شغلت ماك و ثيو في ذلك الأسبوع كانت التحضير لاجتماع مع ريمورا. تحذيرات مزعجة بشكل غامض، تذكرت.

قالت:

-«ريمورا ..هل أخبرنا أيضًا بشيء ما في الفترة التي سبقت سنغافورة؟ أم أنني مجنونة؟».

قال ماك:

- «لا، هذا صحيح. كنت أنا و ثيو نستعد للقاء وجهًا لوجه مع ريمورا، في فرنسا. حتى ديبس سافرت إلى لاكوست للانضمام للاجتماع».

انتفضت بروكتر في جلستها:

- «ديبس؟ هذا غريب».

دمدم ماك:

- «قولي لي.. هي أصرت. قالت إنها تريد النزول للميدان، وتشمير أكمامها».

- «وماذا، بالضبط، ساهمت به العزيزة القديمة ديبس في النقاش؟».

- «القليل جدًا. قابلت ثيو هناك للدردشة بجانب المدفأة مع ريمورا، الذي جعلنا ننتظر قليلًا، بطبيعة الحال. لحسن الحظ كان ثيو قد جهز المكان بحلول وقت وصولي. ريمورا يمكن أن يكون دقيقًا بشأن الضيافة. انضمت ديبس في النهاية. أرادت مصافحة ريمورا، أفترض، والحصول على بضع قصص يمكنها جلبها للمكتب البيضاوي مع غوسفورد».

سألت بروكتر، متخيلة التسلسل الزمني الذي خربشته الليلة الماضية على دفاترها القانونية:

- «متى كان الاجتماع؟».

- «كان في غضون أيام قليلة من سنغافورة. ربما قبل يومين؟ ثلاثة؟ لا أذكر التواريخ بالضبط. كان لدى ريمورا إشاعة يريد بيعها لنا. غموض حول استهداف الروس للأمريكيين في آسيا».

قالت بروكتر:

- «هذا.. يصيبني بالقشعريرة. هل كان بإمكاننا فعل شيء حيال ذلك؟».

قال ماك:

– «ولا فرصة. كان الأمر غامضًا للغاية، حتى ديبس وافقت. أذكر أنها قالت ذلك خلال ذلك الاجتماع القاسي في الطابق السابع صباح اليوم التالي لـ سنغافورة. كنت في جبال الأديروندداك مع لولو حين سمعت أن ريمورا أشار لطلب اجتماع. هرعت عائدًا لـ واشنطن، وحضرت مع ثيو، ثم طرت لـ فرنسا. في النهاية انتهى بي الأمر بقطع إجازتي من أجل معلومة تافهة عديمة الفائدة».

وكأن ذكر اسمها قد استدعاها، طقطق ضوء استشعار الحركة في الخارج، وفي الأسفل صرّ الباب مفتوحًا.

خرخرت لولو:

– «حبيبي.. هل أنت هناك؟».

قال ماك:

– «نعم يا عزيزتي.. لقد انتهينا. هل نشرب كأسًا؟ أرتميس ستبقى هنا الليلة، معنا».

انفعلت بروكتر:

– «اللعنة.. بالانغليزية، رجاءً. لقد مر عشرون عامًا على جولتي في فرنسا، ولغتي الفرنسية لم تتألق يومًا في الأساس».

الفصل الخامس عشر

ماكلين

في المساء التالي، ومن خلفِ زجاجِ المطعم، راقبت بروكتر سيارة «الميني فان» الخاصة بـ غاس وهي تدخلُ موقفَ السياراتِ وهي تلمعُ بنظافةٍ فائقة. كانت واثقةً أنه يغسلُها أسبوعيًا، وغالبًا في طريقِ عودته من الكنيسة. فأكثرُ شيئينِ يهمانِ غاس كونستانتينوس رابتيس هما: الأرثوذكسية اليونانية، ووكالة المخابرات المركزية. وإذا تَبقّى في قلبِهِ متسع، فإنه يخصصهُ لزوجته كوني —وهي موظفةٌ سابقةٌ في الوكالة، كانت تعملُ في قسمِ التحليلِ قبل ولادةِ الأطفال. كان رابتيس الأب —مثل ميسون الأب— رجلاً من رجالِ الوكالةِ المخضرمين، وقد نالَ أوسمتَه من خلالِ إدارةِ شؤونِ "المجاهدين[19]" في الثمانينيات.

كان غاس الطالبَ المتفوقَ في دفتعهم بـ «المزرعة»؛ كان صلبًا ورياضيًا، وقد برعَ في لعبةِ "اللاكروس" في جامعة كورنيل، وسمعت بروكتر أنه كان "الرجل الأول" هناك أيضًا. لقد امتلكَ غاس تلك الجبلّةَ الأصيلة، جبلةَ والده؛ لم يكن ذلك الابنَ الفاشلَ الذي يبددُ مجدَ العائلة، بل كان الوريثَ الشرعي، وخليفةَ الرجلِ الأسطوري الذي أدارَ "المجاهدين" وقهرَ الشيوعيين.

وبدا أنَّ هذا النجاحَ قد انسحبَ على حياته المنزلية أيضًا؛ فعائلة رابتيس كانت متدينة، ولم يعرف غاس غير زوجةٍ واحدة — فلم يسبق له أن نُفيَ إلى «قفص التأديب»، لا في عمله ولا في زواجه. وحتى اللحظةِ التي اضطر فيها

---

[19] المجاهدين (*Mujahideen*) : ائتلاف من الجماعات الإسلامية المسلحة في أفغانستان التي خاضت حرب عصابات ضد الاحتلال السوفيتي (1979-1989) بدعم تسليحي واستخباراتي أمريكي وعربي واسع.

لقطعِ جولته في موسكو، كانت بروكتر تشعرُ دائمًا أنَّ غاس وكوني غارقان في حبٍّ عميق، ويتمتعانِ بحياةٍ زوجيةٍ متوهجة، ومتفائلانِ بالمستقبلِ بشكلٍ عام. بعبارةٍ أخرى: كانا كائنينِ غريبينِ من كوكبٍ آخر.

جلس غاس في المقصورةِ المقابلةِ لـ بروكتر. شعرٌ داكنٌ مصففٌ بعناية، بدلةٌ أنيقة، وقميصٌ أبيض —دائمًا يرتدي القمصان البيضاء— لكنه على الأرجح من تلك العلاماتِ التجاريةِ العاديةِ التي توجدُ في مراكزِ التسوق. لم يكن يملكُ الكثيرَ من المال، ولم تكن لديه «صناديق سوداء» عائلية. كوني لم تعد تعمل، ومنذ ثلاثِ سنوات، وابنهما الأكبر نيكو يستنزفُ رمقَ مدخراتهما. كان كونُ نيكو قد طعنَ العائلةَ في قلبِ كبريائها نوعًا من «معارف الوكالة» المعذبة: ذلك السرُّ الذي يعرفه الجميع. كانت هناك شائعاتٌ تقولُ إنَّ غاس استقطعَ من مدخراتِ تقاعدهِ لتمويلِ رحلةِ ابنهِ الأخيرةِ إلى مركزِ إعادةِ التأهيلِ في مكانٍ ما في كاليفورنيا.

تفرّس فيها غاس بعينيهِ الصارمتين؛ كانت تلك نظرةَ قسيس، كما كان يقول ثيو عندما يثملون ويتحولُ الحديثُ إلى صديقهم: «إنه يرى خطايانا يا أرتميس.»

وكنتُ أجيبُه حينها: «ما كان ليصادقنا لو استطاعَ رؤيتَها حقًا.»

طلبت بروكتر شطيرةَ برغر وجعة، بينما طلب غاس ماءً فوارًا. كان هذا الرجلُ ينجحُ في إشعارِك بالذنبِ والتحقيرِ حتى في طريقةِ طلبهِ للطعام. وعندما انصرف النادل، قال غاس إن لديه ثلاثين دقيقةً على الأكثر.

سألها:

– «لماذا لم تخبرينا بقدومك؟ لقد جئتِ دون سابقِ إنذار. وأين تجرين المقابلاتِ على أيِّ حال؟»

أجابت:

– «في شركة "DyncoTel".»

ثم رددت عليه نفسَ القصةِ التي أخبرت بها ماك. سألت عن كوني والأطفال —فأجاب بتهربٍ مهذب— ثم قررت أن تقتحمَ صلبَ الموضوع:

– «لقد كنتُ أفكرُ كثيرًا في قضيةِ سنغافورة، وأحتاجُ مساعدتكَ حقًا في بعضِ الأمور.»

قال بابتسامةٍ لطيفة:

– «ولماذا، بحقِّ السماء، قد تفكرين في ذلك؟»

– «تأنيبُ الضمير، على ما أظن.»

– «هذا شعورٌ جديدٌ عليكِ.»

– «ستندهشُ من الأفكارِ السوداء التي تقتحمُ ذهنك عندما تكونُ وحيدًا ومخمورًا في مقطورة. إنَّ صراعَ الشياطينِ في روحك والتماسيحِ في المستنقع في آنٍ واحدٍ تحدٍّ كبير؛ وتبيّن أنَّ عليكَ اختيارَ أحدهما.»

– «يا إلهي، يا أرتميس!»

رقت عيناه، وقال بنبرةٍ متعاطفة:

– «أخبريني كيف يمكنني المساعدة.»

قالت:

– «أتساءلُ فقط ما إذا كنتُ قد أخطأت.. ما إذا كنتُ قد أغفلتُ شيئًا ما وأرسلتُ سام إلى الجحيم. هذا التفكيرُ ينهشُ روحي.»

وصل الطعامُ والمشروبات. طلب غاس قطعةَ ليمون، وجلسا يعبثانِ بأدواتِ المائدةِ حتى أحضرها النادل. اشتعلت مدفأةُ الغازِ فجأة، فراقب غاس ألسنةَ اللهبِ للحظة، وهو يستنشقُ فقاعاتِ غازِ الكربون المتصاعدةِ من شرابه. لم تره يشربُ قطرةً من الكحولِ أبدًا، ولعلّه الموظفُ الوحيدُ في الوكالة — من غيرِ "المورمون"— الذي يمكنها أن تقولَ عنه ذلك. كانت خطايا ثيو واضحةً للعيان، وفي الواجهة، تمامًا كخطايا بروكتر. أما خطايا غاس فكانت من النوعِ المستتر: الكبرياء، الطمع، الحسد؛ تلك الأشياءُ التي يهتمُ بها القساوسةُ وحدهم، وليست الحماقاتِ التي تتركُ خلفَك سلسلةً من الزيجاتِ الفاشلة، أو ترميكَ في مجاري الطرقات، أو تجعلكَ تسلخُ الدجاجَ في "غاتورفيل". وحده ماك نجحَ في صياغةِ زواجهِ بتلك الأناقة؛ لقد أعادَ تشكيلَ خطاياه لتبدوَ فضائل.

كان غاس ينقرُ الثلجَ في شرابه، ثم رفعَ عينيه عندما رأى النادلَ يقترب، وأشارَ إليه بحدةٍ لينصرف. غاس رابتيس، كابوسُ النوادل: عابسٌ وبخيل. تساءلت في نفسها: هل تُعدُّ هذه خطايا أيضًا؟

قال غاس:

– «حسنًا، دعونا نضعُ هذا الظنَّ المجنونَ جانبًا يا أرتميس. إنه أمرٌ عبثي. ورغم أنني أحيي هذا الوميضَ المفاجئَ والمتأخرَ لبوصلتكِ الأخلاقية، إلا أنني لا أظنُّها تشيرُ إلى الاتجاهِ الصحيح هنا. هل تلمحين إلى أنَّ غوليكوف كان طُعمًا؟ هل كان فخًا؟»

وضعت بروكتر الكرةَ في ملعبِ الحديثِ وقالت:

– «ألا تعتقدُ أنه كان كذلك؟»

فانطلق غاس في الرد:

– «غوليكوف كان صيدًا حقيقيًا. كانت محاولةُ تواصلهِ معقدةً للغاية؛ كانت مزيجًا دقيقًا بين حنكةِ المرتابِ وقلةِ خبرةِ المدني. تلك الرسالة، وعرضه.. كان كلُّ شيءٍ حقيقيًا.»

قالت بروكتر:

– «لقد اتصلتَ بي في ذلك الصباح، بعد وصولِ البرقية.»

– «صحيح.. كنتُ في نيويورك، أقدمُ إيجازًا لـ ديبورا وغوسفورد. كان ذلك بعد أقلِّ من أسبوعٍ على تثبيتِ غوسفورد في منصبه.»

سألته:

– «هل تتذكرُ إطلاعَ ديبس وغوسفورد على تفاصيلِ عمليةِ سنغافورة؟ هل وُضعت في ملفاتِ القراءةِ الخاصةِ بهما في نيويورك؟»

– «أسمعي يا أرتميس، لماذا تـ...»

– «أرجوك يا غاس، مجرد سؤال، أرجوك.»

تنهد قائلاً:

– «نعم، كان هناك إيجاز. لـ ديبورا. كنتُ هناك لأطلعَها على مستجداتِ عملياتنا في موسكو؛ فقد كانت حريصةً على معرفةِ تفاصيلِ المشهد.»

– «وهل حصلت على المعلوماتِ المتعلقةِ بغوليكوف؟ الرسالة؟ كل ذلك؟ في نفسِ اليوم؟»

أجاب ونبرتُه تخشنٌّ كورقِ الصنفرة:

– «نعم، حصلت عليها. أخبرتُها بما نعرفه عن غوليكوف، وأنَّ عيناتِ المعلوماتِ التي قدمها كانت صلبة، وأننا نريدُ معرفةَ المزيد. لم نكن قد وضعنا خططًا لمقابلتهِ بعد، بالطبع، لكنني قلتُ إننا سنقومُ بترتيبِ شيءٍ ما لنرى ما لديه. اتصلتُ بـ ماك في ذلك الصباح؛ فنزلَ من مرتفعات "أديروندداك" وقدمَ الإيجازَ لـ ديبورا معي. غطينا الملفَّ الروسيَّ بالكامل، وكان هناك الكثيرُ من الأمور، لكنَّ موضوعَ غوليكوف كان على رأسِ جدولِ الأعمال.»

وهنا، رصدت بروكتر تناقضًا: عندما شرحَ لها ماك التسلسلَ الزمنيَّ لأحداثِ سنغافورة، لم يخبرها بزيارتهِ لـ نيويورك، ولا بالإيجازِ الذي قدمه مع غاس لـ ديبورا. هل نسيَ ذلك؟

سألت:

– «وكيف استقبلت ديبس ذلك؟»

ارتفع صوته قائلاً:

– «حقًا يا أرتميس! إلى ماذا تهدفين بالضبط؟ هل تتفضلين بالتوضيح؟»

فكرت في نفسها: اطرحي الأمرَ بوضوح، اطرحي نظريةً وانظري كيف سيتفاعلُ معها.

قالت وهي تأخذُ قضمةً من البرغر وتراقبُ اتساعَ منخريهِ وهي تمضغ:

– «بدأت المشاكلُ الكبيرةُ تدهمنا بمجردِ أن تولت صديقتُنا القديمة ديبس زمامَ الأمور. أليس هذا غريبًا؟ في أسبوعها الأولِ في المنصب، بدأت الاختراقاتُ في الملفِّ الروسي.»

لطالما تساءلت بروكتر عما إذا كان غاس رابتيس قد اقترحَ على ديبس، في الأسابيعِ السوداءِ التي تلت سنغافورة، أن يتولى هو قيادةَ فرعِ «موسكو إكس». فقد كان بلا منصبٍ مستقرٍ في تلك الشهور، بعد أن قطعَ جولته في

موسكو ليبقى في فرجينيا بينما يحاولُ «البيت الروسيّ» إيجادَ مكانٍ له. كان فرعُ «موسكو إكس» في أوجِ مجدهِ غنيمةً بارزة، وكان غاس يحتاجُ لموطئِ قدم. فهل تسللَ إلى الطابقِ السابعِ وهو يخططُ لانقلاب؟ لكنَّ غاس لن يعترفَ بذلك أبدًا؛ فهو حيوانٌ سياسي، وفي هذه الغابةِ عليكَ أن تكونَ حذرًا بشأنِ من ستأكل، خاصةً إذا كان صديقك. وأولئك الذين حاولوا أكلَ بروكتر في الماضي اكتشفوا أنها مسمومة؛ فلفظوها جميعًا. وغاس يعرفُ ذلك جيدًا.

وبدلاً من أن يدليَ بنظريتهِ الخاصة، لعقَ شفتيهِ وتفقدَ ساعته، ونظرَ إلى الخارجِ نحو سيارته.

قال:

– «رغم أنَّ هذا الظنَّ قد يكونُ مُرضيًا، إلا أنَّ هناك مائةَ تفسيرٍ لما حدث في ذلك الأسبوع، وواحدٌ منها فقط يتضمنُ وجودَ جاسوسٍ مندس.»

قالت وهي تحاولُ استدراجَ ردِّ فعلٍ منه:

– «هراء! لا أصدقُ هذا الكلام.»

لكنَّ غاس اكتفى بهزِّ كتفيهِ وتثاءبَ ثم وقف.

قال:

– «افعلي ما يحلو لكِ، لكنَّ هذه هي الحقيقة. والآن، كوني تنتظرني يا أرتميس.»

أمسكت بمعصمهِ بلطفٍ وقالت:

– «شيءٌ واحدٌ أخير.. لقد قمتُ بجولةٍ مؤخرًا يا غاس، أحاولُ سدَّ بعضِ الثغرات، وإصلاحَ بعضِ الشروخِ في حياتي، أمورٌ من هذا القبيل. أنت وماك بطلانِ الآن، وكان عليَّ أن أباركُ لكما عندما جلسنا؛ من أجلِ عمليةِ فيينا وقيادتكما للجهودِ التي أعادت سام إلى الوطن. لكنني لم أعرف ماذا أقول، كما تعلم.. لقد سُحقتُ وطُردتُ، بينما حصلتما أنتما على الإشاداتِ والترقيات.»

رقت عيناهُ مرةً أخرى، ولم يحاول انتزاعَ ذراعهِ من يدها.

توسلت إليه قائلة:

– «فقط بضعُ دقائقَ أخرى.»

تفقّد الوقتَ على هاتفه، ونظرَ بأسىً نحو الظلام، ثم تنهد وجلسَ مرةً أخرى في المقصورة.

سألته، وهي تكررُ نفسَ السؤالِ الذي طرحتْه على ماك للمقارنة:

– «هل توصلنا لأيِّ شيءٍ يفسرُ لماذا استهدفوا غوليكوف وسام؟»

أجاب غاس:

– «أعطانا "ريمورا" خيطًا. بعد شهرٍ تقريبًا من رحيلك، أخبرنا أنَّ غوليكوف قُبِض عليه ومعه وحداتُ تخزينٍ تحتوي على وثائقَ منهوبة، وأنَّ اختطافَ سام كان خطأً. الافتراضُ القائمُ هو أنه كان ينوي بيعَ تلك الحزمةِ لنا وطلبَ اللجوء.»

قالت بروكتر وهي ترددُ الاسمَ في عقلها:

– «"ريمورا".. إذا لم تخنّي الذاكرة، فقد أعطانا ذلك التحذيرَ الصغيرَ قبل عمليةِ سنغافورة.»

قال غاس:

– «آه نعم.. ذلك الاجتماعُ الذي أقحمت فيه ديبورا نفسَها بشكلٍ مشهور.»

سألت بروكتر:

– «لماذا تظنها ذهبت؟»

أجاب:

– «قصةٌ ترويها في "المكتب البيضاوي"، وماذا أيضًا؟ ديبورا انضمت فقط في النهاية، بعد أن أدى ماك وثيو رقصتهما المعتادة: ماك يمهدُ الطريقَ لـ "ريمورا"، ثم ينضمُ ثيو لتغييرِ وتيرةِ الجلسةِ والبدءِ في الأمورِ العميقة؛ حديثٌ من القلبِ للقلب، أو إذا لزمَ الأمر، يوجهُ له توبيخًا صغيرًا لإعادةِ الأمورِ إلى نصابها. كان كلُّ العملِ قد أُنجِز بحلولِ وقتِ وصولِ ديبورا. كان الأمرُ بالنسبةِ لها مجردَ جلسةِ تصوير.»

قالت بروكتر:

– «لقد نسيتُ أنهما يقومانِ بتلك الحركةِ الثنائية.» (رغم أنها في الحقيقةِ لم تسمع عنها من قبل).

تابعت: «ما رأيكَ في المعلوماتِ التي قدمها "ريمورا" لنا؟ ذلك التحذير؟»

استنشق غاس هواءَ زجاجةِ الماءِ الفوار؛ كانت عيناهُ براقتينِ ومليئتينِ بالحيوية، وكأنَّ أفكارَه خلفهما تتسابقُ لتواكبَ حديثها. لم يكن غاس سياسيًا —تركَ ذلك لـ غوسفورد وديبس— لكنه كان الأقربَ لتلك الفصيلةِ في الوكالة، مستخدمًا ببراعةٍ ذلك المزيجَ القويَّ من المرحِ والتهديدِ الضروريَّ للنجاةِ في غابةِ لانغلي.

قال غاس:

– «ذلك الجزءُ من معلوماتِ "ريمورا" كان.. غامضًا.»

– «هل تعتقدُ أنه يهذي؟»

– «أحيانًا فقط. إنه مرتزق، يحاولُ بيعنا أيَّ شيء. إنه في جوهرهِ أفعى.»

– «إحدى أفاعينا نحن.»

– «بالضبط. الكثيرُ مما يقدمُه صلب، والكثيرُ منه يتركنا نتوقُ لـ... تفاصيل. كنتُ متشككًا عندما ظهرَ لأولِ مرة، لكنه نجحَ في إقناعي بشكلٍ عام. لقد توليتُ إدارتَه لفترةٍ داخل موسكو، بالطبع. لحظةً واحدة...»

بدأ غاس يكتبُ على هاتفهِ وهو يقطبُ جبينه. في هذا الصمت، بدأت بروكتر تجمعُ خيوطَ المعلوماتِ من حقولِ ذاكرتها الباهتة. قبل عام، كان غاس جديدًا في موسكو، في جولةٍ خارجيةٍ بمفردهِ رغم أنه متزوج، بينما بقيت زوجتهُ المحبةُ في الوطن؛ وتذكرت بروكتر الآن أنَّ لولو لمحتها مرةً واحدة —ولم تظهر بعدها أبدًا— وهي تعملُ في متجر "نوردستروم" في بنتانغون سيتي. كوني رابتيس لم تعمل منذ قرابةِ ربعِ قرن، ومع ذلك كانت هناك، وحيدةً وشاعرةً بالمللِ بينما غاس في موسكو. وتذكرت بروكتر شائعتينِ غريبتينِ التقطتْهما في ذلك الوقت، من النوعِ الذي يعيشُ في عددٍ قليلٍ من أجهزةِ كمبيوتر الأمنِ ولا مكانَ آخر. الأولى: أنَّ غاس سافرَ إلى الولاياتِ المتحدةِ لإجراءِ اختبارِ كشفِ كذبٍ مبكر. الثانية: همساتٌ خبيثةٌ حول "إذنٍ قضائي"

(FISA[20]) لمراقبةِ ضابطٍ كبيرٍ في الوكالةِ في موسكو، مما يسمحُ لمكتبِ التحقيقاتِ الفيدرالي بمراقبةِ هواتفِه وبريدهِ الإلكتروني. لعدةِ أشهر، كان غاس يتحركُ بحريةٍ مقيدة، يقابلُ الروسَ في روسيا، وبينما كانت الوكالةُ تثقُ في رجالها، لم يكن الفيدراليون يفعلون ذلك دائمًا، واللهُ وحدهُ يعلمُ أيَّ القاذوراتِ نبشوا عنها بخصوصِ رحلاتِ غاس المسكينِ داخل روسيا. تلاشت الشائعات، وبقي غاس في موسكو حتى فجرِ عهدِ غوسفورد، ونسيت بروكتر الأمرَ برمتِه. لكنها الآن تراهُ بضوءٍ جديد: أسهلُ مكانٍ يمكنُ للروسِ فيه تجنيدُ ضابطٍ رفيعٍ في الوكالةِ هو موسكو.

أخذت قضمةً أخرى من البرغر، ولما وجدتها صعبةَ المضغ، بصقتْها في منديلها. أزاحت طبقها وتناولت جرعةً من جعتها.

وضع غاس هاتفهُ في جيبه، وابتسمَ متنهدًا:

– «لم أعرفكِ يومًا متطلبةً في طعامكِ يا أرتميس. يبدو أنَّ "فلوريدا" جعلتكِ مترفة.»

– «بالمناسبة، متى ستأتي عائلة رابتيس لزيارتي؟ التذاكرُ مجانية، سأرتبُ لكم الأمر. لدينا لحمُ تماسيحٍ مجفف.»

– «كوني تفضلُ عالم "ديزني".»

قالت بروكتر وهي تتركُ وخزتها المبطنةَ معلقةً كابتسامتها:

– «لا أعرف يا غاس، أشياء "ميكي ماوس" تلك باهظةُ الثمنِ جدًا.»

كانت هناك فترة، أيام «المزرعة»، كان فيها غاس مرحًا ومفعمًا بالحيوية. لكنَّ ذلك الرجلَ قد اقتيدَ للخارجِ وأُعدِم، ليحلَّ محلهُ هذا الشخصُ الصارم، الذي كسا الشيبُ شعرهُ وقيدتْه سلسلةٌ من المشاكلِ العائلية؛ رجلٌ يقودُ عملياتٍ أسطوريةً ويقودُ سيارة «ميني فان» في ضواحي شمالِ فرجينيا. كلُّ ما لمسه رابتيس في مسيرتهِ تحولَ إلى ذهب، لكنَّ بروكتر لم ترَ الآن سوى إمكاناتٍ مهدورة. كان غاس ليكونَ رجلاً أرستقراطيًا رائعًا لولا يونانيتِه

---

[20] قانون فيزا (*FISA*): قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية الأمريكي (1978)، الذي ينظم عمليات التنصت والمراقبة الإلكترونية ضد "القوى الأجنبية" داخل الولايات المتحدة ويشرف عليها محكمة سرية خاصة.

اللعينة، وعاشقًا مذهلاً لولا زواجِهِ السعيد، وشاربًا استثنائيًا لولا زهدِهِ في الخمر.

وبدلاً من أن يردَّ الصاعَ صاعينِ بعد سخريتها من وضعِ عائلتِهِ المادي —واللهُ يعلمُ أنَّ لدى غاس الكثيرَ ليقوله عنها— اكتفى بالعبوس، وأظلمَ وجهه، وتفقدَ ساعته، رغم أنه في هذه اللحظةِ كان يعرفُ الوقتَ تمامًا.

قال:

– «إليكِ وجهةُ نظري: قد يجلبُ لنا "ريمورا" أحيانًا بعضَ القمامة؛ شائعات، شعوذات، أقاويلَ متناثرة. وأظنُّ أنَّ شيئًا من هذا قد حدثَ بخصوصِ رسائلِهِ المتعلقةِ بسجنٍ سام. فمعلوماتُ "ريمورا" جُمِعت من مصدرٍ ثالث — فكيف لا تكونُ مشوشة؟»

كانت كلماتُ غاس حادةً كالمبرد.

تابعَ قائلاً:

– «لكنَّ الحقيقةَ يا أرتميس، هي أنَّ "ريمورا"، رغم كلِّ عيوبه ونزعتِهِ التجارية، قد قدمَ لنا كنزًا من ذهب. قدمه لي شخصيًا في فرنسا، وفي عملياتِ تسلّمٍ من سياراتٍ متحركةٍ في موسكو، وفي مواقعِ البريدِ الميت. لم يكن كلُّه ذهبًا، لكنَّ جزءًا كبيرًا منه كان كذلك؛ كان يلمعُ بما يكفي. وتعرفين ماذا أيضًا؟ لقد أعطانا معلوماتٍ لن يتخلى عنها الروسُ طواعيةً أبدًا؛ شبكةً من "العملاءِ غيرِ الشرعيين" في فرنسا، وحلقةً من العسكريين الأمريكيين الذين يديرهم جهازُ الاستخباراتِ الخارجيةِ الروسي في ألمانيا. لهذا السببِ صدقتُ، ولا أزالُ أصدق، معلوماتهِ عن سنغافورة، وعن ذلك الضابطِ في فيينا الذي اختطفناه. والآن، ربما تودين إخباري لماذا نخوضُ هذا النقاشَ أصلاً؟ فضولكِ مريبٌ جدًا لشخصٍ يبحثُ عن الغفرانِ لخطايا غامضة، خاصةً وأنكِ ترتكبين الكثيرَ منها بدقةٍ مثيرةٍ للإعجاب. نصيحتي لكِ؟ ابدئي بتلك الخطايا الواضحة، وسيكونُ طريقُ التوبةِ أكثرَ استقامة.»

– «لقد كنتَ أكثرَ مرحًا في الماضي يا غاس.»

فترَّ ثغرهُ عن ابتسامةٍ وقال:

– «انتهى الوقت يا أرتميس. سُررتُ برؤيتك. في المرةِ القادمة، سيكونُ اللقاءُ في فلوريدا.»

نهض، ووضعَ ثلاثَ ورقاتٍ من فئةِ الدولارِ الواحدِ على الطاولةِ ثمنًا لمائهِ الفوار، وخرجَ إلى عتمةِ الليل. أزاحت بروكتر شطيرةَ البرغر بعيدًا. وعندما دفعت الحساب، رأت أنه رغمَ انتهائهِ من زجاجةِ الماءِ بالكامل، إلا أنَّ مالَه لم يغطِّ سوى نصفِ ثمنها.

الفصل السادس عشر

موسكو

فك جون تارمان حزام الأمان عند المنعطف. أبطأت مولز سيارة الـ «لادا» وتمتمت دون صوت: أحبك. تمتم تارمان: أحبكِ أيضًا، وبنقرة فتح الباب، وتدحرج من السيارة نحو منحدر عشبي.

لقد تدرب على هذه الدحرجة عشرات المرات في «المزرعة»، وفي شوارع واشنطن، وحتى داخل الممرات الضيقة لمحطة موسكو، متقلبًا بين المقصورات في نهاية سباق سريع. ثمة ثابت واحد: كان الأمر مؤلمًا دائمًا.

أصدر تارمان صوتًا عند الارتطام، متدحرجًا ليتخذ وضع القرفصاء في الوقت المناسب ليشاهد مولز تنفخ دمية «الجاك إن ذا بوكس» (Jack-in-the-Box)، وهي نسخة قابلة للنفخ من تارمان تجلس الآن مكانه في مقعد الراكب. تسلل بين الأشجار بينما كانت مولز تنعطف عند الزاوية لتختفي عن الأنظار.

تساءل عما إذا كانت تلك ليلتهم الأخيرة في موسكو. في بيئة كهذه، لا يمكنك حقًا أن «تختفي» (get black) بهذه العدوانية وتتوقع البقاء في البلاد. الأمور ستتجه حتمًا نحو القبح. أمل فقط ألا يقتل الروس قططهم. أو مولز، أو هو نفسه – رغم أنه حتى في ظل قواعد «اللعبة» الجديدة والأكثر قسوة، كان يتوقع معاملة أكثر لينًا مما تلقاه صديقه القديم سام في وقت سابق من هذا العام، حين قبض عليه الروس في سنغافورة وعصروه هنا في موسكو. فـ تارمان يتمتع بوضع دبلوماسي، على أي حال.

مرر تارمان أصابعه فوق زجاجة الفودكا المملوءة بالماء في حقيبته. سليمة، الحمد لله. قلب سترته ليكون وجهها الأسود المهترئ للخارج بدلًا من الأحمر، وارتدى قبعة صوفية رمادية. وليكمل مظهر السكير المتشرد، سحب الزجاجة من الحقيبة ودسها في كيس ورقي. أجرى جردًا سريعًا للحقيبة: إمدادات ستة أشهر من دواء «ليكسابرو» لزوجة العميل (كلاو CLAW)، وذاكرة فلاش تحتوي على متطلبات الاستخبارات المركزية مخبأة في جيب سري، وخمسة وسبعون ألف يورو. كان هناك أيضًا ملاحظة عملياتية، كتبها تارمان بخط اليد لعميله الثمين.

تثاقل تارمان في سيره بين الأشجار، ليخرج إلى فناء مبنى سكني قديم من الحقبة السوفيتية تفوح منه رائحة الخرسانة الرطبة وفضلات الكلاب. سار عبر الفناء، ليصل إلى الشارع في الجانب الآخر. شعر بأنه «غير مرئي» (black) ولاحظ أن المبنى السكني، والفناء، والآن الشارع، بدت تمامًا كما وصفت في تقرير الاستطلاع الذي حفظه خلال الأسبوع الماضي. على الجانب الآخر من الشارع، لاحظ وجود سيارة الـ BMW الخاصة بـ كلاو. كان بوسع تارمان حفظ رقم اللوحة وكأنه موشوم خلف جفنيه. السيارة كانت إشارة الأمان للاجتماع. الطريق آمن. أعلى الطريق، رأى مقطورة مغطاة بالجرافيتي، يستند خطافها على كومة من الكتل الخرسانية. المقطورة لم تكن في التقرير، كان واثقًا من ذلك، لكن مولز استطلعت المكان قبل أربعة أيام، ولم يكن غريبًا أن تأتي وتذهب المركبات.

كان قد وصل قبل الموعد بست عشرة دقيقة. أجرى جولة سريعة في الشارع، سائرًا بترنح طفيف، مبرزًا زجاجة الفودكا، وارتمى على مقعد خارج المبنى السكني مباشرة، حريصًا على تجنب بقع القذارة وفضلات الطيور. تجرع رشفة طويلة من الماء وتدرب، للمرة الألف، على تسلسل وسيناريو هذا اللقاء الخاطف مع كلاو، وهو عقيد في جهاز الأمن الفيدرالي FSB ولص غزير الإنتاج لأسرار الدولة الروسية. استمع تارمان للإيقاع المطمئن لضربات قلبه. موسكو كانت ملكه.

***

مرت عشرون دقيقة، وبدأ صبر تارمان ينفد، والقلق يتسرب إليه. خرجت امرأة من المبنى السكني؛ كانت الآن تجوب الشارع جيئة وذهابًا، تدخن، وتثرثر على هاتفها مع شخص ما حول برنامج تلفزيوني. كانت لغة تارمان الروسية قريبة من الطلاقة، لكنه عانى لفهم لهجتها السوقية السريعة كطلقات الرشاش. ثبت عينيه نحو الزقاق أعلى الشارع، حيث كان يأمل أن يظهر كلاو في أي دقيقة. سيمشي تارمان لمقابلته، وسيتنزهان نحو منطقة حرجية أخرى لحوالي خمس دقائق. ينتهي اللقاء القصير، ويعود هو أدراجه للمنزل.

لكن بدلًا من ذلك، انفجر العالم من حوله. صيحات. وقع أقدام. ارتطام معدن بخرسانة. المارة يصرخون. وقف تارمان، لكن غريزته للركض خُنقت بلمسة أيادٍ خشنة أمسكت به من الخلف. رجلان، اندفعا من فجوة عبر الشارع، انتزعا حقيبته. كان على الأرض القذرة، والتراب والطين والله أعلم ماذا أيضًا يملأ فمه. يدٌ ثبتت رأسه أرضًا. كان يحاول الشرح بأنه دبلوماسي أمريكي، سكرتير ثانٍ في السفارة الأمريكية، حين رفع الرجال خلفه ذراعيه عاليًا فوق رأسه. مسكة «جناح الدجاجة»، علامة مسجلة للـ KGB من شفق الحرب الباردة، تلك الحقبة التي بدت بطريقة ما أكثر تحضرًا من الحاضر.

لمح تارمان قطيعًا آخر من الرجال المتشحين بالسواد يهرولون نحو المقطورة المتوقفة. كانوا يسحلون رجلًا يشبه كلاو.

قال تارمان مجددًا:

– «أنا سكرتير ثانٍ في السفارة الأمريكية».

لكن الألم في ذراعيه المرفوعتين أصبح حارقًا، ومعميًا. فقد وعيه.

***

عبرت سيارة ريم البوابة A3 في سجن ليفرتوفو، متجهة نحو الجناح الأحدث للسجن حيث سيحتجز «أبناء العمومة» من الـ FSB الأمريكي. كان مساعد ريم هناك بالفعل؛ يقف مدخنًا قرب الباب، تحت مصباح يلقي بركة من الضوء الموحش على المبنى المغرة اللون. ترجل ريم من السيارة.

قال المساعد:

– «بورتنيكوف موجود هنا بالفعل».

سأل ريم:

– «كيف حال الأمريكي؟».

– «قطعة واحدة.. حتى الآن».

سحق المساعد سيجارته ـ في الأرض.

***

انتظر ريم وصول بورتنيكوف ـ في غرفة استجواب خالية بالطابق الثاني. المحققون يجلسون عادة ـ في الكرسي الأقرب للباب، والمتهم يواجههم، لذا أخذ ريم مقعد المحقق وشبك يديه على الطاولة. ازدادت حرارة الغرفة مع مرور الدقائق. سال العرق على كاحلي ريم؛ وتلألأ على طول منبت شعره الأبيض. هل التجسس لعبة الشباب؟ لم يعتقد ذلك. إنه الانتظار، أكثر من أي شيء آخر. وكان ريم قد رتب مرة أخرى أقراصه المسائية بعناية. يمكنه الانتظار طويلًا.

***

كان ريم وحيدًا مع الكاميرا الوامضة ـ في الغرفة لمدة ثمان وأربعين دقيقة حين صر الباب وانفتح ليدخل بورتنيكوف. لم يدر ريم رأسه؛ انتظر. وقف بورتنيكوف خلفه. الرجل لم يرد كرسي السجين. بقيا هكذا للحظة، بورتنيكوف يواجه مؤخرة رأس ريم، و ريم يواجه المقعد الفارغ.

تحدث ريم:

– «هذا هو الاعتقال الثاني الذي تنفذه بناءً على معلومات عميلي ـ في ستة أشهر. وهو الثاني الذي ينتهي بعنف، بطريقة تضمن جعل لانغلي تتساءل عما إذا كان هناك جاسوس مسؤول. أنت تعرض أفضل عميل حظيت به روسيا على الإطلاق لخطر جسيم».

انفعل بورتنيكوف:

- «لقد أجرينا هذه المحادثة مرات عديدة يا ريم ميخائيلوفيتش. أجريناها في مكتبك، وفي مكتبي، وفي مكتب الرئيس. لماذا نجريها هنا؟».

نقل ريم ثقله في المقعد الخشبي؛ أراد الوقوف، لكنه شعر أن الوقوف سيكون نوعًا من التنازل لـ بورتنيكوف وحاول تجاهل عدم الراحة.

- «كل اعتقال يضع عميلي في خطر أكبر، لذا كل اعتقال يستحق تجديد المحادثة. أتفق على أن هؤلاء الخونة يجب تحييدهم، وربما حتى اعتقالهم. لكن تنفيذ رجالك لهذه الاعتقالات كان همجيًا. المقيم في أثينا قتل نفسه هذا الربيع. والآن هل عليّ أن أفهم أن رجالك انقضوا على الأمريكي قبل أن تتأكدوا تمامًا من أنه رأى شبيه عميلهم؟ إذا كان لا بد من العمل، لماذا لم يكن بإمكانهم مجرد السقوط من النوافذ أو الانهيار أمام حركة المرور القادمة، مثل الخونة العاديين؟ لدينا بالفعل مشاكل كثيرة يا ألكسندر فاسيليفيتش».

- «نحن نعتقد أن تارمان رأى الشبيه».

- «أنتم تعتقدون. الهدف الكامل من المسرحية كان التأكد، المعرفة. إذا لم يرَ تارمان الشبيه، سيعود الأمريكي للوطن ويخبر لانغلي أن عميلهم، عقيد الـ FSB الخاص بنا - الذي يعرفونه بـ (كلاو CLAW) - قد قُبض عليه قبل اللقاء، بينما نريد نحن أن تصدق الـ CIA أن رجالك تبعوا الخائن إلى الموقع. هل تفهم هذا؟ نريدهم أن يعتقدوا أن خطأً في المهارات الميدانية فضح عميلهم، وليس جاسوسًا داخليًا. إذا فات تارمان رؤية الشبيه، ستفترض الـ CIA، وبشكل صحيح، أننا اعتقلنا كلاو الخاص بهم قبل أسابيع. وأن كلاو قد كُشف من قبل شخص داخل لانغلي».

قال بورتنيكوف:

- «أنا من صمم العملية يا ريم.. وفّر عليّ المحاضرة».

أراد ريم الالتفات لقراءة وجه بورتنيكوف، لكنه قاوم الإغراء. بدأ ضوء بالأعلى يومض، ويئز كأجنحة نحلة ثقيلة. وكحشرة، حدق ريم نحوه وهو يتحدث.

– «أتساءل، مع ذلك، إن كنت فعلًا بحاجة للمحاضرة يا ألكسندر فاسيليفيتش».

بخطوتين أغلق بورتنيكوف المسافة وضرب بقبضته على الطاولة الخشبية. وقف فوق ريم ووضع إصبعه قريبًا جدًا من وجهه لدرجة أن ريم استطاع شم عشاء السمك الخاص بالرجل. ثم، متمالكًا نفسه، وقف بورتنيكوف مستقيمًا، ومسح أنفه، وبصق.

– «إذا كان عميلك بارعًا لهذه الدرجة، فلماذا قدم اسمين فقط؟ أعطني المزيد لأعمل عليه».

– «لو أطعمتك المزيد من الأسماء، لاعتقلتهم، وسيكون عميلي في ورطة أكبر. سرعان ما لن يكون لدينا عميل بعد الآن. كل شيء يبدو كمسمار بالنسبة لك يا ألكسندر. طبيعتك الوحشية ستكون سبب سقوطك».

– «والغرور سيكون سبب سقوطك يا ريم. وبالله عليك.. أنا، وحشي؟ انظر لمعاملتك لـ صامويل جوزيف في وقت سابق من هذا العام. التعذيب كان ليكون رحمة مقارنة بما أخضعته له. سأضطر لأن أكون أكثر انضباطًا بكثير الليلة مع هذا الـ تارمان. إنه تحت غطاء دبلوماسي وسادتي يخبرونني أن لدي الليلة فقط معه. سنعطيه فزعة، نوصل رسالة قبل أن نرسله عائدًا لـ واشنطن».

قال ريم:

– «سمعت أن لديه قططًا».

– «ثلاثة منها. كبيرة جدًا. مثل حيوانات الراكون. امرأة تارمان، مولي، كانت مولعة بها على ما يبدو. سببت لنا وقتًا عصيبًا. وقفت في طريقنا، فلم نستطع التعامل معها بنظافة».

شمر عن كمه ليكشف عن ساعد أيمن مخموش.

– «أهذا من القطط؟».

كشر بورتنيكوف.

– «أخشى أنني لا أعرف».

***

مجلس مراجعة جهاز الاستخبارات الخارجية: قضية المدير 24-6 (الدكتور "ب")، التقييم السنوي، الوحدة "هـ" (النظرة المستقبلية: الأهداف ومتطلبات الجمع)

المحقق الخاص: تشيك، تشيك. نعم؟ الكل جيد؟ حسنًا. هذه هي الوحدة الأخيرة من المراجعة السنوية للقضية 24-6. دعونا...

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: كفى. لقد مرت... **[يفحص الساعة]** ثلاث وثمانون دقيقة. أعطيتك تسعين. ظهري متعب.

المحقق الخاص: المدير كان واضحًا جدًا يا ريم، هو...

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: أعرف ذلك. لم أكن لأكون هنا لولا أنه لوي ذراعي بوضوح مؤلم. أنهِ أسئلتك لنتمكن كلانا من العودة للعمل.

المحقق الخاص: الوحدة الأخيرة من المراجعة هي الأكثر إثارة للجدل، كما تعلم.

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: دائمًا هي كذلك.

المحقق الخاص: وهي تتعلق بوضوح بـ... كيف أصيغ هذا... النهج المنضبط الذي اتبعته في إدارة هذه القضية. هناك من في الجهاز الأمني يعتقدون أن الدكتور "ب" لا يُدفع في الاتجاه الصحيح، ويقولون إن الفرص تضيع. تلقينا اسمي عميلين روسيين فقط للـ CIA، على سبيل المثال، المقيم في أثينا، المعروف لدى الـ CIA بـ بوكانير، الذي استدعيناه من اليونان وقتل نفسه في ذلك الاعتقال المدار بشكل فظيع. وعقيد الـ FSB المعروف بـ كلاو. وهناك نوع من... آه... إيه... كيف أقولها...

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: يا إلهي. أفهم أنه لا قيمة حقيقية لقتل الرسول، لكن حتى مع ذلك، قد يكون الأمر ممتعًا. لذا كن واضحًا ولا تغرني. اطرح سؤالك اللعين. واقرأه فقط من الورقة. إذا رغبت أي شخصيات مجهولة بين "أبناء العمومة" – ربما شخصيات بأسماء مثل بورتنيكوف – في

تحدي وجهة نظري، فهم يعرفون بالضبط أين يجدونني. أو يمكنهم الضغط على المدير، الذي رأى حتى الآن أنه من المناسب الثقة بحكمي في هذه القضية.

المحقق الخاص: [**حفيف ورق، قرقعة زجاج على الطاولة**] حسنًا يا ريم. حسنًا. أنت لا تجعل الأمر سهلًا علي، كما تعلم، أنا أقوم فقط بـ...

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: فقط اقرأ سؤال الوحدة.

المحقق الخاص: [**يسعل، تمتمة غير مسموعة**] يرجى وصف أهدافك للقضية في العام القادم.

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: سؤال رائع، شكرًا لطرحه. الدكتور "ب" هو أثمن اختراق قمنا به داخل أي جهاز خاص غربي على الإطلاق. آميس و هانسن لا يرقيان لمستواه. نتحدث عن عميل كان يمكن أن يعمل بشكل مشابه لـ فيلبي، لو أنه صمد. لذا فإن "أمر اليوم" هو حماية المصدر. إبقاء الدكتور "ب" في السرج وداخل اللعبة. ها قد حصلت عليه، الهدف: البقاء. هندسة القضية – خطة الاتصالات، متطلبات الجمع، الآلية الفريدة التي نتفاعل من خلالها مع الطبيب الطيب – حسنًا، كلها صُممت من أجل الديمومة، أليس كذلك؟ لو أدرنا هذه القضية عبر العمليات والإدارات الطبيعية، لكان الدكتور "ب" في السجن بالفعل. كان ليكون عام 1985 مجددًا، "عام الجاسوس" اللعين، مع دزينة أو أكثر من الاعتقالات والاختفاءات. كل أسبوعين كان بورتنيكوف سيحظى بأسير جديد وبضع فرص أخرى للكم ضباط الـ CIA في الرأس أثناء الاستجوابات. "أطباء الجلدية" في الـ CIA كانوا ليعرفوا أن شيئًا ما متعفن. وكان الدكتور "ب" سينضج في النهاية.

المحقق الخاص: ما هو، إذًا، الهدف بعيد المدى يا ريم؟ إذا كانت الأولويات في العام القادم ليست الجمع بقدر ما هي الحفاظ؟

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: نجاح الثقافة والحضارة الروسية يعتمد على الضعف والانقسام الأمريكي. والأمريكيون يدمرون أنفسهم، أليس كذلك؟ السياسة الأمريكية مختلة ومستقطبة. حياتهم الاقتصادية ملتوية وغير عادلة جوهريًا. الثقافة مريضة. لا توجد وحدة، لا إحساس مشترك بالهدف.

الأمريكيون يزدادون بلا روح وانحلالًا ومرجعية ذاتية. هذا التعفن يحدث من الأسفل للأعلى ومن الأعلى للأسفل. ويحدث بمعزل عنا، لكن يمكننا المساعدة في تسريع الأمور، أليس كذلك؟ تسريع الانهيار. عملياتنا المعلوماتية، على سبيل المثال، تساعد في تغذية التعفن من الأسفل للأعلى. نهج "من الأعلى للأسفل" هو حيث يأتي دور الدكتور "ب". لقد أصبح من المألوف التنبؤ بموت الاستخبارات البشرية، لكن لها قيمتها، أليس كذلك، في عالم لا نزال نملك فيه بشرًا؟ يمكننا إحداث كل أنواع الفوضى الرقمية، لكن لا يمكننا قلب مؤسسة معادية رأسًا على عقب ما لم نكن ممسكين ببعض بشرها، ويفضل أولئك اللعينون القريبون من القمة. الدكتور "ب" هو حصان طروادة الخاص بنا لتحطيم الـ CIA. هناك آليات مدمرة ستكون متاحة للطبيب في المستقبل غير البعيد: الميزانيات يمكن أن تُقلص أو يُعاد توجيهها بعبثية؛ الضباط الأكفاء قد يُطردون بشكل جماعي؛ أي عدد من اتفاقيات مشاركة المعلومات الاستخباراتية مع الحلفاء قد تُمزق؛ المجانين والساديون وغير الأكفاء قد يوضعون في مناصب رئيسية؛ تسريبات انتقائية لآثام الـ CIA وشائعاتها وجرائمها قد تقوض مصداقيتها وتضعف موقفها السياسي؛ إصلاحات تعجيزية لـ لانغلي قد تُقترح سرًا؛ ونعم، بالطبع، دزينة ودزينة من العملاء قد يُكشفون. لا شيء من هذا سيكون ممكنًا إذا دُفع الدكتور "ب" بقوة مفرطة، أو في الاتجاهات الخاطئة، أو بسرعة كبيرة. الطبيب الطيب هو الحالة النادرة في هذه المهنة اللعينة حيث القيمة المستقبلية تتجاوز القيمة الحالية. والآن، هل حصلت على ما تحتاجه؟

المحقق الخاص: أحتاج لإجابة من سطر واحد يا ريم. للملخص. كيف تريد أن تُقرأ؟

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: كرر السؤال.

المحقق الخاص: **[خفقان ورق]** يرجى وصف هدفك بعيد المدى للقضية.

الجنرال ريم ميخائيلوفيتش زوموف: تدمير وكالة الاستخبارات المركزية. والآن، انتهى الوقت.

الفصل السابع عشر

كلاريندون، فرجينيا / لانغلي

استيقظ سام قبيل الفجر بساعاتٍ قليلة، وقد أطبقَ الخوفُ على أنفاسه؛ خُيِّل إليه أنَّ تلك المرأةَ التي لا اسمَ لها ترقدُ إلى جوارِه في الفراش، تتدفأُ بدفئه. وقبل أن يفتحَ عينيه، غمرتْه رائحتُها الحلوةُ المميزة، واقتحمَ مذاقُ أحمرِ شفاهِها القويُّ فمه، طاغيًا على الجفافِ المرِّ الذي يخلّفه النوم، حتى شَعَرَ وكأنَّ لسانَه يتحسسُ قشورًا كلسيةً علقت بأسنانِه السفلية. وبدوارٍ خفيفٍ في رأسه، وسط ملاءاتٍ مبعثرةٍ نضحَ بها عرقُه، انتصبَ جالسًا يبحثُ بعينيه عن تلك النجومِ الحمراءِ الصغيرة، لكنَّ الظلامَ كان دامسًا لدرجةٍ تحجبُ الجدران. أنصتَ إلى أنفاسِها، وكعادتِه، راح يمررُ يديهِ بجنونٍ فوق جلده، يبحثُ عن أثرِ ملاطفاتِها الليلية: عن قروحٍ أو خدوش، عن لحمٍ مكشوفٍ أو خطوطٍ لزجةٍ خلّفها لسانُها. لم يشعر بأيِّ ألم. كان يرتدي ملابسه الداخلية، وكان جلده جافًا وأملس. حينها فقط، بدأ قلبُ سام رحلةَ الهبوطِ البطيئةِ من حنجرته إلى صدره.

لم يكن يطمئنُّ إلى أنه ليس في "الصندوق" إلا حين تستقرُّ عيناه على الضوءِ الخافتِ المنبعثِ من نوافذِ غرفته؛ فلم تكن هناك نافذةٌ واحدةٌ في روسيا، أما هنا، في منزله في كلاريندون، فهناك نافذة. إذن، لا يمكنُ أن تكون هذه روسيا، ولا يمكنُ أن يكون هذا صندوقه. لقد مرَّ زمنٌ كان يستخدمُ فيه ستائرَ التعتيم، أما الآن، فلن يفعلَ ذلك أبدًا ما عاش. كانت ناتالي تنامُ بسلامٍ إلى جانبه. ورغم أنه، في الغالب، لا يحبُّ مشاركةَ الفراشِ مع أحد، إلا أنه كان

ممتنًا لوجودِها في الصباحاتِ التي تطاردُه فيها تلك المرأة. فعلى عكسِ معظمِ الأشباح، كانت تلك المرأةُ تبلغُ ذروةَ توحشِها مع أولِ خيوطِ الضوء.

أدلى ساقيهِ من السريرِ وجلسَ مطأطئَ الرأسِ بين يديه لبرهة. تململت ناتالي في فراشِها وتمتمت:

– «كيف نِمتَ يا حبيبي؟»

أجابها وهو ينحني ليطبعَ قبلةً على جبينها:

– «بشكلٍ رائع.. رائعٍ حقًا.»

***

تحت رذاذِ الماءِ في الحمام، انتقل سام بذاكرته إلى "قصرِ الذاكرة" — غرفته في أيامِ الطفولة — لكنَّ صناديقَ "الليغو" هذه المرة لم تكن تحوي ألعابًا، بل أرقامًا راجعَها مع بروكتر على منصةِ Roblox في الليلةِ السابقة. لم يكن يودُّ التفكيرَ فيما سيحدثُ لو نسيَ تلك الأرقام، أو أخطأ في ترتيبها. أما إذا نجحَ في تذكرِها؟ حسنًا، لم يكن يودُّ التفكيرَ في ذلك أيضًا.

تناولَ هو وناتالي الإفطارَ على طاولةِ الطعام. كان قد التقى بها في متجرِ بقالةٍ يقعُ على بُعدِ بضعةِ أرصفةٍ في كلاريندون، قبل عامٍ من أحداثِ سنغافورة. بضعُ نظراتٍ متبادلة، ابتسامةٌ منها، وسام — الذي لا يُفوّت فرصةً للفوزِ باهتمامِ الجميلاتِ الشاميات — سارَ نحوها مباشرةً في قسمِ المخبوزاتِ وسألها إن كان بإمكانهما تناولُ العشاءِ معًا.

قالت ناتالي حينها بنبرةٍ شابَها الندم:

– «لديَّ حبيب.»

فأجابها:

– «هذا مؤسف.. ولكن، ما رأيكِ في العشاء؟»

والآن، هما يتقاسمانِ الفراشَ أحيانًا، وها هي تغرفُ الزبادي من كوبِها على طاولته.

سألتْه:

– «ماذا لديكَ في العملِ اليوم؟»

كذبَ قائلاً:

– «لا شيءَ يُذكر.. يومٌ عادي. وأنتِ؟»

– «لا شيء.. الفوضى المعتادة.»

– «أولئك الأطفالُ محظوظون بوجودكِ معهم.»

– «هل تودُّ تناولَ العشاءِ الليلة؟»

أجابها بكذبةٍ أخرى، محطمًا ليلةً من الوحدةِ المرجوةِ على صخرةِ حبها:

– «بكلِّ سرور.. سأحضرُ معي سمك السلمون.»

امتقعَ وجهُها وقالت:

– «ما رأيكَ أن نؤجلَ السلمون لمرةٍ أخرى؟ سأمرُّ بمطعم "كازان" في طريقِ عودتي. نطلبُ المعتاد؟»

– «ممتاز.. اتفقنا. سأكونُ في البيتِ بحلولِ السادسة.»

حملَ كوبَه ووعاءَه إلى المطبخ، فلحقت به ناتالي.

سألتْه:

– «هل نِمتَ حقًا بشكلٍ جيدٍ الليلة الماضية؟ ألم تكن هناك أيٌّ.. إحم..»

فتحَ غسالةَ الأطباقِ وكذبَ مجددًا:

– «أبداً.»

– «أنا سعيدةٌ جدًا يا سام.. أشعرُ أنَّ هذا.. أشعرُ أنه تقدمٌ كبير.»

– «بالتأكيد.»

– «ماذا أخبركَ الدكتور بورتنوي؟ شهرٌ واحدٌ دون كوابيس وستكونُ في طريقكَ للتعافي.»

– «شيءٌ من هذا القبيل.» ثم أغلقَ غسالةَ الأطباقِ بقوة.

– «وكم يوماً مضى الآن دون كوابيس؟»

– «سبعةُ أيام.» قالها وهو يشعرُ بالغثيانِ من ثقلِ الكذبة.

***

في مكتبِهِ بالقبو، قضى سام ساعةً يتظاهرُ بقراءةِ حركةِ البرقياتِ الليلية.

كان جدولُ مواعيدِه، المتاحُ للجميعِ في فرعِ «موسكو إكس»، يظهرُ انشغالَه من

الساعةِ الواحدةِ حتى الثالثةِ ظهرًا. كان المربعُ الأحمرُ يشيرُ إلى: «موعد طبيب». كانت هذه التغطيةَ المعتادةَ لاجتماعاتِه مع الطبيبِ النفسي المعتمدِ من مكتبِ الخدماتِ الطبية. ورغم أنَّ تقاريرَ تلك الجلسات، التي يكتبُها الدكتور بورتنوي، تُدرجُ في ملفِّ سام الوظيفي وتُرسلُ إلى رؤسائهِ في «البيت الروسيّ» والطابقِ السابع، إلا أنَّ أحدًا لم يسألْه قط عن فحوى تلك الأحاديث، ناهيك عن محاسبتِه إذا غادرَ مبكرًا أو عادَ متأخرًا.

في «البيت الروسيّ» غرفٌ كثيرة، إحداها تُعرفُ بـ «الغرفة الخلفية». بابُها مطليٌّ باللونِ الأخضرِ ولا يحملُ أيَّ لافتة. خلفَ هذا البابِ تكمنُ خليةٌ من المقصوراتِ التي يديرُها فريقٌ صغيرٌ من الضباطِ المشرفين على أكثرِ قضايا روسيا حساسية، والتي لا يزالُ الكثيرُ منها يُوثقُ ورقيًا حتى يومنا هذا. في التاسعةِ والنصف، اتصلَ بـ جيمس لانزاستا، أحدِ محللي «الغرفة الخلفية»، عبرَ الهاتفِ ذي الخطِّ الأخضرِ الموجودِ على مكتبه.

– «جيمس، كيف تجري الأمور؟»

وقبل أن يسيءَ لانزاستا فَهْمَ التحيةِ ويجيبَ بجدية، استطردَ سام ببراعة:

– «عظيم.. اسمع، لدينا مصدرٌ محتمل، ممولٌ روسيٌّ يعيشُ في الخليج. فكرتُ في طرحِ بضعةِ أسئلةٍ عليكَ بخصوصِ موسكو؛ فالرجلُ كثيرُ الكلام، وبعضُ ما ذكرهُ عن المدينةِ لا يبدو منطقيًا. سأعوضُكَ بدعوةٍ على الغداء، اختر ما تشاء.»

كان العرضُ محكومًا عليه بالفشل، وهذا ما قصده سام تمامًا؛ فـ لانزاستا كان يحضرُ غداءَه معه دائمًا، وعادةً ما يحملُه في حقيبةِ تبريدٍ كبيرةٍ كفيلةٍ بنقلِ شحنةٍ من الأعضاءِ البشرية. وككثيرٍ من المحللين، كان يفضلُ تناولَ طعامِه في هدوءِ وأمانِ مقصورتِه ذاتِ الحواجزِ العالية.

رفضَ لانزاستا دعوةَ الطعام، لكنه قبلَ المقابلة، فقال سام:

– «سآتي إليك.. هل الحادية عشرة والنصفُ موعدٌ مبكر؟ لديَّ موعدُ طبيبٍ في فيرفاكس بحلولِ الواحدة.»

عادةً ما تخلو «الغرفة الخلفية» من الموظفين خلال ساعةِ الغداء، حيث ينسحبون لقراءةِ الصحفِ وتناولِ وجباتِهم في صمتٍ داخل الكافتيريا؛ وهي ميزةٌ أخرى من ميزاتِ هذا المكانِ جعلت سام يتساءلُ عما إذا كان، بالتبعية، قد بدأ يصبحُ كلَّ ما كان يكرهه.

لم يكن سام يملكُ صلاحيةَ الدخولِ إلى الخزنة، لذا ضغطَ على الجرسِ وانتظرَ صوتَ الطقة. وبمجردِ دخوله، حيا ببهجةٍ ضباطَ التقارير، ثم توجهَ نحو لانزاستا القابعِ في أولِ مجموعةِ مقصوراتٍ خلفَ الباب. كان الجدارُ البعيدُ لـ «الغرفة الخلفية» يضمُّ صفاً من الخزائن، كلٌّ واحدةٍ منها مخصصةٌ للموادِ الخاصةِ بعميلٍ واحد.

الرقم هو ١٣٢-١، في جهة اليسار، هكذا كتبت شخصيةُ بروكتر في لعبة Roblox على لوحتِها. من مكانِ وقوفه، لم يكن بوسعِه رؤيةُ أيِّ أرقام. شَعَرَ بالعرقِ يلتصقُ بقميصهِ وبنطاله. وضعَ الحقيبةَ الرياضيةَ فوق مكتبٍ فارغٍ بجوارِ لانزاستا، الذي انضمَّ إليه عند الطاولةِ المستديرةِ في الوسط. كان قد عَمِلَ مع لانزاستا في الملفِّ السوري قديمًا، حين كانت بروكتر رئيسةً للمحطةِ في دمشق، وتوقعَ أن يدورَ بينهما حديثٌ طبيعيٌّ وعفوي. لكن بمجردِ جلوسهما، أدركَ سام أنَّ ثمةَ خطبًا ما.

سأل:

– «جيمس، ما الأمر؟»

همسَ المحلل:

– «حدثَ شيءٌ في موسكو الليلة الماضية.. العميلُ لم يظهر في الموعدِ المحدد. هل تعرفُ تارمان، أحدَ ضباطِ العملياتِ هناك؟»

– «نعم.»

– «لقد اعتقلوه. اقتادوه إلى "ليفرتوفو"، ثم طردوه هو وزوجتهُ واعتبروهما شخصينِ غير مرغوبٍ فيهما. وقتلوا كلَّ قططهما.»

امتقعَ وجهُ سام:

– «لكنَّ عائلةَ تارمان بخير، أليس كذلك؟»

– «جسديًا نعم.. لقد غادرا روسيا وهما في طريقهما للوطن.»

أراد سام أن يسألَ عن العميل، ومن يكون، لكنه لم يفعل؛ فلا صلاحيةَ له، ولانزاستا كان قد أفاضَ في المعلوماتِ أكثرَ مما ينبغي بالفعل.

قال المحلل:

– «لا نعرفُ ماذا حدث للعميل.»

– «تباً!»

قال لانزاستا وهو يلقي بكيسِ غدائهِ نحو سلةِ المهملاتِ ويخطئُ الهدفَ تمامًا:

– «على أيِّ حال، إنه يومٌ بائسٌ هنا.. ماذا أردتَ أن تسأل؟»

استجمعَ سام شتاتَ نفسه، مركزًا على المهمةِ التي جاء من أجلها، وطرحَ على المحللِ بضعةَ أسئلةٍ حول الأجواءِ العامةِ في موسكو. زَعَم أنَّ متطوعًا في دبي يدّعي قدرتَه على الوصولِ لعددٍ من أقطابِ النفطِ الروس، زوّدَ محققهُ برزمةٍ من المعلوماتِ عن حياتهِ في موسكو. كان سام، بتوجيهٍ من رابتيس، قد كُلّف بتقييمِ تلك المعلومات. كانت مهمةً سهلة، مجردَ وسيلةٍ لإبقائهِ مشغولاً وإشعارهِ بأنه لا يزالُ جزءًا من الفريق؛ وكانت نموذجًا لبيروقراطيةِ «لانغلي» العقيمة؛ إذ كان سام يعلمُ أنَّ هناك أربعةً غيرَه في أقسامٍ مختلفةٍ بالوكالةِ يقومون بتقييمِ القضيةِ ذاتِها.

عندما انتهى لانزاستا من الإجابة، شكرَه سام وطرحَ كذبتَه الضروريةَ الأولى:

– «لديَّ حوالي نصفِ ساعة.. سأسجلُ دخولي من أحدِ هذه الأجهزةِ قبل أن أنصرف.»

لم يكن هذا مسموحًا به تقنيًا، لكنه كان يحدثُ عمليًا لدرجةِ أنَّ لانزاستا لم يبالِ. اكتفى المحللُ بقوله: «جميل.. سُررتُ بلقائك»، وعادَ إلى مكتبه.

سجلَ سام دخوله، وفتحَ قاعدةَ بياناتِ البرقيات، وظلَّ يحدقُ في الشاشةِ لمدةِ خمسِ دقائقَ كاملة. كان العرقُ يتصببُ بغزارةٍ ليبللَ قميصه. وعندما سمعَ همهماتِ لانزاستا وزملائه، طبعَ بضعَ فقراتٍ لا معنى لها حتى يسمعوا

طقطقةَ المفاتيح. تفقدَ ساعته. وقفَ ليتطلعَ من فوقِ حاجزِ المقصورة — متظاهرًا بالتمدد — مسحَ يديهِ مرةً أخرى وتبادلَ نظراتٍ وديةً مع لانزاستا. شَعَرَ وكأنَّ أذنيهِ قد وُضعتا في فرن؛ كانت هذه حركتَه المعتادةَ حين يشعرُ بالتوترِ أثناء عملياتِ المراقبةِ في الميدان، وفي هذه اللحظة، كان هذا الشعورُ مطمئنًا، يشعرُه بأنه في كاملِ تركيزه، مستعدٌ لتجاوزِ الخط، لارتكابِ الجريمة.

الخزنة ١٣٢-١ ستكون الثالثة، أو ربما الرابعة على اليسار من الخزنة التي في الوسط، هكذا كتبت بروكتر.

سألها حينها: كم صفًا للأعلى أو للأسفل؟

أجابته: لا أدري.

عشرُ خطوات، وكان سام يتطلعُ إلى جدارِ الخزائنِ وكأنه جبلٌ يوشكُ على تسلقه. جفَّ حلقُه والتهبت أذناه، لكنه استجمعَ قواه ليظهرَ بمظهرٍ طبيعيٍّ وعفوي. لم يكن هذا سوى نشوةِ السرقة. لم يمت هذا الشعورُ بداخله، ولحسنِ الحظ — فالوكالةُ لا تريدُ لمثلِ هذا الشعورِ أن يموتَ في رجالها، بل يخشون ما قد تفعله إذا فقدتَ الإحساسَ بالخطر.

وهنا، ارتكبَ خطأَه الأولَ والوحيد — عزاهُ لاحقًا إلى الصدأِ الذي تراكمَ عليه في "قفص التأديب". بدلاً من أن ينقضَّ على الفرصةِ التي أتاحها خلوُّ الغرفةِ إلا من لانزاستا ومحللينِ آخرين غيرِ مهتمين، توجهَ سام إلى خزنةٍ كان يملكُ صلاحيةَ الوصولِ إليها سابقًا: ملفُّ قضيةِ أحدِ المسؤولين في شركةِ تصديرِ الأسلحةِ الروسيةِ الحكومية.

فتحَ الخزنةَ وحملَ رزمةً من الأوراقِ إلى مكتبه. كانت رؤيتُه مشوشة، وظلَّ يحدقُ في التقاريرِ دون جدوى، يَعُدُّ في سرّهِ حتى المائةِ والثمانين، ويقلبُ الصفحاتِ عشوائيًا وبصوتٍ مسموع، وكأنه يريدُ لـ لانزاستا أن يعرفَ كم يعملُ بجدٍّ هنا، في مهمةٍ بالغةِ الأهميةِ ومشروعةٍ تمامًا. قلّبَ مزيدًا من الصفحات. شَعَرَ بحبيباتِ العرقِ تنزلقُ على ساقيهِ وتستقرُّ في جواربه. لكنَّ يديهِ كانتا ثابتتين.. وجافتين تمامًا.

راجعَ في ذهنهِ أرقامَ القفلِ التي حفظَها، متخيلاً صناديقَ "الليغو" تحت سريره. ربما ينساها.. ولكن متى نسيَ أرقامًا في حياته؟ لن يكونَ محظوظًا لهذه الدرجة. كان قلبُه يقرعُ ضلوعَه كالطبل.

نهضَ سام. تركَ نصفَ رزمةِ الأوراقِ على المكتبِ وأعادَ النصفَ الآخرَ إلى الخزنة. وقفَ هناك، أصابعهُ على قرصِ الأرقام، يراقبُ تبخرَ العرقِ عن المقبض. تحرك.

ثلاثُ خطواتٍ لليسار، في نفسِ الصف، فرأى رقمَ الخزنة: ١٣٢-١. كنزُ "ريمورا". أدارَ القرص، يمينًا ويسارًا، طقةً تلو الأخرى.. كليك. فُتحَ القفلُ من المحاولةِ الأولى. انفتحتِ الخزنة، وكان لصريرِ مفاصلِها دويٌّ يشبهُ طلقةَ الرصاص. بوم. خرقٌ للائحةِ الوكالة رقم ٢٣٥٣-٥ (إجراءات التعامل مع مواد التقارير الحساسة في خزائن الوكالة)؛ وتحديدًا البنودِ التي تنصُّ على أنَّ سوءَ التعاملِ مع هذه الموادِ يعرضُ ملفَّ الموظفِ لمجلسِ مراجعةِ الأداءِ و/أو الفصلِ أو المحاكمةِ الجنائية. بوم.. بوم.

الآن جاء الجزءُ الأصعب. وكما قالت "الزعيمة"، كانت الرزمةُ ضخمة. لم يكن هناك مبررٌ لإخراجِ ملفِّ قضيةٍ كاملٍ من خزنةِ «الغرفة الخلفية» دفعةً واحدة، لكن لم يكن لديه ضمانٌ بأنه سيحصلُ على غطاءٍ عملياتيٍّ بعد دقيقةٍ واحدة؛ لذا أخرجَ كلَّ شيءٍ ونقلهُ إلى مكتبه، وبدأ بفرزِ الأوراقِ بسرعةٍ ليتأكدَ من حصولهِ على كلِّ شيء.

كان تنظيمُ الملفاتِ داخل الخزائنِ يختلفُ من قضيةٍ لأخرى. وكان ثيو مونك، المسؤولُ الحاليُّ عن "ريمورا"، معروفًا بفوضويتهِ الشديدة. المجلدُ الأول: نسخٌ من التقاريرِ النهائية.. إلى الحقيبةِ الرياضية. التالي: ملفٌّ الشخصية، المعلوماتُ الأساسية، الصور.. إلى الحقيبة. ستةُ مجلدات، مرتبةٌ زمنيًا، تحتوي على كافةِ البرقياتِ والملاحظاتِ العملياتية.. إلى الحقيبة. وثائقُ الحساباتِ المالية.. إلى الحقيبة. تقييماتُ العميلِ والتحققُ من أهليته.. قطرةُ عرقٍ سقطت من أنفه، تباً! وضعها في الحقيبة. ثم: رزمٌ سميكةٌ من المراسلاتِ العملياتية. وضعَ الأوراقَ ومسحَ وجهَه بكُمّه. التالي: اللوجستيات. مجلدٌ أصفرُ

باهت.. قد تكونُ فيه تفاصيلُ الاتصالات. لا بدَّ أن تكونَ هناك، أليس كذلك؟ ماذا بقيَ أيضًا؟ تحرك.

بأصابعَ هادئةٍ وساكنة، أعادَ سام ترتيبَ المجلداتِ والوثائقِ المتبقيةِ كما وجدَها، وحشرَها مرةً أخرى في الخزنة. أدارَ القرصَ ليغلقَها، ثم تطلعَ حوله ليرى إن كان أحدٌ قد لاحظَه. كان رأسُ لانزاستا منكبًا على ملفٍ ما. مسحَ سام الخزنةَ بكُمّه الجاف – فلا داعي لتركِ بصماتٍ عليها – وعادَ إلى مكتبهِ ليلتقطَ أنفاسه.

طَنَّ جرسُ بابِ «الغرفة الخلفية»، ثم فُتح. ألقى نظرةً خاطفةً نحو المدخل، فتجمدت الدماءُ في عروقه وهو يرى ماك ميسون، وغاس رابتيس، وثيو مونك، ومديرةَ العملياتِ نفسَها: ديبورا سويت، وهم يدلفون إلى الخزنة. شَعَرَ سام وكأنَّ معدتَه قد قُذفت لترتطمَ برأسه.

أمسك بتقريرِ مصدّرِ الأسلحةِ وتظاهرَ بالقراءة، بينما كانت الكلماتُ أمامه مجردَ خطوطٍ سوداءَ متموجة.

كانت ديبورا تقول، وهي ترمقهُ بنظرةٍ مريبة:

– «فقط عملية سنغافورة.. تلك اللجنةُ اللعينة.»

كانوا يتجهون نحوه. رفعَ رأسَه وهم يمرون بجانبه؛ رمقَه كلُّ واحدٍ منهم بنظرةِ تساؤل. أومأ له ماك وهو يمر، وكذلك فعلَ ثيو. أما غاس فاكتفى بزمجرةٍ خفيفة. وقفت ديبورا سويت أمام مكتبٍ فارغ. وعندما التقت عيناهما، رسمت على وجهِها ابتسامةً باهتة. أما ماك، فقد كان يقفُ أمام خزنةِ "ريمورا". رأى سام، برعبٍ خالص، يدي ماك تلمسانِ القرص. كان ماك يديرُ القرص، ولسانُه يلامسُ شفتيهِ بتركيز، وكان الباب – يا إلهي – قد انفتحَ قليلاً عندما ناداهُ غاس:

– «لا تهتم يا ماك.. ثيو لديه نسخةٌ هنا بالفعل.»

تباطأت أنفاسُ سام مع سماعِ صوتِ انغلاقِ الخزنة. وقعُ خطوات.. دخلوا المكتبَ الفارغَ وأغلقوا الباب. فكرَ سام فيما إذا كان عليه البقاءُ حتى يغادروا، للتأكدِ فقط، لكنَّ فرصتَه كانت تتلاشى. فإما الهربُ الآن أو إعادةُ كلِّ شيء.

أخرجَ من حقيبتِه مجلدًا يحتوي على استبيانات ٍطبيةٍ من الدكتور بورتنوي، مع نسخٍ من مجلاتٍ عالمية، وتركَها على المكتب؛ لتكونَ عذرًا للعودةِ بعد الظهرِ لاستعادةِ تلك الأوراق، بعد أن تأخذَ بروكتر نسخًا منها. أعادَ ملفَّ مصدّرِ الأسلحةِ إلى الخزنة، سجلَ خروجه، وودعَ لانزاستا بصوتٍ هادئٍ وواثق. ردَّ عليه المحللُ دون أن يرفعَ بصرَه: «إلى اللقاء يا سام».

خرجَ من الباب، والحقيبةُ الرياضيةُ تتدلى عند خصره. سارَ في ردهاتِ المقرِّ بخطىً ثابتة، غارقًا في شعورٍ غريبٍ لم يعرفه منذ أحداثِ سنغافورة: لقد استعادَ السيطرة. هو الآن من يصنعُ الأحداث. العواقبُ والمخاطرُ لم تقلَّ جديتها، لكنها أصبحت أقلَّ أهمية. تلاشت حباتُ العرقِ ولم يبقَ منها سوى أثرٍ طفيفٍ أسفلَ ظهره. استمتعَ بثقلِ الوثائقِ المسروقةِ على كتفه، وبخفقانِ الأدرينالين الذي يضخُّ في عروقه. ابتسمَ للأصدقاءِ والمعارفِ والغرباء في طريقهِ للخروج.

فكر في نفسه: لقد آن الأوانُ لممارسةِ بعضِ الجاسوسيةِ الحقيقيةِ في أروقةِ المقر.

الفصل الثامن عشر

كريستال سيتي

كانت بروكتر في مرآب الانتظار الذاتي بفندق «كراون بلازا»، تحدق في بصمة يد قذرة على باب الراكب الخلفي لسيارتها الـ RAV4. ربما ارتطم سائق سيارة مجاورة بها؟ لكن، هل ركن أحدٌ أصلاً بالقرب منها؟ نظرت صعودًا وهبوطًا عبر صفوف المرآب قليل الإشغال وتساءلت عن ذلك. ربما شخص ما في المستشفى؟ هل تسلل سام إلى ذلك الجانب حين أدخل وثائق ريمورا في الماسح الضوئي الموجود بالصندوق الخلفي في وقت سابق من ظهيرة اليوم؟ هل عبث أحدٌ بها؟

لم تستطع أن تعرف. يسمون ذلك «رؤية الأشباح» – الاعتقاد بأن الأعداء قد كشفوك بينما أنت في الواقع حر وخالٍ من «البق» (أجهزة التتبع). طوال مسيرتها المهنية، لم تكن بروكتر ممن يرون الأشباح. وتساؤلها عنهم الآن جعلها تشعر بأنها مستهلكة ومثيرة للشفقة، كخاسرة متقاعدة تجاوزت ذروتها، وهي تهمة تزداد مرارة لكونها حقيقة مزعجة. شعور موحش تملك عقلها.

أجرت دورية حول السيارة، متفحصة الأبواب، والمقابض، وغطاء المحرك بحثًا عن أي علامات دخول: خدوش، المزيد من البصمات، قشور طلاء مفقودة. مشغلة المصباح اليدوي الذي تحتفظ به في صندوق القفازات، بحثت بروكتر عن دليل لتركيب جهاز تتبع سريع: الصندوق الصغير الفاضح المثبت بمغناطيس، عادة تحت الصدامات أو داخل تجاويف العجلات. لم تجد شيئًا، لكن أجهزة التتبع المتاحة تجاريًا أصبحت الآن صغيرة جدًا لدرجة أنها

لم تستطع التأكد من أنها ستجدها حتى لو بحثت. بعد مراجعة ذهنية لمحطاتها منذ وصولها إلى فيرجينيا الشمالية، استنتجت بروكتر أن أي مراقبين كانوا على الأرجح سيجرون عملية التركيب هنا – فالتركيبات العميقة تتطلب وقتًا وخصوصية لا يتوفران حتى لمراقب ماهر في أي مكان آخر. إضافة لذلك، أصبح فندقها الآن معلومة عامة. كانوا يعرفون أين يجدون سيارتها.

تمتمت:

– «اللعنة».

لم ترغب في مراجعة لقطات الكاميرا الآن؛ كان هناك الكثير لتقرأه الليلة بالفعل. أشعلت سيجارة «سليم» ونفثت ملء رئتها من الدخان فوق بصمة اليد المريبة.

***

والسيجارة مثبتة بين أسنانها، تجولت بروكتر نحو الجدار الخرساني المتسخ خلف الـ RAV4. وقفت على أطراف أصابعها وتحسست الصندوق الكهربائي المعدني. كانت قد استخدمت مغناطيسات لتثبيتها على الصندوق الكهربائي أسفل أحد المصابيح، حيث كانت تتمتع برؤية واضحة لسيارتها. انتزعتها، ودستها في حقيبتها، وسحقت سيجارتها، وصعدت لغرفتها.

على مكتب غرفتها بالفندق، فتحت العلبة وأخرجت كاميرا «آرلو» (Arlo) التي اشترتها من «بست باي». كانت قد دفعت ثمانين دولارًا إضافيًا من «صندوق الزواحف» للحصول على الموديل الراقي ببطارية تدوم لشهرين. كان ذلك أكثر من كافٍ – وإذا لم يكن كذلك، فعند تلك النقطة سيكون وجود شخص يراقب سيارتها هو أقل مشاكلها.

بعد ساعتين مجهدتين من مراجعة اللقطات بالتسريع، أقنعت بروكتر نفسها بأن أحدًا لم يقم بأي تركيب، لا سريع ولا عميق ولا غير ذلك، في مرآب «كراون بلازا». وتوقعًا لليلة طويلة، حزمت بروكتر أدوات الزينة وتغييرًا للملابس في حقيبتها القماشية. زلقت الكاميرا داخل الصندوق الكهربائي، وتأكدت مرة أخرى من أن العدسة لديها رؤية واضحة من خلال الثقب الذي

حفرته، ثم جمعت كل شيء وعادت لمرآب السيارات. بعد إعادة تثبيت الكاميرا، أخرجت بروكتر حقيبة الصالة الرياضية التي تحتوي على مواد ريمورا الممسوحة ضوئيًا من صندوق السيارة. ومع الوثائق معلقة على كتف، وحقيبتها القماشية على الآخر، انطلقت بروكتر سيرًا على الأقدام، عبر طريق متعرج ومخطط بعناية، نحو المنزل الآمن في كريستال سيتي.

***

في المنزل الآمن المؤقت، جرت دفاترها القانونية المهترئة وصندوق وثائق ريمورا المطبوعة إلى غرفة المعيشة. رتبت الأوراق في أكوام، كل كومة تمثل مربعًا على رقعة شطرنج الأرضية: كنز السير الذاتية؛ وكومة أخرى لمراسلات العمليات؛ وثالثة لبرقيات التحقق؛ وكومة للتقارير النهائية. جلست والوثائق مكدسة في دائرة حولها، كأصدقاء حول نار المخيم، والقصص المرعبة وقصص الأشباح قادمة لا محالة.

لتجنيد العملاء، يجب أن يمتلك ضباط الحالة تفاؤلًا وهميًا يشبه تفاؤل رجل أقل من المتوسط بكثير يحاول التودد لامرأة مثالية، والطاقة لمواجهة الرفض بحماس تسع وتسعين مرة من أصل مائة، مدفوعين طوال الوقت، في كل مرة، بإيمان قوي بأن النجاح ينتظر بلا شك. وهكذا بدأ الأمر مع ريمورا: ماك و ثيو، وهما يراقبان الروسي في باريس، اعتقدا أنه قابل للتجنيد.

كتب ثيو في إحدى البرقيات: «إمكانات كبيرة.. بحكم غروره وجشعه». كان ذلك قبل عامين، كما رأت بروكتر. رمية واحدة ناجحة من أصل مائة – وقد أصابوا الهدف.

تصفحت سيرة ريمورا الذاتية: نشأ في نيجني؛ والده كان في المديرية الرئيسية الأولى للـ KGB. الآن هو عقيد، أجرى سلسلة من الجولات في أوروبا، وجذب انتباه الـ CIA لأول مرة أثناء تمركزه في باريس.

رقصة ثيو و ماك مع ريمورا في مدينة النور كانت قائمة على المصلحة المتبادلة. كتب ماك في إحدى الرسائل إلى لانغلي: «إنه يحاول تجنيدنا.. ولا يخفي ذلك». اللقاءات حدثت في العلن، في المطاعم، وأحيانًا بوجود الفرنسيين

في الجوار. الكل كان يعرف من هو الكل؛ الغزل جرى في ضوء النهار الساطع والنقي.

كانت هناك زمالة، ومع ذلك لم يكن هناك إتمام للصفقة. جولة ريمورا في باريس كانت تشارف على الانتهاء. قدم ثيو العرض الرسمي، والذي رفضه ريمورا بأدب. بعد أسبوعين كان عائدًا لروسيا، وبعد بضعة أشهر من ذلك، سمعت الـ CIA بموجة جديدة من الترقيات. كان ريمورا على القائمة: نائب رئيس القسم الخامس (أوروبا).

لمدة عام كامل بعد باريس، كان ملف ريمورا فارغًا. ثم، في الخريف الماضي، علمت الـ CIA أن ريمورا مسافر إلى المغرب. تم التجنيد في مراكش، ومرة أخرى كان رقصة بين ماك و ثيو. أكوام البرقيات من ذلك الأسبوع كانت تجلس في كومتها الخاصة، التي كانت بروكتر تقلبها الآن. الفجر يقترب، لكنها لم تبالِ بالصباح.

التقطت بروكتر قلمًا أحمر وانزلقت نحو كومة التقارير الاستخباراتية النهائية المستمدة من معلومات ريمورا. تصفحت ثمانية منها من محادثة مغرب وحدها، وجميعها صنفها المحللون بأنها إما «متميزة» أو «ممتازة»، وهو اتجاه استمر لعدة أشهر.

بحلول منتصف الشتاء، مع ذلك، بدأت معلومات ريمورا تصبح أكثر هشاشة. وهنا، انتفضت بروكتر في جلستها عابسة. تقييم للحالة، كتبته بيترا ديفاين، جادل بأن أحدث معلومات ريمورا الاستخباراتية كان يمكن أن يكتبها مركز أبحاث أمريكي. كتبت: «ونقاطها ورسائلها الأساسية قد ضُمنت بالفعل في تقارير كهذه». لكن البيت الأبيض كان قد ابتلع الطعم. إحدى ملاحظات التغذية الراجعة المرفقة بالملف قالت: «رؤية فريدة للتفكير الاستراتيجي لموسكو».

حين تولى نظام غوسفورد السلطة، كانت ديبس قد نقلت أكوامًا من استخبارات ريمورا إلى المكتب البيضاوي، كما رأت بروكتر الآن. في الواقع،

من القراءات وحدها يمكن للمرء أن يُعذر إذا اعتقد أن ديبس لعبت دورًا قياديًا، وربما بطوليًا، في تطوير ريمورا.

رحلة بروكتر عبر الملفات اصطدمت الآن باجتماع فرنسا الذي أصدر فيه ريمورا تحذيره الغامض، في مارس، قبل أيام من سنغافورة. هنا كانت ديبس، نائب المدير للعمليات، قد سافرت بشكل غير معتاد للغاية برفقة ماك و ثيو. تأملت ذلك الاجتماع في فرنسا، مسترجعة تسلسل الوصول، وترتيب الأدوار، ومقارنة ما سمعته حتى الآن من أصدقائها بما رأته في البرقية. خمس دقائق أو نحو ذلك بمفردها مع روسي، فكرت. وقت كافٍ لتمرير ملاحظة، أو تقديم تحذير. قرأت بروكتر وأعادت قراءة برقيات العمليات ومحاضر الاجتماعات؛ درست خطة الاتصالات؛ راجعت التقارير النهائية وقارنتها بـ «الهشاشة» السابقة.

سرعان ما وصلت لبرقية في يوليو أرسلتها بيترا ديفاين لـ ماك و ثيو: «هل يمكنكم تفصيل تسلسل عهدة معلومات ريمورا فيما يتعلق بضابط الحالة الأسير لدينا؟ يرجى التوضيح».

كان ثيو قد أخبرها أساسًا أن «تغرب عن وجهه».

«سمع ريمورا ذلك من رئيس القسم الأمريكي في ملاعب الاسكواش. "البيت الروسي" يقف مستعدًا للمزيد من الأسئلة الجيدة من أصدقائنا في قسم الجلدية».

ثلاثون ألفًا كل شهر، كتبت بيترا ديفاين، هو مبلغ باهظ لدفعه مقابل تقارير مراكز أبحاث طُليت بخطوط SVR زرقاء، لكن بحلول الصيف لم يجد هذا النهج آذانًا صاغية. كان ريمورا يحظى باهتمام صناع القرار – النوع الجيد، للتغيير. لقد قدم اختراقات – «بشكل انتقائي وحذر»، كتبت بيترا، «التدفق لا يزال ممسكًا أكثر مما يعجبني» – ووصوله للمعلومات، حين اقترن بمباركة ماك و ثيو و غاس و ديبس، رسخ الإيمان المؤسسي بمعلوماته. بيترا مرة أخرى: «لم أحصل بعد على أسباب من "البيت الروسي" للتقلبات السريعة

في دقة استخبارات ريمورا، خاصة بالنظر لوصول المصدر المستمر للمعلومات».

كانت بروكتر مستلقية على الأريكة كنمر مخمور، وشرائط ضوء الصباح الأول تتموج عبر شقوق الستائر المتسخة. بلغة «أطباء الجلدية» الملطفة، كانت بيترا تقول إن ريمورا كاذب. بعد حوالي شهر من صياغة تلك الملاحظة، تذكرت بروكتر وهي تخربش التواريخ في تسلسلها الزمني، ستُطرد بيترا ديفاين.

الفصل التاسع عشر

ريستون، فرجينيا

كان بوسع ثيو مونك أن يرتقيَ إلى مراتبَ أعلى بكثيرٍ داخل وكالةِ المخابراتِ المركزية، لولا نزواتُ جسدهِ الجامحة وعطشُ روحهِ الدائمُ للأقداح. لا يعني ذلك أنَّ أيًّا منهما قد يمنعُك من دخولِ "مجمعِ الخالدين" في الطابقِ السابع؛ فمثلُ هذه الشهواتِ قد تُعدُّ أحيانًا من علاماتِ التميزِ لصالحك. لكنَّ الإفراطَ فيها يحملُ مخاطرَ جمّة، على رأسِها شبحُ الفوضى العائلية. كان من المتوقعِ من ضباطِ العملياتِ أن يتحملوا قدرًا معينًا من الاضطرابِ الشخصي في سبيلِ التفوقِ الوظيفي، لكنَّ لكلِّ شيءٍ حدودًا، وثيو، في سعيهِ المحمومِ خلف النساء والخمور، وجدَ ذلك الحدَّ في الوقتِ الذي نالَ فيه ترقيته إلى رتبةِ «GS-14».

كان ثيو زميلاً لـ أرتميس بروكتر في دفعةِ «المزرعة»، وأحدَ المفضلين لديها. لم يكن وسيمًا بالمعنى التقليدي، لكنه كان يتمتعُ بسحرٍ أخّاذ. شقَّ طريقَه إلى الوكالةِ بلسانهِ العذبِ أثناء زيارةِ مندوبِ التوظيفِ لجامعة ميشيغان، حيث كان يقضي وقتَه في الشرب، ويختلسُ منه سويعاتٍ لدراسةِ السياسةِ الدوليةِ والصحافة. في تلك الأيام —أواخرِ سنواتِ عهدِ كلينتون، حين كانت البلادُ تجني ثمارَ السلامِ بعد الحربِ الباردة، وقبل أحداثِ الحادي عشر من سبتمبر والتضخمِ البيروقراطي اللاحق— كانت دفعاتُ «المزرعة» صغيرة، والتعييناتُ شحيحة. لكنَّ سببَ قبولِ ثيو تجلى لـ بروكتر منذ اليومِ الأول: كان هذا الرجلُ يملكُ روحًا وسحرًا يجبرانِ الآخرين على إفشاءِ أسرارهم.

كان غاس التلميذَ النجيبَ لدى المعلمين لأنه كان يبذلُ مجهودًا يفوقُ مجهودَ البقيةِ مجتمعين. أما ثيو، فكان ذلك الطالبَ المتفوقَ بالفطرةِ دون مجهود؛ أذكى من "الأولِ على الدفعة"، لكن بلا طموح. وإذا كان والِد ماك هو من دفعهُ للخدمةِ في الوكالة، وغاس قد انضمَّ إليها بلهفةٍ لملءِ حذاءِ والده، فإنَّ ثيو وقّع أوراقَه لمجردِ أنه لم يرد أن يقضيَ حياتَه في رتابةِ . كانت عائلتُه تمتلكُ مصنعًا للبلاستيك في غراند رابيدز. وبقدرِ حبهِ لهم، كان حبهُ للمغامرةِ أكبر؛ فقد أخبرَ بروكتر في أيامهم الأولى في «المزرعة» أنه لو بقيَ هناك، لماتَ من الشربِ بدافعِ المللِ لا أكثر. وتبيّن لاحقًا أنه أوشكَ على تحقيقِ هذا الإنجازِ داخل أسوارِ الوكالةِ نفسِها.

كان ثيو أيضًا مطاردًا نهمًا للنساء؛ محبوبًا تارةً، ومستهجنًا تارةً أخرى، لكنه كان رفيقًا ممتعًا دائمًا.

قال غاس مرةً:

– «هذا الرجلُ مدمنُ جنس.»

لقد خاضت أرتميس بروكتر نفسُها مع ثيو بضعَ نزواتٍ عابرة تحت وطأة الثمالة أيام «المزرعة»؛ كان ذلك يحدث عادةً حين يظهر فجأةً أمام غرفتها وبيده زجاجةٌ من شرابٍ رديء، في أعقاب إحدى معاركها الهاتفية الطاحنة مع زوجها الذي أوشك أن يصبح «السابق»، توم، وهي المعارك التي كان صدى صراخها يصله عبر الجدران.

تزوج ثيو من شابة تُدعى ديانا، كانت تعمل في وزارة الخارجية، وذلك قبل جولته الأولى في أنقرة. وفي حفل الزفاف، راهنت بروكتر زميلها ماك بمائة دولار أنَّ هذا الزواج لن يبلغ شمعته الثانية. وكما حدث، فقد تعثر الزواج قبل أن يتم عامه الأول، واستخدمت بروكتر أرباح الرهان لتعزم ثيو على شطائر «تشيلي دوغ» في حانة «فيينا إن»، خلال إحدى رحلات عودته من أنقرة لإنهاء إجراءات الطلاق.

أما الزوجة الثانية، التي اصطادها بعد وقت قصير من فقدان الأولى، فكانت امرأة من «الهيبيز» تُدعى فايلا. سألته بروكتر حينها: «هل هذا اسمها

في شهادة المعمودية يا ثيو؟»، لكنها لم تتلقَّ جوابًا قط. اعترف لها لاحقًا أنه تزوج فايلا لأنَّ حرارة اللقاء بينهما كانت "شمسية" الوهج، ولسببٍ إضافي — كهامشٍ في القصة— أنها كانت حبلى بطفلته الأولى والوحيدة. أسمت فايلا الابنة ميلانجيلا، رغم أنها بالنسبة لـ ثيو لم تكن سوى ميلي.

وبحلول الوقت الذي حزمت فيه فايلا حقائبها ورحلت نحو الغرب مع ميلي، كانت قد استولت على معظم أثاث ثيو، واستنزفت جزءًا من مدخرات تقاعده، وفي نوبة غضبٍ غدت أسطورةً يتناقلها العارفون ببواطن الأمور في «البيت الروسيّ»، أعملت المطرقة — حرفيًا— في أكبر اهتمامات ثيو خارج إطار العمل، بعد الخمر والنساء والجاسوسية: الأسماك النادرة.

كانت بروكتر تجلس الآن في غرفة معيشته، يغمرها الضوء المتموج المنبعث من الأحواض. قامت بجولة سريعة بحثًا عن «قبعة العمل» التي سرقها من «غاتورفيل» خلال زيارته قبل بضعة أشهر، لكنها لم تجد لها أثرًا، ولم تكن تنوي السؤال عنها؛ فمن المرجح أنه لا يتذكر الأمر أصلاً. كان ثيو يمزج مشروب المارتيني، ثم دَسَّ في يدها كأساً ممتلئةً إلى حدٍ خطر. راقبت بضع سمكات وهي تختفي خلف نبتةٍ كبيرة.

سألت:

– «هل غطى التأمينُ التكاليف حين اضطررت لاستبدال النظام بالكامل؟»

أجاب:

– «من الصعب يا أرتميس التأمين على أسماك نادرة قيمتها أربعة وخمسون ألف دولار.»

– «لو كان بوسع "جينيفر لوبيز" التأمين على مؤخرتها، لكان بإمكانك فعل ذلك لأسماكك.. لكنني قصدتُ الأضرار التي خلفها الماء يا ثيو.»

– «آه، لا.. يا إلهي، لا. كانت تكلفة إصلاحها باهظة كاستبدال الأسماك تمامًا.»

– «كيف حال "ميلي" على كل حال؟ هل أخبرتها أنني آسفة لأنني لم آخذها إلى حديقة الحيوان هذا الصيف؟»

– «فعلتُ. هي تعرف أنكِ تحبينها أكثر مما أحبها أنا. وهي بخير، ستدخل الصف الخامس هذا الخريف، هل تصدقين؟ لقد كبرت، وأصبحت تعرف مجموعة من الكلمات النابية.. تجعلني أشعر بالهرم. من اللطيف حضورها في يونيو، ومن اللطيف رحيلها في يوليو.»

فكرت بروكتر وهي تتلفت حولها أنَّ غرفة معيشة ثيو تقوم بمهمةٍ نبيلة: منع وقوع زواجٍ ثالث. حوضان ضخمان للأسماك، سعة كل منهما لا تقل عن ثلاثمائة غالون، يستحوذان على جدارٍ كامل. وأحواض أصغر متناثرة في بقية المنزل. وفي مواجهة الأحواض الكبيرة، برزت حانةٌ براقة مكدسة بعشرات الزجاجات التي يبدو أنَّ ثيو يجمعها ولا يستخدمها، مكتفيًا بالأنواع الرخيصة التي يشربها كالماء. وبين الحانة والأحواض، وُضعَت أريكتان، حيث جلسا يحتسيان شرابهما.

أشارت بكأس المارتيني نحو شكلٍ قزحيٍّ يبرز من بين الصخور:

– «ما هذه السمكة؟»

انتبه ثيو على الفور وقال:

– «غراما ديجونغي.»

– «هل اسمها "غراما" (الجدّة)؟»

بدا ثيو وكأنَّ صدمةً عصبية قد أصابته:

– «لا يا بلهاء.. "غراما ديجونغي" هو اسم النوع، وتُعرف أيضًا بـ "الآنسة الكوبية". من الصعب العثور عليها بسبب اللعنة التي تسمى "العقوبات[21]".»

ارتشف جرعةً طويلةً جدًا من كأسه وتابع:

[21] الولايات المتحدة تفرض حصار تجاري ومالي شامل علي كوبا منذ 1960، يُجرم التعاملات الاقتصادية ويحظر استيراد البضائع الكوبية بشكل كامل (باستثناءات إنسانية محدودة)، ويُعد الأطول في التاريخ الحديث.

– «موطنها الأصلي مياه كوبا؛ لذا عليك الحصول عليها من تجارٍ يتعاملون مع الكوبيين. انظري إلى تلك البقعة السوداء على الزعنفة الظهرية، واللون الذهبي مع البقع الأرجوانية على الزعانف.. إنها سمكة مذهلة. هناك نوع بلاتيني أيضًا، أودُّ اقتناءه.»

أمال الكأس، فغار ما تبقى من المارتيني في جوفه.

عادت السمكة لتختفي بين الصخور، وهرع ثيو نحو الحانة ليخضّ كأساً أخرى.

صاحت بروكتر:

– «وكم كلفك هذا اللعين؟»

أجاب:

– «حوالي ستمائة دولار، لكن هذه لم تكن غالية الثمن. في أحد الأحواض بالطابق العلوي، لديَّ سمكة من نوع "سمك الصابون" دفعت فيها عشرة آلاف دولار.»

بدأ يخضُّ كأسًا أخرى وسأل:

– «كيف حال الشراب؟»

– «كان بإمكانك شراء خمرٍ أفضل لو اشتريت أسماكاً أرخص.»

– «قصدتُ.. هل تودين كأساً أخرى؟»

هزت رأسها نفيًا، رغم أنها تدرك أنَّ عشرة آلاف دولار لن تصمد طويلاً أمام عادات ثيو في الشرب لو قرر شراء أنواعٍ فاخرة.

ملأ ثيو كأسه حتى الحافة وارتمى على الأريكة دون أن ينسكب منها شيء:

– «إذا كنتِ هنا من أجل الجنس، فعلينا البدء الآن، قبل أن يتحول دمي بالكامل إلى نبيذ.»

– «هذا لطفٌ منك يا ثيو، حقًا، لكنني سأعتذر الليلة. الأجواء هنا لا توحي بالإغراء مؤخرًا. كما سمعت شائعاتٍ عن مشاكلك الصحية، ولستُ بحاجةٍ إلى طفحٍ جلدي.»

ضحك عند سماع ذلك وتجرع نصف الكأس، ثم بدأ يتلمس الزيتون في القاع بلسانه كالسحلية.

قال:

– «لقد حصلتُ على الأدوية بعد رحلة "بودابست".. انتهى كل شيء بسرعة.»

ضحكا معًا. كانت ابتسامته شقيةً ومبتهجة، لكن بروكتر –التي لم تكن تنوي الانجراف في هذا الاتجاه– ندمت فورًا على تعليقها المازح؛ فالموضوع لم يكن دعابة، ليس تمامًا. لقد أُصيب ثيو بمرضٍ منقولٍ جنسيًا في بودابست – أيُّ مرض؟ لم تكن تعرف ولا تهتم بالمعرفة. وربما تعافى جسده، لكنَّ مسيرته المهنية لم تتعافَ قط؛ فظروف إصابته تلك حكمت عليه بأن يقضي بقية أيامه سجينًا داخل «البيت الروسيّ»، دون أملٍ في الارتقاء إلى مناصب الطابق السابع المرموقة.

قبل عامين، سافر ثيو إلى بودابست للتقرب من رجل أعمالٍ روسي زائر، ملياردير في قطاع النيكل كما تذكرت بروكتر. لم يرفض الرجل العرض، لكنه لم يظهر أيضًا في الحانة التي اختارها ثيو للمتابعة؛ لذا بقي ثيو بضعة أيامٍ إضافية عسى أن يحظى بفرصةٍ أخرى.

وفي مرحلةٍ ما، تقاطعت امرأة تُدعى كاتيا مع رحلة شربه؛ فشربا، ورقصا، واستيقظ ثيو في غرفة فندق، ليجد عضوه بلون سيارة الإطفاء الفاقع، وعنقه أشبه بحقل ألغام من آثار العض، بينما اختفت كاتيا الرشيقة وحلَّ محلها رجلٌ يدعو نفسه دانييل، وبيده حزمة من الصور الفاضحة لـ «السيد ثيو». قال دانييل إنَّ هذه الصور مجرد تذكيرٍ بخطاياه.

فأجابه ثيو بروسيةٍ طليقة:

– «بجدية يا دانييل، من الذي أجرى تحرياته عني؟ من ظن أنَّ هذا الهراء قد يُجدي نفعًا؟ أنا خاطئ معروف، داخل "لانغلي" وخارجها. أنت كمبتزٍّ يحاول تهديد سكير القرية وهو في الحانة. الحقائق معروفة للجميع يا داني.. والآن، انصرف من هنا، اللعنة عليك.»

وبعيدًا عن هذا التباهي —وحقيقة أنَّ ثيو، ويُحسب له ذلك، قد أبلغ عن محاولة الابتزاز— إلا أنه وقع في «فخ عسلٍ» روسي، ولم يستطع تذكر تفاصيل بالغة الأهمية؛ مثل اللحظة التي خدرته فيها كاتيا الفاتنة والموبوءة، أو ما الذي أخبرها به، إن كان قد أخبرها بشيءٍ أصلاً. تبادلت بروكتر وثيو القصص لأنَّ حذاء الابتزاز الروسي نفسه سقط عليها في دوشنبه بعد عامٍ تقريبًا[22]، وكان ثيو خير رفيقٍ في المواساة، طالما كان الأمر واضحًا منذ البداية: لن ينتهي اللقاء في الفراش.

لكن في وهج أحواض السمك، ندمت بروكتر لأنها حركت هذا الجزء من ذاكرته؛ فقد تساءلت الآن عما إذا كان قد ارتكب أخطاءً أخرى مماثلة، وربما لم يبلغ عنها.

قالت وهي ترتشف جرعاتٍ سريعةً من الشجاعة:

– «اسمع يا ثيو، أحتاج مساعدتك. قضية سنغافورة لا تزال تخدش ذاكرتي القديمة، وأحاول تجميع بضعة أشياءٍ لا تزال تثير حنقي.»

أجاب ثيو بشرود، وهو يراقب سرباً من الأسماك:

– «بالتأكيد.. ما الذي يؤرقكِ؟»

– «اجتماعك مع "ريمورا".» — عند ذكر اسم العميل، التفت نحوها فجأة— «تحديداً قبل أن يختطف الروس سام. كنتُ أفكر فيما إذا كانت لدينا خيوطٌ آنذاك تمنع وقوع الأمر.»

عاد ثيو إلى الحانة، هذه المرة ليلتقط الزيتون بيده:

– «لا أفهم ما تقصدين.»

– «قال "ريمورا" إنَّ الروس يهدفون لاختطاف أمريكي في آسيا. لقد أطلق إشارة الطوارئ وغير جدول سفره الشخصي ليوصل الرسالة إليك وإلى ماك في فرنسا. أنا ألوم نفسي على ذلك؛ أتساءلُ ما إذا كان يجب علينا سحب سام فورًا، أم أننا مضينا قدماً بعمىً مطبق؟»

---

[22] من أحداث رواية "موسكو X" الرواية الثانية في سلسلة "محطة دمشق".

– «هل تسألينني إن كان ينبغي لنا أن نحدد، من بين كل الأمريكيين الموجودين في تلك اللحظة في قارة آسيا –قارة آسيا اللعينة– أنَّ الضابط الوحيد الذي كنا نرسله إلى سنغافورة هو المستهدف؟»

– «نعم.»

ضحك ثيو وفمه ممتلئٌ بالزيتون، ولا تزال الضحكة تتردد وهو يرتمي ثانيةً على الأريكة:

– «أرجوكِ يا أرتميس.. كفي عن هذا.»

راقبا الأسماك لبرهة، بينما ملأ الصمتُ أزيزُ الفلاتر المكتوم.

قالت بروكتر وهي تدفع بالحوار نحو الحافة:

– «لقد ذهبت "ديبس" إلى ذلك اللقاء.. لطالما وجدتُ ذلك غريبًا.»

لعق ثيو شفتيه، ثم حافة الكأس، وهز كتفيه:

– «لم تكن مهتمةً بإدارة الاجتماع، لكنها أرادت الفضل، أرادت قصةً ترويها لـ غوسفورد وربما للبيت الأبيض. أنتِ تعرفين كيف تسير الأمور؛ أذناب الطابق السابع يودون القفز إلى الميدان والنظر في عيني العميل، ولا يهمهم إن كان ذلك جحيماً بالنسبة للمسؤول عن القضية.»

– «أتتذكرُ أنك أنت وماك بدأتُما الاجتماع ثم انضمت "ديبس" لاحقاً. قُدِّم الأمر على أنه نوع من "دردشة ودية" معكما للتأكد من أنَّ كل شيء على ما يرام، ثم فُتح القفص ليدخل ذلك الحيوان السياسي.. أهذا ما حدث؟»

– «هذا..» –رشفة طويلة، ونظرة كئيبة كادت تخترقها نحو المدفأة– «اللعنة.. أمهليني لحظة. تباً.»

عاد بعد دقائق حاملاً شبكةً أرجوانيةً مثبتةً على عصا تلسكوبية، وعلى وجهه نفس التعبير الحزين. فتح ثيو حوضاً أكبر على الأرض بجوار المدفأة، وغمس الشبكة ليخرج كتلةً سوداء كانت ساكنةً في القاع الحصوي.

سألت وهي تلتوي لترى:

– «هل هذه فضلات أسماك؟»

أجاب بحدة:

– «هذه سمكة "الفراشة المشغولة"، فارقت الحياة. إنها نادرة جداً، اشتريتها بالأمس فقط بألفي دولار.. تجعلني أتساءل..»

صمت فجأة، مستغرقاً في تأمل جثة الحيوان. وضع السمكة في تابوتٍ من البوليسترين –كان لديه كومةٌ منها جاهزة– وعلمها بقلم تخطيط قبل أن يجمع عينةً من الماء ويتوجه نحو المطبخ. سمعت صوت باب المجمد وهو يُفتح ثم يُغلق. عاد ثيو وهو يتمتم بحزن.

– «هل تجمدها لتناول العشاء؟»

– «للفحص الجنائي.» –قالها بجديةٍ تامة خاليةٍ من أي فكاهة– «تشريح في المتجر غداً لاسترداد الثمن. أين كنا؟»

– «كنتُ أسألُ كيف رتبتم أنت وماك و"ديبس" أدواركم في لقاء "ريمورا". أنت وماك قمتما بالدردشة الودية، صحيح؟ ثم انقضت "ديبس".»

– «صحيح.» –قالها وانقضَّ على ما تبقى من شرابه. هذه المرة مَدَّت هي كأسها، فأخذها منها وهو في طريقه إلى الحانة– «أنا وماك قمنا بالدردشة.»

– «وهناك أخبر "ريمورا" قصته عن الروس الذين يبحثون عن صيد أمريكي في آسيا؟»

– «نعم.»

– «هل كانت هناك أي تفاصيل إضافية لم تُذكر في البرقية؟ أي شيء على الإطلاق؟»

– «لقد كتبنا كل ما قيل يا أرتميس، أرجوكِ.» –بدأ بخضِّ المشروب– ناولها الكأس وبدأ في إعداد كأسه الثالثة لهذا المساء. سألها: «ما الذي تبحثين عنه حقاً؟»

– «كيف كان مزاجه؟»

– «مزاج ماك؟»

– «ثيو، ركز معي.. مزاج "ريمورا". لقد غير جدول مواعيده ليحضر اللقاء ويوصل تلك المعلومة. كان يظن أنَّ لها قيمة، أليس كذلك؟ هل كان متحمساً؟ متوتراً؟ هل كان يتطلعُ لنيل رضاكما؟»

– «كان هادئاً يا أرتميس، كعادته. إنه محترف، ولديه غطاءٌ صلب للقاء وما يتبعه من إجراءاتٍ عملياتية. أكرر: كعادته. كان مرتزقاً، يظن أنَّ لديه شيئاً ذا قيمةٍ ويريدُ ثمنه. الأمرُ بهذه البساطة.»

– «هل تحدث "ريمورا" كثيراً عما إذا كان جهاز الاستخبارات الخارجية (SVR) قد استاء من تغييره لموعد إجازته؟ طيرانه إلى أوروبا قبل أسبوعين من الموعد؟»

– «ليس كثيراً.. بعض الشيء، ليس كثيراً.»

– «"ريمورا" وصل أولاً.» — قالت هذه الكذبة بنبرةٍ مستوية، عفوية، دون استعراضٍ أو تلميحٍ بسؤال.

أجاب:

– «صحيح.. "ريمورا" كان هناك أولاً. إنه يصلُ أولاً دائماً تقريباً. أنا وماك نقابله، نقوم بالعمل الشاق، ثم تأتي "ديبس" لتأخذ جولة النصر.»

انقبض قلبها. أهو يكذب أم أنه لا يتذكر؟ لأنها تذكر البرقية كلمةً بكلمة: «وصل ضابط العمليات ميسون وضابط العمليات مونك مبكرين. تأخر "ريمورا" عشرين دقيقة عن الموعد، وكان في حالةٍ معنويةٍ جيدة. انضمت مديرة العمليات سويت بعد الدردشة الودية.»

– «لماذا أردتَ من ماك أن يذهب؟ أنت هو المسؤول عن القضية.»

– «أرتميس..» — توقف لبرهة، وواصل خضَّ الكأس المعدنية التي كساها البخار— «أنا أحبكِ، لكنني أجد هذا الحديث مستفزاً.»

– «هذا أسلوبٌ جيد، أن تسمي مشاعرك.. هل يساعدك المعالج النفسي في ذلك؟»

– «الدكتور "سيغرام" هو من يدير صحتي العقلية، وعادةً ما ينصحني بدفن كل شيء في الأعماق والشرب كرياضةٍ احترافية.» — ابتسم للكأس، ثم

تجرع رشفةً طويلة. وعندما رفع رأسه، كانت على وجهه ابتسامةً تشبه ابتسامة قطة "شيشاير".

– «لماذا ذهب ماك؟»

محى هذا السؤال ابتسامته:

– «الأمر بسيط يا أرتميس، وأظن أنكِ تعرفين الإجابة، أليس كذلك؟ لذا أتساءل لماذا تسألينني؟ الديناميكية بيني وبين "ريمورا" جيدة، وممكنة، لكنها ليست بإنتاجية هذا الثلاثي. وإذا كنتِ تذكرين، عندما توليتُ القضية، كانت تلك العجوز بيترا ديفاين ورجالها يطاردونني لأرفع من مستوى الأداء؛ لأنَّ جودة النتائج كانت تنخفض. وأراد ماك المساعدة؛ أراد أن يتم التسليم والتسلم بشكلٍ مثالي ليضمن استمرار "ريمورا" في العطاء. أنا وماك و"ريمورا": أفضل المعلومات تتدفق عندما نكون نحن الثلاثة حاضرين. بالنسبة لـ "ريمورا"، الأمر برمته مجرد ترتيبٍ مالي، مجرد تفاوض، لذا نحن نبحث عن المزايا. ومن المزايا أن يكون معك شريكٌ عند التعامل معه. هل هذا التفسيرُ كافٍ؟»

– «كافٍ.»

قال ثيو:

– «هل تودين إخباري لماذا تنبشين هكذا؟»

سألت بروكتر:

– «هل تود إخباري لماذا لستَ متأكداً من الذي وصل أولاً إلى اللقاء؟»

كان هذا أقوى هجومٍ شنته حتى الآن. لم تكن متأكدةً من أنها أصابت الحقيقة، لكنها عرفت أنَّ ثمة خطأً ما، ولطمت ثيو على وجهه (مجازاً) لترى رد فعله.

أطبق ثيو فكيه وبسط ذراعيه، واضعاً كفيه على سطح الحانة، وأطرق برأسه ينظرُ إلى قدميه والأرض. كانت تعرف ثيو منذ خمسةٍ وعشرين عاماً؛ تعرفه جيداً لدرجة أنها أدركت أنه يخفي شيئاً ما.

رفع رأسه ببطءٍ وقال:

– «اهتمي بشؤونك اللعينة يا أرتميس.. هل تودين الإجابة عن سؤالي؟»

قالت:

– «إنه ضميري.. كما ذكرتُ آنفاً.»

– «حسناً، كفي عن هذا الهراء، أرجوكِ. إنه بلا جدوى ويجعلني مستشيطاً غضباً.»

واجهت بروكتر نظرةً من ثيو مزجت بين الإحباط والخوف.

قالت:

– «أنت محق. أنا آسفة، لقد جرفني الحديث. يجب أن أرحل، لديَّ مقابلاتٌ غداً في الصباح الباكر، وأنت لديك سمكةٌ لتدفنها. شكراً على هذه الدردشة اللطيفة وعلى المارتيني الرديء.»

تعانقا عند الوداع دون حماسٍ أو دفء، وكانت عينا ثيو لا تزالان تشعان بالقلق. انغلق الباب الأمامي خلفها، وخرجت تمشي بخطىً حثيثةٍ في الليل، وهي تسمع صوت خضاضة المشروب يتردد من نافذةٍ مفتوحة، بينما كانت دقات قلبها تعزفُ إيقاعاً محموماً داخل رأسها.

الفصل العشرون

واشنطن العاصمة

تذكرت بروكتر أنها و ديبس ارتادتا هذا البار مرتين قبل أفغانستان. حانة كاريوكي في قبو متفرع من ساحة دوبونت. حينها، كما الآن، كانت متاهة مظلمة من طاولات منخفضة تفصل بينها حواجز نصفية. أضواء النيون تتراقص على الجدران، والومضات تلتف في السقف، والجو مشبع برائحة الجوارب المالحة وصوت كوري يصدح بأغاني «بيونسيه» بحماس. آلة دخان، تتدحرج سحبها من خلف المسرح، ابتلعت المغني. شقت بروكتر طريقها وسط الحشد نحو طاولة في الخلف، حيث جلست ديبورا سويت ترتشف شيئًا ما تبرز منه مظلة صغيرة.

حتى من مسافة بعيدة، وعبر كمية لا بأس بها من الدخان، أدركت بروكتر أن زي ديبس كان صارخًا. في مرحلة ما بعد مغادرتها الـ CIA، تخلصت ديبس من البدلات الرسمية الكئيبة والأحذية العملية لصالح خزانة ملابس تعمل كإشارة نيون ضخمة، توجه انتباه الجميع نحوها.

الليلة، كانت صديقتها القديمة ترتدي سترة من الفراء المنفوش، ونظارات وردية سميكة الإطار، وحذاء ثلج أبيض، وسروالًا أسود ضيقًا كالجلد الثاني. السترة ذكّرت بروكتر بخروف هايلاند، أو ربما بسجادة حمام. وضعت بروكتر حقيبتها على الأرض– ورأت حين انحنت أن حذاء الثلج كان لؤلؤي البياض وبكرًا لم يدنس. اتخذت المقعد المجاور لـ ديبس، مواجهةً المسرح المغلف بالدخان.

سألت بروكتر:

– «لا نوادل حتى الآن؟».

أشارت ديبس عبر الدخان في اتجاه البار.

– «لا يزال عليكِ القيام بالرحلة بنفسك».

نكزت بروكتر مظلة شراب ديبس بإصبعها.

قالت ديبس وهي تقرب الشراب منها:

– «نفد الأناناس لديهم».

عند البار، طلبت بروكتر «كليبر-تيني» واستمعت للرجل الكوري بينما كان الساقي يعمل. من موقعها لم تستطع رؤية ديبس؛ وبالكاد استطاعت تمييز المسرح. زين الساقي شراب بروكتر بشريحة أناناس، ثم غرس مظلة ورقية برتقالية.

قالت ديبس بغضب حين عادت بروكتر لتجلس في مقعدها:

– «أخبروني أن الأناناس نفد لديهم».

هزت بروكتر كتفيها وأخذت رشفة.

– «يسعدني أن أرى المكان لا يزال يعمل».

قالت ديبس وهي تتفحص المسرح الذي أصبح فارغًا الآن، والمرئي للحظات بين ستائر الدخان:

– «أحقًا؟».

ضجيج المحادثات يطفو حولهما. جلستا متقاربتين، وكل منهما تتحدث، أحيانًا، مباشرة في أذن الأخرى.

تابعت ديبس:

– «حين تلقيت رسالتك الإلكترونية يا أرتميس، اضطررت لمقاومة الرغبة في حذفها. لكني أدركت أنني فضولية أكثر مما أنا غاضبة، وفي هذه الأيام أنتِ لستِ حقًا.. مهيبة».

– «أهذا غصن زيتون؟ حديثك العابر يحتاج لبعض المساعدة يا ديبس. أليس لديهم أشخاص للمساعدة في هذا النوع من الأمور في الطابق السابع؟ قد تفكرين في توظيف شخص بمهارات تواصل جيدة. مجرد فكرة».

– «كان بإمكانهم مساعدتك أنتِ أيضًا يا أرتميس. منعكِ من ارتكاب أخطاء فادحة مثل نعت المدير الجديد بأنه "حقير" (cunt)».

– «لسبب غريب لم أكن في أفضل حالاتي ذلك اليوم. بالإضافة لذلك، قلت إن فكرته فيها "ظلال من الحقارة" (a shade cunty). لم أقل إنه هو كذلك».

– «أوه صحيح، سامحيني».

خطفت ديبس شرابها وأخذت نفسًا من خلال أسنانها.

– «على أية حال، كنت أحاول تذكر آخر مرة تحدثنا فيها حقًا. أنا شرهة للألم، ماذا عساي أن أقول؟ متى كان ذلك؟».

– «أذكر إفطارًا أو شيئًا من هذا القبيل قبل أفغانستان. ذكريات ضبابية عن لحم مقدد ومحادثة متكلفة. لذا، أكثر من عقد».

من خلف جدار الدخان عاد الرجل الكوري لفقرة إضافية. هذه المرة: سيناترا، مشوهًا بشكل فظيع، حتى بمعايير ليلة خميس في «سباركل كاريوكي».

كررت ديبس:

– «أكثر من عقد.. إذًا ما الخطب يا أرتميس؟ هل هذه جولة خرقاء في طريق الذاكرة؟ توسل لاستعادة وظيفتك القديمة؟ هل لدينا عمل لننجزه؟».

– «لم تكوني دائمًا لاعقة أحذية نكدة هكذا يا ديبس. كنت أحبكِ أكثر في تلك الأيام».

***

كان والد ديبس يدير بقالة فاشلة خارج كليفلاند، ولم تكن أمها موجودة. جاءت ديبس إلى الـ CIA عبر ذلك النوع من المسارات الوظيفية المبتذلة التي ربما جعلت أسلاف لانغلي من «الجمجمة والعظام» (Skull and Bones[23]) يتقلبون في قبورهم: معرض توظيف. كل ما تطلبه الأمر كان أربع سنوات من

[23] الجمجمة والعظام (*Skull and Bones*): جمعية سرية نخبوية في جامعة "ييل"، اشتُهرت بتخريجها للعديد من الرؤساء الأمريكيين ومدراء الاستخبارات وكبار صناع القرار.

الكرة الطائرة في دوري الدرجة الأولى ومعدل تراكمي 3.4 في جامعة ولاية أوهايو، وكانت ديبس، بطولها البالغ ستة أقدام وبوصة، تقف شامخة فوق مجنِّد الوكالة تشرح أنها تريد تغيير العالم.

كانتا المرأتين الوحيدتين في دفعة «المزرعة»، والمحنة المشتركة للانضمام لنادٍ للرجال قربتهما من بعضهما، وكذلك محاولة بروكتر الباسلة للعب دور المُعِدّة في مباريات الكرة الطائرة الارتجالية التي نظمتها ديبس.

في نهاية «المزرعة»، أجلس أحد المدربين ديبس وأخبرها بصراحة: لقد رسبتِ. لم تُطرد ديبس من الـ CIA – كانت هناك وظائف أخرى أقل شأنًا للقيام بها – لكن جدارًا حجريًا سد الآن الطريق إلى القمة، الطريق الوحيد للانضمام للرياضيين الذين يديرون المكان.

ما الذي قضى عليها؟ أوه بالتأكيد، كانت هناك شائعات، كلها فظيعة: الأكثر رواجًا كانت أن ديبورا فريزر سويت، طويلة الساقين والجذابة، قد رُسّبت من قبل نوعية المدربين القدامى المتحجرين في «المزرعة» الذين لا يزالون يعتبرون أن كونك امرأة طريقًا مستقيمًا للعمل السكرتاري، أو، اعتمادًا على حجم الدماغ، ربما للقيام بأي شيء يفعله المحللون هناك في مبنى المقر الجديد.

لكن بروكتر كانت تعرف الحقيقة، ولم يكن الأمر مجرد أنها اجتازت «المزرعة» وهي تمتلك مهبلًا خاصًا بها. لا، لقد قضت بروكتر ستة أشهر تراقب ديبس تخطط وتدير العمليات، والحقيقة المجردة هي أن المرأة ارتكبت خطيئتين قاتلتين.

الأولى: انهارت تحت الضغط أثناء تنفيذ مسارات كشف المراقبة، ظانةً دائمًا أنها نظيفة بينما كان من الواضح أنها ليست كذلك.

الثانية: لم تكن تستطيع الكتابة علي الحاسوب. والتجسس هو الكتابة. دخلت بروكتر ذات مرة مكتب المدرب الرئيسي ووجدته منكبًا على حاسوبه. لم ينظر إليها. «أنا أتجسس الآن»، قال لها. «راقبي وتعلمي. أنا أتجسس بجدية

بالغة.» نقر-نقر-نقر على لوحة المفاتيح. واتضح أن ابنة البقال من جرافتون لم تكن تجيد الكتابة بتلك الجودة.

رسوب ديبس فتح هوة بين المرأتين كبرت وكبرت ولم تغلق أبدًا. لكن، ما الذي حدث بالضبط بينهما؟ كانت هناك أفغانستان، بالطبع، لكن بحلول ذلك الوقت كانت الأمور سيئة بالفعل. مقلب بروكتر كشف الازدراء، ولم يسببه. أفضل ما استطاعت استنتاجه هو أن ديبس توصلت لرؤية بروكتر كخائنة لقضيتهما. أيًا كان ما يعنيه ذلك.

ولكن إذا كانت بروكتر خائنة، فقد أصبحت ديبس شيئًا أبسط بكثير: متنمرة.

بعد أقل من عام على رسوبها في «المزرعة»، وقعت أحداث 11 سبتمبر، وتضخمت الوكالة، وبدأت الـ CIA تسمن بنجاحها في العثور على الإرهابيين وقتلهم. في تلك المياه صقلت ديبس مهاراتها في «بوابة الطابق السابع»، تقليد لانغلي للضباط الذين يلعبون دورًا يشبه المكتب السياسي لـ ستالين أثناء «الإرهاب الكبير»: اجتماعات - الكثير منها - وسحب البساط من تحت أقدام الزملاء والأصدقاء.

حين غادر غوسفورد للعمل الاستشاري مع «باين» (Bain) في نيويورك، أخذ ديبس معه، ومعهما جنيا المكاسب. من بين جميع الأصناف، كانت ديبس، في عقل بروكتر القبلي، من بين الأسوأ: ضابطة حالة فاشلة، كلها سياسة وبلا موهبة، عادت، كملكة منبوذة (مع خزانة ملابس جامحة، فوق البيعة) على ظهور جيش أجنبي، تغزو وتحرق منزل أسلافها مقابل عرش.

***

قالت ديبس وهي تبتسم بتكلف نحو المسرح:

- «وأنتِ.. حسنًا، للأسف كنتِ دائمًا هكذا. بعض الأشياء لا تتغير أبدًا».

نكزت المظلة الورقية في شراب بروكتر.

غرزتها بروكتر في شعرها المجعد.

- «تريدين مني أن أجلب لكِ واحدة أخرى؟».

– «لا. أنا هنا بدافع قدر من الفضول ولأننا كنا صديقتين ذات يوم. الخزان سيفرغ في حوالي خمس دقائق أخرى».

– «حسنًا. انظري يا ديبس».

كانت قد تدربت على الخطاب عشرات المرات في تلك الظهيرة، لكن كان عليها الآن مقاومة موجة الإرهاق المتصاعدة عند فكرة التذلل أمام هذه المرأة البائسة.

تابعت:

– «أنا هنا لإجراء بعض المقابلات ورؤية أصدقاء قدامى. سمعت مقتطفات عما مر به سام هناك، وحسنًا، كنت أتساءل عما إذا كان ينبغي علي – أو كان بإمكاني – فعل المزيد للحفاظ على سلامته. وفكرت فيكِ. في كيف كنا مقربتين ثم لم نعد كذلك. وبصدق فكرت أننا قد ندفن الفأس. نضع المافن والزبادي جانبًا للأبد».

ضحكت ديبس، وانفرج فمها عن ابتسامة قاسية.

– «من الجيد أن الروس لم يعرفوا عن نقطة ضعفك تجاه مافن رقائق الشوكولاتة. لماذا تحبينها كثيرًا يا أرتميس؟».

الآن، هنا – حتى وهي تتلذذ بالخيال المبهج لتهشيم وجه ديبس بالطاولة – بدأت بروكتر تشعر ببعض الغثيان بشأن الجزء التالي. كمسألة مبدأ راسخ وشكها في التكتيكات التي تعلن القدرة على إنهاء الصراعات دون إراقة دماء، لم تكن بروكتر تنخرط في الاعتذارات. لكنها لعبت هذه اللعبة في عقلها. مع ماك، العب على وتر الغرور. مع غاس، حس الواجب. مع ثيو، روح الزمالة. مع ديبس، عليك أن تتذلل. لم تكن هناك طريقة أخرى حقًا.

توقف الكاريوكي، واستبدل بموسيقى «هاوس» صاخبة. دارت آلة الضباب والتفت الومضات، ملقيةً برذاذ من الضوء الأزرق المخضر الذي دار كدولاب الهواء عبر وجه ديبس. كانت كلتاهما تطويان ذراعيهما على الطاولة، والمرفقان يكادان يتلامسان.

قالت، وهي تعصر الكلمات لتخرج:

– «ديبس.. أنا آسفة بشأن أفغانستان. فقدت السيطرة قليلًا. وأنا آسفة لأننا اختلفنا قبل ذلك. تمنيت لو لم يحدث».

دار صمت وانفتح. بدأت بروكتر تعبث بشعرها. تساءلت عما إذا كانت ديبس ستعتذر أيضًا عن استحضار أذى سادي لطرد بروكتر من الخدمة. بدلًا من ذلك، ضمت ديبس يديها معًا أمام فمها وعالجت بروكتر بعرض مثير للغثيان تمامًا: إيماءة قبول مقتضبة. وبها، حُسمت خمسة وعشرون عامًا من التاريخ الفوضوي فجأة لصالح ديبورا سويت. كانت بروكتر الآن تلف شعرها بعنف حول أصابعها. انتزعت المظلة، التي انكسرت. سحبت القطع من شعرها ووضعتها على الطاولة.

لكن الهدف الكامل من التذلل عبر اعتذار لعين لم يكن تلقي واحد من صديقتها القديمة؛ الهدف كان إفقاد ديبس توازنها. وفي تلك اللحظة من عدم التوازن، ضربت بروكتر:

– «اسمعي، في تلك الأشهر القليلة بعد اختفاء سام، لمت نفسي. ولا أزال. أنتِ تعرفين هذا الهراء من الداخل والخارج يا ديبس، وأحتاج لمنظورك. لقد أفسدت الأمر. أين أخطأت؟».

سحابة من الحيرة – أو التعجب؟ – مرت عبر ديبس أمام هذا العرض من الخضوع.

– «ماذا تعنين؟».

– «التحذير الذي كان لدينا من ريمورا. إنه يأكلني حية».

تجعد رق جبهتها الأملس بالبوتوكس قليلًا جدًا.

– «اللقاء في فرنسا قبل اختطاف سام؟ الذي حدث خلال أسبوعي الأول عائدة للمبنى؟».

– «صحيح. كان لدى ريمورا تحذير لنا. تساءلت عما إذا كان بإمكاننا إنقاذ سام. حظيت ببعض الوقت بعيدًا للتفكير في هذا، للتأمل في أخطائي، ولا أستطيع فهم هذا الجزء. أين أخطأت؟ هل كان بإمكاني فعل شيء حيال ذلك؟».

جلست ديبس للخلف، مفكرة.

– «غير مرجح. لقد ضغطنا عليه – بقوة – للحصول على تفاصيل. لم يكن يملكها».

– «أتظنين أن التحذير كان حتى بشأن سنغافورة؟».

– «كيف تعنين؟».

– «حسنًا، أولًا يخبرنا ريمورا أن الروس يتطلعون لخطف أمريكي في آسيا. ثم، بعد بضعة أشهر، يخبرنا أن خطف سام كان حادثًا. خطأ غير مقصود (snafu)».

تركت التوتر، والتناقض الظاهر، معلقًا هناك بلا حل. أملت ألا تسأل ديبس كيف عرفت بروكتر باجتماع يوليو.

قالت ديبس:

– «الجولة التالية عليّ».

ضربت الطاولة واختفت في جدار من الدخان في طريقها للبار. ثنائي كوري اعتلى المسرح. راقبتهما بروكتر يدخلان في جدال حاد حول اختيار أغنيتهما.

حين عادت ديبس – هذه المرة كان شرابها فقط يحتوي على الأناناس – اختلسن بضع رشفات وشاهدن الزوجين على المسرح يقرران أن الفجوة الإبداعية، لا، ببساطة لا يمكن جسرها. حشرت الفتاة الميكروفون في صدر الرجل وخرجت غاضبة من المسرح قبل أن يبدأوا الأغنية حتى.

عادت ديبس للحديث:

– «قضيت وقتًا طويلًا مع قضية ريمورا. إنها تلقى رواجًا جيدًا في وسط المدينة (البيت الأبيض). ومنتجه يمكن أن يكون صلبًا جدًا. لكن أحيانًا لا يكون كذلك. أحيانًا يكون حثالة، لكنه يحاول بيعه لنا على أية حال. في تلك الحالة، أعتقد أنه سمع شائعات عن شيء سيحدث في آسيا، أمريكي متورط، فتحمس، وبالغ في تقديراته، كما يقال. كنت هناك مع ماك و ثيو. لم يكن لديه

أبدًا التفاصيل التي كنا سنحتاجها لإبقاء سام في الوطن. بقدر ما قد أستمتع بلومك على الأمر، لا أعتقد أنه كان بإمكانك إيقافه».

رجل في منتصف العمر ببدلة مجعدة ملأ الفراغ على المسرح وسط جوقة من التصفيق وصيحات الاستهجان والصيحات المخمورة. قميصه غير المدسوس، وعقدة ربطة عنقه التي تشبه جورب الرياح، وشعره المنكوش أعطى انطباعًا بأن رحلته إلى «سباركل كاريوكي» كانت محفوفة بالمخاطر، ربما انتهت وساق له مربوطة فوق قطار فائق السرعة.

تمتمت بروكتر:

– «كي-بوب.. ستكون كي-بوب لعينة».

وكانت كذلك، وشرعت كلتاهما في رشف «الكليبر-تيني» الثاني بسرعة، مستعجلتين بسبب الصوتيات التي تخدش الآذان كالطباشير على السبورة، وحقيقة أن الجليد بدأ يستقر بينهما مرة أخرى.

وهنا، وأذنا بروكتر تحت الهجوم، مستشعرة أن هذه اللحظة النادرة من اللطف من ديبس قد تستمر للحظة أطول، ألقت بشباكها لرحلة أبعد في العمق. ضغطت بروكتر فمها بالقرب من أذن ديبس.

– «كان هناك نقاش هذا الربيع حول ريمورا. عما إذا كان يقدم معلومات استخباراتية تتماشى مع مستوى وصوله. ظننت أنني تذكرت ماك أو ثيو يقترحان دردشة بجانب المدفأة معه. هل حدث ذلك خلال لقاء مارس؟».

– «ماك و ثيو فعلا ذلك».

– «كلاهما؟».

– «أعتقد ذلك. كانا قد جهزا المكان. ريمورا عادة ما يتأخر، لذا خططت وفقًا لذلك: ظهرت بعد أن قام ماك و ثيو بتسخين ريمورا».

سجلت بروكتر الترتيب وهي تنهي آخر قطرات شرابها.

البرقية كان بها هذا الترتيب للوصول: ماك و ثيو، ثم ريمورا، ثم ديبس. أصدقاؤها قدموا خلطات مختلفة من نفس القائمة.

قد تكون سلسلة من الأخطاء البريئة، فكرت. قد تكون، قد تكون، قد تكون.

فحصت ديبس ساعتها، وقالت إن عليها الذهاب حقًا.

قالت بروكتر:

– «مهلًا، شيء أخير، سمِّها فكرة مجنونة».

لم تكن ديبس تنظر إليها، بل كانت تعبث في حقيبتها.

– «بيترا ديفاين كانت طبيبة جلدية عجوزًا ومجنونة قبل طردها، لكنها كانت كفؤًا، وكما تذكرين كانت لديها نظرية تروج لها خلال أشهري الأخيرة».

اختلج الجلد حيث كان ينبغي أن تكون تجاعيد عيني ديبس، لولا الفيلر.

– «ولم أكن واثقة حينها من رأيي فيها وأنا أقل يقينًا الآن، لكنها طُرحت في اجتماعنا الفاشل في الطابق السابع، كما تذكرين على الأرجح. الجوهر الأساسي كان أن التفسير الأنظف للخسائر في تلك العطلة هو أن لدينا اختراقًا داخل الـ CIA».

أضاء وجه ديبس بنوع من الذهول المظلم.

– «وأنا فضولية لمعرفة رأيك في تلك الفكرة. إذا كان شخص ما في الداخل قد خدعنا. أحرق غوليكوف و سام و بوكانير».

امتنعت عن ذكر كلاو – ذاك لم يصل للصحف بعد.

كان هناك تنهيدة طويلة، ونفخت ديبس تيارًا من الهواء من زاوية فمها عبر شعر بروكتر قبل أن تلف خصلة منه حول أصابعها.

– «لديهم سيروم يمكن أن يجعل هذا الشعر أقل جنونًا».

تركت ديبس شعر بروكتر يسقط وأنهت آخر رشفات الـ «كليبر-تيني» وهي تراقب المسرح.

قالت بروكتر وهي تربط شعرها مجددًا:

– «الأجواء غير المروضة.. تناسبني».

قالت ديبس:

– «تجعلكِ تبدين كممسحة.. ممسحة صغيرة غاضبة».

ثم، بعد نخرة ضحك ونظرة لساعتها وتنهيدة حزينة أخرى، قالت:

– «في الصيف الماضي وضع ريمورا يديه على معلومات صلبة تشرح ما حدث في سنغافورة يا أرتميس. خطف سام كان حادثًا. غوليكوف كان هناك ليبيعنا كنزًا من الوثائق. يبدو ذلك أكثر احتمالًا، أليس كذلك؟».

– «و بوكانير؟».

– «استُدعي من أثينا. الخرق كان يمكن أن يحدث هناك، حسبما نعلم».

– «هل نحن نبحث؟».

قالت ديبس بقدر من الرضا:

– «أرتميس، لا أستطيع مناقشة هذا معكِ. أنتِ تعرفين هذا. عيب عليكِ. والآن يجب أن أذهب».

وبما أن العيب شعور غريب عليها، تركت بروكتر تلك الملاحظة تمر بسلام وعادت للموضوع، ماسحةً جسد ديبس بتركيز بحثًا عن أي إشارة، أي دلالة: لكن كل ما رأته كان خدودًا محمرة ككدمة وشفاهًا تلتوي غضبًا وظهرًا يستقيم بينما كانت تشق طريقها عبر متاهة الطاولات والدخان نحو الباب. أمسكت بروكتر بمعصمها قبل أن تصل، ورمقتها ديبس بنظرة وكأنها قد تلكمها، لكن بروكتر كانت يائسة.

قالت:

– «لماذا أُغلق متجر الجلدية؟ من أمر بسحب بيترا ديفاين من تقييم قضية ريمورا؟».

خطت ديبس الآن خطوة واحدة نحو بروكتر، ساحبة أذنها لتقترب من فمها تقريبًا. صرخت فوق صوت موسيقى الهاوس:

– «تظنين أن المافن المسموم سيء؟ انتظري فقط حتى تري ما سأفعله تاليًا إذا واصلتِ محاولة نبش القاذورات».

قالت بروكتر:

– «لسوء حظك يا ديبس.. لقد هربت من معسكر عمل لانغلي الخاص بكِ».

– «ربما تكونين قد زحفتِ عائدة لحفرة المستنقع التي جئتِ منها، لكنكِ لا تزالين تتلقين معاشاً تقاعديًا. وأتخيل أن ذلك المعاش هو دعامة أساسية لمشكلة شربك. لذا، إذا سمعت أنكِ تحفرين حيث لا ينبغي، سأسلط عليكِ الفيدراليين (FBI). ربما أجعل المحامين يلقون نظرة فاحصة أخرى على كل تلك الأعمال الورقية الرديئة التي قدمتها قبل إرسال سام ليفقد عقله في سجن روسي مع حوالي ربع مليون من أموال دافعي الضرائب. اللعبة أصعب بكثير الآن مما كانت عليه حين كنا في الحفاضات بـ "المزرعة". ولن يكون لديكِ أدنى فكرة عن كيفية اللعب ضدي، ناهيكِ عن الفوز».

نترت ديبس معصمها لتحرره وتعرجت عبر الحشد حتى ضاعت في الدخان والباب. بدأ الكاريوكي مجددًا، طاقم من العشرينيين يصدحون بالمزيد من الكي-بوب. استعادت بروكتر الطاولة بحقيبتها وذهبت للبار.

أشار الساقي لكأسها الفارغ.

– «آخر؟».

قالت:

– «نبيذ "جين" هذه المرة. هاه؟ لا أسمع. قل مرة أخرى. لا، سادة سيكون جيدًا، شكرًا».

الفصل الحادي والعشرون

لانغلي / كريستال سيتي

كان مصدرُ الاتصالِ موسكو.. في هذا الأمرِ على الأقل، لم يكن لدى وكالةِ المخابراتِ المركزيةِ أدنى شك. كانت المكالمةُ قصيرةً جدًا، ستًّا وثلاثين ثانيةً على وجهِ التحديد، لكنَّ ذلك كان متوقعًا. وأيُّ شخصٍ يتنصتُ عليها —وكانت هناك احتمالاتٌ كثيرةٌ بهذا الصدد— كان سيسمعُ صوتَ رجلٍ في منتصفِ العمرِ يتحدثُ الفرنسيةَ بلكنةٍ سلافية، يتصلُ برقمٍ باريسيٍّ للاستفسارِ عن "السيجار".

خَدَمت كورنيليا هجينز في «البيت الروسيّ» لثمانيةٍ وثلاثين عامًا. كانت خزنتُها صغيرة، بحجمِ خزانتينِ أو ثلاثٍ من خزائنِ أدواتِ التنظيفِ المحشورةِ معًا، وقد يُعذرُ الزوارُ إذا ظنوا أنَّ كورنيليا، في حقيقةِ أمرِها، شيوعيةٌ مخلصةٌ لا توبةَ لها. كان ورقُ الجدرانِ يجسدُ الواقعيةَ الاشتراكيةَ في منتصفِ القرن: تراكتوراتٌ حمراءُ فاقعةٌ تشقُّ طريقَها، ومصانعُ تنفثُ أدخنتَها، ومزارعون في مزارعَ جماعيةٍ يقبضون على سنابلِ القمحِ في نشوةٍ وطنيةٍ غامرة. وعلى مكتبِها، استقرت تماثيلُ نصفيةٌ لـ ماركس ولينين، بينما عُلقت صورةُ ستالين فوق الباب.

منذ أيامِ صبا كورنيليا في خواتيمِ الحربِ الباردة، كانت غرفتُها — المعروفةُ بـ «بنكِ الأمانات»— تضمُّ نحو عشرين هاتفًا غريبًا ترنُّ عندما يعطي العملاءُ الداخليون إشارةً، عبر رسائلَ لفظيةٍ معقدة، عن رحيلِهم الوشيكِ من روسيا واستعدادِهم للقاءِ الوكالة. كانت الغرفةُ تفتقرُ للحياةِ في

كثيرٍ من الأحيان؛ فالعديدُ من العملاءِ لا يمكنهم مغادرةُ روسيا إلا في حالاتٍ نادرةٍ جدًا.

لكنَّ اليوم، كان أحدُ الهواتفِ يومضُ عندما أتمت كورنيليا طقسَها الصباحيَّ بفتحِ الخزنة، وإضاءةِ الأنوار، وتقبيلِ أصابعِها ثم مسحِها على صلعةِ لينين البرونزية. همست لنفسِها: «يا إلهي، يا إلهي!»، وهي تسجلُ دخولَها إلى قاعدةِ البياناتِ لتستمعَ إلى الرسالةِ الصوتية. هل أحدُ "أولادِها" مستعدٌ للحديث؟ مستعدٌ للخروجِ من غيابةِ الجليد؟ فكرةٌ جعلت قلبَ كورنيليا يرتجفُ طربًا.

تلقّت المجموعةُ الصغيرةُ المُصرحُ لها بالاطلاعِ على هذه المراسلاتِ داخل «البيت الروسيّ» والطابقِ السابع برقيةً عاجلةً من كورنيليا مع التفاصيلِ المرافقة. وبمطابقةِ كلمةِ السرِّ المشفرةِ مع المخططِ المتاهِيِّ المعقدِ لخطة الاتصال الشاملة، ظهرَ طلبُ العميل: اجتماعٌ في الساعةِ العاشرةِ ليلاً بالتوقيتِ المحلي، بعد ثلاثةِ أيامٍ من الآن، في عقارٍ بالقربِ من لاكوست بفرنسا؛ مزرعةٌ قديمةٌ في «لوبيرون» استأجرتْها الوكالةُ خصيصًا لاستخدامِ واحدٍ من أكثرِ عملائِها الروسِ إنتاجية.

وللتأكدِ التام، أجرى الفنيون مطابقةً للصوت، وقارنوا المكالمةَ الهاتفيةَ المقتضبةَ بساعاتٍ من التسجيلاتِ التي التقطتْها ميكروفوناتٌ كان يرتديها غاس رابتيس خلال لقاءاتٍ سريعةٍ في شوارعِ موسكو، وماك وثيو خلال تلك الزياراتِ الأولى في باريس ومراكش. كان هو حقًا.

إنه ريمورا (ريمورا).

ترقرقت دمعةٌ في عينِ كورنيليا اليسرى، وكادت تبكي من فرطِ الفرح.

***

كانت «لانغلي» أشبهَ بخليةِ نحلٍ اجتماعية، أو مَوردٍ للظمأ، واليوم — حتى في القبو— كان الضباطُ العاملون على الملفِّ الروسي يستشعرون شيئًا ما في الأفق. ثمةَ خطبٌ ما يحدث. عندما وصل سام جوزيف إلى مكاتبِ «موسكو إكس»، كان الطنينُ في الأجواءِ كثيفًا لدرجةِ أنه قد يُشبهُ الرطوبة.

كانت همهماتُ الحديثِ تتسربُ من الشقِّ أسفلَ بابِ مكتبِ غاس، ورصد سام أمراً غريباً؛ وهو أنَّ المديرَ اختارَ الجلوسَ هنا اليومَ فعليًا. هل للأمرِ علاقةٌ بكارثةِ "تارمان" في موسكو؟ بعد بضعِ دقائق، انفتح البابُ على مِصراعيْه، وسار غاس نحو مكتبِ سام.

قال:

– «يجبُ أن أصعدَ للطوابقِ العليا لبضعِ دقائق، تعالَ معي.»

كان فرعُ «موسكو إكس» لا يزالُ معزولاً في القبوِ بالقربِ من آلةِ شطائرِ الـ "هوت دوغ"؛ لذا وخلالَ سيرهما في ممراتِ الطابقِ الأرضي المتعرجة، وتجاوزِ أرصفةِ الشحن، والمكاتبِ التي يحرسُها المراقبون ذوو السترات الخضراء، وصولاً إلى صفِّ المصاعد، ضغط غاس على سام بخصوصِ تقريرٍ تافهٍ كان قد طلبه قبل يومين. في الأعلى، وعندما عبرا المكتبَ الأمامي لـ «البيت الروسيّ» ووصلا إلى البابِ الأخضرِ لـ «الغرفة الخلفية»، قال غاس باقتضاب:

– «هنا تنتهي رحلتُك.»

أدخل الشفرةَ ودخل، وحرصَ على إغلاقِ البابِ خلفه.

في الجهةِ المقابلةِ من الغرفة، رأى سام بابَ مكتبِ ماك مفتوحًا. كان ماك يتفحصُ بطاقةً صغيرةً تحتوي على جدولِ مواعيده، بينما خرج ثيو من خلفه وبدأ يمازحُ مساعدتَه الإدارية، وهو يتكئُ بذراعيهِ على حاجزِ مقصورتِها. رنَّ هاتفُ المساعدة؛ أجابت وقالت: «نعم.. نعم.. بالطبع»، ثم أغلقت الخط. نظرت إلى ثيو بابتسامةٍ وقالت، ببهجةٍ لا يمكنُ تفسيرُها إلا بالجهلِ أو اللؤم:

– «مديرةُ العملياتِ في طريقِها إلى هنا الآن.»

صاح ماك من بعيدٍ بعدمِ تصديق، وهو يرفعُ عينيه عن جدوله، وقد تجمّدَ الذهولُ على وجهه ليتحولَ إلى إحباط:

– «الآن؟!»

أكدت المساعدةُ بابتسامةٍ عريضة:

– «الآن.»

لؤمٌ خالص، فكر سام؛ لقد كانت تستمتعُ بنقلِ الأخبارِ السيئةِ لـ ثيو.

زمجر ثيو:

– «ستقتحمُ الأمرَ مجددًا.. ستفرضُ سيطرتَها علينا.»

قال ماك:

– «إنها مستشيطةٌ غضبًا بسببِ "تارمان"، ولأنَّ عملية "كلاو" قد فشلت. تريدُ إجابات. ربما يجبُ أن ندعَها تديرُ هذا الاجتماعَ اللعين، ونأخذُ نحن عطلةَ نهايةِ الأسبوع.. أو نرسلُ مسكينَنا غاس.»

في تلك اللحظة، وبينما كان سام واقفًا بلا حراكٍ خارج «الغرفة الخلفية»، وبلا أيِّ غطاءٍ عملياتيٍّ يبررُ وقوفَه، بدأ بغريزتِه يجمعُ كلَّ تفصيلةٍ حوله. رصدَ شعرَ وجهِ ثيو: كان خفيفًا وطويلاً، ينبتُ في كتلٍ غيرِ متساويةٍ فوق شحوبِ خديهِ وعنقِه الطباشيري. فكر سام أنَّ الرجلَ يبدو مريضًا؛ كان واقفًا وهو يتشبثُ بحاجزِ مقصورةِ المساعدة، يترنحُ وكأنَّ دوارًا أصابه، أو كأنه من الوهنِ بحيث تقتلعُه نسمةُ الهواءِ المعادِ تدويرُه المنبعثةُ من الفتحات. فكر سام أنَّ هذا الرجلَ يصارعُ آثارَ ثمالةٍ ساحقة.

وإذا كان ثيو يبدو مريضًا ومنزعجًا من إهانةٍ غامضة، فقد بدا ماك وكأنه يزنُ أمرًا ما، غارقًا في تفكيرٍ عميق. التقت عيناه بعيني سام، فظهرت عليه علاماتُ المعرفة —ربما التسلية؟— ورسمَ ابتسامةً عريضة.

– «سام.. ما الذي جاء بك إلى السطح؟»

– «كنتُ أنا وغاس نناقشُ أمرًا ما، وتركني هنا.»

في تلك اللحظة، فتح غاس بابَ «الغرفة الخلفية». نظر إلى سام بتساؤل —إذ وجدَه في نفسِ المكانِ الذي تركه فيه— ثم أشارَ إلى ماك وثيو:

– «لقد سحبتُ ما طلبتْه.. لنذهب.»

ثم اقتحمت ديبورا سويت المكتبَ الأمامي لـ «البيت الروسيّ» بخطواتٍ ثقيلة. بدأ ماك بالقولِ إنهم يجهزون الأمور، لكنها رفعت يدَها لتُسكتَه ببطءٍ شديد.

كانت سويت، كعادتِها، ترتدي ملابسَ تليقُ بالأضواء؛ وفي هذا اليومِ ارتدت قميصًا ضيقًا تحت سترةِ جينز. كان سام يعرفُ الشائعاتِ بالطبع، عن التاريخِ المشتركِ لهذه المجموعة، والكثيرُ منها كان قبيحًا، وقد تجلى ذلك الآن في التشنجاتِ الصغيرةِ عند فمِها، وفي النظرةِ الزجاجيةِ لعينيها وهي تتفرسُ فيهم جميعًا؛ وهو ما فسرَه سام بأنه لؤمٌ خالصٌ يواجهُ ازدراءَ فريق "براتفا".

قالت:

– «لقد أخبرتُكم أنتم الثلاثة.. كنتُ واضحةً تمامًا بوجوبِ إضافتي إلى قائمةِ توزيعِ برقياتِ "ريمورا". فلماذا يسلمني مساعديَّ برقياتٍ أُرسلت إليكم أنتم الثلاثةِ فقط؟ يجبُ أن أكونَ في الصورة. أنا مديرةُ العمليات، ورئيسُ الولاياتِ المتحدةِ مهتمٌّ شخصيًا بهذه القضية، والمديرُ طلبَ مني التدخلَ والإشرافَ المباشر. كنتُ واضحةً في هذا؛ يجبُ إبلاغي فورًا عندما يرسلُ أيَّ خبرٍ أو إشارة، وهذا الأمرُ يصبحُ أكثرَ أهميةً حين يحدثُ بعد أيامٍ قليلةٍ من فقدانِ عميلٍ روسيٍّ آخر. لقد أبلغَ مكتبي كلَّ هذا للمرأةِ الموجودةِ في "بنك الأمانات".»

أزاحت سويت نظارتَها ذاتَ الإطارِ الأحمرِ الفاقعِ إلى هامةِ رأسِها، ومرت متجاوزةً ماك وثيو، نحو بابِ «الغرفة الخلفية»، متخطيةً غاس الذي كان يغلي من الغضب. تبعها ماك وثيو، وهما يمرانِ بجانبِ سام.

رمق غاس سام بنظرةِ اشمئزازٍ وقال بصوتٍ خافت:

– «إذا لم أعد إلى مكتبي خلال ثلاثين دقيقة، فأرسلوا النجدة.. وحتى ذلك الحين، انصرف من هنا.»

ثم أغلق الباب.

الفصل الثاني والعشرون

الإسكندرية، فيرجينيا

وفقًا لما اتفقت عليه مع سام عبر منصة «روبلوكس»، عثرت بروكتر على موقف لسيارتها في مرائب «هوفمان تاون سنتر»، واشترت تذكرة سينما ببطاقتها الائتمانية، وشاهدت نصف فيلم نسيت عنوانه بنهاية العروض الترويجية، ثم عادت للسيارة. في عصر المراقبة التقنية واسعة الانتشار، كانت دور السينما أماكن مفيدة لإقناع المراقبين الرقميين بأن نمط حياتها ممل، ولا يستحق أي تحليل أو اهتمام إضافي. عذر غيابها لهذا اليوم – زيارة لشركة «DynCoTel»، وقيلولة في الغرفة، والانغماس في فيلم تافه – كان متسقًا تمامًا مع حركة هاتفها وسيارتها. ومع ذلك، كان الواقع مختلفًا تمامًا: مراجعة لقطات مكافحة المراقبة، وتواصل سري مع سام، والآن لقاء عاجل وجهًا لوجه خارج المسرح. انتظرت.

***

في تمام التاسعة مساءً، انزلق سام إلى السيارة. كان الطابق العلوي من مرآب السيارات شبه فارغ، وهادئًا إلا من أزيز المصابيح العلوية.

قال سام وهو يغلق الباب:

– «أشار ريمورا لطلب اجتماع أو أرسل رسالة. وضابط في موسكو، رجل يدعى تارمان، اعتقله الروس الأسبوع الماضي بينما كان يحاول مقابلة كلاو. تتذكرين كلاو؟».

– «أتذكره».

– «حسنًا، إنه مفقود. عميل روسي آخر اختفى».

– «هذا يجعلهم اثنين في حوالي ستة أشهر. زائد غوليكوف. زائد اختطافك».

– «ليس خط اتجاه طبيعي للمهنة».

– «ليس كثيرًا. كيف اكتشفت كل هذا؟».

– «طلب مني غاس أن أتبعه للأعلى من أجل دردشة. افترقنا خارج الغرفة الخلفية. فجأة تجسد ماك و ثيو. كنت أقف هناك وسمعت ربما بضع ثوانٍ من التذمر بشأن نائب المدير للعمليات. ثم ظهرت سويت، تزمجر لعدم إدراجها في جميع مراسلات ريمورا، وتتشكى بخصوص تارمان و كلاو، و...».

قاطعته بروكتر:

– «كانت ديبس غاضبة؟».

– «أجل. مستشيطة غضبًا. مكتبها وضع علامة على البرقية. لم تكن مدرجة في التوزيع».

– «وقالت "ريمورا"؟».

– «قالتها. نطقت الاسم الحركي بصوت عالٍ. ذكرت أنه كان من الأهم أن تشارك، نظرًا لاختفاء كلاو في وقت سابق من الأسبوع. ثم اختفوا جميعًا داخل الغرفة الخلفية».

– «من؟».

– «غاس، ماك، ثيو، و سويت نفسها».

– «أفترض أنه ليس لديك أدنى فكرة عما تمخض عن ذلك؟».

– «افتراضك صحيح».

قالت بروكتر:

– «حسنًا، اللعنة يا جاغرن».

ثم من العدم، ولثانية عابرة، ارتطمت به صورة بروكتر في شبابها، وعند تلاشيها تركته مع شعور أجوف بالفقد.

تنهدت بروكتر.

قالت:

– «من الصعب فهم إشارة ريمورا لطلب لقاء، أليس كذلك؟ مصادفة رائعة جدًا بعد محادثاتي هذا الأسبوع. يبدو أننا أزعجنا شخصًا ما».

قال سام:

– «أنتِ تعرفين هؤلاء الأربعة منذ زمن طويل».

بمجرد خروج الكلمات، شعر بصمت ينشق بينهما؛ بقيا معلقين هناك للحظة.

نخرت بروكتر.

قالت:

– «في تلك الأيام كانت دفعات "المزرعة" صغيرة.. كنت تعرف الجميع».

– «لكنهم كانوا أصدقاءك».

– «كانوا كذلك. ولا يزالون، في معظم الحالات. ذكرني: في أي دفعة كنت يا جاغرز؟».

– «تسعة وعشرون. أواخر 2011».

– «أنا كنت الدفعة السابعة، عام 2000. أوقات جامحة بحق الجحيم».

كانت تحدق عبر الزجاج الأمامي وكأنها تشاهد عقلها ينجرف لمكان آخر.

سأل سام:

– «كيف كانت نائب المدير للعمليات في ذلك الوقت؟ من الصعب تخيلها كمتدربة».

غمغمت بروكتر بحنين:

– «ديبورا سويت.. الكثير من المدربين ظنوا أن ديبس لن تصلح إلا للمضاجعة أو الطباعة. اتضح أنها تصلح أيضًا لقيادة مقالب وحشية».

سأل سام:

– «نائب المدير كانت صاحبة مقالب؟ بالله عليك».

– «أقسم لك. كلنا كنا كذلك. انظر، في ذلك الوقت، لم تكن الـ CIA قد ترهلت بعد، والمقالب كانت بلا قيود. حين يغادر شخص لبضعة أيام، قد يعود

ليجد بابه قد سُد بالطوب، أو بالنسبة للطموحين حقًا، كنا نسد أبواب الناس بالطوب وهم داخل غرف نومهم ليلًا، دون إيقاظهم. الحواجب كانت تُحلق، بالطبع. بعض المدربين طُليت قواربهم باللون الأرجواني الفاقع. قد تكون تقود سيارتك إلى واشنطن العاصمة غير مدرك أن هناك ملصقًا مغناطيسيًا مثبتًا على صدام سيارتك عليه رسم بارز لقضيب ضخم، وتتساءل لماذا يطلق الناس أبواق سياراتهم ويدفعون ألسنتهم في خدودهم ويرفعون لك إبهامين حين يمرون بك».

ابتسمت بروكتر للحظة.

– «شرطي ولاية أوقفني بسبب تلك الحركة».

ضحك سام وهز رأسه.

– «في دفعتي أسوأ ما حدث هو أننا ملأنا حمام مدرب بالأوراق المتساقطة».

قالت بروكتر:

– «هذا لأن جيلكم لا يعرف كيف يمرح بحق الجحيم».

سأل سام:

– «لطالما تساءلت.. متى حصلت على اللقب؟ هل كان ذلك في "المزرعة"، أم سبق الوكالة؟».

– «كانت تلك هدية من ثيو في "المزرعة". "ليل ديبي" (Lil Debbie – كعكة صغيرة حلوة). ستة أقدام وبوصة بدون حذاء، ومقومات عاهرة ضخمة. لذا لم تكن صغيرة (Little) ولا حلوة (Sweet)، كما يقال. أنا عادة ما كنت أناديها ديبس في وجهها ومن خلفها، لكن ماذا عساي أن أقول، أنا مهذبة. سيدة لبقة».

– «إذًا ما هو أفضل مقلب نفذتموه يا رفاق؟».

نظرت بروكتر مرة أخرى عبر الزجاج الأمامي؛ استطاع أن يرى عينيها تلمعان.

– «كان هناك مدرب، عجوز بلحية رمادية يدعى غانستون. كان يملك أحد المنازل المطلة على النهر. ذات ليلة كنت أتسكع مع ديبس في البار وورد ذكر اسم غانستون، وفجأة ابتسمت ديبس. وأنا أعرف تلك الابتسامة. لديها فكرة، طريقة لممارسة تدريبنا الأخير على الاقتحام والسرقة. الفكرة صلبة، بضع نقاط خشنة لكن لا شيء لا يمكننا صقله. وانظر، لأي عملية اقتحام وسرقة تريد تقليل وقتك في الموقع (on the X)، أليس كذلك؟».

قال سام مبتسمًا:

– «بالتأكيد.. بالتأكيد تفعل».

– «لذا احتجنا لأيدٍ إضافية. جندت أنا ماك و ثيو. وسحبت ديبس غاس. بدأ الاجتماع العملياتي حوالي منتصف الليل، كلنا منحنون في دائرة، نخطط للأمر، نعد قائمة التسوق. اليوم التالي كان السبت. توجهت أنا و ديبس لمجموعة من المكتبات الإباحية القذرة في المدينة. خرج غاس و ثيو لشراء لوازم الأشغال اليدوية. واستعد ماك للتعامل مع فتح الأقفال».

قاطعها سام:

– «هل أغلق غانستون بابه؟ لا أحد يغلق أبوابه في "المزرعة"».

– «غانستون كان من النوع الذي يغلق الأبواب. تقضي وقتًا لا بأس به من الثمانينات في موسكو، وتغلق الأبواب حين تتاح لك الفرصة. على أية حال، قضينا جميعًا ليلة السبت في غرفة ماك نقص الصور. كل واحد معه مقصه الخاص ومجموعة مجلات ونحن جميعًا نلقي النكات ونضحك ونشرب».

أغمضت «الزعيمة» عينيها وأخذت نفسًا طويلًا عبر أنفها.

– «حتى الآن يا جاغرز، يمكنني تذكّر كل تفاصيل لتلك الغرفة. رائحة البيرة وضحك الأصدقاء ونشوة الجريمة تتكتل في حلقك. أبقى في تلك الغرفة، ويمكنني ارتكاب دزينة أخطاء وسيكون الأمر بخير لأن لدي الوقت لإصلاحها جميعًا، للمشي في مسارات أخرى. الكتاب لم يُكتب بعد».

فتحت بروكتر عينيها.

– «بدلًا من ذلك، أنا هنا معك. أرتكب الجنايات في مرآب سيارات».

قال سام:

– «كان يمكن أن يكون أسوأ بكثير.. بطريقة ما كان يمكن أن يكون أسوأ».

ضحكت.

– «حسنًا، ظهر الأحد في الواحدة تمامًا كنا خارج منزل غانستون، لأنهم خرجوا بالقارب. فتح ماك القفل في دقيقتين، تحية لرفاق الاقتحام والسرقة الذين قدموا لنا العرض التوضيحي في ذلك الأسبوع نفسه. نحن في الداخل. ثيو يجر صندوقًا يبدو وكأننا هنا لبعض الأعمال الحرفية غير المشروعة، والتي، بطريقة ما، أظن أننا كنا كذلك. وبدأنا العمل».

– «أين خبأتم الصور؟».

– «أين لم نخبئها؟ ذهبت في كل مكان. الكتب. الأكواب. الأدراج. داخل إطارات الصور. دُست تحت السجاد. أُلصقت تحت الساعات. زُلقت في زجاجات الدواء. داخل أغطية الوسائد. أين أيضًا؟ آه نعم، في علب حبوب الإفطار. بين شرائح الخبز. داخل فرن التحميص، لكننا أخرجنا تلك لأننا لم نرد إشعال حريق. لسنا مجانين».

– «بوضوح.. بديهي. لكن لحظة. الصور. ماذا اخترتم يا رفاق في النهاية؟».

– «أوه، قليل من هذا، وقليل من ذاك. غطت كامل طيف الميول الجنسية بالكامل، كما أقول. كانت كولاجًا –(أي خليط غير متجانس)– حقيقيًا للتجارب الإيروتيكية للبشرية، على الأقل حتى مطلع الألفية. لكننا واجهنا عقبة».

– «ماذا كانت؟».

– «عاد غانستون باكرًا. اكتشفنا لاحقًا أن بريسيلا مرضت. الشاحنة تدخل الممر قبل ساعة من الموعد. غاس، الذي كان بالأسفل، يسمع أبواب السيارة. ينادي ثيو، الموجود في المطبخ. يهرع ثيو لقدم الدرج وينادينا. يقول حان وقت الرقص. كنت بالأعلى أدس كومة دسمة من الصور في ملاءات سرير

زواج غانستون، و ديبس تعمل ـفي الحمام مع ماك، وتعرف ماذا سمعنا جميعًا في الطابق العلوي؟ سأعطيك تخمينًا».

– «لا فكرة لدي».

– «لا شيء. لا شيء هو الجواب. لأن ثيو لم يكن يتحدث بصوت عالٍ. لم يسمع أحد منا ـفي الطابق العلوي التحذير. ثيو و غاس كانا قد هربا بالفعل من الباب الخلفي، متوقعين أن نتبعهم. وبعد حوالي عشر ثوانٍ سمعت بريسيلا غانستون تصعد الدرج، تتحدث عن الحبوب وقيلولة. وكان هناك مكان واحد فقط للاختباء: الخزانة. عصرنا أنا و ماك و ديبس أنفسنا بالداخل – بالكاد. وحبسنا أنفاسنا. كانت واحدة من تلك الخزائن ذات الأبواب المنزلقة ذات الشقوق، لذا تمكنا من الاختلاس للنظر إلى الغرفة. دخلت بريسيلا، فتحت درجًا ـفي الحمام. صرخت. ويا إلهي يا جاغرز، لا أزال أسمعها الآن. كادت ضحكة تنفجر مني. ماك يضع يده على فمه ويدًا أخرى على فم ديبس. الجميع يرتجف ـفي الخزانة. عند هذه النقطة كان غانستون قد وصل للأعلى يسأل عما يحدث بحق الجحيم. ولم أتمكن من رؤية كل ما يحدث تمامًا، لكن استطعت القول إن بريسيلا كانت ترفع صورة كشارة شرطة، وإذا أسعفتني الذاكرة كانت ديبس قد تعاملت مع ذلك الحمام، ولم أكن لأقول إن الاختيارات كانت موجهة جنسيًا بشكل مغاير (heterosexually oriented). و بريسيلا بالطبع تتساءل عن هذا. نبرتها اتهامية، كما أقول. ونشب جدال يا جاغرز، جدال زوجي كئيب نوعًا ما استمر ـفي تلك الغرفة لحوالي عشر، ربما خمس عشرة دقيقة. وأنا و ماك و ديبس ـفي تلك الخزانة، نسند بعضنا البعض، نموت من الضحك ـفي الداخل. لم أستطع رؤية الكثير هناك، لكن استطعت رؤية عيني ديبس، وعيني ماك، وكنا جميعًا نشعر بالأمر. كنا ـفي حالة شراكة روحية، مطويين بين سراويل وقمصان غانستون. هذا النوع من الأشياء لا يحدث كثيرًا، أليس كذلك؟ الحياة ـفي الغالب صراعات. من النادر الحصول على لحظة من الفرح الخالص. كانت ظهيرة لطيفة جدًا».

– «كيف خرجتم أنتم الثلاثة؟».

– «حسنًا، اكتشف آل غانستون صورًا أخرى. وبمجرد أن تجد بضع صور مخلوطة مع أكياس الشاي، وربما واحدة أخرى في الكوب نفسه، حسنًا، يصبح لديك نمط. لقد خضعت لمقلب. في النهاية شغلوا التلفاز في غرفتهم الأمامية، وتسللنا نحن على رؤوس أصابعنا للأسفل وتسللنا من الباب الخلفي. اجتمعنا للبيرة مع غاس و ثيو تلك الليلة وقضينا بقية فترة "المزرعة" نستعيد كل دقيقة من ذلك، كما يفعل المرء».

– «لم يمسك بكم غانستون أبدًا؟».

– «ليس رسميًا. لكنه عرف. استنتج أن ثيو متورط، وربما ديبس، ولم يكن من الصعب توسيع الشبكة لتشملني أنا و ماك و غاس. رغم أن ماك كان ماكرًا في تلك الأمور. كان صاحب الأفكار الذي يستطيع البقاء تحت الرادار، وينسل حين ترتفع الحرارة. المرة الوحيدة التي طُرح فيها الأمر حقًا، كانت مع بريسيلا. كان هناك حفل عيد ميلاد بعد بضعة أشهر، وكنت أقف في الطابور لمشروب. اقتربت بريسيلا للدردشة: الطقس، خطط العطلة، الكتب التي تقرأها. وقرب النهاية لمعت في عينيها تلك اللمعة الغريبة. أمسكت كتفي، ومالت نحوي، فمها كان عمليًا على أذني، وقالت: "في المرة القادمة اتركي بضع صور أخرى كتلك التي تركتِها في الملاءات". ثم غمزت لي غمزة صغيرة وذابت في الحفل. يا للهول».

سأل سام:

– «ما هي الصور التي دسستِها في الملاءات؟».

قالت بروكتر:

– «ليس لدي أدنى فكرة.. حينها والآن. ربما كان يجب أن أسأل».

ضحكت وضربت لوحة القيادة.

قال سام:

– «بات الأمر أكثر منطقية.. لماذا فعلت ديبس ما فعلته حين طردتكِ».

– «أجل. كان انتقامًا مباشرًا لما فعلته حين سممت زباديها في أفغانستان».

– «كان زبادي؟».

– «زبادي بالفراولة»، ردت، «إذا أسعفتني الذاكرة. كانت هناك ماركة معينة تفضلها ديبس، يغيب عني اسمها الآن. اقفز للأمام عقدًا من الزمن تقريبًا من "المزرعة"، ونحن في أفغانستان. ديبس تعمل لصالح غوسفورد وهما يزوران قاعدتنا. وجدت جندي مارينز، طفلاً من نيو مكسيكو، يحتفظ بصلصة فلفل "الشبح" الحارة، ترسلها له جدته شهريًا. كان هناك مكان مكسيكي في المدينة أحببناه حين كنا في "المزرعة"، ولم تكن ديبس تلمس أي شيء حار. "يصيبني بالغثيان يا أرتميس"، قالت ذات مرة. لم أرَ المشهد فعليًا، مع ذلك. حين دخلت منطقة الطعام للإفطار كان هناك عامل مرافق يمسح الأرضية وآخر يستخدم مناشف لجرف الفوضى المطلية على المنضدة وجانب الثلاجة. اثنان أو نحو ذلك يحومون وكأنها مسرح جريمة. "ماذا حدث؟" سألت، والشخص الذي يلمع جانب الثلاجة قال فقط إن تلك الزعيمة المجنونة القادمة من المقر الرئيسي لابد أنها تعاني من عدم تحمل اللاكتوز وغباء بنسب متساوية، لأن ملعقة واحدة من الزبادي وكنا سنصبح في موقع تصوير فيلم "طارد الأرواح الشريرة"».

قال سام:

– «لكنها عرفت.. أنكِ الفاعلة».

– «بالتأكيد، بالتأكيد»، قالت الزعيمة. «لكن تمامًا مثل غانستون، لم تستطع إثبات ذلك. أحداث تلك الليلة طغت على كل شيء، في النهاية. ليس المقلب، بالطبع. ما حدث لاحقًا. ليست ليالٍ كثيرة تميز عصور حياتك، لكن تلك الليلة في أفغانستان كانت واضحة كالشمس. كان هناك ما قبل، وما بعد».

كان يعرف القصص عن أفغانستان، والدم والندوب والشائعات. لكنه لم يسمعها منها. لكنه كان يعلم أن الأصدقاء الجيدين لا يسألون لمجرد الفضول، أو لتوفر الفرصة. استطاع أن يرى على وجهها أن الاستغراق في الذكريات قد انتهى، وباب ذاكرتها يغلق.

أدارت الزعيمة محرك السيارة.

قالت:

– «حين ظهرت في "غاتورفيل" بعد التبادل.. كان هناك جزء مني فكر: من الأفضل ألا أعرف. حتى المسيح أرجأ مواجهة يهوذا حتى العشاء الأخير. الرب الطيب كان إلهًا، لكنه كان بشرًا أيضًا. كان يعلم أن كشف خائن هو عذاب خالص، يقلب كل شيء رأسًا على عقب».

سأل سام:

– «ما الذي أقنعكِ.. بالحفر؟».

– «حسنًا.. لقد عبثوا معك. تحت مسؤوليتي. هذا أولًا».

– «أكيد. وثانيًا؟».

– «أراهن أن هذا الخائن لعب دورًا في طردي من الخدمة. وعدم كوني "التيس" (المغفل) هو بمثابة نجم الشمال بالنسبة لي يا جاغرز. كنت أنوي الانتحار وظيفيًا بشروطي الخاصة، بطريقة استعراضية، لا أن يتلاشى ربع قرن من العمل بقتل باهت يُنسى بسهولة».

التفت إليها، والألم بادٍ على وجهه.

– «على ذكر القتل. أيًا كان ما نبشناه فقد أزعج أحد أصدقائك. كنت أفكر: قد ترغبين في الابتعاد قليلًا. اخرجي من العاصمة. تواري عن الأنظار».

وضعت إصبعها على أنفها.

– «سأجري محادثة واحدة كنت أؤجلها. سأتواصل معك بعد ذلك، ربما خلال بضعة أيام».

ترجل للخارج، وأغلق الباب.

أنزلت النافذة.

– «مهلًا يا جاغرز. شيء أخير، بما أننا أصبحنا فضوليين وعاطفيين بشكل لعين الليلة. كيف تمكنت من كتمان السر كل تلك الأشهر؟ لقد أثرت فضولي بشدة».

– «كنت أعلم أنني لو أخبرتهم لقتلوني. لم يكونوا ليعيدوني للوطن لو عرفت بشأن جاسوسهم. المخرج الوحيد كان كتمان الأمر».

– «كنت لأظن أنه بعد فترة سيحمل الموت جاذبية معينة».

– «بالتأكيد. أيام كثيرة فكرت ربما أخبرهم فقط. وأنتهي من الأمر».

– «إذًا؟».

بدأ سام يمضغ علكته وكأنه لولا ذلك لطحن أسنانه حتى تصبح ترابًا.

– «زنزانتي كانت جدرانها مبطنة بقماش مطبوع عليه نجوم حمراء صغيرة. كنت بحاجة لوظيفة. مشروع. كان بإمكاني عد تلك النجوم. هذا ما أبقاني مستمرًا. لم يكن يهم ما حدث، أو من كان في زنزانتي. كان علي فقط أن أعد».

– «لا خيالات انتقام، أو شيء من هذا القبيل؟».

– «الانتقام بدا مجردًا جدًا في تلك الزنزانة. النجوم كانت حقيقية. الجاسوس لم يكن».

– «لا تزال تشعر بذلك؟».

– «أقل وأقل كل يوم».

وضعت ناقل الحركة على القيادة لكن أبقت قدمها على الفرامل.

– «جاغرز.. كم نجمة كانت هناك؟».

مال مقتربًا.

– «أكثر من ستين ألفًا».

– «بالله عليك».

فلتت نفخة هواء من منخريه.

– «ستة وستون ألفًا وخمسمائة وثمانية وعشرون. اتضح أن الأمر يتطلب بعض الوقت للدوران خلالها، حتى لو تمكنت من البقاء على المسار. الأمور تتباطأ حين تصل للأرقام الأعلى. يستغرق نطقها بصوت عالٍ وقتًا».

الفصل الثالث والعشرون

موسكو

في غرفةٍ مغفلةٍ بلا نوافذ، تقبعُ في الطابقِ الأرضي من البرجِ الثاني — والأحدث— لمقرِّ الاستخباراتِ الخارجية المعروف بـ «الغابة»، جلس ريم زوموف على طاولةٍ متآكلةٍ يتفحصُ الحصيلةَ الأخيرةَ لـ دكتور "ب"، التي وصلت لتوِّها في الحقيبةِ الدبلوماسيةِ الصباحيةِ القادمةِ من باريس. ضمتِ الحصيلةُ الهدايا المعتادة، بما في ذلك وحدةُ تخزينٍ (فلاشة) كفيلةٌ بإبقاءِ محلليهِ في حالةِ استنفارٍ لشهور، ومجموعةٌ من الصورِ الملتقطةِ بكاميرا رقميةٍ متناهيةِ الصغر، كان دكتور "ب" يستخدمُها لتصويرِ الوثائقِ داخل مقرِّ «لانغلي». كتب دكتور "ب" في ملاحظةٍ عملياتيةٍ مرفقة: «المحتوياتُ يجبُ أن تجيبَ على الأسئلةِ من السادسِ حتى الحادي والثلاثين في قائمةِ المتطلباتِ الاستخباراتية» التي أرسلها جهازُ الاستخباراتِ الخارجيةِ مؤخرًا، «باستثناءِ الأسئلةِ الثاني عشر، والثامن عشر، والسابع والعشرين». وأضافَ أنَّ هذه الأسئلةَ المتبقيةَ سيتمُّ التعاملُ معها في الدفعةِ القادمة، بافتراضِ استمرارِ تعاونِ مجموعةٍ من «العملاءِ الفرعيين الغافلين» داخل مركزِ مهامِ الصين التابعِ لوكالةِ المخابراتِ المركزية.

عادةً ما كانت المعلوماتُ التي يرسلُها دكتور "ب" تُستقبلُ باحتفاءٍ كبيرٍ داخل «القسم الخاص» الذي يديرُه ريم. وكان يُفترضُ بهذه الدفعةِ أن تحظى باحتفاءٍ مضاعف؛ فقد أرسلَ دكتور "ب" رزمًا من المعلوماتِ حول عملياتِ الوكالةِ في الصين: تقييماتٌ سياسية، وبرامجُ تقنية، وأسماءُ الضباطِ المنخرطين في دوراتِ لغةِ «الماندارين»، وأولئك المرشحين للعملِ في محطةِ

بكين أو كعملاءٍ تحت غطاءٍ غير رسمي في الصين. هنا، وكما وعد ريم المديرَ سابقًا، تجلّت إحدى الوعودِ وشيكةِ التحققِ لمنصةِ دكتور "ب": جمعُ معلوماتٍ يمكنُ لروسيا مقايضتُها مع بكين مقابلَ مكاسبَ كبرى، تشملُ رفعَ أسعارِ النفطِ المصدر، والحصولَ على رسوماتٍ وخططٍ لتقنياتٍ منهوبة، ودعمًا سياسيًا لأجندةِ روسيا في «العالم الروسي[24]» (Russkiy mir) الواسع. لكنه لم يستطعِ الاحتفالَ الآن؛ بل إنَّ الصفحةَ الأولى من الملاحظةِ العملياتيةِ المكونةِ من اثنتين وعشرين صفحةً جعلت ريم يتساءلُ عمّا إذا كانت جرعةُ دواءِ ضغطِ الدمِ الذي يتناولُه لا تزالُ كافيةً لضبطِ أعصابه.

فصلتِ الفقراتُ الأولى كيف أنَّ أرتميس بروكتر، تلك الشخصيةُ المعروفةُ جيدًا لـ ريم، قد غامرت بالذهابِ إلى شمالِ فرجينيا، جزئيًا كما يبدو، لإجراءِ محادثاتٍ حول نكسةِ سنغافورة والظروفِ المحيطةِ باختطافِ صامويل جوزيف ومقايضتِه لاحقًا. كتب دكتور "ب" أنَّ هذا الأمرَ في حدِّ ذاته ليس مقلقًا؛ فقد طُردت بروكتر من الوكالةِ في أعقابِ أحداثِ سنغافورة، وكانت منهارةً عاطفيًا بسببِ اختطافِ واستجوابِ صديقٍ عزيز. ووصف دكتور "ب" المحادثةَ بأنها كانت «عادية»، لكنها كانت «محددةً أكثرَ مما ينبغي بالنسبةِ لي، خاصةً فيما يتعلقُ بتفاصيلِ قضيتِنا». كان دكتور "ب" على علمٍ بمحادثةٍ واحدةٍ أخرى على الأقل من هذا النوعِ أجرتها بروكتر مع زميلٍ في الوكالةِ أثناء زيارتها لـ فرجينيا. وكان الملخص: «تتبنى بروكتر نفسَ الخطِّ الفكري الذي أجبرنا على إخراجِها في الربيع، نظريتُها الهوسية؛ وهي وجودُ اختراقٍ داخل الوكالة (أنا)». وأوضح دكتور "ب" أنه: «بسببِ طبيعةِ استجوابِها، واستخدامِ بعضِ التفاصيلِ المتعلقةِ بسنغافورة وقضيتِنا، بدأتُ أتساءلُ عما إذا كانت بروكتر تملكُ وصولاً إلى وثائقِنا. لذا سلطتُ "الضوء" في الداخلِ لاستكشافِ الأمر.»

بدا ضغطُ الدمِ الآن هَمًّا تافهًا؛ فقد شَعَرَ ريم بقلبِه يهوي في معدته. كان "الضوء" إشارةً إلى ضوءٍ أسودَ صغيرٍ مخفيٍّ داخل ساعةٍ صممها فنيو الجهاز

---

[24] العالم الروسي (*Russkiy Mir*): عقيدة جيوسياسية تهدف لتوحيد الناطقين بالروسية خارج الحدود، وتستخدمها موسكو كذريعة لبسط النفوذ وتبرير التدخل العسكري في دول الجوار.

لـ دكتور "ب". في بدايةِ القضية، حدد دكتور "ب" الإجراءاتِ التي ستتبعُها الوكالةُ لحمايةِ الوثائق، واقترحَ رشَّ الـ «ميتكا» (Metka)، أو «غبار الجاسوسية»، فوق ملفاتِ القضية. هذا المركب، «نيتروفينيل بنتا ديينال»، هو مادةٌ وسمٍ كيميائية، مسحوقٌ بلا لونٍ ولا رائحةٍ يمكنُ وضعهُ في أيِّ مكانٍ تقريبًا: مقابضِ الأبواب، مقابضِ السيارات، مفاتيحِ الكمبيوتر، والأوراق. كان دكتور "ب" قد جادلَ حينها قائلاً: «هناك مخاطرةٌ في إدخالِ هذا المركبِ إلى المبنى، ولكن إذا أردنا إدارةَ القضيةِ بهذا الأسلوب، فنحن بحاجةٍ إلى صمامِ أمان، وسيلةٍ لنتتبعَ في كلِّ وقتٍ من الذي اطلعَ على الوثائق.»

لاحظ دكتور "ب" على الفورِ شيئًا مريبًا: بقايا الـ «ميتكا» كانت عالقةً على طاولةٍ داخل «الغرفة الخلفية» لـ «البيت الروسيّ»، وهي طاولةٌ عرف دكتور "ب" أنَّ صامويل جوزيف قد شغلها لفترةٍ وجيزةٍ في الأسابيعِ الأخيرة. وكشفت زيارةٌ لاحقةٌ بـ «الضوء» لمكتبِ صامويل في «موسكو إكس» عن وجودِ المزيدِ من المادة. وكتب دكتور "ب": «وصامويل جوزيف لا يملكُ صلاحيةً رسميةً للوصولِ إلى ملفاتِنا.»

تمتم ريم:

– «بلياد!» (اللعنة).

لم يدرك أنه كان يجلسُ منحنياً إلى الأمامِ فوق الملاحظةِ العملياتية، مستندًا على أطرافِ أصابعِ قدميهِ فقط، لدرجةِ أنه بدا كـ "باليرينا" أحدب. كان وجهُه على بُعدِ بوصةٍ واحدةٍ من الوثيقة — ولم يكن ذلك فقط لأنَّ بصرَه بدأ يضعف. لو أنَّ أحدًا دخلَ غرفةَ القراءةِ في تلك اللحظة — وهو ما لن يحدث، فثلاثةُ ضباطٍ فقط في الجهازِ يملكون بصماتِ الأصابعِ لفتحِ الباب— لظنَّ أنَّ ريم مجردُ قارئٍ هادئٍ ومستغرقٍ في شغفه. لم يكن هناك ما يوحي بأنَّ ريم من الداخلِ كان يغلي بقلقٍ تحولَ إلى غضبٍ عارم. جلس معتدلاً لبرهة، مدركًا أنَّ عاطفتَه، وربما طمعَه، قد خذلاه. لَعَنَ نفسَه وتمتم:

– «كان يجبُ أن أقتله.. كان يجبُ أن أقتلَ صامويل جوزيف.»

شدَّ «كستبان» القراءةِ المطاطيَّ على إبهامِهِ بقوة، قبل أن يقلبَ الصفحةَ التالية.

كتب دكتور "ب": «التحقيقُ الذي تجريه أرتميس وسام يضعُ كلَّ ما نعملُ من أجلِهِ في خطر، لكنني أؤمنُ أنَّ لدينا خيارات». واقترح دكتور "ب" إزاحةَ صامويل: «إنه ضابطٌ محطمٌ عاطفيًا يقبعُ خلفَ مكتبٍ في المقر، ولن يفتقدَه أحد. أما بروكتر فهي كائنٌ مختلف». استندَ معظمُ المنطقِ هنا على أنَّ بروكتر، كما وصفها دكتور "ب": «مصدرُ إزعاجٍ بأبعادٍ تاريخيةٍ عالمية، امرأةٌ لن تهدأ حتى تقتنع، ورغم كلِّ سوءِ المعاملةِ الذي تعرضت له، يبدو أنها تكنُّ ولاءً عبوديًا لوكالةِ المخابراتِ المركزية؛ لأنه لم يتبقَّ لها شيءٌ سوى شعورِها بالواجب. طوالَ مسيرتِها كان هذا ميزة، أما الآن فهو عبءٌ صارخ». أرفق دكتور "ب" أرقامَ هواتفِ بروكتر وصامويل وعناوينَهما المسجلةَ في ملفاتِ المواردِ البشرية.

وهنا، في النهاية، لم يملك ريم إلا أن يعجبَ بالبرودِ العميقِ لالتزامِ دكتور "ب" بالقضية؛ فـ «الجوهرةُ التاجية» لعملاءِ الاستخباراتِ الخارجيةِ كان يطرحُ حجةً مقنعةً بأنَّ الطريقةَ الأضمنَ لحمايةِ «أمنِ شراكتنا الاستراتيجية» هي «إسكاتُ» صديقٍ قديمٍ وزميلٍ خرجَ لتوهِ من السجنِ بالقوة. وختم دكتور "ب" رسالتَه بقوله: «حينما تصادمتْ مهمتي مع صداقاتي.. اخترتُ المهمة.»

***

اعتادَ الأمريكيون على إضفاءِ طابعٍ من الإثارةِ على «العمليات السوداء». ففي أفلامِ الجاسوسيةِ التي كان ريم يتابعُها بنهمٍ خلال جولاته في روما ولندن، يظهرُ القتلةُ وهم يجوبون العالمَ ببدلاتِ "التوكسيدو" الفاخرة، ويستخدمون تقنياتٍ ذكيةً بشكلٍ شيطاني («سخيفةٌ جدًا»، كان ريم يزمجرُ هكذا، بينما تنقرُهُ نينيل على كتفِهِ وتطلبُ منه الصمت)، ونساءُ جميلاتٌ يرتدين ملابسَ ضيقةً تفيضُ منهن.

رأى ريم أنَّ الأمريكيين يرون «العملَ الأسود» بهذا الشكلِ لأنهم لم يضطروا لإطلاقِ النارِ على عشراتِ الخونةِ في أعناقِهم؛ فزعماؤُهم السياسيون

لم يضطروا بعدُ لتسميمِ منافسيهم أو قتلِ المعارضين ـفي وضحِ النهار؛ وفي أمريكا، من غيرِ المألوفِ أن يسقطَ السياسيون من الشرفاتِ ليلقوا حتفَهم. ليس لأنَّ أيديهم نظيفة، لا؛ فقد قضى الأمريكيون العقودَ التي تلت أحداثَ الحادي عشر من سبتمبر وهم يقتلون خصومَهم ـفي أراضٍ أجنبية، وغالبًا ما كانوا يحركون «عصا التحكم» لا الزناد. ومن هذه المسافاتِ البعيدة، يمكنُ للمرءِ أن يسمحَ لنفسهِ بتجميلِ هذه المهنة.

لكن ـفي تجربةِ ريم، «العملُ الأسود» هو سجينٌ سابقٌ بدينٌ يرتدي بدلةً غيرَ متناسقة، يدفعُ رجلاً مخدّرًا من نافذةٍ ـفي الطابقِ الثالث؛ هو موظفٌ حكوميٌّ يتقاضى راتبًا زهيدًا يلطخُ الملابسَ الداخليةَ لشخصٍ ما بالسم؛ هو مجرمٌ سابقٌ ـفي سانت بطرسبرغ مدمنٌ على الهروين، يطعنُ صحفيةً حتى الموتِ ـفي شقتِها مقابلَ مبالغَ تعادلُ أجرَ بضعةِ أسابيع.

لم تكن لدى ريم أيُّ رغبةٍ ـفي هذا النوعِ من العمل؛ ـفي الحقيقة، كان يراهُ دون مستواه. فهو فنانٌ وليس بلطجيًا. لكنَّ ريم لم يكن مرهفَ الحس؛ كان يدركُ أنَّ حلَّ المشكلةِ أحيانًا يكونُ ـفي الموت. وفي هذه القضية، كان يرى أنَّ الموتَ ضرورة؛ لأنَّ دكتور "ب" ـفي خطر، ودكتور "ب" يساوي مئاتِ الملايينِ من الدولاراتِ لروسيا الاتحادية. بل مليارات، وفقًا لأعلى تقديراتِ المحللين.

وافترضَ أنَّ الأمريكيين سيعتقدون أيضًا أنَّ القرارَ الروسيَّ بقتلِ شخصٍ ما سيصدرُ عن الرئيس، ـفي غرفةٍ مكسوةٍ بالخشبِ ـفي الـ «كرملين»، وبطريقةٍ درامية. لكنَّ تجربتَه لم تشهد ذلك ولو لمرةٍ واحدة. فالمسارُ يتميزُ قبل كلِّ شيءٍ بالغموضِ وعدمِ الوضوح. كان عليكَ أن تدركَ بواطنَ مثلِ هذه الأحاديث. كان عليكَ أن تستخلصَ المعنى من تحتِ الكلمات.

***

فرك ريم أصابعهُ وهو جالسٌ ـفي غرفةِ الانتظارِ الخاصةِ بمديرِ جهازِ الاستخباراتِ الخارجية؛ فقد بدأ التهابُ المفاصلِ يشتدُّ عليه ذلك الصباح، وكأنه يستشعرُ البردَ القارسَ للشتاءِ القادم. وضعَ مساعدُ المديرِ هاتفَه وقال:

– «ريم ميخائيلوفيتش، يمكنكَ الدخولُ الآن.»

نهض ريم بتثاقلٍ من الكرسي الأزرقِ المتهالك، وتوجهَ إلى مكتبِ المدير. مرَّ وقتٌ كان يتساءلُ فيه عما إذا كان سيشغلُ هذا المكانَ يومًا، لكنه أدركَ منذ زمنٍ بعيدٍ أنَّ كرسيَّ المديرِ يتطلبُ من شاغلهِ التضحيةَ بالعملِ الحقيقي لممارسةِ السياسة، ولم يجد في نفسهِ القدرةَ على تقديمِ تلك التضحية. «ما كنتَ لتنجحَ حتى لو حاولت»، هكذا كانت تقولُ نينيل. وكانت محقةً بالطبع.

يقعُ مكتبُ المديرِ في ركنٍ من الطابقِ الثالثِ المخصصِ للإدارةِ في «الغابة». تغطي النوافذُ الكبيرةُ الجدرانَ الخارجية، مما يمنحُ إطلالاتٍ واسعةً على الغاباتِ المحيطةِ بالمجمع. كانت أشجارُ الحورِ قد توهجت باللونِ البرتقالي الفاقع؛ وكثيرٌ منها قد تعرى تمامًا استعدادًا للشتاء، الشتاءُ الرابعُ والستون في حياةِ ريم. جلس ببطء؛ ولسببٍ ما كانت تلك الوسائدُ اللعينةُ على طاولةِ المديرِ رقيقةً كأوراقِ السنفرة، ومزعجةً مثلها. جلس المديرُ على كرسيّه، ونقرَ بأصابعهِ الغليظةِ على الخشبِ المصقول.

تنحنح المديرُ —وهي إشارتُه المعتادةُ لبدءِ محاضرة— وقال:

– «ريم.. نحن، أو أنتَ بالأحرى، صممنا "القسم الخاص" لنتجنبَ هذا الموقفَ الذي نجدُ أنفسنا فيه الآن. أرفعُ عملائنا في خطرٍ بسببِ التسريبات. أولاً سنغافورة، والآن هذا.» رأى ريم أنَّ المديرَ يمسكُ بملاحظةٍ في يده، يحركُها ببطءٍ ذهابًا وإيابًا على الطاولة.

عدّل ريم وضعيةَ جلوسِه. بدأ يتساءلُ عما إذا كان المدير —أو حتى الرئيسُ نفسه— قد زلَّ لسانُه وكشفَ عن هويةِ دكتور "ب" أمام غوليكوف قبل أحداثِ سنغافورة. لكنَّ هذا أمرٌ لا يمكنُ قولُه بصوتٍ عالٍ، ناهيك عن التحقيقِ فيه. ومن هذه البداية، لم يستطع ريم تخمينَ كيف سارَ الاجتماعُ الذي عقده المديرُ ذلك الصباحَ مع الرئيس. هل يبحثون عن كبشِ فداء؟ أم يريدون حلَّ المشكلة؟

قال ريم:

– «أنا أتفقُ معك. ولو كان بإمكاني العودةُ وتصحيحُ الأمر، لأطلقتُ النارَ على صامويل جوزيف. ولكن بما أنَّ الأمرَ قد وقع، فلا يمكننا ذلك، ولهذا اقترحتُ إطلاقَ النارِ عليه وعلى صديقتِه الآن.»

– «لكنك توصي بالبدءِ بالصديقة، أليس كذلك؟»

– «نعم.»

– «ولماذا؟»

– «لأنها الوحيدةُ القادرةُ على تجميعِ خيوطِ اللعبةِ بالكامل.»

لمعت عينا المديرِ بالمرح، وحرك الملاحظةَ مرةً أخرى على الطاولةِ قبل أن يدفعَ بها نحو ريم، الذي ارتدى نظاراتِ القراءةِ الخاصةَ به. كانت الهوامشُ فارغة، ولم يكن هناك توقيع، والفقراتُ القليلةُ التي صاغها ريم والمديرُ معًا كانت تفتقرُ إلى أيِّ تعديل، وهو أمرٌ يثيرُ الجنون.

عندما رفعَ رأسَه، وجد المديرَ قد عقدَ ذراعيهِ فوق صدره.

قال المدير:

– «الرئيسُ لم يؤشرْ عليها، ناهيك عن توقيعها. خضنا حديثًا عامًا جدًا حول قواعدِ اللعبةِ مع أصدقائنا الأمريكيين في الوقتِ الراهن، وعن التحولِ الهجومي الذي سيمثلُه هذا الإجراءُ على أراضيهم. الرئيسُ حريصٌ على فعلِ ما هو مطلوبٌ من أجلِ دكتور "ب"، فهو يدركُ المخاطرَ الجسيمةَ التي تهددُ "أهمَّ عميلٍ أمريكيٍّ لنا" — هذه كلماتُه يا ريم، وأنت تعلمُ أنه يقرأُ كلَّ قصاصةِ معلوماتٍ يقدمُها الدكتور ببراعة— ولكن عندما وضعتُ المذكرةَ بين يديه، اكتفى بأَخذِها وقراءتِها ثم أعادَها إليّ. لم يقل نعم.. ولم يحرك حتى برأسه.»

زمجر ريم، ونفضَ ربطةَ عنقهِ فوق قميصه، ثم عقدَ ذراعيهِ هو الآخر، محاكيًا وضعيةَ المدير.

وسأل:

– «ولكن، هل قال "لا"؟»

الفصل الرابع والعشرون

موسكو

ألقى ريم قرص «ألكا سيلتزر» في كأسه وراقب غينادي وهو يجري دورية أمام أرفف الكتب. تلميذه السابق أصبح الآن جنرالًا أيضًا، ورئيس «المديرية س» (S) للمهاجرين غير الشرعيين، لأن ريم كان في سن أصبح فيها كل أصدقائه وأعدائه القدامى هم من يديرون المكان. على عكس ريم، ترقق شعر غينادي مع تقدمه في العمر. قمصانه كانت دائمًا غير مدسوسة، وشعره منكوشاً. كان قد فكر في متابعة مهنة أكاديمية قبل الانضمام لـ «الغابة»، ولا يزال يحمل التفضيلات الملبسية لرجل جامعي.

أخذ غينادي أول رشفات مترددة من شايه وهو يتجول بمحاذاة الأرفف، ماسحًا العناوين بمتعة خفيفة.

قال وهو يلتقط كتابًا عن تاريخ الولايات المتحدة من أحد الأرفف:

– «مختاراتك الشعرية تتضاءل يا ريم.. مكتبتك أصبحت عملية أكثر من اللازم».

– «وأنا أصبحت عجوزًا يا غينادي. هناك علاقة ترابطية».

– «ألسنا جميعًا كذلك».

مكتب ريم كان فسيحًا لكنه متقشف. مكتبه استخدمه لينين لموسم واحد خلال الحرب الأهلية، لكن بخلاف ذلك كان الأثاث بلا روح: طاولة دائرية، كراسي، وأريكة متعبة تمتد بمحاذاة النافذة يستخدمها بشكل أساسي لتخزين الكتب. الأرفف المبطنة لمساحة الجدار المتاحة كانت تئن تحت وطأتها. لقد بلغ سعته القصوى منذ زمن بعيد.

قال غينادي وهو يفتح مذكرات كتبها جورج تينيت، مدير سابق للـ CIA:

– «ماذا تقرأ هذه الأيام إذًا؟».

عدل ريم جلسته في كرسيه. التهاب مفاصله ازداد سوءًا مع مرور اليوم. شعر بالهشاشة والألم وهو يرتدي بدلته؛ والآن عظامه تصر لمجرد الجلوس ساكنًا.

قال ريم:

– «ملفات قضاياك».

قال غينادي وهو يعيد الكتاب للرف وينضم لـ ريم على الطاولة:

– «فهمت.. هل هناك مشكلة؟».

نخع حلقه.

– «لا، لا. لا شيء من هذا القبيل. أحتاج لإدارة بعض الأعمال السوداء. وأبحث عن مواصفات معينة».

– «ولا تريد استخدام وحدة فيمبل[25](Vympel)...».

زمجر ريم وهو يلوح بيده في الهواء:

– «أوه، أنت تعرف كيف ستسير الأمور.. ستكون أصداءً لتحضيرات سنغافورة. حفنة من الاجتماعات اللعينة لتحديد من سيفعلها: نحن أم "أبناء العمومة (أي الـFSB) " أم، الله ينجينا، الخفافيش في "حوض السمك" (مقر الاستخبارات العسكرية GRU). هذه المرة سنضيع أسابيع في اجتماعات سخيفة وحدها. كم من الوقت سيستغرق، إذًا، تسريب فريق إلى الولايات المتحدة دون الاضطرار للعمل من خلال رجال العصابات والكارتلات؟ هذا وقت لا نملكه. وفي النهاية، على أية حال، نخاطر بمهرجان تهريجي كالذي رأيناه في سالزبوري، وفي بلغاريا، وفي الفوضى مع نافالني. أفهم أن التحذير والمسرحية أحيانًا هما الهدف، لكن ليس هنا. لا أحتاج لسم في ملابس أحدهم الداخلية. أحتاج لحل مشكلة».

---

[25] فيمبل (*Vympel*): وحدة نخبة سرية من المقاتلين (سبيتسناز) تابعة للأمن الفيدرالي الروسي، متخصصة في التخريب خلف خطوط العدو، مكافحة الإرهاب، وحماية المنشآت الاستراتيجية.

سأل غينادي:

– «هل وجدت أيًا من قضاياي مثيرًا للاهتمام؟».

قال ريم:

– «ميكي و ميني.. متطوعاك الأمريكيان، الوطنيان اللذان اكتشفناهما عبر الإنترنت قبل استمالتهما في الواقع».

قال غينادي بجمود:

– «لم يقوما بعمل أسود من قبل قط».

– «ملفهما يقول عكس ذلك».

قاطعه غينادي:

– «لقد تصرفا بشكل مستقل.. هي تصرفت بشكل مستقل. لم نطلب منها فعل ذلك».

قال ريم:

– «حسنًا، في كل الأحوال.. يبدوان متحمسين. النوع الذي قد يقول نعم».

كان غينادي يحدق عبر أرفف الكتب خلف ريم.

– «وكما رأيت بلا شك في الملاحظات، القضية لم تتقدم كثيرًا لأننا، بصراحة تامة، لسنا واثقين مما نفعله بهما. وصولهما.. هامشي».

قال ريم:

– «والمرأة...».

نظر غينادي للأعلى، وكأن الوصف المراوغ يكمن في السقف. حين واتته الكلمات، انفرجت شفتاه عن ابتسامة رقيقة.

– «وطنية ناشئة».

ضحك ريم.

– «شجرة الحرية يجب أن تُروى من وقت لآخر بدم الوطنيين، إذا جاز لي اقتباس قول جيفرسون[26] الخاص بهم. الوطنية المتحمسة هي بالضبط ما نحتاجه».

قال غينادي:

– «والطغاة.. السيد جيفرسون شعر أيضًا أن دماءهم مطلوبة».

– «حسنًا، بناءً على ملفاتك، أراهن أن ميكي و ميني وطنيان بما يكفي. لا ينبغي أن تكون هناك حاجة لمثل هذا الإفراط. دماء الوطنيين، يجب أن تكون كافية».

سأل غينادي بابتسامة رقيقة، وعيناه تعودان من السقف:

– «لقطات الأمن في الملف يا ريم.. هل شاهدتها بالفعل؟».

حسه الأكاديمي، كما فكر ريم، جعل غينادي أحيانًا يبدو قلقًا، مترددًا، وسلبيًا.

قال ريم:

– «لا يا صديقي، قرأت الملخص فقط.. أنا رجل عجوز. النوم صعب بما يكفي بالفعل».

***

لقد مر عقد على الأقل منذ سهر ريم طوال الليل للتخطيط لعملية. في طريق العودة من ليفرتوفو غفا في المقعد الخلفي واستيقظ، برأس ثقيل، على ارتجاج فرملة السائق خارج شقته في خاموفنيكي. كانت نينيل على طاولة المطبخ بروبها، وشعرها الرمادي المبلل مرفوع في منشفة، ترشف الشاي بينما تقرأ مجلة. المطبخ تفوح منه رائحة الخبز المحمص المحروق وشامبو شعرها.

---

[26] يقصد به توماس جيفرسون، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة صاحب عبارة " *The tree of liberty must be refreshed from time to time with the blood of patriots*" شجرة الحرية يجب أن تُروى من وقت لآخر بدم الوطنيين .

وقفت، وطبعت قبلة على جبهته ووضعت الماء للشاي. ألقى ريم سترة بدلته فوق أريكة في غرفة المعيشة وحدق للحظة في العدد الفاحش للمكالمات الفائتة على هاتفه. أطفأه. كان بحاجة لبضع ساعات من الراحة. كان يجب أن يكون قادرًا على التفكير. تلك هي ميزته الوحيدة. انضم لـ نينيل على الطاولة، حيث كانت تنقع شايه.

قالت:

– «بعض الخبز المحمص يا عزيزي؟ أو سمك رنجة (Selyodka)؟ دعني أجهز لك شيئًا».

– «لا، شكرًا يا حبيبتي.. شاي فقط. أنا متعب جدًا لآكل».

جلسا لفترة طويلة في صمت مؤنس.

قالت:

– «أنا فخورة بك يا ريم.. هل تشعر بالفخر؟».

– «أشعر بالإرهاق».

– «لا تكن ساخرًا. لم تعد وسيمًا، لذا لا يمكنك أن تكون ساخرًا. الآن يجب أن تكون لطيفًا، ورقيقًا، ومراعيًا لتشد انتباهي».

رشف شايه بابتسامة تتسع.

– «لا أزال وسيمًا جدًا، كما قيل لي».

قوست نينيل أحد حاجبيها المرسومين ونخرت، وفمها ينحني في ابتسامة ملتوية. ممسكة بكوب الشاي بيديها، ثبتته بنظرة صارمة:

– «لا يليق بك الغرور يا ريم. لم يلِق بك أبدًا».

تثاءب.

– «مظهري هو ترفي الوحيد يا نينيل.. سايريني».

قلبت عينيها وقالت:

– «كنت سأفعل، لكن تلك البدلة المجعدة تقول عكس ذلك. ماذا كنت تفعل طوال الليل؟ هل يجب أن أغار، نظرًا لمدى وسامتك المزعومة؟».

وجد شهيته؛ تحرك ببطء ووقف عند المنضدة، حيث أسقط الخبز في المحمصة.

– «كل الفتيات الصغيرات اللواتي ساعدنني في التخطيط للعملية كنّ قبيحات وغبيات».

ابتسمت نينيل، ممتنعة بكرم عن تذكيره بأنه عبر السنين كانت خياناتهما المتعددة تشترك في شيء واحد: سواء كن في العشرين أو الخمسين، اللقاءات كانت تحدث مع عشاق في مثل سنهما. الشباب لم يكن بالضرورة شيئًا يُخشى منه أكثر من الكبار، على الأقل حين يتعلق الأمر بسرير زواج آل زوموف. وهي لا تزال تبتسم، فتحت نينيل مجلتها وقلبت الصفحات بكسل، تاركة المحادثة تخبو.

أكل ريم إفطاره وأنهى كوبًا آخر من الشاي. تصفحت نينيل مجلتها بلامبالاة مرحة. مع كل قلبه عارضة لصفحة، استشعر ريم أن لديها أشياء لتقولها لكنها تمسك لسانها.

قال:

– «قوليها يا حبيبتي.. أخبريني».

صُفقت المجلة لتغلق. تفرسته بتفكير لبضع ثوانٍ ذات مغزى.

– «إيطاليا كانت ممتعة جدًا. وهل تعرف لماذا؟».

– «المعكرونة».

– «لأن كل شيء كان أمامنا».

– «للشباب تلك الميزة».

– «ستشعر بالملل حين لا يستدعونك بعيدًا في وقت متأخر من الليل.. أخشى عليك ذلك الملل. سيجعلك لا تُطاق أكثر. ستصبح رجلًا عجوزًا نكدًا وسريع الغضب ينتظر بجانب الهاتف ليتصل الصغار ويطلبوا نصيحته».

– «يمكن أن يكون الأمر أسوأ.. تخيلي لو لم يرغب أحد في الاتصال».

– «أتطلع لذلك اليوم».

– «سأجد هواية حين يطردونني».

ضحكت.

– «مثل ماذا؟».

– «الشرب».

– «لم تشرب منذ ولد بيوتر. أنت لست جيدًا جدًا في الشرب».

– «ربما النجارة، إذًا؟ سأصنع لكِ كرسيًا هزازًا».

– «ستقطع أصابعك بالمنشار يا ريم. وحينها سأضطر لتغيير حفاضاتك. لا، لا، هذا لن ينفع. أعتقد أن الوقت تأخر على الهوايات».

عادت لمجلتها. أنهى خبزه المحمص، ووضع الطبق في غسالة الصحون، وحين التقط سترة البدلة من الأريكة استشعر وجودها خلفه. التفت إليها. قبلت جبهته وأخذت السترة من يديه. استلقى لقيلولة على الأريكة، ضابطًا المنبه لثلاث ساعات ليتمكن من العودة لـ «الغابة» بحلول وقت الغداء. غفا على مشهد نينيل وهي تكوي سترة البدلة. كانت تصفر لحن أغنية لم يعرفها.

الفصل الخامس والعشرون

غيتيسبرغ، بنسلفانيا

كان منزلُ بيترا ديفاين رابضًا في أحضانِ غابةِ صنوبرٍ خارج غيتيسبرغ، حيث كانت رماحُ الشمسِ الضعيفةِ تتسللُ عبر الأشجارِ لتلامسَ التراب. كان الفناءُ مفروشًا بإبرِ الصنوبر، بينما بدا ممرُّ السياراتِ وكأنه حقلُ ألغامٍ من مخاريطِ الثمارِ المتساقطة. تألفَ المنزلُ من طابقٍ واحدٍ بُنيَ من الخشب، وازدانَ بعلمٍ أمريكيٍّ يتدلى من ساريةٍ ممتدةٍ من السقف. طرقت بروكتر البابَ ثلاثَ مراتٍ ثم تراجعت خطوةً إلى الوراء. انطلقت الكلابُ في نباحٍ متواصلٍ لفترة، ثم طرقت ثانيةً، فسمعت صراخَ بيترا يختلطُ بنباحِ الكلاب. انفتحَ البابُ شقًا صغيرًا، بينما ظلَّ قفلُ السلسلةِ في مكانه. وكما توقعت بروكتر تمامًا — وهو ما جعلها تؤجلُ هذه الزيارةَ قدرَ الإمكان— واجهت بيترا ابتسامتَها الباهتةَ بعبوسٍ حادٍّ تحولَ سريعًا إلى نظرةِ اشمئزازٍ مطلقة.

سألتها:

– «أرسلوكِ أنتِ؟ ولأيِّ غرض؟»

أجابتها:

– «لأقتلكِ.»

هاجت الكلابُ بالنباحِ مجددًا، وإن لم يجرؤ إلا واحدٌ منها على حشرِ أنفهِ عبر شقِّ الباب؛ كلبُ «وينر» صغيرٌ ذو شعرٍ كثيف، يَنبحُ بنبرةٍ لجوجةٍ تشبهُ نبرةَ صاحبتِه. صاحت به بيترا بالهولندية:

– «بليف! بليف!» (ابقَ مكانك).

كان البابُ لا يزالُ مفتوحًا على قدرِ شبر، ومع ذلك لم تكن تلك السلسلةُ لتصمدَ لو قررت بروكتر دفعَ البابِ بكتفها.

قالت بيترا بعد أن هدأت الكلابُ أخيرًا:

– «لقد أخبرتُ أولئك المهرجين في يومي الأخير، أنهم لو أرادوا قتلي، فعليهم أن يستأجروا "جيغولو" (أي:زير نساء) وسيمًا لهذه المهمة؛ ليرسلني إلى العالمِ الآخرِ مستمتعةً وبأناقة. وبدلاً من ذلك، أرسلوكِ أنتِ.»

علقت بروكتر:

– «يمكنني أن أرتقيَ لمستوى التحدي يا عزيزتي.. فلا تختبري صبري. (مدت يدها نحو الكلبِ الذي يختلسُ النظرَ من شقِّ الباب، فشمَّها ثم تراجعَ إلى الداخل). ولا أستطيعُ القولَ إنهم هم من أرسلوني؛ فهذه الزيارةُ غيرُ رسميةٍ إلى حدٍّ ما، من النوعِ الذي قد يجهلُه كبارُ القادة.»

قالت بيترا باستفزاز:

– «سمعتُ أنكِ هربتِ من المدينة.»

– «نقلتُ مواهبي إلى فلوريدا. أنا الآن رئيسةُ العملياتِ في مكانٍ يُدعى "غاتورفيل"؛ ثالثُ أكبرِ متنزهٍ ترفيهيٍّ للتماسيحِ في وسطِ فلوريدا، إن كنتِ تصدقين ذلك.»

– «ألم يرسلوكِ حقًا؟ لا غاس؟ ولا ثيو؟ ولا ماك؟ أو ربما تلك الحيزبون الموبوءة ديبورا سويت؟ هل تِقسمين على ذلك؟»

– «تباً يا بيترا! هل ترينني آتيكِ دون سابقِ إنذارٍ بسروالِ دراجاتٍ وقبعةِ بيسبول، وتظنين أنهم هم من أرسلوني؟»

انفجرت بيترا بضحكةٍ خشنةٍ وقالت:

– «لطالما كنتِ فتاةً لئيمة.» ثم فتحت البابَ على مِصراعيْه.

***

ظلت الكلابُ تضايقُهما لعشرِ دقائقَ كاملة؛ بيترا تصرخُ فيها بالهولندية، وبروكتر تدفعُها بعيدًا، ولم يحلَّ السلامُ إلا حين لمحت الكلابُ بضعةَ سناجبَ تقفزُ على جذوعِ الصنوبرِ خارج غرفةِ المعيشة، فوجهت طاقتَها نحو النافذة.

أعدت بيترا شرابَ الليمون ووضعت طبقًا من بسكويتِ الشاي على طاولةِ القهوة، فاختطفت كلابُ الـ «وينر» نصفَه تقريبًا قبل أن تُطردَ بوابلٍ من الشتائمِ الهولندية، التي يبدو أنها اعتادت عليها، أو ربما لم تعد تؤثرُ فيها.

كانت صورُ زوجِ بيترا الراحلِ ومغامراتِهما الخارجيةِ تملأُ الطاولاتِ والجدران: هلسنكي، عمان، بيروت، باريس، لندن. لقد نالت الجنسيةَ بعد زواجِها من تشيستر. تذكرت بروكتر قولَ ثيو ذات مرة: «عادةً ما يصنعُ الهولنديون أشياءَ لطيفة، ولكن بيترا؟ كلُّ السمعةِ الطيبةِ المرتبطةِ بالزهورِ والجبنِ والأحذيةِ الخشبيةِ الأنيقةِ تلاشت بفضلِ تصديرِ مطاردةِ جواسيسَ مختلةٍ مثلها.»

كانت المرأةُ ترتدي سترةً سوداءَ فوق فستانٍ صوفيٍّ أحمرَ واسعٍ يصلُ إلى الكاحلين. وعندما استقرت الكلابُ أخيرًا، ارتمت في كرسيٍّ مريحٍ ووضعت يديها فوق بطنِها الممتلئ. وضعت بروكتر كأسَ الليمونِ على مفرشٍ صغيرٍ ومررت لسانَها فوق أسنانِها لتذيبَ ذراتِ السكر؛ فقد أصرت بيترا على شربِ شيءٍ "باردٍ ومنعش"، لكنها بخلت في كميةِ الماء، فأصبحَ فمُ بروكتر جافًا كشاطئٍ رمليٍّ ملعون. ظهرت السناجبُ مجددًا خارج النافذة، وارتشفت المرأتانِ شرابَهما لدقائقَ وهما تنصتانِ إلى جنونِ الكلاب.

قالت بيترا وهي تقرضُ السكرَ بعد أن هدأت الكلاب:

– «إذن؟»

قالت بروكتر:

– «أحتاجُ مساعدتَكِ. لقد كنتُ أفكرُ في بعضِ الأمورِ المتعلقةِ بسنغافورة. لا يزالُ الأمرُ يؤرقني، لأسبابٍ واضحة.»

بدأت بيترا تشدُّ أصابعَها المكتنزةَ وقالت:

– «هممم.. رحلةٌ في زقاقِ الذاكرةِ المظلم؟»

– «بالضبط. هل تمانعين في مرافقتي؟»

– «لطالما كرهتُ القصصَ ذاتِ النهاياتِ السعيدة؛ لذا تفضلي، قولي ما عندكِ.»

كانت الشمسُ تقتربُ من الأفقِ بمسافةِ ساعةٍ تقريبًا، وبدأ المنزلُ يتحولُ إلى بئرٍ من الظلال. أشعلت بروكتر مصباحًا بجوارِ الأريكة.

– «لقد تطلبَ الأمرُ جرأةً كبيرةً من فريقٍ روسيٍّ لاقتحامِ غرفةِ فندقِ سام. هذا ليس من أسلوبِهم المعتاد، ناهيك عن الاختطافِ والتهريبِ والتحقيقِ الطويل. أعلمُ أنَّ لدينا تقاريرَ تقولُ إنَّ كلَّ ذلك كان خطأً، ولكن لماذا يتكبدون كلَّ هذا العناء؟ ويخاطرون بكلِّ هذا؟ ما رأيكِ في ذلك، وقولي الحق؟»

– «لا يوجدُ إلهٌ لنقسمَ به يا أرتميس، هناك فقط السكونُ الأسودُ البارد.»

– «حسناً، أقسمي بهذا السكونِ الأسودِ البارد.»

– «رأيي أنَّ غوليكوف كان سيخبرنا أنَّ لدينا مشكلةً كبيرة؛ اختراق. جاسوسٌ مندسٌّ داخل الوكالة. لكنها مجردُ نظرية، لا أكثر.»

تصلبَ جسدُ بيترا وهي تتحدث. نظرتُها التي كانت تائهةً استقرت فجأةً في عيني بروكتر لبضعِ ثوانٍ مشحونةٍ قبل أن تنتقلَ إلى كأسِ الليمون. كانت بيترا قد ذكرت شيئاً مشابهاً خلال الإيجازِ الذي قُدِّم لـ غوسفورد قبل شهور، صبيحةَ يومِ سنغافورة، لكنَّ كلامَها حينها افتقرَ للتفاصيل، واكتفت بذكرِ "مشاكل كبيرة" غامضة.

– «وهي لا تتعدى كونَها نظرية؟»

– «هذا ما قلتُه للتو يا أرتميس.»

– «وهل أحرزَ فريقُكِ "الجلدية" أيَّ تقدمٍ بعد طردي؟»

– «حسنًا، لم نعقد أيَّ اجتماعٍ آخرَ مع غوسفورد أو تلك الحيزبون ديبورا سويت. لم يرغبوا في سماعِ كلمةٍ واحدةٍ عن مطاردةِ جواسيس، بل لم يفكروا حتى في الاحتمال. كلُّ ما كان يهمُّ هاتينِ "العاهرتين" —بالمعنى المهني— هو مستقبلهما الوظيفي. أوه، كانت لدينا "المصفوفة" التحليلية بالطبع؛ فحصنا كلَّ قصاصةِ معلومات، وأبرزنا كلَّ شذوذٍ في التقارير. لكنكِ تعرفين كيف تسيرُ الأمور؛ هذه الأشياءُ غيرُ حاسمةٍ ومرهقة. ينتهي بكِ المطافُ بعدةِ نظرياتٍ تتناسبُ مع الحقائق؛ ما يعني أنني لم أملكِ الحقائقَ الصحيحة، أو على الأقل ليس كلَّها.»

سألتها:

– «وهل كنتُ أنا جزءًا من هذه النظريات؟»

ضحكت بيترا ضحكةً مجلجلة:

– «حسنًا، لقد كنتِ في رأسِ القائمة. وأستطيعُ القولَ إنكِ تراجعتِ بضعةَ مراكزَ منذ أن فقدتِ أعصابكِ عند طاولةِ المديرِ أثناء طردك. وربما تراجعتِ أكثرَ بعد مجيئكِ هنا الليلةَ لتسألي عن الجواسيس.»

– «ربما جئتُ لأعرفَ ما تملكين قبل أن أصفيَكِ. لقد أخبرتُكِ أنني هنا لأقتلكِ.»

ضحكت بيترا مجددًا وقالت:

– «لا، لا.. أخشى أنَّ الأمرَ واضحٌ جداً، لستِ هنا من أجلِ ذلك. لقد كنتِ تكرهينني بشدةٍ حين كنا في العمل، ولو كنتِ تنوين قتلي، لما أطلتِ الحديثَ هكذا مع شرابِ الليمون. لكنتِ قد حشرتِ بندقيتَكِ الموثوقةَ في فمي بمجردِ أن فتحتُ الباب، ولطختِ جدراني بدمائي.. بسرعةٍ ونظافة.»

– «ربما كنتُ سأستخدمُ المضرب.. بمجردِ أن تسمحي لي بالدخول.»

– «أوه، حينها كانت الكلابُ ستقتلكِ.» قالتها بيترا وانفجرت ضاحكة.

ألقى المصباحُ وهجًا دافئًا على وجهِ بيترا المترهل. كانت تعبثُ بشعرِها المصففِ لدرجةِ أنه مالَ عن مركزه؛ فكرت بروكتر: ربما هو شعرٌ مستعار.

سألت بروكتر:

– «بيترا، من كان في قائمتكِ القصيرة؟»

رمقتها بيترا بنظرةٍ لئيمة. لم تكن هذه النظرةُ غريبةً عليها، لكنَّ هذه المرة كانت مختلفة؛ خاليةً من أيِّ مَرَح، وباردةً بشكلٍ وحشي. كانت نظرةً تقول: «لقد تجاوزتِ الحدود». وسادَ بينهما صمتٌ قصيرٌ وثقيل.

قالت بيترا وهي تشدُّ شفتَها السفلية وتغمضُ عينيها لتوجهَ الحديثَ نحو مسارٍ جديد:

– «لو كان هناك اختراق، فمن المؤكدِ أنه يُدارُ من "القسم الخاص" التابعِ للاستخباراتِ الخارجية؛ مكتب ريم زوموف. ذلك الاسم.. (ضحكت

قليلاً).. "ريم" (REM). إنه اختصارٌ للعبارةِ الروسية "ريفولوتسكي مير" (revolutsky mir).. "الثورة العالمية". مكتبُه هو مأوى المؤمنين الحقيقيين، المتعصبين. وهو مكتبٌ يسيرُ على الطرازِ القديم، قلباً وقالباً. وإن كنتُ أتساءلُ كيف حالُ هؤلاءِ المتعصبين في شيخوختِهم؛ لعلَّ حدتَهم قد فترت، أو ربما طغت عليهم مجموعةٌ من الشبابِ المندفعين فأصبحوا مجردَ ذكرى تثيرُ الشفقة. زوموف ليس سوى همس.. مجردُ ظل. نحن نعرفُ عنه القليلَ جداً.»

قالت بروكتر:

– «زوجتُه تملكُ اسماً عجيباً أيضاً، إن لم تخنّي الذاكرة.»

– «نينيل.. (ضحكت بيترا).. إنه اسم "لينين" مكتوبًا بالعكس.»

– «ذكريني، من أين سمعنا عن زوموف؟ وعن مجموعته؟»

فتحت بيترا عينيها فجأةً وقالت:

– «أوه، نعم.. يعودُ الفضلُ في ذلك لـ العميل إمبريال (IMPERIAL).»

شخرت بروكتر بتهكم:

– «تباً! ذلك الفاسق؟»

– «إنه رجلٌ غارقٌ في الملذاتِ ومصدرُ إزعاجٍ هائل، ولكن إمبريال كان يملكُ وصولاً لا يُعلى عليه قبل انشقاقه. لفترةٍ من الوقت، كان هو جذرنا الذي يمتدُّ عميقاً داخل الـ كرملين.»

– «وأين أُعيدَ توطينُه على أيِّ حال؟»

– «في أكثرِ المدنِ أمريكية: لاس فيغاس. بعد تقاعدهِ من روسيا ومن الجاسوسية، اختار إمبريال بذكاءٍ مكاناً يمكنه فيه القمارُ والشربُ وممارسةُ الرذيلةِ حتى الموت.»

نهضت بيترا وتمتمت بشيءٍ عن إطعامِ الكلاب. وعندما عادت إلى غرفةِ المعيشة، وجدت بروكتر تداعبُ رأسَ أحدِ الكلاب، الذي انسحبَ إلى حضنِ بيترا بزمجرةٍ منخفضة.

قالت بروكتر:

– «زوموف، زوموف، زوموف.. يبدو أنني أتذكرُ ملفاً كنتِ تحتفظين به عن الخصم، عن الروس الذين كانوا يحاولون تحطيمنا وتجنيدَنا واختراقَ "لانغلي". لقد قضيتِ وقتاً طويلاً في هذه "اللعبة"، وكنتِ غارقةً في الصراع، لدرجةِ أنني تساءلتُ عما إذا كان هذا الملفُّ قد رافقكِ في رحلتكِ إلى هنا بعد التقاعد. مجردُ تذكارٍ بسيط، لا أدري..»

– «حيازةُ مثلِ هذه الموادِ تُعدُّ عملاً غيرَ قانوني، أليس كذلك؟»

– «بالتأكيد يا عزيزتي، ولكنني مرشحةٌ مستبعدةٌ جداً لأكونَ طُعماً للإيقاعِ بكِ لانتزاعِ اعترافٍ كهذا، أليس كذلك؟ هل تظنين أنهم سيرسلون "أرتميس" إلى هنا لتحطيمَكِ من أجلِ صندوقٍ من الذكريات؟»

قالت بيترا بنبرةٍ حازمة:

– «كانوا سيرسلون الـ "جيغولو" من أجلِ ذلك.»

– «الآن أصبتِ الحقيقة.»

طردت بيترا الكلبَ من حضنِها ونهضت من الأريكةِ بصعوبة، وهي تتأوهُ من الألم.

قالت:

– «اذهبي إلى المرآبِ وأحضري أحدَ المجارف. ستجدين طارداً للحشراتِ على الرفِّ بجوارِ الباب، ستحتاجين إليه.»

***

لم يغنِ رذاذُ طاردِ الحشراتِ شيئاً؛ فقد نهشَ البعوضُ ساقي بروكتر حين وصلتا إلى دغلِ الأشجارِ خلفَ المنزل. كانت المرأةُ تتقدمُ بالمصباحِ اليدوي، وخلفَها كلابُ الـ «وينر» الثلاثةُ تنسلُّ بين الأعشاب، بينما كانت بروكتر تتبعُ الكلابَ والمجرفةُ على كتفِها، وهي تصفّرُ ألحاناً مسرحية.

هست بيترا بحدة وهي تزيحُ غصناً من طريقِها:

– «توقفي عن ذلك.. هذا لا يُطاق.»

وسرعان ما وصلتا إلى فجوةٍ في الغابة، بها مقعدٌ متهالكٌ وشاهدُ قبر. حدقت بروكتر في الاسمِ تحت ضوءِ القمرِ الباهت.

– «تشيستر مدفونٌ هنا؟ يا للهول!»

– «أوه، كُفي عن هذا. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ هل أرسلُ المسكينَ تشيستر إلى مقبرةٍ ملعونةٍ في أطرافِ المدينة، بمواعيدِ زيارةٍ يحددُها حارسُ أمنٍ أبله؟ هل أدفعُ ثمنَ قطعةِ أرضٍ ونحن نملكُ أرضنا؟ لقد وافقَ هو على ذلك؛ أراد أن يكونَ قريباً مني، قريباً من المنزل. أنا لا أغمضُ عيني عن الحقيقة؛ فالموتُ يحيطُ بنا من كلِّ جانبٍ يا أرتميس، فلماذا نخفيه؟»

توقفت بروكتر، في لحظةِ صمتٍ نادرة، ونظرت إلى شاهدِ القبر، ثم إلى المجرفة.

سألت: «ليس هو..؟»

– «لا تكوني سخيفةً يا أرتميس، لقد دفنتُهم هنا.»

كانت بيترا تنقرُ بقدمِها فوق أعشابِ الصنوبر. استقبلَ المقعدُ جسدَ بيترا بصريرٍ عالٍ، فسلطت شعاعَ الضوءِ على قطعةِ طوب.

سألت بروكتر:

– «ألن تساعديني؟»

– «لم تحضري معكِ سوى مجرفةٍ واحدةٍ أيتها اللعينة.»

بعد بضعِ دقائق، اصطدمت بروكتر بشيءٍ صلب، وبعد فترة، وتحت أنظارِ بيترا التي كانت تراقبها بمتعةٍ واضحة، أخرجت حقيبةً من طراز «بيليكان» ملفوفةً في كيسٍ كبير. نزعت بيترا الكيسَ وفتحت الحقيبةَ وبدأت في فرزِ محتوياتها. لاحظت بروكتر شهاداتِ تقديرٍ سريةً من مديرين سابقين، وصورَ مراقبةٍ باهتة، وبضعَ قصاصاتٍ ورقيةٍ من معلوماتِ الاستخباراتِ الإشارية (SIGINT). تمتمت بيترا: «ذكرياتي»، رغم أنَّ بروكتر لم تسأل.

قالت وهي تدفعُ بتقريرٍ إلى يدِ بروكتر: «هذا التقريرُ هو المفضلُ لدي».

أوضحت أنَّ بوتين ذكرَ اسمَ بيترا صراحةً في مكالمةٍ هاتفيةٍ اعترضتْها وكالةُ الأمنِ القومي. قرأت بروكتر النص؛ كان ذكرُ بيترا مقتضباً، وعابراً، وبذيئاً للغاية. انفجرت المرأةُ بضحكةٍ صاخبةٍ وحشرت التقريرَ في الحقيبةِ مجدداً.

وقالت: «حيواناتٌ روسية.. وحشيون بقدرِ ما هم منحرفون. آه، ها هو ذا..»

أمسكت بيترا بمجلدٍ محشوٍّ بالوثائق، تبرزُ منه بضعُ صورٍ بشكلٍ عشوائي. كُتب عليه بالحبر: «SVR S.S» (القسم الخاص في الاستخبارات الخارجية).

أمسكت بيترا بمعصمِ بروكتر لتنهض، وشددت قبضتَها ولم تتركْها.

قالت: «يمكنكِ قراءتُه تحت ثلاثةِ شروط: أولاً، تعطيني هاتفكِ؛ لا تصويرَ ولا كتابة. ثانياً، سأغلقُ عليكِ المكتبَ في غرفةِ دراسةِ تشيستر وسأخرجُكِ في الصباح. وثالثاً، لو أخبرتِ أحداً عن هذا المخزنِ الصغير، فسأرسلُ من يبحثُ عنكِ. هناك الكثيرُ من الفتيانِ خارج غيتيسبرغ يعشقون المخدرات، والمالُ لا يكفيهم أبداً؛ وأنا واثقةٌ أنهم سيكونون مستعدين لإسكاتِ لسانكِ لو كان الثمنُ مجزياً.»

أفلتت بروكتر معصمَها بابتسامةٍ باهتةٍ ودست هاتفَها في جيبِ سترةِ بيترا، وأكدت ذلك بلمسةٍ خفيفة.

وقالت: «لا أريدُ مدمني مخدرات.. أريدُ ذلك الـ "جيغولو" المثيرَ ليقضيَ عليّ؛ نفسُ الذي طلبتِه لنفسكِ.»

***

كانت الكتبُ مكدسةً في أرجاءِ غرفةِ دراسةِ تشيستر: تاريخٌ عسكري، رواياتُ جاسوسية، مجلاتٌ أكاديمية، وقصصُ تحرٍّ بوليسيةٍ خشنة. وكان هناك أيضاً رفٌّ يحتوي على قصصٍ إباحيةٍ نشرَها تشيستر ذاتياً، سمعت عنها بروكتر شائعاتٍ ولكنها لم ترهَا قط. كانت العناوينُ وحدَها تجعلُها تتمنى لو عرفت تشيستر قبل وفاته: «تطبيبات السيد الدكتور بندقية الملاحة»، و«السيدة ريتا نُوكَر»، و«دي فلاورز ينال نصيبه».

قلبت بروكتر بضعَ صفحاتٍ من كتابِ «دي فلاورز» بحثاً عن أيِّ خيوطٍ حول هويتِهِ وكيفيةِ الحصولِ عليه —كانت لديها شكوك— ولكنَّ الوقتَ بدأ

يتأخر. فردت ملفاتِ بيترا تحت الوهجِ الأخضرِ لمصباحِ المكتب، بدأت بمجلدٍ مكتوبٍ عليه «الخصم».

بدافعِ ما تخيلتْه بروكتر احتراماً مشوباً بالحقدِ والكرهِ تجاهَ الفريقِ الروسي الذي يحاولُ تحطيمَ الوكالة، كانت بيترا قد هربت ذكرياتٍ عن معذبيها خارجَ المبنى. كان هناك ملفٌّ شخصيٌّ عن زوموف صاغتْه بنفسِها، بمصادرَ تعودُ إلى الثمانينيات، حين انضمَّ إلى الجهاز (KGB). وكانت هناك سيرٌ ذاتيةٌ غيرُ مكتملةٍ لمساعدي زوموف، ومجموعةٌ من الصورِ الباهتةِ لرفاقه المعروفين، ونصٌّ جلسةِ استجوابِ بيترا لـ إمبريال، مع تحديدِ الأجزاء التي تشيرُ إلى «القسم الخاص». راجعت بروكتر مسودةَ قائمةٍ أعدتْها بيترا للتكوينِ المحتملِ لـ «القسم الخاص». كانت المقابلاتُ مع إمبريال قد توقفت قبيلَ إعادةِ توطينِه في فيغاس قبل عامين.

بعد ساعاتٍ من القراءة، مع فتراتِ راحةٍ مدروسةٍ للوقوفِ والتمددِ وتفقدِ الغرفة، أصبحت بروكتر واثقةً تماماً من أنَّ الغرفةَ لا تحتوي على كاميراتِ مراقبة. وقبل الفجرِ ببضعِ ساعات، بدأت بروكتر في التقاطِ صورٍ لكلِّ وثيقةٍ وصورةٍ بهاتفِها السري؛ ذلك الهاتفُ الذي لم تسلمْه لـ بيترا.

الفصل السادس والعشرون

غيتيسبرغ

استيقظت بروكتر على لسان أحد الكلاب وهو يلعق بثور لدغات البعوض على ساقها؛ يبدو أنها غطت في نوم عميق فوق مكتب الدراسة. كانت بيترا واقفة عند عتبة الباب، تكيل للكلب سيلاً من السباب الهولندي، وهو نفس الشتائم التي اختارتها لـ ديبورا سويت بالأمس. اعتدلت بروكتر في جلستها تفرك عينيها لتطرد بقايا النوم، فلاحظت أن التقارير قد اختفت من فوق المكتب، وحل محلها هاتفها الذي سلمته لبيترا ليلة أمس.

قالت بيترا:

– «طاب صباحكِ يا فتاة، حان وقت الاستيقاظ.»

كان الإفطار عبارة عن رقائق الذرة «كورن فليكس». جلست بيترا في مواجهتها، تغلق عيناً وتحدق بالأخرى في شبكة كلمات متقاطعة، بينما كان قلم الرصاص ينقر على الطاولة بإيقاع رتيب. كانت ترتشف القهوة من كوب يحمل بقايا باهتة لشعار السفارة الأمريكية في عمان؛ حيث كان زوجها الراحل تشيستر ضابط عمليات هناك قبل مائة عام من العتمة. وبعد عشر دقائق من الصمت الذي لم يقطعه سوى ثورات مفاجئة من السباب الهولندي وصوت الممحاة وهي تهرس الورق، لم تعد بروكتر تحتمل الصمت.

سألتها:

– «كيف تقيمين معرفة إمبريال بـ "القسم الخاص"؟»

أجابت بيترا وهي لا تزال منكبة على ورقتها:

– «دقيقة، لكنها منقوصة. الرجل منحل، لكنه أحياناً يقول الحقيقة، وقد تلقى إيجازات أولية من زوموف حين كان الأخير يؤسس القسم الخاص.»

ثم ضيقت عينيها وهي تنظر لبروكتر، قبل أن تعود للكلمات المتقاطعة:

– «كلمة من خمسة أحرف تعني "أمر سلطوي أو قانون"؟»

– «بماذا تبدأ؟»

– «ربما بحرف G.. أو E.»

تناولت بروكتر ملعقة من الرقائق وقالت:

– «اللعنة إن كنت أعرف يا عزيزتي.»

أزاحت بيترا لغز الكلمات المتقاطعة جانبًا وقالت:

– «كان إمبريال مجنوناً. لقد نجح في تهريب الكثير من أمواله، لذا كان ثريًا أيضًا؛ وشعر أنه لم يعد بحاجة إلينا. كان من الصعب الحفاظ على تركيزه. لقد كان —ولا يزال— حيواناً بريًا، مجرد شهوات تسكن جسداً بشريًا. لكنه كان الشخص الوحيد الذي حظي بفرصة "إلقاء نظرة"، إن جاز التعبير؛ لقد التقى بالفريق الذي يدير جواسيسهم المندسين.»

سألت بروكتر:

– «هل تعتقدين أن زوموف هو من يدير أي اختراق في نهاية المطاف؟»

عادت بيترا إلى اللغز وهي تمتم:

– «E-D-I-C-T "مرسوم قانوني"، قد تفي بالغرض، أليس هذا رائعًا؟ ونعم، إجابة على سؤالك: هو الرجل الأول في القضية، وسيكون لديه فريق يتولى إدارة التفاصيل، لكن بصماته ستكون واضحة عليها بشكل أو بآخر.»

– «هل يمكنك مساعدتي في ترتيب لقاء مع إمبريال؟ لقاء هادئ وعفوي، دون الحاجة لإشراك محطة فيغاس أو —لا قدّر الله— لانغلي. مجرد دردشة قصيرة بين صديقين.»

تنهدت بيترا، وألقت بقلمها على الطاولة قائلة:

– «لقاء رجل مثله ليس بالأمر الهين. آخر مرة رأيته فيها في لاس فيغاس، في منزله، انغمس في جولة مراهنات على الطاولات ولم يرضَ بالمجيء للاجتماع.»

أشارت بروكتر بملعقتها التي يقطر منها الحليب نحو بيترا، التي ارتسمت على وجهها ابتسامة مبتهجة، وسألتها:

– «وكيف نجحتِ في انتزاع مقامر أولمبي من جولة أوراق لعب؟»

سألت بيترا:

– «كلمة من ثلاثة أحرف تعني "اعتداد بالنفس"؟»

قرمشت بروكتر ملعقة من الرقائق وقالت:

– «أنا.»

أغلقت بيترا عيناً واحدة لتكتب الكلمة، ثم نهضت وأخرجت مبرأة من الدرج، وأفرغت النشارة في القمامة.

قالت:

– «اضطررنا لإغوائه بعيدًا عن الطاولات بامرأة. يمكنه بالطبع تدبير أموره بنفسه، لكنني فكرت: ما الذي يمكنه فصل روسي مهووس وشبق عن مقامرته؟ امرأة غريبة، هذا هو الحل. زبدة القول: يومان في لاس فيغاس، ولم نحصل منه إلا على عشرين دقيقة من النقاش المتماسك، طوال اليوم التالي.»

– «وماذا كان لديه ليقوله؟»

– «حسناً، حين وصلنا إلى موضوع زوموف والقسم الخاص، قال "فرانكي" —هذا هو اسمه الجديد بالطبع— إن زوموف لم يكن شخصًا طبيعيًا. لم يكن واحدًا من "تشيكيي" بوتين؛ أولئك الأذناب الذين يرتدون البدلات الأنيقة ويسكنون الشقق الفاخرة ويمتصون دماء الدولة. قال فرانكي إنه كان راهبًا "إسبرطيًا" يعيش حياة بسيطة؛ موظف كادح من الطبقة المتوسطة لا يزال يشير إلى الاستخبارات الخارجية باسم "المديرية الرئيسية الأولى". كانت ديانته هي فكرة أن روسيا —وقال فرانكي إنه كان سيستبدلها بالشيوعية في الثمانينيات— في صراع موت مع الولايات المتحدة. لم تكن مهمته سرقة

أسرارنا، بل تحطيمنا. كان يهدف لسحق أمريكا ووكالة المخابرات المركزية؛ ليعجل بالانهيار، تمامًا كما انهار السوفييت وجهاز (KGB) قبل جيل مضى.»

قالت بروكتر:

– «يبدو الأمر كقصة خرافية. هل تصدقين ذلك؟»

خرجت ضحكة لئيمة من بين شفتي بيترا:

– «لقد أخبرتك ليلة أمس: أنا لا أؤمن إلا بالسكون الأسود البارد. والآن يا أرتميس، أنهي رقائقكِ، فقد حان وقت الرحيل.»

قالت بروكتر:

– «انتظري، جولة أخيرة في ظلام سنغافورة.. ذلك التحذير الغامض الذي تلقيناه قبل ذهاب سام. التحذير الذي جاء من "ريمورا"؛ قضية ماك وثيو. أنتِ من كتب التقييمات، وأنتِ..»

قاطعتها بيترا:

– «ستسألينني عن رأيي فيه، أليس كذلك؟»

صبت بروكتر لنفسها وعاءً آخر من الرقائق وقالت:

– «إن لم يزعجكِ الأمر. بدا وكأنكِ تظنين أن ثمة خطأ ما.»

أغمضت بيترا عينيها، وارتجفت جفونها وكأن دماغها يهتز داخل جمجمتها، ثم أصابتها حازوقة مفاجئة.

قالت:

– «لقد قدم لنا "ريمورا" بعض الكنوز، لا شك في ذلك. لكن جودتها كانت متفاوتة، وهذا ما جعلني أتساءل. أنتِ تعرفين كيف نفكر نحن المحللين يا أرتميس؛ نبحث دائمًا عن الشذوذ في التقارير. وقد كتبتُ حينها أنني كنت أتوقع اتساقًا أكبر في العطاء. وبصراحة، كانت بعض وجباته المعرفية شحيحة للغاية، بينما كان بعضها الآخر محددًا بدقة مريبة. كتبت التقييم قبل بضعة أسابيع من طردي، وقلت —وأنتِ تعرفين كيف تسير الأمور، دائمًا ما نضع تحفظات كالمحللين اللعناء— قلت: انظروا، قد لا يكون الأمر شيئًا يذكر؛ ربما

لا يزال يتلمس طريقه في الجاسوسية ولا يريد كشف أوراقه كلها. هل هذا ممكن؟ نعم، نعم، لكنه لا يزال شذوذًا مريبًا.»

نطقت الكلمات ببطء، وكأنها تخشى ألا تفهمها بروكتر.

فكرت بروكتر في سرها: هذا هو السبب الذي يجعل ضباط العمليات يمقتون المحللين. الحقيقة هي أن المحللين يغلقون القضايا أو يقيدونها بالأصفاد، وأنت لا تحصل على ترقية، ولا تشعر بتلك النشوة في صدرك، من خلال رفض القضايا أو عدم تجنيد العملاء. أنت تحصل عليها من القنص وتحقيق الأهداف؛ وإذا كان ضباط العمليات هم الصيادين، فإن المحللين ليسوا سوى من يتشمم اللحم الذي يأتي به الصيادون، ليختلقوا أسبابًا لرفض الوجبة.

سألت بروكتر وهي تقضم رقائق الذرة:

– «إذن، من الذي أطاح بكِ في النهاية؟»

صاحت بيترا بصوت عالٍ لدرجة أن بعض الكلاب رفعت رؤوسها فجأة:

– «ما كان اسم ذلك النظام السياسي اللعين الذي نصبه غوسفورد؟»

– «الارتداد.»

– «الارتداد!» (ضحكت بمرارة). «أولئك الأغبياء. الارتداد في فردوس غوسفورد كان يعني أن تلك الحيزبون الملعونة ديبورا سويت قد دَسَّت أصابعها في كل إناء. أراد غوسفورد لتلك الشمطاء أن تدير الأمور مثل جيمس جيسوس أنغلتون[27] في أوج مجده. جاءت إلى مكتبي ذات يوم، بعد وقت قصير من طردكِ، وسألت عن تقريري بشأن "ريمورا". كانت معلوماته تتدفق في التقارير يمنةً ويسرة، وكانت تلك اللعينة تحضر الإيجازات مع غوسفورد بناءً على تلك التقارير؛ لقد كان "ريمورا" تذكرتها للدخول إلى المكتب البيضاوي. أخبرتني أن الطابق السابع والمكتب الأمامي لـ "راشا هاوس" لديهم شكاوى بشأن تقييمي، وأن الوقت ليس مناسبًا للتشكيك في عميل يخاطر بحياته. وقالت، من بين كل الأشياء، لماذا لا أزال أثرثر بشأن مصاريف البيت الآمن؟

[27] جيمس جيسوس أنغلتون: رئيس مكافحة التجسس الأسطوري في الـ*CIA* في فترة (1954-1975)

كنت قد أرسلت بضع رسائل بريد إلكتروني حول ذلك، لم أكتبها في برقيات رسمية، و...»

قاطعتها بروكتر:

– «مصاريف البيت الآمن؟»

– «أوه، كان أمرًا تافهًا يا أرتميس. هناك مزرعة في "بروفانس"، بقعة جميلة خارج لاكوست. اختيرت لأن "ريمورا" يمكنه السفر إلى هناك حين يزور عائلة زوجته في برشلونة؛ فهي نصف كاتالونية. وكان المكان، كما يمكنكِ أن تتخيلي، باهظ الثمن بشكل رهيب. احتج قسم المالية على ذلك، وقالوا لماذا لا نكتفي باستئجار عقارات عبر وسيط أو "Airbnb" أو أي هراء من هذا القبيل؟ لماذا نحتفظ بهذا المكان تحديداً؟ وكان الجواب دائمًا هو نفسه: "ريمورا" هو أحد أكفأ عملائنا، ونحن بحاجة لمكان مريح، مكان لا يتغير، ويكون متاحًا دائمًا إذا ما تمكن من السفر واحتاج للحديث إلينا. هل سمعتِ قط عن احتفاظنا بعقار كهذا من أجل عميل واحد؟»

– «لا، لم أسمع بذلك قط. وبماذا رددتِ على ديبس والفتية، إن لم يضايقكِ السؤال؟ بخصوص تلك الشكوك؟»

– «أشياء بسيطة. "ريمورا" هو نائب في القسم الخامس؟ إذن اطلبوا منه أن يأتي لنا بقائمة لكل عملية تديرها موسكو في أوروبا الآن. اطلبوا منه أسماء كل ضباط الاستخبارات الخارجية الذين يعملون على الأهداف الأمريكية في أوروبا — أي شيء يمكنه العثور عليه. فقالت تلك الحيزبون إنني أحاول إثارة المشاكل. كانت ديبورا سويت ضابطة عمليات فاشلة، تملك سجلاً باهتاً وغير متميز، لكنها بفضل قربها من غوسفورد عادت للوكالة لتدير مديرية العمليات. يا للهول يا أرتميس! لم تكن تعرف شيئًا، لا شيء على الإطلاق عما كنا نفعله حين دخلت لانغلي للمرة الثانية. كانت بحاجة للعثور على كنز لتثبت جدارتها، وكانت معلومات "ريمورا" هي الذهب الخالص. لقد تم اختباره، وكان يقدم النتائج. فلماذا أحاول تلطيخ كل شيء بالقاذورات؟ هذا ما قالوه يا أرتميس. هؤلاء طلبوا مني أن أصمت. وأنا أغلقت فمي اللعين مثل فتاة مطيعة.»

– «من هم "هؤلاء"؟»

– «أوه، ومن يدري؟ كلهم على الأرجح. كانت لديهم أسبابهم؛ كنت أصبُّ الماء البارد على قضيتهم، وأجعل حياة ثيو صعبة، وألقي بظلال الشك على دجاجة ماك التي تبيض ذهبًا. أما غاس، فقد شعر أنني جمدت بعض قضايا موسكو بتقييمات سيئة حين كان رئيسًا للمحطة هناك، وأنتِ تعرفين حق المعرفة كيف كان مزاجه سوداويًا حين عاد في الربيع. نحسٌ يحيط بالجميع. لا أحد يحب المحللين.»

رفعت بروكتر كأسها بابتسامة مريرة.

تابعت بيترا:

– «على أية حال، نالت فريقك "براتفا" وتلك الحيزبون مرادهما المشترك، رغم أنني لا أظن أن دوافعهما كانت واحدة. أُبعدتُ عن التقييم، وسلموه لشاب أكثر طواعية، طفل بوجه ناعم لم ينبت شعر لحيته بعد. لا أتذكر اسمه.»

– «وديبس هي من أطاحت بكِ في النهاية؟»

– «ومن غيرها؟ وبالطبع، لم تتركني تلك الزرافة أرحل بسلام؛ فالطريقة التي طردوني بها تجعلني عاجزة حتى عن الحصول على عمل تعاقدي.»

كانت عيناها تلمعان بالغضب.

قالت بيترا:

– «والآن يا أرتميس، رقائقكِ أصبحت هريسة. وإذا واصلنا الحديث في هذا الأمر لفترة أطول، فسأستشيط غضبًا لدرجة أنني قد أقتلكِ فقط لأهدئ أعصابي. حان وقت انصرافكِ.»

***

رافقتها المرأة إلى السيارة. قبضت بروكتر على مقبض الباب، وقبضت بيترا على كتفها؛ كانت عيناها شاردتين بعض الشيء. عادت الكلاب للنباح مجددًا، مستشعرةً توتر بيترا — رغم عدم وجود أي سنجاب في الأفق.

تحدثت بيترا وهي تنظر للأرض:

– «إذا كانوا يديرون اختراقًا رفيع المستوى ولم نفقد سوى بضعة مصادر حتى الآن، فلا بد أن تتساءلي عن طبيعة اللعبة التي يلعبونها، أليس كذلك؟ ربما يلعب زوموف لعبة مختلفة تمامًا.»

ختمت بيترا جملتها وهي تسحق مخروط صنوبر تحت حذائها.

– «ظننتُ أنهم سيحتفلون بي حين أتقاعد. وأنتِ على الأرجح ظننتِ الشيء نفسه. لقد أعطينا ذلك المكان كل ما نملك، أليس كذلك؟ ثم طردونا. لا تحية.. ولا حتى كلمة شكر. قالوا إنهم سيرسلون لي "الحقيبة الزرقاء" مع العلم والميدالية وشهادتهم اللعينة، وتعرفين ماذا؟ لم تصل قط. ضاعت في البريد، أنا واثقة من ذلك. يعلم الله أنني لم أكن أنتظر موكبًا بالورود، ولكن ماذا عن بعض الامتنان؟ مكافأة صغيرة على كل ذلك العرق والجهد؟ لم يبدُ لي أن هذا طلب مبالغ فيه. وفي النهاية، بعد أن قلتُ أنا وتلك الحيزبون كلمتنا الأخيرة ووضعتُ رأسي تحت المقصلة، أدركتُ أنني انتهيت من مساعدة ذلك المبنى. قلت لنفسي: "يا بيترا، إذا كان هناك جاسوس مندس ينبش هناك، فدعي أولئك الجاحدين يكتشفونه بأنفسهم". لقد قضيتُ وقتي. المكان كله أصبح الآن مجرد حفنة من المديرين العاجزين والأطفال المهووسين بالمظاهر. هل يوجد أحد يتجسس حقًا هناك؟ فكرتُ في ذلك في أسابيعي الأخيرة، وأنا أتسكع في الكافتيريا، حتى إنني لم أعد أزور الخزنة. الطابق السابع لم يردني هناك، وفريقك السابق"براتفا" لم يرودنني هناك. كنتُ أراقب الشباب وهم يتجولون، كل أولئك المتعاقدين والمديرين.. يا لها من كومة بشرية عديمة الفائدة أصبحت عليها لانغلي. أرسلوا موظفًا مغفلًا من الموارد البشرية ليتحدث في حفل تقاعدي، واللعين أخطأ في اسمي؛ ناداني "باتي". وتعرفين ماذا قلت يا أرتميس؟ قلت: اللعنة عليكم. ربما يجدر بكِ التفكير في ذلك أيضًا.. بعد كل ما فعلتِه. ولكن إذا قررتِ ألا تفعلي، فعليكِ أن تكوني حذرة يا أرتميس.. حذرة جدًا. إذا وضعتِ يدكِ في جحر الخلد هذا، فثمة شيء سيعضكِ. سيغرس أسنانه الصغيرة بعمق وقوة. انتبهي لنفسكِ، واسمعي نصيحة بيترا في هذا الأمر.»

ثم ارتخت قبضة المرأة على كتف بروكتر ومضت مبتعدة، والكلاب تتبعها بخطى وئيدة فوق بساط إبر الصنوبر نحو المنزل.

الجزء الثالث
القوي المنفلتة

الفصل السابع والعشرون

دالاس / بويرتو فالارتا، المكسيك

في أرجاء الحي، وسواء كان في نزهاته الطويلة أو حين يلاعبه الجيران في الفناء الأمامي، كان كلب بيتر وآيرين فينبل، وهو من فصيلة البولدوغ الفرنسي، يُعرف باسم «جوزيف». أما خلف الأبواب المغلقة لمنزلهما، فكان يُنادى باسمه الحقيقي: ستالين. كان المنزلُ بناءً من طابقٍ واحدٍ مبنيًا بالطوب اللبن، يعلوه سقفٌ من القرميد وتحرسه نخلاتٌ ضخمة، يربض في مأمنه عند الخاصرة الشرقية الوارفة لمدينة دالاس؛ ذلك الحي الذي تتحوّل فيه رتابة شمال تكساس المنبسطة القاتلة إلى تلالٍ متموجةٍ وادعة. كانا قد ابتاعا العقار قبل بضع سنوات، عقب تخرجهما في جامعة تكساس وانتقالهما من أوستن.

جلس بيتر، وهو يغالب الملل في مكالمة عبر Zoom، سارحًا ببصره عبر النافذة نحو الأشجار. في هذا العام، غرز القيظ أظافره في وجه الخريف؛ فنحن في منتصف أكتوبر، ومع ذلك يوشك الزئبق أن يلامس التسعين درجة اليوم. رشف بيتر القهوة في مكتبه المنزلي، وترك خياله يرحل نحو الثلج.

بعد أن التزم صمتًا مطبقًا طوال المكالمة، أغلق بيتر تطبيق زووم، وأجاب على ثلاث رسائل إلكترونية من زملائه في Southwest Airlines، حيث يعمل في التخطيط والتحليل المالي، ثم فتح بريده الشخصي. وجد الرسائل المعتادة: أخبارًا، ملاحظة من جارٍ يخطط لسهرة «بوكر»، وتذكيرًا بموعد تطعيم الكلب. ما قد يسميه أصدقاء عائلة فينبل غريبي الأطوار «هفوة في العمل الاستخباراتي» كان قد وقع في المرة الأولى التي اصطحبت فيها آيرين الكلب إلى الطبيب البيطري؛ إذ قدّمت اسمه الحقيقي، وكما روت لاحقًا، لم تحظَ حتى

بنظرة جانبية أو حاجب مرفوع من الموظفين، الذين كانوا -كحال الأمريكيين جميعًا- يجهلون بلا شك أبجديات حقائق العالم، ويتضاعف جهلهم حين يتعلق الأمر بالتاريخ الروسي. أعلنت الرسالة، التي رسمت ابتسامة على شفتيه، أن موعد جوزيف ستالين محدد يوم الثلاثاء المقبل، وتضمنت تذكيرًا بأنه نظرًا لموجة حوادث العض الأخيرة، يجب إبقاء جوزيف ستالين مقيدًا طوال الوقت.

تلاشت ابتسامته حين وقعت عيناه على عنوان رسالة وصلت للتو لحظة إغلاقه لملاحظة البيطري.

الموضوع: تحية من العم ستيفن

تمتم بيتر:

- «تبًا... تبًا».

تجمدت أصابعه فوق لوحة المفاتيح.

فتح الرسالة. وفي لحظة خاطفة، شعر وكأن روحه قد قفزت من جسده لتستقر فوق رف مكتبةٍ عالٍ، ومن هناك راح يراقب نفسه وهو جالس إلى المكتب.

مرحبًا بيتر، آسف لأن وقتًا طويلًا قد مر منذ راسلتك، لكنني فكرت في إخبارك عن أعمال البستنة التي انشغلت بها أنا وعمتك طوال الصيف الماضي. يا للروعة، يا لها من زهور، والكثير من الأعشاب والخضراوات وشجيراتها القصوى. إنه أمر لا يصدق، نحن سعيدان جدًا جدًا. لقد أرفقت لقطة التقطتها عمتك. أخبرها برأيك، ربما أنت وآيرين الجميلة. ولعل زيارة قريبة، حتى يتسنى لك رؤية الزهور بالحياة قبل حلول الخريف.

بمنتهى الإخلاص، عمك المفضل ستيفن.

فكر قائلًا: «يا إلهي، من كتب هذه الترهات؟». تذكر الرموز البسيطة: كلمة واحدة قبل الشجيرات، وواحدة بعد الزهور. (Maximum Living) «الحياة القصوى».

نادى آيرين الجالسة إلى مكتبها المؤقت على طاولة الطعام:

– «آيرين، تعالي إلى هنا».

كانت آيرين تدير حسابات التواصل الاجتماعي لشركة ناشئة في مجال النقل التشاركي؛ وطوال الصباح كانت تنشر صورًا لأصحاب مطاعم محليين يتنقلون في أرجاء دالاس بمركبات الشركة.

أجابت:

– «ثانية واحدة يا عزيزي، أنا أنهي منشورًا».

– «حسنًا، عندما تنتهين، أحضري الحاسوب معكِ».

– «بيتر؟ ماذا؟ اصمت».

***

كان الإسباني قد زودهم بحاسوب ASUS المحمول بعد شهرين من أحداث أوكلاهوما، تلك الذكريات التي ما زالت تجعل ساقي بيتر ترتجفان كالماء.

سجّلت آيرين الدخول إلى أنستغرام Instagram وتوجهت إلى الحساب @maximumliving . كانت هناك صور لمجوهرات، ومقاطع فيديو لعارضات يروّجن للأزياء، ولقطات لوجهات عطلات غريبة ووجبات شهية. محتوى مكرر للمؤثرين، لا شك أنه جُمع وسُحب من حسابات أخرى، لكن آيرين كانت تهمهم بأن الحساب يتباهى بواحد وعشرين ألف متابع، وأن المنشورات تبدو وكأنها تولد مستوى معقولًا من التفاعل. كانت آيرين قد أصرت على ذلك مع الإسباني. حقائب يد حمراء، كان يعلم أنهم يبحثون عن حقائب يد حمراء.

بتوتر متصاعد، مررت آيرين المنشورات التي تعود لأسابيع خلت، ثم عادت للأحدث، وبالفعل، كانت الصورة الرابعة في المجموعة تتباهى بحقيبة حمراء من طراز Hermès تتدلى على كتف شقراء نحيلة. حملت آيرين الصورة على الحاسوب ثم سحبتها إلى مجلد بعنوان flowerhappy.exe. ثم أدخلت كلمة مرور غريبة مكونة من سبعة وعشرين مفتاحًا، مكتوبة في مقاطع متفرقة عبر عدة صفحات من دفتر ملاحظات. الصورة، التي أُسقطت في برنامج flowerhappy.exe على الحاسوب الرئيسي، أُرسلت الآن إلى برنامج آخر

مخفي في القرص الصلب. نقرت آيرين. عشرة بالمائة، عشرون، خمسون، ثمانون. ثم ظهرت ساعة رملية على الشاشة، وتساءلت عما إذا كان هناك خطب ما.

قالت:

– «بيتر؟ هل لمست شيئًا؟».

– «ماذا؟ بالطبع لا».

ضغطت آيرين على لوحة اللمس بنظرة ثابتة وتهديدية بدت وكأنها تعلن عن نيتها تحطيم المكتب بقبضتها.

فجأة: مائة بالمائة. استُبدلت الساعة الرملية بنص: إنه علم إخفاء المعلومات للعصر الرقمي، فن دسّ الرسائل في الصور.

موقع، تاريخ، لغة الجسد. وملاحظة، يُفترض أنها من «أعلى المستويات»، تفيد بأن أصدقاءهم يعتمدون عليهم.

قالت آيرين:

– «بيتر، يا إلهي».

تخيل بيتر الشتاء وهو يطوق المكان، والأسوار التي ابتلعها الثلج؛ استعرض في ذهنه مساحة لا نهائية من التلال الخضراء المائلة للبني، واستنشق عبق التربة السوداء الخصبة. انفتح بابٌ نحو روحه.

***

بعد يومين، كان ستالين قد أودع في فندق الكلاب؛ وأوقفا بريدهما وطلبا من الجيران استلام طرود Amazon. أخبر فريقه أنها عطلة نهاية أسبوع في بويرتو فالارتا لمساعدة آيرين على التخلص من التوتر. كان لدى كليهما رصيد إجازات وفير. في الواقع، لم تكن لدى أي من الشركتين سياسة إجازات رسمية. «اعمل من أي مكان!». وظيفة بيتر في شركة الطيران كانت تعني أن الزوجين يسافران مجاناً على قوائم الانتظار. قضيا أربع ساعات جالسين في صالة مطار Love Field بانتظار مقاعد شاغرة، وثلاث ساعات في الرحلة نفسها، وبضع ساعات أخرى في السيارة. بحلول وقت متأخر من بعد الظهر،

كانا يترنحان في جولة أخرى من «علاج التوتر بالمارجريتا» في بار المنتجع الشاطئي المهجور، يكافحان للحفاظ ولو على محادثة متكلفة بشكل متواضع. ارتدت آيرين ملابس سباحة سوداء وقبعة بيسبول لفريق Texas Rangers. وارتدى بيتر سروال سباحة أزرق وقبعة مطابقة لفريق Rangers، تمامًا كما نصت الرسالة مفكوكة الشفرة.

إن نوبة الحب الجسدي العاصفة التي دشنا بها غرفتهما، وذلك الضخ المستمر للكحول الذي دأبا عليه طوال اليوم — رنة زر الاستدعاء بمجرد وصول الطائرة لارتفاع التحليق، و«مشروب الفودكا بالبرتقال من فضلك، نعم، كأس مزدوجة ستكون رائعة» — لم تفلح في كسر حدة التوتر. لم يكن يعرف بالتحديد ما الذي يريدونه منه ومن آيرين، لكنه ظل قلقًا منذ حادثة أوكلاهوما، وفي كل الأحوال كان يعلم يقينًا أن رؤيته الأولى لـ الإسباني سترفع صوت تلك الذاكرة، وسيستحيل إسكاتها.

سمع بيتر صوته لأول مرة يتهادى عبر الممر المتعرج من المسبح إلى الشاطئ — وقاوم غريزته في إدارة رأسه. كانت لغته الإسبانية، التي فهم بيتر مقتطفات منها، حريرية وواثقة. كان يتبادل أطراف حديث عابر مع أمريكي يبذل جهدًا بائسًا، وإن كان شجاعًا، في التحدث باللغة. شعر بيتر بـ الإسباني يمسح المشهد بنظره، يراقب، ويقيم. بعد لحظات أنهى المحادثة مع الأمريكي مجهول الهوية، وسرعان ما لم يسمع بيتر سوى صفيره الشعبي وصوت صفع صندله على الممر الخشبي.

جلس الإسباني بجانب آيرين. كان يظهر بابتسامته اللطيفة المعتادة وسروالًا وقميصًا من الكتان الأبيض. أدرك بيتر أن الإسباني يمتلك طريقة لقول الأشياء الصحيحة بالترتيب الصحيح ليصل، بنوع من السحر الحواري، إلى حيث يريد تمامًا. وكان مرشدًا لطيفًا، مستعدًا للتعرج عبر نقاش ليس بالضرورة على مساره المختار، من البيسبول إلى الطقس، ومن التكيلا إلى تقلبات سوق العقارات في دالاس.

كحال معظم الرجال، استمتع الإسباني برؤية آيرين بملابس السباحة. لكن، وعلى عكس رواد المنتجع الآخرين، لم يحاول الإسباني إخفاء اهتمامه. تفحصها دون خجل. لسبب ما لم يجد بيتر هذا مهددًا، كما لو كان الإسباني محترفًا بما يكفي ليقدر جسدًا رياضيًا نصف عارٍ لامرأة في الثامنة والعشرين دون أن يرسل إشارات برغبة في مضاجعتها. كون الإسباني يكبرهما بعقدين على الأقل، وأنه كان يربي ذقنًا مزدوجة دون أن يمتلك ذقنًا أولى واضحة، وأن آيرين قد وصفته ذات مرة بـ «المقزز»، لم يضر بموقف بيتر: «دعه ينظر».

شربوا وتبادلوا حديثًا خفيفًا لمدة ساعة، وكان بيتر يشعر بـ الإسباني يمهد للأمور برفق. وحين بدا راضيًا بأن الأمر لن يبدو مباشرًا أو فجًا أكثر من اللازم، اقترح الإسباني أن ينضما إليه لتناول مشروب في فيلته. قال إن التكيلا لديه نادرة جدًا، وإن لديه شرفة تداعب الشاطئ. ولمسافة نصف ميل، ساروا بتثاقل عبر الرمال المنقولة بالشاحنات، بمحاذاة المياه الفيروزية المتلاطمة، وأخيرًا صعدوا ممرًا متعرجًا إلى واجهة فيلا ادعى الإسباني أنها ملكه.

تحلقوا حول طاولة الطعام. نظر إليهم الإسباني للحظات غير مريحة، كانت الأولى من نوعها منذ وصوله إلى البار: كان يقرص شاربه باستمرار بإبهامه وسبابته، وينقر على الخشب الداكن، ويمرر أصابعه فوق النقوش المائية التي تجري على حافة الطاولة.

قال أخيرًا:

– «لدينا عمل كبير لكما».

دفع بذاكرة تخزين سوداء (فلاش ميموري) وورقة مطوية نحو بيتر، الذي فتحها.

قال الإسباني:

– «سافرت هذه الورقة طوال الطريق من موسكو. لكي تدركا أهمية هذه المهمة. والمسؤولية التي نضعها على عاتقكما».

لاحظ الآن أن آيرين قد ثبتت يدها على ركبة بيتر، تعتصرها وكأنها تحاول استخلاص العصير منها.

سأل بيتر:

– «ماذا تريدان منا أن نفعل؟».

ضحك الإسباني، وخطف الورقة، وازدردها في فمه.

***

في وقت متأخر من تلك الليلة، وبعد عودتهما إلى الغرفة، استرخى بيتر وآيرين في حمام ساخن، حيث طفت بتلات الورد بكسل على السطح كقوارب بخارية وردية. لم يتبادلا كلمة واحدة منذ مغادرة فيلا الإسباني. في كل مرة كان بيتر يغمض عينيه وينزلق أعمق في الحوض، كانت الذكريات تتكدس: رائحة التفاح الغنية التي تفوح حول الكوخ الريفي للعمة ليديا والعم أليكسي خارج نيجني، ذلك الصيف البعيد جدًا، البساتين والتلال الخضراء وأنين الحشرات؛ ثم ذكريات أقوى وأكثر حرقًا لـ ماشا، ابنة الجيران، الفتاة ذات العينين الحالمتين ابنة السابعة عشرة التي كانت طوال ذلك الصيف ملازمة له كظله، والتي راكم معها عقدًا من الخبرة الغرامية في غضون ثلاثة أشهر؛ وأخيرًا وجد نفسه مع آيرين في مستشفى ميداني روسي خارج روستوف على الدون، وكان أحدث ختم في جوازي سفرهما من فنلندا، وكانا يتحدثان إلى جندي فقد ساقيه وجزءًا كبيرًا من ذراعه في قصف مدفعي أوكراني.

كان الإسباني قد قال: «هناك رسالة من ذلك الشاب على ذاكرة التخزين. اقرآها عندما تصلان إلى المنزل». اجترت الذكريات من هاوية روح بيتر فوضى أكثر دوارًا: اغتراب، غضب، حسد، عجز. ورغم الانسداد العاطفي في جمجمته — ناهيك عن الماء الدافئ — فإن أفكاره عن ماشا أثارت رغبته بشدة.

فتح بيتر عينيه.

قال فجأة:

– «يمكننا الرفض».

رمق الحقيبة التي تركها الإسباني خلفه.

تابع:

– «ألقِ بذلك الشيء في المحيط مع ذاكرة التخزين، ادفنيه، مثلًا، في الغابة، اتركيه هنا لعمال النظافة».

ضحكت آيرين:

– «عزيزي، لقد رأينا الأسماء. لا يمكننا فعل ذلك. وبجدية: هل هذا حقًا ما تريده؟».

قال بسرعة ليتجنب الشجار:

– «لا، ليس كذلك».

ولكن هل كان متأكدًا؟ لا، لم يكن كذلك.

انزلقت عبر الحوض، ممددة جسدها فوقه لتقبل شفتيه وعنقه. كان طعمها ملحًا وخمرًا. انزلقت أصابعه في تجويف عمودها الفقري. دخلت أذنه في فمها للحظة، وشعر بلسانها. ثم انسحبت قليلًا وهمست:

– «هذه فرصتنا. لقد منحونا فرصة يا بيتر، وأنا... أعتقد أن علينا اغتنامها».

سأل، ربما لنفسه أكثر مما هو لها:

– «لماذا نحن؟ لديهم محترفون، بحق السماء».

***

وبينما كانت الطائرة تهبط نحو مطار دالاس-فورت وورث، كان بيتر يفكر في نموذج الجمارك: هل كان يحمل أكثر من عشرة آلاف دولار نقدًا؟ قالت المضيفة إنه لم تعد هناك نماذج ورقية على الرحلات بين الولايات المتحدة والمكسيك، ولسبب ما جعله ذلك يشعر بالراحة. كما لو أن تجاوزاته لا تزال قابلة للإنكار — خطايا مستقبلية تم التفكير فيها لكن لم تُرتكب بعد.

وبينما كانا يزحفان عبر الطابور المتعرّق من السياح الذين لوحتهم الشمس والأطفال الصارخين، ظن أن قلبه سينفجر. كانت آيرين تضع مرطب الشفاه باستمرار. راقب الأنبوب يختفي ويظهر في جيبها، ويداها تقبضان عليه بوحشية، كما لو كان طوق نجاتها، أو كأنها قد تستخدمه لطعن ضابط جمارك مفرط في الفضول.

أخيرًا وصلا إلى مقدمة الطابور. استدعاهما موظف الجمارك ومسح جوازي سفرهما بصمت.

جمع هو وآيرين حقائبهما من السير المتحرك وجراها أمام ضابطين من هيئة الجمارك وحماية الحدود كانا يحومان عند الأبواب. تمشيا عبر طابور المواطنين الأمريكيين العائدين الذين ليس لديهم ما يصرحون به. كان الهواء ذا مذاق زيتي ومعدني، وتساءل عما إذا كان هذا هو شعور أن تكون على قيد الحياة.

***

في ذلك المساء، كان بيتر وآيرين يفحصان محتويات حقيبة الإسباني، المفتوحة على أرضية خزانة الملابس الكبيرة. كانت آيرين قد تمكنت بالفعل من فتح جهاز الإخفاء بمزيج من نقاط الضغط والأقراص التي استعرضها الإسباني بعد وقت قصير من ابتلاعه للورقة.

التقطت آيرين رزمة من الأوراق النقدية من كيس وناولتها لـ بيتر ليعدها. تمتم:

– «خمسة وعشرون ألفًا».

مطت آيرين شفتيها باستهجان:

– «عفوًا؟».

– «قلت خمسة وعشرين. نحن نكسب هذا المبلغ في شهر. هذا... هذا مجرد فتات. نحن نستحق الاحترام. هذا لا يبدو كاحترام. ما هذا؟».

ما لم يُقل، ولكنه كان حقيقيًا لدرجة أن بيتر شعر به يقرقع في قلبه، هو أن المال لم يكن له علاقة تذكر بالأمر.

قالت آيرين:

– «سنقوم بذلك. سنثبت أنفسنا. ثم نطلب المزيد».

***

في تلك الليلة، جلس بيتر وآيرين وسط الظلام الزاحف على كراسٍ خضراء من طراز أديرونداك، يتشاركان سيجارة ملفوفة ويشربان

«الكمبوتشا» القوية. كان ستالين يتكور في حضن آيرين. أخرجت هاتفها وراحت تتأمل بضعة منشورات لشركة النقل التشاركي على أنستغرام.

قالت:

– «ضعف عدد الإعجابات مقارنة بالأسبوع الماضي. وأكثر من ضعف عدد التعليقات».

وضعت هاتفها جانبًا، وأخذت نفسًا من السيجارة، وناولتها لـ بيتر، الذي كان يحدق بحالمية نحو القمر الصاعد.

سألت آيرين وهي تنفث الدخان:

– «هل هي مهمة انتحارية؟».

أصدر ستالين دمدمة راضية وهي تغرز أصابعها في خاصرته.

ظهر رأس فوق السياج الخلفي. ولوح بيد.

جاء الصوت:

– «مرحبًا يا آل فينبل. كيف كانت المكسيك؟».

رد بيتر:

– «الأروع على الإطلاق. هل أنتم بخير يا دوغ؟».

قال دوغ:

– «الأعمال مزدهرة، لذا لا يمكنني الشكوى».

كره بيتر حين يفعل ذلك. يتحدث عن ازدهار الأعمال. الرجل كان جراح قلب.

تابع دوغ:

– «متجه إلى بريك الأسبوع المقبل لإجازة أخرى، على أية حال. قلت لنفسي، لمَ لا؟».

شم الهواء ورمق آيرين بنظرة ساخرة؛ كان دوغ يحب النظر إلى آيرين.

– «والآن، آيرين. بيتر الشاب».

فكر بيتر: «تبًا لك يا دوغ».

– «هل تدخنان الحشيش يا رفاق؟».

قالت آيرين:

– «في الواقع، نعم».

أخذت السيجارة من بيتر ونفثت سحابة في الهواء.

– «هذا الصنف دسم حقًا، هل تريد نفَسًا؟».

ضحك دوغ:

– «سأمتنع. مهلًا، هل تمانعان استلام البريد؟ حتى يوم الخميس».

قالت آيرين، منهية حديثها بإشارة إبهام وابتسامة منتشية:

– «كل شيء تمام».

– «هذا رائع، شكرًا يا رفاق. في المرة القادمة سنراقب جوزيف، لنعفيكم من عناء الفندق».

قال بيتر:

– «اتفقنا».

قال دوغ واختفى:

– «شكرًا يا آل فينبل، اعتنوا بأنفسكم».

أخذ بيتر السيجارة.

– «هل تريدينها أن تكون مهمة انتحارية؟».

استلقت بظهرها على الكرسي وأغمضت عينيها ومسحت على فخذي ستالين.

– «ربما نرى؟ ربما نكتشف ذلك معًا؟».

الفصل الثامن والعشرون

لانغلي / كلاريندون

منذ غادرت بروكتر المدينة، والمعلومات تنساب في الاتجاه الخاطئ؛ فكان سام يمنح كل شيء ولا يتلقى في المقابل شيئًا، وهو وضعٌ يبعث على ضيقٍ استثنائي لدى أي ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية. في البداية، أخبروه أن إعادة التقييم النفسي والطبي مجرد إجراء روتيني؛ مجرد فحصٍ للنبض بعد صدمة موسكو. وقد مهّد له غاس الأمر بأن الجلسات ستتضمن بضع «مناقشات» إضافية مع قسم الأمن ومسؤولي استخلاص المعلومات في مكافحة التجسس.

قال غاس:

– «ربما جلستان أو ثلاث من هذا القبيل.»

رسم غاس ملامح العملية برمتها ببرودٍ أراح نفس سام. وجد سام أن إعادة التشغيل هذه غريبة وغير ملائمة، ولكن ما عساه أن يفعل؟

كانت جلسات الاستخلاص الأمنية، التي امتدت على مدار أسبوعين، غريبةً على نحوٍ خاص. فبدلًا من البرود المعتاد الذي يلامس حدود العدائية، كان المحاورون — بلا استثناء — فاقدي الاهتمام، ومنفصلين عن الواقع، ويشعرون بالملل. في بادئ الأمر، استجمع سام شجاعته، مفسرًا ذلك بأن المراجعة ليست سوى إجراءٍ شكلي، مجرد خانةٍ يُراد استيفاؤها لتبديد أي مخاوف أعقبت فترة أسره، ليتسنى للجميع المضي قدمًا.

كانت دعوة التنسيق على التقويم تنص على: «إعادة تقييم مكتب الخدمات الطبية — القرار والإفادة الختامية». أرسلها غاس في الليلة السابقة،

مع نسخة لممثل الموارد البشرية في فرع «موسكو إكس». كان سام محقًا في نصف ظنه إذن؛ فالعملية كانت بالفعل مجرد إجراء شكلي، ولكن ماذا عن النتيجة؟ حسنًا، حين خطا سام إلى مكتب غاس ليجد إيماءةً مقتضبة من ممثل الموارد البشرية، أدرك أنه كان يفهم النتيجة على نحوٍ مقلوبٍ تمامًا.

***

قبل عقدٍ من الزمن: كانت تلك أول مرة يمثل فيها سام جوزيف أمام لجنة مراجعة في وكالة الاستخبارات المركزية.

حدث ذلك في أعقاب وقوعه في حب عميلته السورية، وهو ذلك النوع من الأخطاء الممتعة التي باتت الآن تضج بطبقاتٍ من البهجة، والندم، والشهوة الحنينية، وجلد الذات. وبعبارة أخرى: هو ذلك النوع من الخطايا التي قد ترتكبها ثانيةً وأنت جذلان. كان من المفترض أن يُطرد بسببها، وحتى الآن — رغم معرفته بالقصة كاملة — لا يزال يتعجب كيف لم يحدث ذلك.

في البداية، وصلته الحكاية قطرةً قطرة. ورغم أن «الزعيمة» كانت ستلعب دور البطولة، إلا أنها لم تنبس ببنت شفة عن الأمر. في الواقع، لم يرها لفترة بعد أحداث سوريا، ولم تحاول هي جاهدةً رؤيته. تساءل عما إذا كان ينبغي له أن يأخذ الأمر على محملٍ شخصي، لكنه اعتاد على تقلبات أمزجة الزعيمة الغريبة. وقرر أن بروكتر لا تضمر له أي ضغينة؛ بل إنها، كحال الجميع، قد نسيته ببساطة.

لكن، خلال ساعة سمرٍ بريئة في تلك الأشهر الأولى المظلمة من احتجازه في لانغلي، بينما كانت جراح سوريا لا تزال طريةً في روحه وجسده، جذبه زميلٌ مخمور كان معه في فصل الدراسة بـ «المزرعة»، وهمس له بصوتٍ متهدج بأن رئيسته القديمة، أرتميس بروكتر، قد تدخلت أثناء عملية لجنة المراجعة، بل إنها دعته لتناول الغداء فعليًا.

قال الرجل:

– «والأمر أنني لم أكن أعرفها على الإطلاق. لم أتحدث إلى تلك المرأة قط، وإذا بي ذات يوم أجد منها ملاحظةً تدعوني فيها للغداء.»

صرخ سام متسائلًا وسط ضجيج الحانة:

– «ولماذا فعلت ذلك؟»

أجاب الزميل:

– «كان لديها عذرٌ ما، لا أذكره حتى، لأنها بعد خمس دقائق لم تكن تريد التحدث إلا عنك. أمرٌ يبعث على الغثيان، أليس كذلك؟»

استفهم سام:

– «عن ماذا؟»

رد الرجل والضجيج يتصاعد:

– «ماذا؟»

ألحَّ سام:

– «عن ماذا سألت؟»

أجاب الزميل:

– «أوه، ترهات عاطفية. كيف كنتَ في "المزرعة"، وانطباعاتي عن شخصيتك العامة، وشرفك، ورجاحة عقلك، وما إلى ذلك من هراء. لقد قلتُ الأشياء الصحيحة، وكذبتُ من أجلك.»

أنهى كلامه بابتسامةٍ عريضة، وهو يميل بكأسه فتتدفق السوائل من جوانبها.

سأل سام:

– «لماذا فعلت بروكتر ذلك؟»

لم يجب الرجل. وبدلاً من ذلك، قال إنه يعرف زميلاً آخر من «المزرعة» تلقى دعوةً مماثلة للدردشة. كانت الزعيمة بالطبع قد خضعت للاستجواب خلال عملية لجنة المراجعة؛ وقدمت ما يشبه شهادةً مشفوعة بالقسم بشأن الأحداث الكارثية التي وسمت الأيام الأخيرة من جولته السورية، حين انتهى به المطاف في غرفة استجواب مع عميلته، التي كانت عشيقته أيضًا، وكلاهما أوشك على الموت. لم يعد إلى لانغلي بطلاً، ولا كبش فداء، بل عاد بشيءٍ أكثر

غموضاً وبالتالي أكثر خطورة: ضابط عمليات عالي الكفاءة ومحطم، أدى مهمته ببطولة وفي الوقت نفسه انتهك بفظاعة الميثاق الأخلاقي للقبيلة.

لخص معلمه القديم إد برادلي، الذي كان يدير قسم الشرق الأدنى حينها، الأمر ببساطة قائلًا:

– «ستزن اللجنة بين البطولة والتميز وبين خطئك الفادح، وتصدر حكمها بناءً على ذلك.»

وعندما سأله سام عن الاحتمالات، قال إد:

– «إنها أفضل من رهانات "فيغاس"، إنها مجرد ضربة حظ؛ مَلكٌ أم كتابة.»

بعد شهرين من حسم اللجنة للأمر بـ «وجه العملة» الذي سمح له بالبقاء، وبعد أسبوعٍ من علمه بلقاءات الغداء الغامضة التي أجرتها بروكتر، قاد سام سيارته إلى مزرعة برادلي لارتشاف الجعة وطرح بعض الأسئلة حول تدخلات الزعيمة.

سأل سام:

– «أين هي الآن؟ لقد اختفت تماماً، على الأقل بالنسبة لي.»

قال إد:

– «إنها ـ في فلوريدا لمدة شهر تقريباً، لتقضي وقتاً مع العائلة.»

تعجب سام:

– «أوَللرئيسة عائلة؟»

قال إد بنبرةٍ يملؤها التحفظ المصطنع:

– «قيل لي إن لها أفراداً من العائلة ـ في فلوريدا، ابن عم أو شيئاً من هذا القبيل. ـ في الحقيقة لا أعرف حقاً ماذا تفعل هناك.»

فتح سام زجاجة جعة أخرى وقال:

– «سمعتُ أنها كانت تمرُّ على عددٍ من زملائي القدامى ـ في "المزرعة"، تسألهم عني.»

قال برادلي:

– «إنه أمرٌ طبيعي أن تنظر اللجنة في شخصية الضابط عند إصدار حكمها؛ سجلك في الشرف والنزاهة.»

استطرد سام:

– «وهل من الطبيعي أن يكون رئيس الضابط السابق هو من يقوم بهذا التقصي؟»

نظر إليه برادلي مباشرةً وقال:

– «بالطبع لا.»

سأل سام:

– «حسناً، ما الذي تخطط له؟ إنها لا تردُّ حتى على مكالماتي.»

أجاب برادلي:

– «إنها ليست شخصاً طبيعياً يا سام، أنت تعرف ذلك.»

قال سام:

– «أعرف. أعرف ذلك حقاً.»

رد إد:

– «فلنطوِ الصفحة، ما حدث قد حدث.»

سأل سام:

– «إلى أين سيرسلونها تالياً؟»

أجاب برادلي:

– «حسنًا، مع كل تلك الانتقادات التي وجهتها لها اللجنة، لا أعرف. لم تُجبر على العمل المكتبي بعد، لكنهم قد يضعونها في "الثلاجة" لفترة.»

كان هذا، من لسان برادلي، أول ما سمعه سام عن تعرض الزعيمة لضغوطٍ بسبب قراراته في سوريا.

استفهم سام:

– «ماذا تقصد؟»

قال برادلي:

– «حسناً، لقد كالوا لها بعض الاتهامات يا سام. ولأكون صادقاً، لقد جلبَت ذلك لنفسها.»

ألحَّ سام:

– «يا إد، هيا يا رجل. أخبرني فحسب.»

لم يرغب برادلي في التحدث — تساءل سام عما إذا كانت اللجنة قد نالت منه هو الآخر بسبب القصة برمتها — لكنه قدم بعض التوضيحات. أولاً، أن أرتميس بروكتر قد تحملت، فعلياً، المسؤولية عن كل قرار عملياتي في تلك الأيام السورية الأخيرة، وأنها ضمنت شخصيته ضماناً كاملاً وشاملاً — قال برادلي إن بروكتر جمعت ملفاً يضم حوالي عشرين شهادة من زملاء سام لتثبيت هذه النقطة — وشهدت بأن سام قد اعترف بعلاقته مع السورية من تلقاء نفسه. لقد قال الحقيقة، تلك القيمة الأثمن والأكثر جوهرية في عالمٍ يتقاضون فيه الأجر خارج جدران لانغلي ليكذبوا ويسرقوا.

سأل سام:

– «لماذا فعلت كل ذلك؟»

أجاب برادلي:

– «لقد أخبرتك، إنها ليست طبيعية.»

بعد ثلاث زجاجات جعة أخرى، اعترف برادلي بأنها فقدت منصبها القادم كرئيسة محطة. كانت بروكتر في فلوريدا تضمد جراحها، وربما تغرق في نوبة شربٍ هائلة.

تسلل الإدراك إليه لاحقاً، وعلى مراحل: أثناء رحلة العودة من المزرعة؛ في شقته وهو مستلقٍ لا يغلبه النوم؛ في نشوة «الإندورفين» التي تعقب جريه المسائي؛ وهو يحدق في برقيات المراسلات في صباح اليوم التالي. كان بإمكان الزعيمة أن تنسحب، أو تقف على الحياد، أو تلقي باللوم كله عليه وتغسل يديها من تلك المحنة. بدلاً من ذلك، دخلت الحلبة وبدأت في تسديد اللكمات.

بعد يومين، وبناءً على عنوان فندقٍ ورقم غرفةٍ قدمهما برادلي على مضض، كان سام على متن رحلة متجهة إلى أورلاندو. في تلك الأيام، لم تكن

تمتلك المقطورة بعد، بل نزلت في فندق «إيكون لودج» خارج كيسيمي. لم تكن تردُّ على هاتفها لأنه كان مغلقاً؛ بل يبدو أنها ذهبت إلى حد الاتصال بمزود الخدمة لتعليق الخط طوال الشهر. رأى سيارتها من طراز «RAV4» في موقف السيارات. صعد إلى الغرفة «202» وطرق الباب.

سمع زئير الزعيمة من خلف الباب، مصحوباً بصوت سحب المزلاج:

– «توقيتٌ سيئ يا ماجدة. لقد نسيتُ لافتة "عدم الإزعاج"» — انفتح الباب — «وعلى أي حال، متى... أوه!»

قال سام:

– «أهلاً، أيتها الزعيمة.»

ردت بروكتر:

– «ظننتكَ عاملة النظافة.»

قال سام:

– «فهمتُ ذلك.»

علقت قائلة:

– «حسناً، لقد فاتك مخرج "ديزني".»

اختلس نظرةً إلى الغرفة: كانت هناك قدمان تتدليان من طرف السرير. كيس من رقائق «فريتوس» منثورٌ على الأرض. الرائحة المنبعثة من الباب كانت مزيجاً من الملابس الرطبة والجعة الفاسدة. التقت عينا الزعيمة بعينيه، ثم التفتت إلى الغرفة لترى ما الذي يجذب انتباهه. خيل إليه أنه لمح وميض مفاجأة، كأنها لم تكن متأكدة تماماً مما قد تجده.

سأل صوتُ رجلٍ متألم من على السرير:

– «كم الساعة الآن؟»

فأجابت فتاة:

– «آه... اخرس.»

أطلَّ برأسه من الباب وقال:

– «يبدو أن المرح هنا أكثر منه في "ديزني".»

قالت بروكتر:

– «حسناً، الغرفة مشغولة.»

ثم أضافت وهي تنتعل صندلها:

– «أنت من سيقود، وأنت من سيدفع، وسوف تتولى أنت معظم الحديث يا جاغرز. خذني إلى "هارمونز".»

ثمة أناقةٌ معينة يتسم بها ضابط الاستخبارات في الميدان، لكن العودة إلى أرض الوطن قد تشبه دقات الساعة التي تعلن منتصف الليل لـ «سندريلا»، حيث يتحول الضابط إلى «يقطينة» من الرتابة والوسطية الطبقية. غير أن أرتميس أفروديت بروكتر لم تكن يوماً ممن يرضون بالوسطية؛ بل اختارت الانزلاق بضع درجاتٍ إلى الأسفل، نحو بؤسٍ استوائيٍ جامح.

كانت خياراتها في الملابس في دمشق غريبة — أقمشة لا تناسب الفصول، وألوان لا تناسب أي شيء — لكنها الآن جنحت إلى أبعد من ذلك: سروال دراجات ضيق، قميص داخلي أبيض (بلا حمالة صدر)، صندل «بيركنستوك»، وقبعة فريق «إنديانز» تكسوها بقع الشحم.

خلال الطريق إلى «هارمونز»، لم تسأله لِمَ جاء. بدا وكأنها تفترض أن لا حاجة للمقدمات، ولا للأحاديث الجانبية من قبيل «كيف حالك؟». وكعادتها، انطلقت في الحديث وكأنه كان معها في فلوريدا منذ أسابيع: سلسلة من الشكاوى والمدائح لخادمات الفندق؛ سيلاً من اللعنات لابن عمها الذي يمتلك حديقة تماسيح أو شيئاً من هذا القبيل، ولم تكن محددةً بشأنه، ولا بشأن قائمة تظلماتها الطويلة.

كان «هارمونز» حانةً تتباهى أيضاً ببوفيه إفطارٍ يغصُّ بزبائن يسيرون بخطىً حثيثة نحو مرض السكري. كان جميع العاملين يبتسمون وينادونها باسمها، واقتربت بروكتر من البوفيه بيقينِ من يباشر عملاً في مطبخه الخاص. أعدت الزعيمة لنفسها طبقاً يفيض بالطعام — لم تضع لحظةً واحدة في التفكير في اختياراتها — وانضمت إليه في ركنٍ هادئ، حيث كان سام يرتشف قهوةً

سوداء ويتناول وجبته الأكثر تعقلاً: بيض مخفوق، أصابع نقانق، وقطعتين من الخبز المحمص.

رصفت أربع قطع من لحم الخنزير المقدد فوق قطعة من «الوافل». وفوق اللحم وضعت قطعتين من الدجاج المقلي، غمرتهما بالشراب المحلى وصلصة كريمية شمَّتها بعناية قبل أن تقرر أنها صالحة للأكل. ثم وضعت أربع قطع أخرى من اللحم المقدد فوقها، ثم قطعة «وافل» ثانية لتكتمل التحفة الفنية.

ارتشفَت بروكتر من قهوتها، ثم بحثت في الطبق، وعلى الطاولة، وفي المقعد. تمتمت قائلة: «لابد أن الشيء اللعين قد سقط. لحظة واحدة». ذهبت إلى البوفيه، حيث التقطت حبة فراولة واحدة لتضعها فوق «الوافل». أمسكت بأدوات المائدة، وتنهدت، وقالت وهي لا تزال تحدق في طبقها:

– «لم تستقل، أليس كذلك؟»

أجاب سام:

– «لا.»

قالت:

– «يا للهول، يا للهول.»

قبل أن تبدأ في تقطيع «الوافل» لتأخذ لقماتها الأولى، قائلةً إنها أصبحت تجوع أكثر هذه الأيام، وتقضي وقتاً طويلاً في صالة الألعاب الرياضية ولا يبدو أنها تحصل على ما يكفي من السعرات الحرارية. ثم أردفت:

– «لكنني سعيدة لأنك لم تستقل. كان ذلك سيزعجني بشدة. ما الذي جاء بك إلى فلوريدا القديمة؟ هل هي زيارة اجتماعية؟»

قال سام:

– «أنتِ لا تردين على مكالماتي.»

أجابت:

– «أحياناً لا أردُّ على المكالمات.»

استفهم:

– «لماذا؟»

قالت:

– «أنا في حالة ذهنية مختلفة الآن يا جاغرز، ولا أجيد تعدد المهام جيداً. نحن نتحدث الآن، أليس كذلك؟ ما الخطب؟»

قال سام:

– «تحدثتُ مع برادلي. وبعض زملائي القدامى في "المزرعة". سمعتُ كيف دافعتِ عني بقوة أثناء عملية اللجنة. لم أكن أعرف. أردتُ أن أقول شكراً.»

قالت وهي تركز بوضوحٍ تام على تقطيع قطعة دجاج:

– «حسناً، على الرحب والسعة. لكن كان بإمكانك قول ذلك في رسالة صوتية.»

رد سام:

– «شعرتُ أنه أمرٌ يجب أن يُقال وجهاً لوجه.»

بأصابعها، التقطت حبة الفراولة الساقطة من طبقها وألقتها في فمها، ومنحته هزّة كتفٍ تقول: «كما تشاء يا رجل».

قال سام:

– «سمعتُ أنكِ فقدتِ منصب الزعيمة...»

قاطعته قائلة:

– «يا للهول، ليس هذا الهراء ثانيةً. فلنتحدث عن شيءٍ آخر.»

أصرَّ سام:

– «لا. أريد التحدث عن هذا. سمعتُ أنكِ فقدتِ المنصب في عمان بسببي. وأنا...»

قالت وهي تصدر صوتاً رطباً وتمسك أدوات المائدة بحماس:

– «خاطئ، كل هذا خاطئ! خطأ! خطـ...»

قال سام بانفعال:

– «تباً، اصمتي لثانية واحدة. أردتُ أن أقول إنني آسفٌ لذلك. أردتُ أن تسمعي ذلك مني.»

كانت الآن تغرس شوكتها في قطع الدجاج و«الوافل» المبللة بطاقةٍ محمومة.

– «حسناً، حسناً، حسناً تباً. يمكننا فعل هذا يا جاغرز. لقد طرتَ إلى فلوريدا من أجل الدراما وسأمنحك إياها، بما أنك أصبحت متأملاً في سنواتك الذهبية.»

أخذت لقمةً وحشية من الدجاج و«الوافل»، ومضغتها لعدة ثوانٍ.

– «تم تأجيل جولتي» — وهو التعبير الذي ستستخدمه بدقة ثابتة في الأيام التالية — «بسببي أنا. ليس بسببك. بسببي. ليس الأمر متعلقاً بك دائماً يا جاغرز، كم مرة عليَّ أن أقول ذلك؟ كان الأمر بسببي. والحقيقة هي أنه بسيطٌ جداً. يبدو أن المقر الرئيسي يحب هذه الأيام تحويل الأمور البسيطة إلى شطرنج ثلاثي الأبعاد أو مكعب "روبيك" مدهون بالزيت، لكن أحياناً تكون الأمور البسيطة مجرد ذلك: بسيطة. أنت ضابط عمليات جيد أخطأ، وهذا المكان يسمح بخطأ واحد، طالما أنك اعترفت. وهو ما فعلته. معي.»

وضعت شريحة كاملة من اللحم المقدد في فمها، وهي تنطوي على نفسها كقطعة علكة لحمية، وصمتت طويلاً حتى ابتلعتها.

– «الآن، وبغض النظر عن كل ذلك، فإن جهاز مخابراتنا الودود وأسياده المترهلين يفضلون أحياناً إلقاء اللوم في كارثةٍ ما على روحٍ واحدة جريئة قبل أن يروها الباب. يكومون آثام القرية اللعينة...»

أصابتها نوبة سعال، لم يوقفها إلا وصول نادلة تحمل أكبر كأس من عصير البرتقال رآه سام في حياته.

– «بارككِ الله يا ساندرا، باركك الله. إنها دمية يا جاغرز، واحدة من الأخيار. أين كنت؟ آه نعم: الخطايا. أحياناً تجد لانغلي أنه من المناسب تكويم كل الخطايا على تيسٍ واحد ونحر عنقه. لقد رأيتُ هذا الفيلم، والرب يعلم أنني رأيته، ونعم، كان من الأسهل التواطؤ وترك ذلك يحدث لك، لأنك أخطأت، حقاً وصدقاً. ولكن أتعلم؟ كنتُ أنا الزعيمة هناك» — أغمضت عيناً واحدة لتركز في تقطيع الطعام — «وكنتُ أنا المسؤولة. مسؤولة عن مؤخرتك

البائسة وقراراتك البائسة. كما أنني وقعتُ في حبٍ من قبل وأعرف كيف يكون ذلك؛ محكوماً عليه بالفشل وجميلاً في آنٍ واحد. أنا أتفهم الأمر. هناك شيءٌ يسمى الشرف، بين اللصوص وأيضاً بين الأصدقاء.»

انتهى الخطاب، ونهبَت طبقها، وقالت إنها بحاجة لاستخدام دورة المياه، واختفت لما يقرب من عشر دقائق.

سأل سام بعد عودتها:

– «بمن كنتِ واقعة في الحب؟»

اندفعت يد الزعيمة نحو السماء ونادت:

– «ساندرا، أحضري الحساب لهذا الشاب. وأنت يا جاغرز: اذهب للجحيم. نحن بصدد قضاء بضعة أيام من الشرب، وربما رحلة إلى "ديزني" إذا أحسنت التصرف. هناك متسع من الوقت لتغطية كل ذلك لاحقاً.»

***

لم يتطرقا للأمر أبداً، ولم يظن أن من الحكمة إثارته ثانيةً، رغم أنه بات يعتقد أنه كان أحد أصدقائها القدامى. والآن، بعد عقدٍ من الزمن، كان رئيس سام، وعضو عصبة بروكتر، غاس رابتيس، هو من يجلس على الطاولة بجوار ممثل الموارد البشرية ويدلي بالخبر بوقار:

– «بعد مراجعة كل هذا، نرى أن من الأفضل لك أن تستقيل يا سام. لقد قضيت فترة جيدة؛ نجاحات هائلة في التجنيد، وبطولات مشهودة، ومسيرة حافلة.»

استفهم سام:

– «ولماذا هذا إذن؟»

أجاب غاس:

– «الأطباء لا يعتقدون أنك ستتمكن من...»

قاطعه سام:

– «أي طبيب؟»

تحدث غاس متجاوزاً إياه بوضوح:

– «دعني أكمل. لا يعتقد فريق الصحة النفسية والذهنية أنك ستتمكن من إدارة العمليات الميدانية مرة أخرى. وأنا أعلم، من خلال مراجعتي المكثفة لسجلات أدائك، أنك لا ترغب في سلسلة لا تنتهي من الوظائف التي لا معنى لها هنا في المقر الرئيسي. هل أنا محق؟»

قال سام:

– «لا أفهم من أين يأتي هذا يا غاس. ماذا قال الأطباء بالضبط؟»

قال غاس:

– «سيستمر وصولك إلى علماء النفس والمستشارين. ونحن لسنا وحوشاً، سندفع لك راتب الأشهر الستة القادمة لتجلس في المنزل حتى تجد وظيفة أخرى. لكننا سنقطع صلاحية وصولك. والأمر ليس كما تظن، أرى ذلك على وجهك. ليس هكذا. كل ما في الأمر أنني أعرف أنني إذا سمحتُ لك بالبقاء هنا، في هذا القبو، مع الاحتفاظ بصلاحياتك، فستستمر في المحاولة، على أمل أن يكون التأهيل يلوح في الأفق كما في السابق، وأن تعود إلى إحدى المحطات في غضون عامٍ أو نحو ذلك.»

حتى هذه اللحظة، كانت حواس سام مخدرة، وكأن كل هذا كان نظرياً، ربما مناقشة حول ضابط سيئ الحظ آخر داست عليه عجلات هذا المكان. غمره الغضب. كان يهوي في تلك الهاوية غير المجدية والعميقة للغاية: لقد أعطيتُ هذا المكان كل ما لدي والآن ينتهي الأمر هكذا؟ كانت قبضته قد انكمشت. لم يكن يفكر في أسره الروسي في تلك اللحظة، لكنه شعر بوخزه، وشعر به مضاعفاً لأنه، بعد دفعه إلى الخارج، كان من الصعب للغاية — أكثر من المعتاد — إيجاد أي معنى منطقي لما كان كل ذلك من أجله.

قال سام وهو يكاد يخرج الكلمات بصعوبة:

– «أليس هناك متسع لقرارٍ آخر؟ لاستئناف؟»

قال غاس ببرود:

– «أخشى ألا يوجد يا سام. لقد وقع نائب مدير العمليات على الأوراق. الأمر انتهى.»

***

عندما فتح سام باب منزله، كانت ناتالي تغني في المطبخ. اصطدمت به روائح لحم الضأن والزعتر والبقدونس. ما تلك الأغنية؟ أياً كانت، فقد كانت سعيدة. ألقى حقيبته في الردهة وعاد للخارج لجمع البريد. ذلك الإحساس الخارق للعادة بأنك طُردت من وظيفتك — من حياتك في الواقع، فثمة حياةٌ قد انتهت — اصطدم بتجربة ناتالي وهي تعرض طهي العشاء له الليلة، في يوم ثلاثاءٍ عشوائي.

نادت من المطبخ بالعربية، لغة خلوتهما المنزلية:

– «حبيبي، أهلاً؟»

ارتبك عندما نادته «حبيبي». في الآونة الأخيرة، استثمر سام طاقةً كبيرة في إجبار نفسه على عدم التفكير في سبب كرهه لهذه الكلمة. والسبب هو أن مشاعرها تجاهه قد تجاوزت مشاعره تجاهها بوضوح. كان ينوي إبقاء الأمور عابرةً وبلا قيود، وترك العلاقة تتلاشى عندما يُرسل حتماً إلى الخارج، ولكن الآن؟ لقد جُرِّد من غطائه العملياتي الذي كان يتجنب به حبها.

نادت ثانيةً:

– «حبيبي؟»

فانقبض فكه لا إرادياً.

كان سام يدرك أنه يعبث بأمورٍ عميقة هنا — فهو أكثر من يفهم ظل الرغبة الطويل. في سوريا، اقترنت الرغبة بالحب أيضاً. أما مع ناتالي، فقد بدأت كملل، ثم استمرت بعد سجنه بدافع الخزي. لم يظهر الحب بعد، على الأقل من جانبه. كانت ناتالي مثاليةً جداً، ومركزةً بمحبة على إعادة دمجه في الجنس البشري. كره نفسه لرغبته في إنهاء الأمر. من هو ليلقي جانباً بمعلمةٍ لبنانية أمريكية مخلصة بشدة، ومتزنة، ولديها ابتسامة تشبه الضوء المنهمر في غرفة؟ بصيغة أخرى: حقاً، ما خطبي؟

نادى وهو يحرص على ألا يتلعثم في الكلمة:

– «أهلاً يا حبيبتي.»

عاد إلى الردهة وألقى البريد على طاولة الممر.

– «الرائحة مذهلة هنا.»

بحلول الوقت الذي دخل فيه المطبخ، وقبلها، وشمر عن سواعده، وبدأ يساعد في تحضير اللحم وترتيب الطعام، كان قد نجح في إقناع نفسه بأنه سيتجاوز قصة الطرد، ويستمتع بالعشاء، ثم ينسحبان إلى غرفة النوم؛ المكان الوحيد الذي كانت فيه العلاقة تسير بشكل جيد بالنسبة له.

عندما جلسا إلى الطاولة، كانت الصدمة الأولية للطرد قد تحولت إلى غضبٍ مكتوم أحال جوعه إلى رماد. الجاسوس المندس (الخلد MOLE[28]) هو من كان وراء طرده؛ فهراء غاس لم يكن له معنى بخلاف ذلك. لم يرغب في التحدث عن الأمر مع ناتالي. لقد رأى هذا الفيلم عندما عاد من موسكو. ستطرح كل أنواع الأسئلة، والأمر برمته سيذكره بأنها تحبه. الليلة، كان يشتعل بمشاعر سوداء كثيرة تمنعه من تكويم الخزي فوق جمر الغضب.

سألت بابتسامتها الكبيرة والجميلة:

– «كيف كان يومك؟»

قال وهو يلتقط سيخاً من اللحم:

– «جيد. ممل.»

***

بعد العشاء خرجا للمشي، واشتريا قطع «كاب كيك» بلا سبب، ولأنه لم يكن يملك ذرةً من ضبط النفس — ولأنه كما قالت إحدى صديقاته السابقات، كان أحمقاً منقاداً لغرائزه — مارسا الحب، متنقلين من الأريكة إلى الطاولة إلى السرير، قبل أن يستقرا لمشاهدة تلفزيونية خالية من التفكير والتأمل في التكتيكات التي قد يستخدمها للتأثير عليها لترحل وتظن أن الفكرة كانت فكرتها.

[28] الخلد (*Mole*): في عالم الاستخبارات غالباً ما تعني جاسوساً مزروعاً، ووجه الشبه يكمن في قدرته على الحفر والعمل "تحت الأرض" (في الخفاء) لفترات طويلة لتقويض المؤسسة من الداخل دون أن يراه أحد.

في هذا الصدد، لم يكن متفائلاً. صنع مشروب «المارتيني»، وراحا يرتشفانه من الأرائك وسط استعراضٍ فاتن لذروة الشراهة: «نتفليكس» يعرض، والمشروبات تتدفق، وصندوق «الكاب كيك» الدهني ملقىً على طاولة القهوة بجوار غلاف الواقي الذكري. كانت ناتالي ترتدي رداءً مطرزاً بالنمور. انفتح الرداء عندما مالت نحوه، كاشفاً عن خصلات شعرٍ داكنة ومقدماً تشتيتاً عابراً لغضبه، الذي نضج طوال المساء ليتحول إلى حنقٍ صامت.

سمع رنين هاتفه من الحقيبة في الردهة — الهاتف الذي تتصل به الزعيمة. كان كأسه فارغاً، وبدأت يدا ناتالي تستكشفان إمكانية جولة ثانية، وهنا، من بين كل الأماكن، استجمع سام الشجاعة الأخلاقية ليرسم خطاً باهتاً ومتذبذباً، وهو أفضل ما استطاع فعله. أبعد يدها بلطف.

قال وهو ينهض:

– «يجب أن أردَّ على هذا.»

أجاب الهاتف:

– «أهلاً.»

قالت بروكتر:

– «لقد رتبت لنا بيترا لقاءً مع فرانكي.»

سأل سام:

– «أين سيكون الاجتماع؟»

أجابت:

– «في فيغاس. يبدو أن فرانكي يرفض السفر. يعتقد أن الناس يحاولون قتله، ولستُ متأكدةً من أنه مخطئ. هل تناسبك فيغاس؟»

قال سام:

– «فيغاس مناسبة. إنها مناسبة دائماً.»

قالت بروكتر:

– «لقد حُذرتُ من أن النقاش لن يكون مباشراً. حذرتنا بيترا بأن نتسلح بالصبر.»

رد سام:

– «مفهوم.»

سألت:

– «أين يجب أن نقابله؟»

أجاب:

– «أخبريه أننا سنكون في فندق بيلاجيو.»

استفسرت:

– «متى يمكنك الوصول إلى هناك؟»

فكر في ذلك؛ لا يزال يتعين عليه إخلاء مكتبه، وتوقيع أوراق الإفادة الختامية.

– «ليلة الخميس.»

قالت:

– «الخميس. ماذا سيظن غاس؟»

أجاب:

– «سيكون الأمر بخير.»

قالت:

– «حسناً إذن. سأخبر فرانكي. يمكنني أن أكون في بيلاجيو وقت العشاء تقريباً. نلتقي هناك.»

ثم أغلقت الخط. وجد ناتالي عند حوض المطبخ تملأ كأساً بالماء.

– «البيلاجيو؟ هل ستذهب إلى لاس فيغاس؟»

أجاب:

– «نعم.»

سألت:

– «مرة أخرى؟»

قال:

– «هذه المرة من أجل العمل.»

استفسرت:

– «أي نوع من التجسس يمارسونه في فيغاس؟»

قال:

– «النوع الممتع.»

الفصل التاسع والعشرون

دالاس

قطّعت ستائر غرفة المعيشة في منزل آل فينبل خيوط الغسق إلى قضبانٍ عنبرية نائمة على الأرض. كانت إيرين قد تناولت قطعةً من حلوى القنب المهدئة وانكفأت تقرأ رواية، بينما انصرف بيتر يصيخ السمع إلى أزيز الصلصة على الموقد، وهي تبثُّ في الأرجاء عطر الثوم والزيت.

قالت إيرين وهي تغرس فاصل الكتاب بين الصفحات بابتسامةٍ رقيقة:

– «أريدُ بعضاً منه قبل العشاء.»

نظر بيتر إليها، ثم رمق الصلصة التي بدأت تتكاثف فعلياً:

– «لا تزال بحاجة لبضع دقائق على أي حال.»

بسرعةٍ صاعقةٍ خاطفة، كان كلٌّ شيءٍ قد انتهى قبل أن يطلق مؤقت الصلصة رنينه المعهود؛ أنفاسٌ متلاحقة، وارتجافٌ في الساقين، وعرقٌ يتصبب على ظهره، بينما بدأت وسائد الأريكة ترتفع ببطء من المواضع التي غرزت فيها أصابعها. كانت تضحك؛ فكثيراً ما تضحك إيرين بعد ممارسة الحب، ضحكةً عميقةً تخرج من صدرها، يملؤها الودُّ وكأنها مذهولةٌ من حسن حظها.

تناولا عشاءهما بهدوء وهما بملابسهما الداخلية. تبخّر نصف زجاجة من النبيذ الأبيض بينما جلست هي في الشرفة تقلّب في تطبيق «إنستغرام»، والكلب ستالين يربض في حجرها. تناول بيتر حبة «أديرال» ليشدَّ أزره أمام حزمة من بيانات تخطيط الطواقم كان قد تجاهلها لأسابيع. وبعد وقتٍ طويل، ومع تلاشي مفعول المنشط الكيميائي، ضغط على أرنبة أنفه ورفع عينيه عن

حاسوبه المحمول ليجد إيرين بجانبه على الأريكة، والتلفاز يواصل عرضه، وستالين غارقٌ في النوم عند قدميها. كانت الساعة قد بلغت منتصف الليل.

قالت وعيناها مسمرتان على الشاشة:

– «ربما حان الوقت لإجراء جولة تجريبية؛ عملية منخفضة المخاطر، لنشحذ العضلات ثانيةً.»

داهمت ذاكرته ومضةٌ خاطفة من أحداث أوكلاهوما فقلبت معدته. التقطت إيرين زجاجة طلاء أظافر من طاولة القهوة وبدأت تلون أظافر قدميها. لطالما استمتع بمراقبتها وهي تفعل ذلك؛ فتلك الدقة والألوان كانت تسحره، والأكثر من ذلك، كان يحب الطريقة التي تسند بها ذقنها على ركبتها أثناء العمل. ركز بصره على طلاء الأظافر حتى انقشع ضباب أوكلاهوما وتلاشت غمة الغثيان. كانت قد اختارت لوناً أزرق مائياً، لوناً لم يره من قبل، ولم يظن أنه أعجبه.

***

في رحلة تسوقٍ انتهت بتناول السلطة في ركن الطعام المبهج بمركز «نورث بارك» التجاري، اشترى بيتر وإيرين أقنعة تزلج وقفازات ونظارات شمسية ضخمة وأحذية خفيفة وقمصاناً فضفاضة وسراويل تكتيكية.

قالت إيرين وهي تغرس شوكتها في حبة طماطم:

– «نحن عملةٌ نادرة يا حبيبي؛ نادرةٌ لأننا أذكياء وأكفاء، والأهم من ذلك، لأننا مستعدون.»

في اليوم التالي، وكان يوم اثنين، كان بيتر قابعاً في مقصورته المكتبية داخل المقر الفسيح لشركة الطيران خارج مطار «لوف فيلد». كان يضع اللمسات الأخيرة على تقريرٍ حول أوقات دوران الطائرات في كل محطة، لكن عينيه كانت تائهتين. ترددت كلمات إيرين في أعماقه، وأدرك أنه يكافح للتوفيق بين صورة بيتر فينبل الذي يسكن خياله، وبين ذلك الرجل الذي يصحح خطأً في معادلة «إكسيل» يؤثر على الخلية «AB112».

***

كان هناك متسولٌ ينام تحت جسر الطريق السريع، لا يبعد أكثر من عشر دقائق عن منزل آل فينبل، لكن ذلك الرجل كان يبدو وكأنه في كوكبٍ آخر. كانت المنازل القريبة مائلةً ومتداعية، والنفايات تتقاذفها الرياح في الشوارع، والهواء مخنوقٌ برائحة البول والديزل وعوادم السيارات التي تغذيها حركة المرور التي لا تهدأ فوق الرؤوس. راقب بيتر وإيرين المكان ليلتين، وفي كلتيهما وجدا النمط نفسه؛ بحلول منتصف الليل، يكون الرجل قد التفَّ في كيس نومه الرث، وكان دائماً وحيداً.

ليلة الخميس، وبعد العمل، تناولا البيتزا في صمت وهما واقفان بجانب طاولة المطبخ. أطعمت إيرين ستالين قطعةً من أطراف العجين، بينما شرد ذهن بيتر نحو الأخلاق، وهو موضوعٌ لم يمنحه الكثير من التفكير المتواصل من قبل. كان رجل أرقام، والآن راح يستعرض الأرقام، يجمعها، يخلق النظام من الفوضى، وبذلك يخمد موجات القلق التي كانت تعصف بضميره طوال اليوم. كم من هؤلاء سيموتون بسبب جرعات زائدة أو عنف عشوائي على أي حال؟ كم منهم لديه عائلة تبكيه؟ ثم فكر: وكم عدد الروس الذين لقوا حتفهم في الحرب؟ العالم عشوائي ولا معنى له على أي حال، وهذا الأمر — لنكن صادقين — مجرد هباءٍ منثور. لا يهم. هذه حشرةٌ سُحقت في غابةٍ نائية. جنينٌ يموت في الرحم، أو أثناء الولادة، طفلٌ يغرق في مسبح، مراهقٌ يقتله سائق مخمور، قلب رجل يتوقف فيموت في سريره في التسعين، أو يُطعن وهو نائم — الكل سواء. وضع شريحة كاملة على الأرض لـ ستالين، فزجرته إيرين بلسانها معاتبة.

في الخزانة، ارتديا السراويل التكتيكية والقمصان الفضفاضة، ووضعا القفازات وأقنعة التزلج في جيوبهما.

قالت إيرين وهي تتفحص مظهرها في المرآة الطويلة:

– «سأفعلها أنا.»

سأل:

– «لماذا؟ يمكنني فعلها.»

أزيز خزنة الملابس انطلق، سحب المزلاج، فأخرجت إيرين النصل المغمد ودسته في جيب سروالها:

– «لأنني أريد ذلك.»

***

تولى بيتر القيادة. تسربت بضع قطرات من البول في سرواله، وكانت مثانته تؤلمه رغم أنه أفرغها مرتين قبل مغادرة المنزل.

قالت إيرين:

– «أجد صعوبةً في التنفس.»

سرق نظرةً إلى وجهها المتوهج تحت ضوء إشارة المرور. أدرك أن خلف ذلك الضيق في صدرها تكمن الإثارة؛ ذلك الرعب الممتع الذي يشعر به المرء وهو في قمة الأفعوانية وهي تصرُّ متجهةً نحو المنحدر. حاول قول شيءٍ مشجع، لكن الكلمات استعصت عليه، فقد كان حلقه ينقبض من فرط الرعب الخالص.

عندما وصلا إلى الجسر، كان المكان خالياً؛ اختفت عربة تسوق الرجل وكيس نومه.

قالت إيرين وهي تطوي ذراعيها فوق صدرها:

– «تباً، يا للسخف!»

انطلق بيتر في الطريق الذي خططا له، حريصاً على البقاء تحت السرعة المحددة. نظر بحزنٍ إلى زوجته التي بدت وكأنها تقرأ أفكاره.

قالت وهي تحدق من النافذة:

– «لا بأس، يمكننا تجاوز الجولة التجريبية.»

استنشق بيتر الصعداء:

– «هل أنتِ متأكدة؟»

شعر فجأة بجوعٍ نهمٍ، وأراد أن يبتسم.

قالت بضيقٍ طفولي:

– «نعم، لا بأس. سيكون كل شيءٍ على ما يرام.»

توقف عند إشارة مرور واختلس نظرةً أخرى إلى إيرين. كانت الدماء تتدفق في وجنتيها، وبدأت ملامح الخيبة تزحف على وجهها.

سألها:

– «ما الخطب؟»

– «لا شيء.»

– «إيرين؟»

– «لا شيء. قُد فحسب.»

***

يوم الجمعة، أرسل بيتر بضع رسائل بريد إلكتروني أخيرة، وانتهى يوم إيرين المرهق عبر تطبيق «زوم». لعبا مباراة تنس زوجي مع الجارين، دوغ وزوجته ليزبيث، اللذين عادا للتو من «بريكنريدج». وبعد أن أجهز الجراح الماهر وزوجته على آل فينبل سيئي الحظ، ذهب الجميع لتناول سندويشات التاكو واحتساء مشروبات «مامبو تاكسي»، واستمعوا إلى ليزبيث وهي تسرد بصوتٍ متثاقل شرحاً طويلاً لمشاكلهم في بناء منزلهم الثاني في «بريك»: أسعار المواد المشتعلة، المقاولون الذين يتحركون ببطء السلحفاة، والعمال الذين لا يظهرون أبداً في مواعيدهم.

قالت وهي تنهي مشروبها لتتوقف عن التذمر:

– «المشاكل لا تنتهي يا رفاق، لا تنتهي أبداً.»

كان بيتر يدرك تماماً مكانتهم المتدنية في الهرم الاجتماعي. فـ دوغ طبيبٌ ريادي يحمل شهادةً من مدرسة الطب بجامعة «ستانفورد»، يمتلك سيارتي «بورشه»، وثلاث عيادات، وتجري في عروقه دماء أربعة أجيال من عائلات دالاس. أما ليزبيث، التي كانت ممرضةً سابقاً ولم تعمل منذ أن أنهى دوغ فترة إقامته، فكان جلُّ اهتمامها ينصبُّ على دروس الدراجة الثابتة في الصباح المتأخر. كانت قد أجرت عملية تكبير وترميم لصدرها في العام السابق، واستنتج بيتر أن تلك العملية كانت أقل إزعاجاً بكثير من بناء المنزل الثاني في «بريك».

وافق بيتر ليزبيث بأدب، متظاهراً بالاستياء من أجلها وهي تروي صعوبة العثور على مقاولٍ جيد ـ في «بريك» يعرف كيف يطبق طلاء «فينيسيان بلاستر» كما يجب. نظر إلى دوغ وهو يبتسم لهاتفه، وكأنه أطلق ريحاً سرية تحت الطاولة. ربما كان تأثير الكحول، لكن ـ في تلك اللحظة، شعر بيتر لأول مرة بالتفوق على هذا الرجل. كان يعرف سراً عظيماً لا يعرفه دوغ؛ لقد وجد ثقباً دودياً ـ في الغلاف الجوي الاجتماعي قذفه هو وإيرين فوق هذين الأمريكيين الأحمقين اللذين لا يدركان شيئاً.

لكي تخون، لا بد أن تنتمي أولاً.

أعرفُ حقيقةَ نفسي، هكذا فكر، ولستُ واحداً منهم.

***

وكما جرت عادتهما، شرع آل فينبل تلك الليلة ـ في مشاهدة التلفزيون الحكومي الروسي عبر شبكة «VPN» على حاسوب بيتر المحمول.

شاهدا ندوةً حية يتجادل فيها الضيوف حول مدى سيطرة الأمريكيين وأتباعهم ـ في حلف «الناتو» على الحكومة الأوكرانية. وتراوحت الإجابات بين «غالباً» و«كلياً». لاحقاً، شرح رجلٌ مترهل الوجنتين يرتدي ربطة عنق زرقاء لامعة — بصفته خبيراً ـ في الشؤون الأمريكية — كيف أن الولايات المتحدة تعيش بالفعل حالة حرب أهلية، وأن خطوط المواجهة مرسومةٌ ـ في أعماق كل قلبٍ أمريكي، وأن النقاء الروسي، وربما الأرض نفسها، سيضمنان لموسكو ميزةً استراتيجية ـ في التنافس الجيلي والروحي مع واشنطن.

وبإرشادٍ من أحد المعلقين التلفزيونيين إلى مدون روسي جديد، قضى بيتر وإيرين ساعةً أخرى ـ في مشاهدة مقاطع فيديو لفظائع ارتكبها نظام «كييف» النازي الخارج عن القانون، وهما يحتسيان مشروب «المارغريتا» من خلاطٍ اشترياه ذلك الأسبوع من متجر «ويليامز سونوما». كانت هناك عشرات المقاطع التي تعرض عظام الضحايا الروس: جماجم، وعظام فخذ، وأقفاص صدرية مغطاة بالتراب.

ومع الجولة الثانية من «المارغريتا»، انطلقت إيرين في محاضرةٍ عن جدها الأكبر الذي حارب وقتل النازيين في روسيا وأوكرانيا وبولندا وألمانيا، ورأى بعض المعسكرات أثناء الزحف نحو برلين.

قالت وهي تلعق الملح عن حافة كأسها:

– «التوسع النازي حتميةٌ تاريخية وجغرافية. أقول هذا بصفتي روسيةً ويهودية.»

جلست على الأرض مربعةً ساقيها؛ وتعلق بصره ببشرتها الشاحبة عند أطراف فخذيها.

قالت:

– «ماذا سنقول لأطفالنا عندما يسألوننا؟ هل سنقول إننا كنا نسترخي في تكساس، نلعب التنس مع دوغ وليزبيث، ولم نفعل شيئاً بينما النازيون يقتلون الروس — مرة أخرى! — على حدود الوطن الأم؟ هل سنقول إننا وقفنا مكتوفي الأيدي بينما كانوا يمزقون العالم الروسي وينشرون فيه النازية ويقتلون أولادنا في عقر دارهم؟»

هزت إصبعاً مهدداً رداً على سؤالها:

– «والدك عامل نظافة يا بيتر، ووالدي وحشٌ ينتحل صفة مهندس ميكانيكي.»

هنا اعتدل بيتر في جلسته، لأن إيرين لا تحب التحدث عن والدها، ولم تره منذ عقدٍ من الزمن منذ فرارها من «شيبسهيد باي».

تابعت قائلة:

– «لكن هل تعرف ما المشترك بينهما؟ إنهما جبانان. عندما اشتدت الأمور، هربا من روسيا ليمثلا دور الأمريكيين. وها هي النتيجة: حدٌّ أدنى من الأجور، وحدٌّ أقصى من الاحتقار. والدك» — قالتها بازدراء، فهي تمقت والده — «بتلك الأعلام الأمريكية السخيفة التي ترفرف من حافلته الصغيرة، ودروسه في المواطنة. هراء "أرض الأحرار وموطن الشجعان وفطيرة التفاح"! بعد كل هذا، هل تعرف ماذا؟ لا يحتاج دوغ وليزبيث إلا لسماع لهجته

الكاريكاتورية المضحكة، أو رؤية أنفه الأحمر بفعل الكحول، أو شم رائحة ماء الجلي المنبعثة منه، ليصنفاه على أنه مجرد شيوعي سكير رخيص. يمكننا أن نفعل ما هو أفضل. لقد جاءوا إلى هنا من أجل حياةٍ أفضل ومالٍ أكثر، وهم لا يملكون شيئاً في الحقيقة. في النهاية هذا كل ما حصلوا عليه. يمكننا فعل ما لم يفعلوه. يمكننا القتال.»

وقفت متجهةً نحو خلاط «المارغريتا»:

– «سأتناول كأساً أخرى.»

انهالت رسائل نصية متلاحقة على هاتف عمل بيتر، حالة طوارئ بشأن وثيقة لمراجعة تنفيذية أسبوعية في شركة «ساوث ويست». وبينما كانت إيرين مسمرةً أمام الحاسوب، فتح بيتر حاسوب العمل لتعديل عرض «باوربوينت». وعندما انتهى، خرج للركض لمسافةٍ طويلة ليتخلص من أثر «التيكيلا» عبر العرق. وبينما كان يهرول، ألقى التحية على غريبٍ يسير مع كلبه، وأصاخ السمع لخشخشة الحي، ولاحظ غضباً يتصاعد بداخله تجاه اللامبالاة التي يبديها هذا العالم تجاه عالمه. ركض أسرع، نزولاً نحو الممر الخرساني المتعرج بجانب البحيرة البنية، وتحت أشجار البلوط المتشابكة. والربع ميل الأخير نحو المنزل ركضه بأقصى سرعة ممكنة.

مرَّ عبر غرفة النوم متجهاً نحو الحمام، فرأى وجه إيرين يتوهج شاحباً في ضوء الشاشة. كانت قد رفعت صوت فيديو آخر لمعركة: أنات، صرخات، كلمات روسية مضطربة ومرهقة. كان هناك كأس «مارغريتا» آخر ممتلئاً يتصبب عرقاً على الطاولة الجانبية. كان فكها مطبقاً، وعضلةٌ في رقبتها تختلج. لم ترفع عينيها. استحم لفترة طويلة وعندما عاد وجدها لم تتحرك، والكأس لا تزال كما هي، وأصوات طلقات الرصاص والانفجارات والصرخات تنساب من الفيديو. شاهد معها لفترة.

تمتمت قائلة:

– «الطريقة التي سنفعل بها الأمر ستكون بالغة الأهمية؛ رسالةً في حد ذاتها.»

سأل بيتر:

– «ماذا تقصدين؟»

كلبهم ستالين، الذي كان منكمشاً عند قدميها، قفز عن السرير وأخذ يئن بجوار باب الشرفة. فتحه له بيتر ليخرج.

قالت:

– «بعض الاستعراض قد يفيد. أعني، يجب أن يكون الأمر مثيراً للإعجاب، ليجذب انتباههم إلينا كجنودٍ جادين. أنا لا أمزح يا بيتر. يمكننا، حقاً، أن نحدث جلبةً كبرى.»

الفصل الثلاثون

لاس فيغاس

يشبه وقت الظهيرة في «فيغاس» تلك اللحظة التي يبزغ فيها الفجر داخل حانة: حيث تلاشى بريق الحفل ولمعانه منذ زمن، وحلّت محله روائح الأجساد المكدودة والأرضيات اللزجة. كان كل ما يحيط بسيارة الأجرة نصبًا تذكاريًا حيًا للقرارات السيئة: منشوراتٌ لصورٍ عارية تفرش الأرصفة كالسجاد، ورجلٌ ببدلة رسمية يبدو تائهًا وقد تعثر بمقعد في محطة الحافلات، ومجموعة من أربعة أشخاص ينامون مكبّين على وجوههم فوق طاولتهم في مطعم «دينيز». أومضت الإشارة باللون الأخضر، واندفعت السيارة بتباطؤ إلى الأمام، وعندما انحرفت نحو «القطاع» - الشارع الرئيسي - شعر سام وكأنه يصعد ممر منزله، عائدًا إلى دياره. قبل انضمامه إلى وكالة الاستخبارات المركزية، عاش هنا لموسم كامل يحترف لعبة البوكر. في الواقع، كانت «فيغاس» هي المكان الذي وقعت فيه عين كشّاف المواهب في الوكالة عليه لأول مرة، وكانت المكان الذي يشعر فيه بأكبر قدر من الانتماء خارج أسوار الوكالة. أدرك حينها، في ومضة يقين مجيدة، أنه بمجرد الانتهاء من هذا العمل مع بروكتر، سينهي علاقته بـ ناتالي، ويقضي بعض الوقت مع عائلته في مينيسوتا، ثم ينتقل إلى هنا للأبد. ليرى كيف سيكون طعم التجربة في المرة الثانية. لقد استنفد حيواته في الوكالة. وحان وقت جولة أخرى من اللعب. مرّت السيارة بجوار نوافير بيلاجيو، التي كانت مياهها تلعق وجه السماء نحو شمس الصحراء الساطعة الصافية

***

ألقى حقيبته في غرفته؛ كان يريد أن يزرع يديه، بأسرع ما يمكن، فوق قماش الجوخ في غرفة البوكر بفندق بيلاجيو.

لعب سام لساعات، في حالة من التوحد الروحي مع الورق والطاولة، مستمتعًا برقصة الباليه التي تدور بداخله، وباللذة العظيمة الناتجة عن حجب ضجيج الكازينو ومشتتاته، وكذلك حجب حياته: ردّ على مكالمة ناتالي برسالة نصية: «آسف، لا أستطيع التحدث الآن. أعمل». (بعد دقيقة، وإذ شعر بأنه كان مقتضبًا للغاية، أرسل لها رمز قلب قبل أن يغلق هاتفه). ثم عاد إلى النفق، ولم يخرج منه إلا لفترة وجيزة حين استحضرت الطاولة صورة جلوسه مع غوليكوف في سنغافورة، فوقف ليتمطى ويدخن سيجارة في الخارج. سرعان ما جرفت أوراق اللعب تلك الذاكرة التعيسة، فواصل اللعب، محققًا ربحًا تجاوز سبعة عشر ألفًا بحلول وقت متأخر من المساء، ممتطيًا ذلك الشعور الدافئ بأنه لا يمكن أن يخسر. لم يكن المال هو الهدف، بل كان مجرد وسيلة لحساب النقاط. الفوز كان هو الفكرة. وهو كان يفوز. طوال جولة امتدت لنحو عشرين "يدًا"، قاوم سام إغراءً شديدًا بأن يذوب في «فيغاس» لبضعة أسابيع، ليرى كيف يكون الشعور حين يضع العدالة والانتقام والواجب جانبًا ويعيش فحسب، إن كان شيء كهذا ممكنًا من الأساس.

حوالي وقت العشاء اتصلت «الزعيمة».

قالت:

– «تبًا لشركات الطيران. حسنًا، أنا هنا وأنا غاضبة من فرط الجوع. هل لا تزال تلك البوفيهات الضخمة اللعينة موجودة في هذه المدينة القذرة؟».

***

كانت البوفيهات، كما بدأ سام يدرك، تليق تمامًا بأسلوب «الزعيمة» وشخصيتها. كان بوفيه فندق Wynn يقع في ردهة شاهقة بطراز «آرت ديكو» مع مظلات حمراء زاهية تغطي المحطات، وأرضيات من الباركيه الرخامي الأخضر، وكراسٍ منجدة بقماش وثير ذهبي وحريري. كانت «الزعيمة» قد وصلت أولًا، وارتمت على طاولة خلف زوجين بائسين يتشاجران حول

خسائرهما في القمار، ومجموعة من السيدات يثرثرن بقلق حول عروس مفقودة.

عندما جلس سام، قالت بروكتر:

– «لا تؤاخذني يا جاغرز، أعلم أنك تميل إلى هذا المكان، لكن هذه المدينة غريبة عجيبة».

– «هذا حكم قاسٍ قليلًا من امرأة عنوان بريدها يقع حرفيًا في غاتورفيل».

غمزت له غمزة غريبة.

– «فلندع هذا البوفيه يقوم بعمله».

في الحقيقة لم يكن جائعًا جدًا، لكنه جمع تشكيلة خفيفة من السمك والأرز والخضروات، وشريحة وحيدة من الضلع المشوي. انزلق عائدًا إلى المقعد الجلدي الذي أصدر صريرًا. عادت بروكتر بطبق مكوم يبدو في حرب مع ذاته: مائدة متنوعة الأعراق تضم شطيرة برجر أمريكية وبطاطس مقلية مصطفة ضد لفائف بيض صينية، وبعض البقلاوة، وبضع حبات من المحار على الجانب علقت وسط رذاذ من الكاتشب المتناثر عبر الطبق مثل الدماء.

قضم قطعة من السمك وابتسم لإحدى النساء. كانت صهباء. كشفت ابتسامتها عن صف من الأسنان: ناصعة البياض، لكنها متعرجة بشكل لا يصدق.

قالت بروكتر، وهي تلتفت عائدة إلى سام:

– «يا للهول. لا يمكنني نسيان ذلك المشهد. وتلك السراويل الجينز».

أطلقت بروكتر صفيرًا خافتًا.

تابعت قائلة:

– «هذه أكثر سراويل الجينز انخفاضًا رأيتها في حياتي. هل أصبحن يخفضن مواضع أعضائهن الحساسة الآن؟ يا إلهي. كيف حال ناتالي بالمناسبة؟».

– «على حالها. بخير».

قالت بروكتر وهي تقطع شريحة محار:

– «هذان ليسًا شيئًا واحدًا».

– «هي على حالها إذن».

– «يؤسفني سماع ذلك. وأنا قد صرحت برأيي مسبقًا، كما تدرك جيدًا، لكنني سأقولها مجددًا، لأنني ولسبب غبي ما أهتم لأمرك. يا جاغرز، فقط لأنها حمقاء بما يكفي لتقع في حبك لا يعني أنك تملك الحق في تعذيب الفتاة المسكينة كنوع من الرياضة. أو لتهدئة المناطق الأكثر شعورًا بالذنب في ضميرك المنسوب للغرب الأوسط. اسمع، أنا أفهم الأمر. لا يمكنك منع نفسك. قراراتك متخبطة وتتمحور بضراوة حول نصفك السفلي. لكن، أرجوك، اترك الفتاة المسكينة خارج الأمر».

قال:

– «لا أعرف لماذا أخبرتك عن ناتالي».

– «ولا أنا».

ألقت الصهباء ذات الأسنان البارزة ورقة خُربش عليها رقم هاتف على الطاولة وهي تتهادى مارةً بجوارهم. أخذها سام بابتسامة. قلبت بروكتر عينيها.

قالت:

– «يا للصبر».

كانت بروكتر تضرب لفافة البيض بسكين الستيك حين ألقى سام بالخبر.

– «لقد طردوني».

هز وجهها تشنج من الغضب قبل أن يصبح خاليًا من التعبير. نظرت إلى حجرها، حيث أبقت عينيها لفترة طويلة قبل أن تعيد توجيههما إلى سام.

– «متى؟».

– «الثلاثاء».

– «من فعلها؟».

– «كان غاس هو الرسول. وربما هو من فعلها أيضًا، على حد علمي».

– «لكنك لا تعرف من الفاعل؟».

– «لا أعرف. وقّع سويت الأوراق ونقل غاس الرسالة. ليس لدي أي بصمات أخرى».

سألت وعيناها متسعتان وما تزالان مثبتتين على حجرها:

– «والسبب؟».

– «بعض الهراء حول كيف أن التقييمات النفسية استبعدت أي عمل ميداني مستقبلي، وأنهم عرفوا أنني لن أكون سعيدًا ما لم أكن في الميدان».

التقطت سكينها وشوكتها، وعادت بروكتر بتردد للعمل على لفافة البيض.

– «من الصعب تصور كيف كشفونا، بالنظر إلى الطريقة التي أدرنا بها العمل الاستخباراتي خارج المبنى».

قال:

– «لا بد أنها وثائق ريمورا. لكن لو علم أي شخص غير "الجاسوس" أنني أخذت تلك الوثائق، حسنًا، لكانوا فعلوا أكثر من مجرد طردي. وإذا كان "الجاسوس" يعرف أننا أخذنا تلك الوثائق...».

أشارت بروكتر نحوه بالشوكة المحملة بقطعة من لفافة البيض.

– «هذه أخبار جيدة. هذا دليل على أننا في المسار الصحيح».

– «سعيد لأنكِ تظنين أن النهاية المهينة لمسيرتي المهنية هي أخبار جيدة أيتها الزعيمة. لم أنظر للأمر بهذه الطريقة».

قالت وهي تقف حاملة طبقها:

– «حسنًا، هذا لأنك أنت من طُرد للتو».

كان حشد البوفيه قد خفّ: الطاولات والمقصورات المحيطة باتت فارغة. عبر الغرفة، جلس رجلان مسنان وطاولة لطلاب جامعة ملتصقين بهواتفهم، يثيرون جلبة. أعاد سام ملء قهوته، وعندما عاد كان الطلاب قد رحلوا، تاركين خلفهم صمتًا وادعًا كان لا يمت بصلة لروح هذه المدينة الذهانية والجميلة.

مازحها سام:

– «ألن تسأليني حتى عن حالي؟ هذا تبلد في المشاعر أيتها الزعيمة، بعد ما حدث. وأنا الذي كنت أظنك شخصًا اجتماعيًا».

قالت:

– «أنا أكره الناس. ثم: هلّا ارتديت "سراويل الكبار" وتصرفت بنضج؟ هل يُفترض بي أن أستفسر عن مشاعرك؟ هذا يشبه سؤال رجل قضم القرش ساقه: "كيف تشعر حيال كل هذا؟" مباشرة بعد سحبه إلى القارب. أتعرف كيف يشعر؟ يشعر وكأنه خسر ساقه اللعينة، هكذا يشعر. أنا لست غبية يا جاغرز، لا أطرح أسئلة لها إجابات أكثر مما ينبغي، أو الأسوأ، أسئلة لا إجابة لها على الإطلاق».

نظر إلى طبقه. ابتسم لكنه لم يشعر بالرغبة في ذلك.

قالت:

– «لكنني لست عديمة القلب. تريد وظيفة في غاتورفيل، لك ذلك».

– «لا يمكن أن تكون أسوأ من دحرجة الأوراق المكتبية في لانغلي».

– «الآن فهمت الأمر. قل لي» — حدقت بعيدًا للحظة، وانخفض صوتها إلى همس — «بالحديث عن الأوراق. من كان في "الغرفة الخلفية" عندما أخذت ملفات ريمورا؟».

– «الأربعة جميعهم. كانوا هناك لاجتماع. رآني كلهم في أحد المكاتب المفتوحة».

– «هل أولاك أحدهم اهتمامًا خاصًا؟».

– «ليس حسب ما لاحظت».

– «لكن الأربعة رأوك؟ غاس، ماك، ثيو، ديبس؟ كلهم؟ أنت متأكد من ذلك؟».

– «أنا متأكد».

جلسا لفترة في صمتٍ مشرع على مصراعيه، يراقبان مد وجزر رواد المطعم، ويستمعان إلى الرنين الخافت لماكينات القمار القادم من الطابق البعيد. قامت «الزعيمة» بجولة غارات أخرى عبر بقية البوفيه، وعادت بقطعة «مافن» بالشوكولاتة وحيدة.

كان ثمة سؤال يلحّ عليه منذ بضعة أسابيع، ولأنه لم يكن متأكدًا من كيفية التمهيد له، تركه ينطلق فحسب:

– «كنتم جميعًا معًا تلك الليلة في أفغانستان، أليس كذلك؟».

بروكتر، التي كانت قد رفعت قطعة الكعك إلى شفتيها، وضعتها دون أن تأخذ قضمة.

– «هذا صحيح».

– «هلّا أخبرتني ما الذي حدث؟».

لم تجب بروكتر. بدلًا من ذلك، التقطت الكعكة وأخذت قضمة بينما كانت تحدق بعيدًا نحو محطة الضلع المشوي.

ثم قالت:

– «تظن أنك تعرف شخصًا ما، لكنك في الحقيقة لا تعرفه. هناك شيء ما، أو شخص آخر، في الداخل مع صديقك. وذلك الشيء الآخر كان يراقبك لسنوات، لكنك لم تدرك وجوده أبدًا».

– «هل تؤمنين حقًا بأن أحدهم يمكن أن يكون "جاسوسًا"؟».

– «حتى الآن، ليس حقًا. لا».

قطب جبينه ناظرًا إلى قهوته.

– «لماذا تفعلين هذا إذن؟».

– «لأن أحدهم، بشكل شبه مؤكد، هو كذلك».

الفصل الحادي والثلاثون

لاس فيغاس

انشغلت بروكتر بقطعة الكعك للحظات، وعقلها يدور في دوامات من التفكير. أراد سام أن يسألها عمّن تظنه «الجاسوس» المتورط، لكن حدسه أنبأه بأنها، وإن كان لديها مشتبه به رئيسي بلا شك، لن تشاركه الاسم، ليس الآن على الأقل. ربما كانت «الزعيمة» لا تزال مترددة في السماح لتكهن كهذا بأن يمرّ عبر شفتيها.

بدلًا من ذلك، بدأت تتحدث عن أفغانستان. عن أصدقائها.

قالت:

– «في تلك الأيام، لم تكن الخدمة في مناطق الحرب مسألة "إذا"، بل مسألة "متى". وكان غاس رئيس القاعدة في شكين. ضغط علينا للانضمام إليه. كنتُ مطلقة. وثيو مطلق للمرة الثانية. ولولو كانت تمر بإحدى حالات شرودها، وكان يناسبها تمامًا أن يغادر ماك البلاد لفترة حتى يتسنى لها أن تعيش طيشها، وهو أمر يبدو أنه يحدث مرة كل عقد أو نحو ذلك».

سألها سام:

– «لكن سويت وغوسفورد لم يكونا متمركزين هناك؟».

– «لا. كانا هناك في زيارة قصيرة».

– «لماذا؟».

– «ذهبا لرؤية أحد العملاء. كان هذا بعد عقد من الزمن من أيام "المزرعة". كانت ديبس مساعدة غوسفورد، وكان هو يدير مركز مكافحة الإرهاب في تلك المرحلة. أراد غوسفورد مصافحة أفضل عميل لدى قاعدة

شكين، رجل ينقل تقارير عن خطط ونوايا طالبان. كان غوسفورد قد لعب دورًا ما في تجنيده ربما قبل عامين، حين كان في كابول، رغم أن التفاصيل ضبابية بالنسبة لي. وهكذا، وبنزوة مفاجئة في الواقع، جاءوا إلى قاعدتنا الأمامية المتداعية قرب الحدود الباكستانية، حصننا الذي يطل خلسة على أرض معادية، والخصوم يحيطون بنا من كل جانب. أراد غوسفورد رؤية هذا الرجل مجددًا، وزيارة شكين، لكنه لم يكن الاجتماع الأمثل ليحشروا أنفسهم فيه».

سأل سام:

– «ولمَ ذلك؟».

– «البند الأول على جدول الأعمال كان دفع الدية مقابل حمار. مهلًا. ألم أخبرك بهذه القصة؟».

– «لا، لم تفعلي».

أزاحت طبقها جانبًا ومالت بجذعها إلى الأمام مستندة بمرفقيها على الطاولة.

– «قبل نحو أسبوعين من ظهور غوسفورد وديبس، أقمنا حفلة خطوبة في القاعدة لإحدى ضابطات الحالة. فتاة تقدم لخطبتها زوجها الأول المستقبلي حين عادت للوطن في إجازة الراحة والاستجمام لثلاثة أسابيع. العميل المذكور أعارنا جملًا وحمارًا للحفلة. لم تكن لديه أدنى فكرة لماذا طلبناهما، لكنه وافق. حسنًا، سارت الحفلة كما سارت، وبالطبع كان الجميع غارقين في السكر، متجاوزين الحد الطبيعي بمراحل. كان لدى القاعدة بار أسطوري، أضواء عيد الميلاد معلقة طوال العام، وقبعات جميع الضباط الذين خدموا قبلنا معلقة على الجدار. تركتُ إحدى قبعاتي هناك لأجلهم. على أية حال، كنا نشرب في البار، ثم خرجنا إلى الساحات، ورحنا نمتطي الجمل والحمار. عض الجملُ ثيو، إن لم تخنّي الذاكرة. وبصق على غاس. وأطاح بـ ماك عن ظهره تمامًا.

أما الحمار فكان يعاني بصمت. ويبدو أنه كان طاعنًا في السن أيضًا، لأنه بعد أن ركبناه جميعًا، قامت العروس بجولة أخيرة عبر القاعدة على ظهر

الحمار، تلوح لنا جميعًا، في مشهد يشبه "أحد الشعانين"، كما تعلم، باستثناء أن الحشد هنا سكران، والراكبة ثملة وترتدي فستان زفاف مبهدلًا، وفي المرة الأولى التي لوحت فيها لمعجبيها المفتونين، مالت وسقطت مباشرة في الغبار. انقلب الحمار بعدها، غير أنه كان ميتًا. خرّ صريعًا. قتلته العروس المرتقبة. هناك تمامًا في تلك الحفلة اللعينة، في وسط قاعدة الـ CIA في شكين».

سأل سام:

– «ميت، ميت؟».

– «كجثة هامدة. استشاط العميل غضبًا بالطبع. فالحمار مصدر رزق. ولم نستطع إثبات أن الشيخوخة هي ما قتله. أعني، لا شك أن لها دورًا. لكن العوامل المباشرة لعبت دورها أيضًا. ساعات من العمل القاصم للظهر. والعروس لم تكن نحيفة جدًا، أتفهم؟ المغزى هو أنه كان علينا ديون لنسددها. حُدد موعد اللقاء مع العميل في مساء اليوم الذي حقنتُ فيه زبادي ديبس بالصلصة الحارة. كانت تتقيأ في تلك المرحلة، وعادت إلى المكاتب المفتوحة مع غوسفورد. وكان هناك "مجلس حرب" لمعرفة حقيقة ما جرى. فقال غاس: يا رفاق، اسمعوا، أنا لا أعرف شيئًا — قال "تبنًا"، إنه غاس على أية حال — عن ورطة الزبادي هذه (وكان ذلك صحيحًا)، لكن لدينا عمل تجسسي لنديره هنا، ولقاء كبير الليلة، و...».

قاطعها سام:

– «والجمل، هل كان بخير؟».

– «لم يمسه خدش. رغم أننا تمنينا جميعًا لو مات الجمل، نظرًا لرفسه وبصقه وعضه، وليس الحمار الصامت المسكين، الذي كان "حمار شغل" حقيقي طوال الحفلة. لكن لا عدالة في هذا الجانب من الأبدية، وهذا ينطبق على الماشية الأفغانية كما ينطبق علينا جميعًا. أين كنت؟».

– «لوجستيات لقاء الرجل...».

قالت:

– «صحيح. أصرّ غوسفورد أن نذهب جميعًا. شيء غبي حول أن كثرة الأعداد ستشعر العميل بالدفء والاحتفاء أو هراء من هذا القبيل. والعلاقة مع العميل كانت عفوية نوعًا ما، وهذا صحيح. لقد أعارنا الجمل والحمار في النهاية. المكان يقع في الجبال. شاحنتا "هايلكس" صغيرتان، تتقافزان في الطريق. كلنا، الرفاق القدامى من "المزرعة"، نركب بصمت وبلا بهجة لندفع مالًا لأفغاني مقابل قتله لحماره. والآن، الوضع هناك كان أشبه بالغرب المتوحش في تلك الأيام، لذا كنا مستعدين لاشتباك مسلح، دائمًا وفي أي مكان. خوذات ودروع جسدية وبنادق M4 ومسدسات غلوك. طاقم حماية أفغاني من سبعة رجال. مؤخرة الشاحنة كانت ترسانة: قاذفات قنابل فردية، بنادق، مسدسات، ذخيرة. كنتُ أنا وديبس في المقعد الخلفي. بعد ساعة مالت نحوي وقالت إنها تعلم أنني فعلتها، أنني سممتها، وإن كانت لا تستطيع إثبات ذلك لكنها تعلم أنه أنا. فقلت لها: يا عزيزتي، لو كنتُ أنا من فعلها لما كنتِ قادرة على المشي الآن. جعلها ذلك تضحك، ضحكة خبيثة، وعدنا لصمتنا البغيض حتى وصلنا. بوابة معدنية كبيرة في الأمام. المنزل مكون من طابقين من الكتل الخرسانية المكسرة المغطاة بالطين. بستان صغير لطيف من أشجار الرمان في الفناء. انتشر رجال الأمن خاصتنا. لقد جاؤوا هنا خمسين مرة وهناك روتين متبع. العميل سيكون مسرورًا لأن هناك شخصين من واشنطن. إنه شخصية مهمة، تستحق هذا الاهتمام المدروس بسبب حماره الفقيد المسكين. دخلنا، جلسنا حول طاولة على الأرض فوق وسائد حريرية قديمة بينما قُدّم الشاي. كان غوسفورد يمتدحه وكأنه يحمل على كتفيه عبء الديمقراطية الجيفرسونية المزهرة في أفغانستان. كنا نتجاذب أطراف الحديث بود، لكنني شعرت أن الأجواء مشحونة بشيء ما، الذبذبات لم تكن مريحة. أعطيته الحزمة التي تحتوي دية الحمار، فوضع يده على قلبه. ثم، بوم. انفجار في الخارج، في الفناء. يغزو الأذنين أولًا. شعرتُ به في أسناني. انتحاري. أحد الحراس الشخصيين للمصدر. فجر نفسه، ومعه أربعة من رجال أمننا، قرب إحدى الشاحنات. الخطة، كما اكتشفنا لاحقًا — لاحقًا جدًا — كانت أسرنا. أو

أسر أكبر عدد ممكن منا. لكن بعدها عمت الفوضى، صحيح؟ حتى الآن هناك أجزاء من ذاكرتي بها فجوات نُسفت تمامًا؛ فجوات لن أملأها أبدًا لأنني لا أستطيع التحدث عنها معهم حقًا. حتى ماك وثيو. أتخيل أن هناك بضعة أطباء نفسيين ورجال أمن يحومون في الأرجاء بإمكانهم إعادة بناء المشهد كاملًا — لكن ليس الأشخاص الذين عاشوه بالفعل. على سبيل المثال، أتذكر بضعة مشاهد رئيسية كبيرة لتلك الليلة، واضحة كالشمس. لكن مساحات شاسعة من دماغي مسدودة بتفاصيل صغيرة عديمة الفائدة. ديبس ترتدي حجابًا أزرق فاتحًا، ترمش بلا توقف في الثواني التي تلت الانفجار. ثيو يعبث بجهاز اللاسلكي. غاس وغوسفورد جالسان هناك في ذهول، يبدوان عاجزين».

وهنا توقفت «الزعيمة» للحظة. مررت إصبعها عبر بضع فتات في طبقها ولعقته نظيفًا.

سأل سام:

– «وماك؟».

هزت رأسها.

– «فقدت أثره للحظة هناك. ثيو يصرخ في اللاسلكي طالبًا قوة الرد السريع من شكين، المروحيات. وقت الوصول المقدر عشرون دقيقة. دهر كامل. استجمع غاس قواه، وكذلك فعلت أنا. اختلسنا النظر من باب المطبخ. الشاحنتان محطمتان. نصف البوابة المعدنية نُسف تمامًا. دماء وأشلاء بشرية مشوية ملطخة عبر الجدران وأشجار الرمان. خطا غاس خطوة للخارج، وسمعت صوت سحق رطب. ما زلت أسمعه، حتى الآن أستطيع سماعه. "سكويييييش". كأنه داس على برتقالة مفرطة النضج. سحق. إنها يد. يد بشرية. لست متأكدة إن كان غاس قد رآها، لأن أول شاحنة للأشرار دخلت عبر الفجوة في البوابة. رصاصة كشطت الجدار قرب غاس وتلقى وابلًا من شظايا الخرسانة في وجهه. استدرنا وعدنا للأعلى لاستطلاع الوضع.

كانت فوضى عارمة. بقي ثلاثة من رجال الأمن. أنا، ماك، ثيو، غوسفورد. أما غاس — لم نكن واثقين أنه يستطيع الرؤية في البداية بسبب

الخرسانة في عينيه. وتلكأت ديبس فصعدت الأخيرة. كلنا، في تلك الغرفة. ست شاحنات للأعداء بالأسفل في الفناء، بعضها مثبت عليه رشاشات "دوشكا". كانوا يرغبون في انتشال بضعة منا لا نزال نتنفس – ضابط CIA حي في قبضة طالبان، حسناً، لهذه قيمة كبيرة – لكنهم يعلمون أن الدعم الجوي قادم. هؤلاء الرجال يحبون القتال وليسوا أغبياء حين يتعلق الأمر بالمعارك. أمسك أحدهم بمكبر صوت وألقى علينا، بإنجليزية مكسرة، رسالة طويلة. جوهرها هو: سيكون الأمر أسهل إذا استسلمنا وتفضلنا بالنزول. تفقدنا الأسلحة ثم راسلنا فريق الاستجابة للحصول على تحديث لوقت الوصول. وأخيرًا، جلسنا جميعًا هناك في نوع من التواصل الصامت، نعقد سلامًا مع آلهتنا، نفكر في أحبائنا، أو أيًا كان ما يفعله المرء حين يراوده حدس بأن هذه هي النهاية. و...».

سألها سام باهتمام حقيقي:

– «بماذا كنتِ تفكرين حينها، أيتها الزعيمة؟».

– «فكرت أنها ستكون طريقة رائعة للموت. ست نجوم على الجدار. رحيل نحو المجد».

رمشت بروكتر.

ورمش سام، متوقعًا المزيد، لكنها نظرت إليه للحظة قبل أن تعود للحديث.

– «على أية حال، بعد ثلاث دقائق أبدية سمعنا صرير مكبر الصوت وقال الطالباني إن الوقت انتهى. الفرصة الأخيرة. وعبر النافذة قدم أحد رجال الأمن لدينا ردّنا بإشعال إحدى شاحناتهم بقاذفة قنابل، وانفتح باب الجحيم. بدأت الدوشكا تقصف. زجاج في كل مكان. غبار الخرسانة المتفتتة يعلق كثيفاً في الهواء. ساقا رجل الأمن التوتهما على الأرض؛ وبقية جسده طليت بها الجدران. دخل أول مقتحم. صوب غوسفورد مسدس الغلوك وأطلق النار. أصاب قدمه هو. أرى ذلك واضحًا كعين الشمس. مدير الـ CIA المستقبلي

يطلق النار على قدمه اللعينة. رآه ماك. ولا أحد غيره. الرجل أطلق النار على قدمه من أجل نجمة الاستخبارات اللعينة».

قاطعها سام:

– «غوسفورد».

قال الاسم بتردد، لا يريد أن يخرج بروكتر عن مسارها، لكن دفعه فضول لا يقاوم.

– «فقط أريد التأكد من أنني فهمت هذا بشكل صحيح. غوسفورد لم يطلق النار على قدمه فحسب، بل ادعى أن طالبان هي من أطلقت عليه؟ هل كذب بشأن ذلك؟».

– «هذان ليسا شيئًا واحدًا. أعني، لقد ادعى لاحقًا أن الطالبان أطلقوا عليه النار. لا أعتقد أنه كذب، مع ذلك. أو على الأقل لست متأكدة. هل تثق بذاكرتي عن هذه الليلة يا جاغرز، بالقصة التي تسمعها؟».

– «في الغالب».

– «حسنًا، من النادر، في خبرتي، أن يمتلك شخص واحد الحقيقة لنفسه».

سأل سام:

– «أنت حصلتِ على واحدة أيضًا، أليس كذلك؟».

– «ماذا؟».

– «النجمة».

– «أجل، كلنا حصلنا عليها. المهم، سقط غوسفورد بيده هو. قتل غاس أول طالباني ببندقيته M4. ثم الثاني. كانت ديبس في زاوية، تصرخ. قصفت الدوشكا مجددًا، وهذه المرة سقط ثيو. كنت ممددة بجانبه، وكان يصرخ. دماء. وابل آخر، وأصابتني شظية، أراهن أنها قطعة من السقف، في كتفي. ثم أصبحت الأمور مشوشة. ثيو مستلقٍ فوقي، يحاول تغطية رأسي. كان مثلي، على الأقل حينها: لم تكن لديه حياة غير هذه وأسماكه اللعينة. كان مستعدًا للموت، لا يمانع التضحية بنفسه ليعيش عدد أكبر منا. لم ينقذ حياتي، لكنه

حاول، وأنا أحبه لذلك. وصلت المروحيات، أستطيع سماع الأزيز وأول الانفجارات. إنهم يشعلون الشاحنات. ظلام تام لمدة دقيقة، دقيقتين، ربما خمس ثوانٍ، لا أعرف».

توقفت لتربط شعرها.

– «التالي الذي أذكره، أنني على ركبتي أبحث عن سلاح وأحدق في حذاء ديبس الفاخر. ركبتاها مضمومتان إلى صدرها. صدمة تامة. لم أكرهها لذلك حينها ولا الآن — الأمر مفهوم، أليس كذلك، أن تفقد عقلك في لحظة كهذه؟ لكنه نوع الأشياء التي تحملها معك، لعارك الأبدي، حتى لو لم يحملك إياه أحد آخر. ستجره معك. لقد كرهتني. كرهتني بسبب الصلصة الحارة، بالطبع. كرهتني لاجتيازي "المزرعة" حين فشلت هي. كرهتني لانضمامي لـ ماك وغاس وثيو وتركها خلفي. وكرهتني أكثر في تلك الليلة بسبب الحقيقة الباردة المتمثلة في أنني رأيت أنها كانت جبانة. أنني عرفت — وهي عرفت — أنها كانت جبانة. ليس وكأنني لم أكن لأعرف حتى لو لم أرها بتلك الحال. كانت الوحيدة التي لم تصب بخدش. أعني، تنظر إلى فريق بيسبول بعد مباراة وتقول: مهلًا، ثمانية منكم مغطون بالتراب والعشب والدماء، وواحد منكم نظيف، هل لعبت المباراة أصلًا؟ أم أنك جلست على دكة الاحتياط فقط؟

أما غاس، فكان يصرخ في اللاسلكي مع قوة الرد السريع بأننا في المنزل الرئيسي. لا تقصفونا. لكننا كنا نسمع طاقمًا من الطالبان بالأسفل وهناك انفجار خارج الغرفة، في الرواق. قنبلة يدوية. هذه المرة كان ثيو يسحبني عبر الأرض نحو النافذة الخلفية. لم أكن أعرف حينها، لكن كانت لدي قطعة معدن في ساقي. غاس وماك، أرى الآن، يطلقان النار عبر الباب. أمسك غوسفورد بـ ديبس وتحركا نحو النافذة. ببطء، لاحظ ذلك، بسبب قدمه الميتة. لم أسمع شيئًا لدقيقة. أرى فقط ضوء القمر يسطع عبر الثقوب في السقف. بضع نجوم تطل خلسة. ثم أستطيع تمييز ثغاء الأغنام. كنا نبتعد عن المدخل، أنا وثيو. نتبع غوسفورد وديبس».

ثم، وهي تختلس نظرة إلى ساعتها، تمتمت:

– «تبًا، أنا أثرثر».

مسحت يديها بانتظام عبر بنطال الجينز كما لو أنها، في غياب سيجارة أو مشروب، لم تجد شيئًا أفضل لتفعله. نظر إليها سام بنظرة ذات مغزى، متسائلًا ماذا يقول وكيف يقوله. لم يجد شيئًا، فاكتفى بسؤالها كيف نجت.

قالت بروكتر:

– «أوصلني ثيو إلى السطح. غاس وماك خلفنا. غوسفورد وديبس في المقدمة. قفزنا جميعًا، في النهاية. أمسكتُ يد ماك وقفزنا. اندفعت عظمة الساق عبر جلدي عند الهبوط. لا أظن أنني رأيت ذلك يحدث، مع ذلك. أتذكر فقط الأشعة السينية في المستشفى في ألمانيا بعد الجراحة. ولأنني كنت أتألم بشدة، كان ماك يسحبني إلى أحد الأكواخ. شيء حجري صغير. فقط أنا وهو. كان جنونًا. قوة الرد السريع كانت تضرب المنزل بعد أن قفزنا. سمعت طنينًا وشعرت بحرارة وجسدي يهتز، أضلعي ترتجف وكأن شخصًا يهز قضبان السجن بعنف. عظمة ساقي انغرزت خارج جلدي مثل عمود خيمة مفكوك، وهناك شظايا معدنية بحجم كرة زجاجية (بِلِيَة) محترمة داخل الساق. الفناء كان جحيمًا.

وضعتُ رأسي على كتف ماك وهو يصرخ في اللاسلكي. ظهر طالباني في المدخل، يترنح، يتشبث بالإطار. نصف وجهه متفحم أسود ويبدو كالمطاط. ولديه سيخ حديد بارز من صدره. جاء إلى هنا ليهرب من المنزل. ومثلي تمامًا، قرر أنه سيكون رائعًا أن يموت طالما سيأخذ معه بضعة من الخصوم. لذا صوّب مسدسًا نحوي. أحد مسدسات "غلوك" الخاصة بنا، جمعها من المنزل بلا شك. تفصيل صغير، لكنه حاسم. جذر الكراهية بين ماك وغوسفورد. هنا تمامًا، في هذه اللحظة، لفة صغيرة من القدر أن يُصاب ماك بأحد أسلحتنا، وليس بشيء سوفييتي عتيق أو أي من الستمائة صنف من الأسلحة المنتشرة في أفغانستان آنذاك. طالباني يطلق النار على ماك بمسدس غلوك أمريكي. وهذا منح غوسفورد غطاءً جويًا لادعائه بشأن قدمه. التكافؤ. كلا الرجلين أصيبا بأسلحة أمريكية. كلانا بطلان يا ماكينتوش. هراء.

على أية حال، صوب الطالباني المسدس نحوي، وتدحرج ماك فوق جسدي ليغطيني، واستقرت ثلاث رصاصات فيه. سقط رأسه على كتفي، جسده مرتخٍ وهامد. وكنا متشابكين وتدحرجنا على الأرض. مطلق النار كان مكومًا عند المدخل. الرجل في معدته قدمٌ من حديد التسليح. يجعل الوقوف صعبًا. وأمسكتُ بـ ماك هناك، أنتظر الموت. عيناي مغلقتان. حين فتحتهما ورأيت أننا لم نمت لمحت الطالباني اللعين يزحف نحونا. يريد قتيلًا آخر، شيئًا يثرثر حوله مع حشده من الحوريات تلك الليلة في الجنة. انسللت من تحت ماك، سحبت مسدسه الغلوك، وصوبت. الرصاصتان الأوليان ذهبتا عاليًا لأن يدي كانت تهتز مثل شوكة رنانة. الثالثة خدشته، والرابعة انغرست نظيفة في قمة رأسه. أفرغت بقية الخزنة، لأغراض التأمين. فوضى لعينة كبيرة».

لم تكن «الزعيمة» تنظر إلى سام بعد الآن؛ كانت تنظر لأسفل إلى طبقها الفارغ. تطفلت فكرة غريبة: يجب عليه الوقوف ومعانقتها، أو على الأقل قول شيء لطيف. لكن لم تكن هناك سابقة لهذا النمط من الحميمية في صداقتهما، ومصارعًا حسه الأخلاقي الجيد، بقي متسمرًا في المقعد.

تابعت قائلة، وهي ما تزال مثبتة بصرها على الطبق:

– «ثم زحفت. زحفت بجانب ماك، وساقي المصابة تُجرجر خلفي كعلم ممزق مضرّج بالدماء، وأمسكتُ به وقلت إنني آسفة؛ على ماذا، لم أكن أعرف حتى. أخبرته أنه وغد لأنه توقف عن الرسم. أخبرته أنه وغد، وكذلك ثيو، لإنقاذه لي وموته أولًا، وأن أصدقاءك الجيدين يستحقون أفضل من ذلك، اللعنة، لا تتركني هنا يا رجل، فقط ابقَ معي، سأستمر في الحديث حتى يجدونا أو يقتلونا أو ينقذنا أحد. تماسك. هل تسمعني؟ اللعنة. ساقاك وظهرك يا رجل، إنها ليست... سيكون كل شيء بخير. أعرف ذلك. بخير. لكنك وغد أناني يا ماك، أتعرف ذلك؟ تقفز أمامي مثل ملاك أحمق. أستطيع أن أشعر بنبضك يا رجل، هل تسمعني؟ سأستمر في الحديث. أنا فقط أتحدث. جبهتي على جبهتك وأنا أتحدث. فكر في لولو، فكر بي، فكر في تلك الليلة في باريس. يا رجل، أنا أكره باريس عادة، أتعلم؟ مدينة كالمجاري، لكن تلك الليلة... حسنًا،

سأعود لأجل تلك الليلة. ربما نذهب هناك قريبًا. يمكنك رسم واحدة من لوحاتك الغبية. ربما لوحة عارية لـ لولو؟ سيعجبنا ذلك جميعًا. هذان صوتان بـ "نعم"، أنا وأنت، من يهتم بما تقوله لولو؟ ماك، هل أنت هناك؟ يا رجل، أرجوك لا... لا تذهب... لا تتركني هنا يا رجل. ابقَ هنا مع صوتي يا صاح، إنها أنا، أرتميس. إذا رأيت ضوءًا، لا تمشِ نحوه، فقط استدر وعد إلى الظلام. هذا حيث أنا».

الفصل الثاني والثلاثون

لاس فيغاس

لم تنتهِ حكاية الزعيمة بقدر ما تلاشت ذيولها وانفرط عقدها؛ فلم تتحدث بروكتر عن رحلة العودة إلى القاعدة، ولا عرضت أي تفصيلٍ عما علمه سام لاحقاً من أنها كانت عملية إعادة تأهيلٍ طويلة ومضنية في ألمانيا. وبالتأكيد، لم تمنحه أي تلميحاتٍ إضافية عما جرى في باريس، أو متى وقع ذلك. لكنها بادلته نظرةً ذات مغزى كأنها تقول: «هذا كل شيء يا جاغرز، انتهى الأمر، اغفر لي خطاياي، وما إلى ذلك»، فردَّ عليها بكلامٍ أجوف وأخرق، شاكراً إياها لأنها باحت له بكل ذلك، وهو بالضبط ما كان الدكتور بورتنوي قد قاله له بعد أن فضفض له أول مرة عما جرى في روسيا.

لكنَّ الأمر هزَّ كيانه؛ لأنه لم يسبق له أن رأى الزعيمة بهذه الحال؛ حزينة، والألم يفيض من وجهها فيضاً. كان فضولياً ليعرف لماذا قررت البوح، لكنَّ سام كان يعرفها جيداً ليدرك أن هذا السؤال لن يجد جواباً. لقد انتهت، وبدأت ملامح وجهها تعود إلى سيرتها الأولى، تلك الملامح التي تنذر بأنه إذا سأل عن المزيد، فسيُقابَل بالازدراء والسخرية والأصوات الغريبة، وبمقترحاتٍ مهذبة تدعوه للذهاب إلى الجحيم.

وقفت بروكتر وتمطّت، ثم رمقت صالة الكازينو بنظرةٍ ملهوفة:

– «والآن، نحن في فيغاس. فلننغمس بين طاولات القمار، ما رأيك؟ لقد بدأ العطش يراودني، وتلك الفتيات اللاتي يطفن في الحانات لابد أن في كؤوسهنَّ بعض الجين. فلنلقِ نظرةً والليلُ لا يزال في ريعانه.»

***

في اليوم التالي، عادا للاجتماع وقت الغداء في مقهى «ستاربكس» بفندق «بيلاجيو» للتحضير للقاء فرانكي. وصلت بروكتر أولاً، وتبِعها سام بعد بضع دقائق وهو يرتشف ببطء زجاجة «جيتوريد».

سألته:

– «هل تريد شيئاً تأكله؟ لقد افتقدتك في بوفيه الإفطار هذا الصباح.»

لم يستطع الرجل المسكين إلا أن يمتعض ويهز رأسه نفيًا.

قالت بروكتر:

– «سأكمل حديثي إذن، استوقفني إذا شعرتَ أنك ستقيئ أو يغمى عليك.»

أخذ رشفةً من مشروبه وأومأ برأسه ببطء.

تابعت قائلة:

– «معظم المنشقين مجرد حثالةٍ فاشلين مسَّهم الخبل، يصارعون متلازمة "فوات الأوان"، يشربون وحدهم في حانة "ريد لوبستر" خارج مدينة دي موين، أو يحركون الأوراق في مكاتب خلفية لشركة تأمين أو أي عملٍ تافهٍ آخر؛ صورةٌ لا تسرُّ الناظرين في العادة. أما فرانكي بوتنيك، واسمه الأصلي فيودور فيودوروفيتش ترينين، والمعروف داخل "البيت الروسي" باسم «إمبريال»، فهو مخبولٌ حقاً، لكنه نجح في تهريب مبلغٍ محترم من ثروة عائلته خارج روسيا عندما انشق، وهو يحسن استغلاله هنا في فيغاس منذ ذلك الحين. المشكلة اليوم ستكون في التركيز، في تسلسل الأفكار؛ فالمحادثات مع فرانكي تميل إلى الشطط في كل الاتجاهات، ومهمتنا هي منعه من ذلك. هل أنت بخير؟»

أجاب:

– «تمام، استمري. أنعشي ذاكرتي بشأن القضية؛ فلم أكن أعمل في ملف روسيا عندما انشق.»

قالت:

– «فرانكي، إن لم تخنّي الذاكرة، جرى تجنيده في لندن، ثم استُدعي إلى موسكو ليعمل فيما سماه "تقنيًا سياسيًا" في الكرملين؛ أياً كان معنى هذا الهراء. كان وصوله الجديد إلى المعلومات يهمنا، فقد تحول من موظفٍ صغير في وزارة الخارجية إلى مسؤولٍ في الكرملين يمتلك وصولاً مستمراً إلى الطبقة العليا. كان يعشق المخاطرة، ومدمناً على "الأدرينالين". جُند لأنه أحبَّ دراما لعب دور الجاسوس، ولأن بوصلته الأخلاقية كانت محطمة تماماً، إن وجدت أصلاً. لفترةٍ من الوقت، كان لدينا روسي مجنون يزودنا بنسخٍ ورقية من وثائق التخطيط ويضفي لوناً على تفاعلاته مع الرؤساء داخل الكرملين. كان فرانكي — أو «إمبريال» — يعرف من علا شأنه ومن سقط. كان مصدر تقارير من الدرجة الأولى حول فوبيا (كوفيد COVID) لدى بوتين وحالته الطبية؛ لأنه كان على اتصالٍ مباشر بأشخاصٍ تحدثوا إلى الرئيس في تلك السنوات الجامحة. أما ذلك الرجل الذي استجوبك، زوموف، فقد التقاه فرانكي قبل سنواتٍ عديدة، وأريدُ أن أسأله بضعة أسئلة حول ذلك.»

تفقد سام ساعته ووقف قائلًا:

– «في أي ساعة سيمرُّ علينا؟»

– «في الثامنة. إلى أين أنت ذاهب؟»

– «لآخذ قيلولة.»

***

الثامنة مساءً؛ كانت منطقة «الستريب» لوحاً من الضوء يمتد على طول أرض الصحراء. سيارة «الرولز رويس» التي كانت تشق طريقها نحو فندق «إم جي إم» مطليةٌ بلون الرمادي المعدني، وأرضيتها وارفة النعومة لدرجة أنها ابتلعت حذاء بروكتر المسطح، وسقفها يتلألأ بأضواءٍ صغيرة كنقاط الدبوس تشبه السماء المرصعة بالنجوم.

كان فرانكي في المقعد الأمامي مع السائق، يعبث بقائمة موسيقى EDM مختارة بعناية، كانت غامضة لدرجة أن بروكتر نفسها لم تتعرف على ألحانها. لقد مرَّ بالسيارة على سام وبروكتر في «بيلاجيو»، وبدأ الرجل يتأرجح بالفعل

وبشكلٍ فوضوي بين الثرثرة التافهة والصمت؛ فكانت الأسئلة البسيطة مثل «كيف حالك يا فرانكي؟» تبقى دون إجابة أو تُواجَه بهراءٍ ملتوٍ لا طائل منه.

انعطفت السيارة مبتعدةً عن «الستريب» بجوار مطعم «ديني»، ثم دخلت طريق خدمةٍ مظلماً خلف «إم جي إم». لا لافتات، فقط حاويات قمامة وأنابيب صدئة وصناديق وحدات التكييف الضخمة المطلوبة للحفاظ على درجة حرارةٍ مريحة في قلب الصحراء.

قال فرانكي موجهاً حديثه إلى سام باسم العمل العابر الذي منحته إياه بروكتر:

– «أودُّ اللعب الليلة يا تشارلز، بشيءٍ من الإسراف.»

كان رصيد الائتمان الذي فتحه في «إم جي إم» يعني حصوله على غرفةٍ مجانية في «ذا مانشن»، وهو ذلك العقار غير المعلن عنه حيث ينزل كبار المقامرين و"الحيتان"، وأولئك المتسكعون الذين يغوون أصدقاءهم من الأثرياء للمجيء إلى فيغاس في المقام الأول.

انفتح البوابة، لتندفع سيارة «الرولز» إلى ساحةٍ واسعة تتوسطها نافورة كبيرة. كان بانتظارهم ما لا يقل عن ثمانية موظفين؛ حمالون، ورئيس خدم، وعمال حقائب، ومضيف كازينو فرانكي المبتسم الذي يرتدي بدلةً أنيقة مقلمة. ترجل فرانكي وصافح المضيف وقدمه لـ بروكتر باسم لاري.

دخلوا إلى الداخل، عبر غرفٍ مزينة بأثاثٍ فاخر وخشبٍ داكن، وصولاً إلى فناءٍ شاسع مغطى بالزجاج تفوح منه رائحة الجريب فروت والبرتقال المر، وتترقرق فيه مسارات المياه، وتنتشر فيه أشجار الحمضيات والسرو والشجيرات. كان المكان هادئاً، وفوضى فيغاس تتراجع خلفهم. حتى جاغرز، بكل خبرته في هذه المدينة، بدا مبهوراً بهذه الواحة.

أكد فرانكي رصيده البالغ ثلاثة ملايين دولار مع لاري ثم طلب منه الانصراف.

قال فرانكي:

- «إنه نحس؛ لاري ليس جيداً لألعابي، إنه يجمد الحظ، تباً له. الفيلا رقم ثمانية، حفلات تايجر وودز الصاخبة، تلك أيامٌ خلت.»

كانت بروكتر تأمل في الحصول على بضع دقائق للتحدث في الغرفة، بعيداً عن الكازينو وكاميراته، لكن عندما انفتح الباب، كانت في استقبالهم امرأة؛ شقراء، طولها يناهز ستة أقدام بكعبها العالي، ترتدي زيَّ خادمةٍ فرنسية، وتمسك بزجاجة شمبانيا.

قالت بروكتر:

- «يا للهول! صدركِ يكاد يخرج من ملابسك.»

المرأة، التي كانت عيناها تتنقلان بين بروكتر وسام، استقرت بنظراتها على فرانكي، ورمقته بنظرةٍ كئيبة وهي تعيد ربط الجزء العلوي من ملابسها.

قال سام وهو يراقب المرأة:

- «إيه... فرانكي؟ أنا...»

قاطعت بروكتر الحديث قائلة:

- «فرانكي، رغم جمال كل هذا، هل يمكنك أن تطلب منها الانصراف لبعض الوقت؟ نحتاج لنحو نصف ساعة كما أخبرتك، لن نطيل.»

قال فرانكي متجاهلاً كلامها تماماً:

- «صوفي تميمة حظ، يجب أن تبقى.»

ساروا خلف صوفي إلى عمق الغرفة التي كانت أكبر بكثير من أي منزلٍ امتلكته بروكتر يوماً أو ستمتلكه. اقترب سام منها وهمس:

- «لقد رأيتُ نسخاً من قصة فيغاس هذه من قبل، وهي لا تنتهي بمحادثةٍ قصيرة.»

صبت صوفي الشمبانيا وقدمت لـ فرانكي حبة دواء ابتلعها على الفور. تمتمت بروكتر: «تباً لهذا الهراء».

احتسوا الشمبانيا وهم يتمشون في ممرٍ طويل تضاء فيه الفوانيس المغربية، وتزينه أواني أزهار الأوركيد والزنابق الطازجة. وفي غرفة المعيشة الكهفية، لاحظت بروكتر أن للجناح مسبحاً خاصاً، وأن هناك ثلاث فتياتٍ

أخريات كنَّ هناك، يضحكن ويشربن الشمبانيا من زجاجاتهنَّ الخاصة، ويناديـن سام للانضمام إليهن. اعتذر جاغرز، ووقف بدلاً من ذلك مع بروكتر مثل غبيين في غرفة المعيشة بينما كان فرانكي يبدل ملابسه.

خرج مرتدياً بدلة رمادية مقلمة، وتحت أضواء غرفة المسبح، استطاعت بروكتر أن ترى أن الخطوط المقلمة كانت في الحقيقة عبارة عن كلماتٍ صغيرة منسوجة تقول «سحقاً لك»، مكررة على طول القماش.

قال فرانكي وهو ينظر متجاوزاً بروكتر نحو فتاةٍ سمراء خجولة تبرز صدرها الفاتن من الماء:

– «سنلعب قليلاً، ثم نتحدث.»

***

لاحقاً، لن تتذكر بروكتر إلا شذراتٍ من تلك الليلة. تذكرت جلوسها بجانب فرانكي وهو يلعب جولات «باكاراه» بمئة ألف دولار في غرفته الخاصة بالكازينو، والروسي يرفع قميصه ليكشف عن بطنه العارية للموزع قبل أن يجذب بروكتر في حضنٍ قوي مع كل فوز. كانت تتساءل طوال الوقت عن ماهية الحبة التي أعطته إياها صوفي؛ هل هي «أديرال»؟ أم «إكستاسي»؟

ثم رأت فرانكي عند شباك الصراف يطلب ثلاثين ألفاً نقداً، قبل أن يندفع في مشيته ويثب على عقبيه أمامها، عابراً ردهة «ذا مانشن» تحت سقفها الزجاجي المزدان بفن «الآرت ديكو»، ومخترقاً جداراً من أشجار الحمضيات. وبسخاءٍ مفرط، دسَّ لفافاتٍ من فئة المائة دولار في أكف أربعة من الموظفين الذين مرَّ بهم، قبل أن يستقر في سيارة رولز رويس أخرى كانت تنتظرهم في الخارج.

وصلا إلى نادٍ ليلي يُدعى إكس إس؛ وهو اسمٌ على مسمى في عالم الإفراط. هناك، راح فرانكي يدسُّ الأوراق النقدية في يد بوابٍ يلقبه بـ «يسوع الصغير»، ثم كرر الأمر نفسه مع الحارس «الساموائي» ذي البنية الضخمة عند مدخل طاولتهم التي كانت تطل على ساحة الرقص في الأسفل. كان الصخبُ في الداخل – حتى بالنسبة لأذني بروكتر اللتين اعتادتا ضجيج

موسيقى EDM — طاغياً إلى حدٍّ تحول معه الضجيج إلى طنينٍ صامت، وكأن موجةً ارتدادية من انفجارٍ هائل قد ضربتها.

سرعان ما تلاشت حواسها؛ السمع، اللمس، الشم، والتذوق، بل حتى أي محاولةٍ للتفكير. تبخرت فكرة أن لها تاريخاً أو حياةً قبل أن ترتمي على تلك الأريكة في هذا النادي؛ فالعالمُ لم يعد سوى هذا الحشد، والحشدُ يكاد يمزق كيانه من فرط الهياج. راقبت فرانكي وهو يرقص على حافةٍ بجوار طاولتهم، ورأت سام يرقص مع فتاةٍ صهباء. لمحَت بضعة أشخاصٍ يهوون من الحافة فوق الطاولات في الأسفل، حيث كان «مجنونٌ» يلوّح بعلمٍ أمريكي ضخم. وتذكرت السماء وهي تتلألأ فوقها بينما كانوا يعودون إلى «ذا مانشن»، وأذنها لا تزال تطن، وصراخ الفتيات لا يزال يملأ الأجواء.

ساروا فوق أرضيةٍ من الآجر، وانسابت في الأرجاء موسيقى البيانو. عبروا الردهة العملاقة، حيث عادت رائحة الحمضيات لتنعش الأنفاس، وساد العالمَ سكونٌ لم يقطعه إلا ذلك الطنين في أذنها. وبينما كانوا يعبرون الطريق نحو غرفة فرانكي، تعثر الرجل بجدارٍ منخفض، وانقلبت قدماه فوق رأسه ليرتطم بجسده — كما يهوي جذع شجرةٍ مقطوع — في قلب بركةٍ لأسماك «الكوي». تذكرت بروكتر أن أحد الحمالين أخبرها بأن هذه الأسماك حساسةٌ جداً، بل ومسنة، مما جعلها تتمنى في سرها لو كان ثيو معها الآن.

تخبط فرانكي في الماء وهو يصرخ، ومن بين غشاوة الرؤية، انبعث صوت زعانف الأسماك وهي تلطم الماء وتتخبط فيه. وقف الروسي في البركة، وبدلته مبللةٌ تماماً، ورفع بصره نحو السقف الزجاجي، ثم أطلق دفعةً من القيء نحو سماء الليل، وهو مغمض العينين كمن يغرق في صلاةٍ عميقة.

الفصل الثالث والثلاثون

لاس فيغاس

بحلول الوقت الذي ترنحت فيه بروكتر عابرةً المكان في ضحى ذلك اليوم، كانت بركة الأسماك قد أُفرغت من مائها، ولم يكن بداخلها سوى بضعة رجال يرتدون ملابس خوض المياه كُتب عليها: «فريق المخاطر البيولوجية لخدمات التدبير المنزلي». اتخذت بروكتر طاولة في المطعم المجاور للردهة وطلبت قهوة. كانت تخفي في جيبها الصور التي سُحبت من ملفات ريمورا ومخزون بيترا ديفين غير الرسمي — وهي الوثائق الوحيدة التي أحضرتها معها لهذه الدردشة. ظهر فرانكي، وحيداً، بعد ساعة. وتبعه سام بعد بضع دقائق، وبدا منظره مريعًا؛ ربما أسوأ مما كان عليه حين استعادته الـ CIA في فيينا. كانت ليلة واحدة بصحبة فرانكي قد دمرت جاغرز تمامًا، وبضراوة أشد من استجواب روسي معادٍ. ولمدة طويلة، تناولوا إفطار «فيغاس» المعتاد: وقت الظهيرة، مكان مغلق، نظارات شمسية، وصمت مطبق.

سألت بروكتر وهي ترشف كوب قهوتها الثالث:

– «أين دفتر الحسابات السنوي لمقامراتك بعد ليلة أمس يا فرانكي؟».

قال فرانكي:

– «ربما اقتربتُ من التعادل. تبًا، من يدري؟».

رشف قهوته، وتجهم وجهه، ثم طقطق بأصابعه طالبًا مشروب «مارتيني بالليتشي». أحضر النادل المشروب، وقرعت بروكتر كوب قهوتها بكأسه.

قالت بروكتر بالروسية:

– «يمكننا فعل هذا بالروسية إن شئت. لكن بصرف النظر عن اللغة، عليك أن تتحدث إليّ يا فرانكي. وإلا قتلتك».

لم يرد فرانكي، ولم يومئ حتى برأسه. نادى النادل طالبًا شريحة لحم وبيضًا.

قالت، مستمرةً بالروسية:

– «أريد التحدث عن "القسم الخاص" في الـ SVR. بضعة أسئلة أساسية. لقد تحملتُ سيرك المجانين الليلة الماضية من أجل هذا».

امتقع لون فرانكي مع رشفة أخرى من المارتيني. ضغط بكفيه على الطاولة؛ فخشيت بروكتر أن يسقط عن كرسيه.

قالت بروكتر:

– «هذه دردشة ودية. غير رسمية. لا أجهزة تسجيل. لا أسلاك موصولة في الخلف. ولا أوراق».

أخذ رشفة أخرى من كأسه. طافت يداه على انخفاض قرب الطاولة، بينما حلقت عيناه نحو التاج الزجاجي للردهة.

سأل:

– «هل يتحدث تشارلز الروسية؟».

أشار فرانكي بإبهامه نحو سام.

قالت:

– «ليس كثيرًا».

قال فرانكي بالانغليزية:

– «الانغليزية جيدة. واسمعي، لقد أخبرتُ جماعتكم بكل شيء عن "القسم الخاص" حين انشققت. مرّت ثلاث سنوات الآن يا أرتميس. المعلومات...» — توقف هنا لحظة ليزن الكلمة المناسبة — «عجوزة. وأنا أشرب. أشرب كثيرًا. أمسح الدماغ».

قالت:

– «آه نعم. أدرك ذلك تمامًا يا فرانكي. لكن دعنا نختبر الأمر، هاه؟ حرك حساء الجمجمة ذاك لبضع دقائق، وأعطني ملعقة منه؟».

لعق الرغوة عن شفتيه.

– «حسنًا، يا أرتميس وتشارلز، حسنًا. حسنًا. من أين أبدأ؟».

– «من البداية. ابدأ من البداية».

قال فرانكي بضجر وصمت طويل، وكأنه بالكاد يتذكر أين قد تكون البداية:

– «حسنًا، ربما قبل أربع سنوات أعاد الـ SVR تنظيم صفوفه. خسروا مصادر أوروبية ممتازة. لذا قاموا، إيه، كيف تقولونها، إيه... بصيد الغوفر».

قالت بروكتر:

– «فعلوا ماذا مع الغوفر؟».

قال فرانكي:

– «صيدًا للغوفر. صيد الغوفر».

سأل سام:

– «ما هو صيد الغوفر؟».

أجاب فرانكي:

– «إيجاد الجواسيس».

قالت بروكتر:

– «آه، تعني صيد الخلد[29]».

قال فرانكي:

– «صحيح. صحيح، صحيح. صيد الخلد. صيد الخلد. صيد الخلد».

اتسع فمه مع كل ضمة، وكأنه قد يبتلع الكلمة.

تابع:

[29] الخلد *MOLE* في عالم الاستخبارات غالبا ما تعني جاسوس مزروع

– «وهنا لم يجدوا شيئًا، لكن مع ذلك أُطلق النار على بضعة مساكين. لإثبات وجهة نظر. لكن القيادات التنفيذية قالوا، علينا إصلاح بعض الأمور، علينا سد التسريبات في الإدارات، وكيف سنفعل ذلك؟ عندما تواجهون مشكلة في أمريكا، ماذا تفعلون؟ المزيد من اللجان. روسيا نفس الشيء. لذا انتزعوا مصادر رئيسية من الخط KR. من الإدارة الأمريكية. من القسم الخامس. وهلم جرًا. وأعطوها لجرذٍ وغدٍ عجوز اسمه ريم زوموف. ذكي. عقلية جبارة. مدرسة قديمة. هو جنرال لكنه ميداني. نادر، نادر جدًا. لكن مدير الـ SVR يسمع له. هو يعمل لأنه يحب العمل، أتفهمين؟ يحب العمل. وأصبح صاحب نظرية جديدة، فكرة جديدة. قال: اسمعوا، نريد شيئين كبيرين. نريد أن نعرف ما يفعله الأمريكيون. معلومات أساسية. خطط ونوايا، أيًا كان. واثنان: نريد تحطيم أمريكا نفسها. تدابير نشطة وهراء من هذا القبيل، تدركين ما أعنيه، أرى في عينيكِ أنكِ تدركين، لماذا جئتِ إلى لاس فيغاس لأجل هذا؟ أنتِ تدركين».

نظر فرانكي نحو بستاني يشذب شجرة داخل الردهة. كانت حبة ليمون قد ارتدت من غصن وتدحرجت على حجارة الرصف.

قال سام:

– «لهذا نحن هنا يا فرانكي، أكمل. لقد دفعنا المستحقات الليلة الماضية، لذا استمر في السرد».

قال بنبرة تهديد مبطنة:

– «حسنًا، حسنًا يا تشارلي، عال العال. حسنًا، زوموف، ذلك الحقير الكبير، يبحث دائمًا عن طريقة للغدر، هل هكذا تقولونها؟ استولى على القضايا الجيدة من الإدارات والخطوط وأدارها من "القسم الخاص". اقتنص أفضل ضباط التشغيل وجلبهم إلى "القسم الخاص". ميزانية ضخمة. وكان حذرًا أيضًا. شبكة منفصلة داخل الـ SVR، مفهوم؟ لا اختلاط. "القسم الخاص" لا يظهر في الوثائق. لهذا حين انشققتُ اتهموني بالكذب، أترين؟ القسم مثل الشبح. همسات».

رفع إصبعه إلى شفتيه ونفخ عبرها.

وصل طعامه. لم تستطع بروكتر النظر إلى البيض، ولم يبدُ أن سام قادر على ذلك أيضًا. أزاح فرانكي المارتيني جانبًا، وخشخشت أساوره وساعته فوق معصميه المشعرين وهو يفك أدوات المائدة من المنديل.

قال:

– «أجهزة الأمن الروسية الخاصة تتقاتل مثل أي مكان آخر. هكذا سمعتُ الهمسات وقابلت زوموف وبعض رجاله. الـ SVR غاضب من الـ FSB، ليس شيئًا جديدًا، نعم، لكن الـ SVR هو الأخ الصغير الحقير لأبناء العمومة في الـ FSB داخل الكرملين. خسروا في كل شيء. يحملون ضغينة، نعم، هل هكذا تقولون؟».

قالت بروكتر:

– «نعم. بالضبط. ضغينة على الأكتاف القديمة. أكمل».

مرت بضع ثوانٍ بينما مضغ فرانكي شريحة اللحم، ثم قال:

– «الـ SVR يتوق لمقعد على الطاولة. الـ FSB غوريلا ضخمة، والـ SVR يريد سلاحًا ليطلق النار على الغوريلا، ربما يعلق رأسها على الجدار، يحول قدمها إلى سلة مهملات، وفراءها إلى سجادة، كل ذلك».

تذكرت بروكتر من البرقيات أن فرانكي، في حياته السابقة، كان يهوى الصيد غير المشروع الترفيهي في رحلات السفاري الإفريقية. رفع سام قهوته إلى شفتيه. ثم، بعد أن راجع نفسه، وضع الكوب الذي لم يمسسه وحدق فيه فحسب بينما استرسل فرانكي.

تابع فرانكي:

– «هرول "القسم الخاص" إلى الكرملين ليعلن عن نفسه. وقال لنا زوموف: انظروا يا رفاق، ليس لدينا شيء يذكر في أمريكا. الـ CIA تصطاد أحيانًا سمكة روسية كبيرة، ونحن نعلق خطافاتنا في صغار القوم. أسماك القاع. عسكريون مدمنون على الكوكايين. أحمق في مركز أبحاث. موظف في الكونغرس يخفي مثليته. وحسنًا، اعترف هو، لا داعي لرفضهم، صحيح؟ نأخذ

ما نحصل عليه. لكننا نحتاج إلى مجموعة قناصة. طلقات بعيدة المدى، احتمالية منخفضة. لكن إذا أصبنا الهدف، ينفجر الرأس عند الارتطام. رؤوس مهمة. أنا أتحدث مجازيًا. ليست عمليات تصفية. "القسم الخاص" ليس دكانًا للقتل. "القسم الخاص" يطارد الجلود الأمريكية الكبيرة لتجنيدها. باستخدام أفضل الضباط. والصبر».

لاحظت بروكتر أن نبرة فرانكي أصبحت محترمة، نوع من التوقير المتردد لـ زوموف.

– «انظري يا آنسة أرتميس، من المعلومات الشائعة في الكرملين أن نصف تقارير الـ SVR هراء. آسف، لا. بل ثمانون بالمائة. غالبيتها هراء. هل الأمر كذلك في الـ CIA؟ بالطبع. مؤسسة كبيرة مليئة بالبشر. لديكم بشر، إذن لديكم مشاكل. حظ عاثر. يُتوقع من الأجهزة الخاصة إنتاج تقارير. استخبارات».

رسم علامتي تنصيص في الهواء بأصابعه.

– «وهكذا يقدم ضباط الـ SVR ما يُطلب منهم. تقارير. ورق. الجودة ليست أولوية. الأولوية للأرقام. وهذا يثير اشمئزاز زوموف. قال في عرضه: انظروا، نحصل على مصدرين أو ثلاثة لديهم وصول حقيقي، وهنا يكمن العمل. لكن يجب أن نتحلى بالصبر. يجب البحث عن الاحتمالات الصحيحة. يجب التصويب على الهدف الصحيح. قناصة، لا بندقية صيد، هكذا قالها، ذلك الجرذ العبقري الوغد».

هنا ضغط فرانكي على زناد بندقيته الخيالية، مصوبًا مباشرة عبر بروكتر، نحو شجرة الليمون.

دفع فرانكي وجبته نصف المأكولة جانبًا وطقطق طالبًا مارتيني آخر بالليتشي. توقف عن الحديث لمراقبة امرأة تسير عبر الردهة.

هبط صمت آخر على المحادثة.

قال سام:

– «قلت إن جزءًا من عمل القسم كان التدابير النشطة. كيف يختلف ذلك عن أي دكان آخر في الـ SVR؟ الجميع يفكر في العمل التجسسي بتلك الطريقة هناك في "الغابة"».

شرب فرانكي نصف كأسه فور وصولها، وهو يهز إصبعه بالنفي وهو يمسح فمه.

– «ليس بتلك الطريقة، بل مختلفة. طرق مختلفة. صبر. قال زوموف: انظروا يا رفاق، ما الذي فضح إيمس وهانسن؟ عملا لصالحنا، أفضل رجالنا، والآن هما في السجن أو في القبر. نحن نعطي الـ CIA والـ FBI فتات الخبز حين نلتقط الصيد بقوة وسرعة. الأمريكيون منحلون لكنهم ليسوا أغبياء. أعدم مجموعة من الجواسيس وستشعر الـ CIA باختراق موسكو. سيبحثون بناءً على إمكانية الوصول. من الصعب العثور على الغوفـ... أعني الخلد، لكنه ليس مستحيلًا، وربما ليس صعبًا جدًا حين نعتقل عشرين شخصًا دفعة واحدة. جادل زوموف: نحن نحرق مصدرنا. لا. قال نحن نجنّد، نطور. لا نكن حمقى، نمضي ببطء. نحمي المصادر العملاقة. قال إن الهدف، في نهاية المطاف، هو تدمير الـ CIA. يجب أن يكون كذلك، هكذا قال فرانكي، ويا رفاق، كان الجميع في الإيجاز يهزون رؤوسهم، يبتسمون. تدمير الـ CIA؟ حسنًا، باتوا الآن يأكلون من كف زوموف».

سألت بروكتر:

– «هل قال زوموف كيف سيستهدفون الأمريكيين؟ أو كيف سيديرونهم؟».

كان رأس فرانكي مسجونًا بين أصابع يده؛ ومن خلالها كان يصارع فكرة إنهاء إفطاره. كشط شوكة مترددة من البيض المرتجف، وقال إن زوموف لم يقدم سوى القليل من التفاصيل، لكنه أكد على غرابة إدارة ضباط استخبارات زملاء كمصادر.

قال فرانكي:

– «بشّر زوموف بفكرة أن رجال الاستخبارات جرة بسكويت مختلفة. موظف الكونغرس المبتز يحصل على موقع إلكتروني يطبع فيه هراءه. رجل الاستخبارات لن يقول نعم لأنه أدرى. هو يعرف عن حماقات الـ SVR. سيقول "اغربوا عن وجهي" على أجهزة الاتصال. زوموف يقول هذا لأنه يحاول سرقة الضباط والميزانية من الإدارات الأخرى، والرؤساء هناك يقاتلونه بشراسة. قال زوموف: انظروا يا رفاق، سنحقق بعض النجاح والإدارة ستكون مختلفة. ستتطلب المزيد من الناس. ستتطلب المزيد من الخطوات. ستكون أبطأ. لا تضغطوا عليّ، قال زوموف هذا تقريبًا، وبأسلوب ليس ألطف كثيرًا. قال تريدون نتائج، ادفعوا ثمنها. وسأعطيكم نتائج. لا تضغطوا عليّ».

وعند هذه النقطة، ورغم معرفتها للإجابة لكنها مضطرة لقطع الرحلة، سألت بروكتر:

– «هل كان لـ زوموف أي عملاء داخل الـ CIA؟».

أفرغ فرانكي المارتيني. وطقطق لطلب آخر.

– «آنسة أرتميس، قضيت ثلاثة أشهر في منزل قرب العاصمة واشنطن. تحدثت لمائة من أمثالكم: وظيفة، أصدقاء، عائلة، أعداء، شائعات، مخطط طابق الكرملين، النباتات المنزلية في مكتب بوتين. تظنين أنني أنسى لو قال زوموف إن لديه شخصًا ما؟ لا، ماذا تظنين أني أخفي؟ لا، لم يكن لدى زوموف أحد قبل أربع سنوات. كان يبدأ "القسم الخاص" حينها. جاء من أجل المال وليرينا كم هو قوي. لم يكن هناك "خلد" حينها. كانت أيامًا مبكرة».

قال سام:

– «طاقم زوموف. هل تذكرهم؟ رجاله؟».

أصدر فرانكي، وهو يحرك شوكته بلا هدف عبر الطعام، صوتًا رطبًا وقال:

– «نفس الإجابة يا تشارلز، أخبرتُ جماعتك بالأسماء التي عرفتها. كلها في التقارير. أروني كومة صور وحاولت جهدي».

قالت بروكتر:

– «سأحاول مرة أخرى. كيف تعرف ما إذا كان شخص ما من "القسم الخاص"؟ لا يوجد هيكل تنظيمي، صحيح؟ لا أثر ورقي يربط شخصًا به؟».

قال:

– «بينجو. زوموف يسحب الضباط من الخطوط والإدارات ليعملوا لصالحه. يستخدم رجالًا من كافة الإدارات، لكنهم ليسوا "قسمًا خاصًا" على الورق، فقط ـ في الواقع».

قالت بروكتر:

– «لقد أحضرت صورًا لبعض الرجال».

أخرجت من حقيبتها صفًا من خمس صور ونشرتها.

– «هل تمانع ـ في مجاراتي يا فرانكي؟ أعلم أن عقلك عبارة عن عصيدة كحولية وكل ذلك، لكنني أود منك أن تخبرني إن كان أي من هؤلاء السادة الوسيمين رفيق درب لـ ريم زوموف».

وصل المارتيني؛ رفعه نحو السقف الزجاجي قبل أن يفرغه ـ في جرعة واحدة. والآن، وهو يتأمل صف الصور، بدا وكأن ظلًا عبر وجهه، ربما إدراك أنه الآن على شفا العبور من اجترار خلفيات قديمة إلى تقديم شيء مباشر وخطير للغاية، شيء قد يضعه ـ في مرمى النيران إذا وصلت أخباره إلى موسكو. وضع فرانكي رأسه على الطاولة وتظاهر بالشخير.

قالت بروكتر وهي تزحف بكرسيها لتتحدث مباشرة ـ في أذنه:

– «أو ربما، أجعل الضابط المسؤول عنك، الذي تحول إلى جليس أطفال، يجري بضعة اتصالات ـ في أرجاء المدينة. ليعرقل عادات المقامرة لديك. ينظر فيما إذا كنت تدفع ضرائب على كل تلك المكاسب. أو ربما أذهب إلى تلك الفيلا المتداعية وأوقظ بضعة من أولئك السيدات اللطيفات، لأرى إن كانت إحداهن ترغب ـ في بضعة آلاف لتقول لمجموعة من مضيفي الكازينو إنك كنت "طويل اليد"، تتحرش وتلمس ما لا يجب لمسه. بحق الجحيم، ربما لديك مشكلة يا فرانكي، أنت متحرش متسلسل بالنساء الراقيات، وسيكون هناك طوابير من السيدات يتقدمن بقصص مروعة عن هذا المقامر الكبير الذي يضع

مخالبه المتعرقة عليهن، وتعرف ما هو الأسوأ؟ يقول إن اسمه فرانكي لكنه يبدو مثل الروس. ويتعرق مثلهم أيضًا. تفوح منه رائحة البصل والشمندر والفودكا. أوه، ستكون مادة مثيرة للاشمئزاز حول الاستغلال وأموال الإسكات والإمبريالية الروسية والنظام الأبوي اللعين. أمر سيئ لـ فرانكي بوتنيك، نسختك الأمريكية البديلة. وسيئ لـ فيودور القابع داخل جلد فرانكي. نوع الحوادث التي تضع صورتك في صحف قد تجد طريقها إلى الكرملين. قد يلقي بوتين نظرة ويقول: تلك الأفعى في فيغاس. ربما يرسل أحدهم إلى هنا ليبدل سروالك بعامل غاز أعصاب، أو إذا كانوا في مزاج أكثر تقليدية، يلقون بك من أحد أجنحة "سكاي سويتس" في فندق أريا. ليلطخوك مثل بيتزا قُذفت على رصيف "القطاع" أثناء حفلة صاخبة».

رفع فرانكي رأسه، وابتسامة رفيعة تسيل عبر وجهه. طلب مارتيني آخر، فرفرف حاجبا النادل بصدمة، ثم بأسى. وبطأطأة رأس، انصرف متثاقلًا إلى البار.

قال فرانكي:

– «لقد ولدتِ في المكان الخطأ يا آنسة أرتميس. كان يجب أن تكوني روسية».

قالت بروكتر وهي تهز كتفيها:

– «"روديتيلي إي رودينو ني فيبيراوت"».

(المرء لا يختار والديه ولا وطنه).

حدق فرانكي في الصور، يستجمع شجاعته، والجلد حول عينيه يتمدد ويرتجف وهو يراجع التشكيلة. لم تستطع بروكتر تحديد ما إذا كان أحدهم قد لفت نظره لكنه غير متأكد، أو إذا كانت الوجوه قد أعادته إلى كابوس انشقاقه، أو إذا كان قد عرفه فورًا ولم يستطع اتخاذ قرار بنطق الحقيقة. تلوت أصابعه في الهواء، وتكورت في قبضة فركها على الطاولة المصقولة وكأنه يزيل بقعة ما. ولفترة طويلة صارع نفسه في صمت.

قال أخيرًا، وهو ينقر بإصبعه على إحدى الصور:

– «هذا».

– «هل تعرف ماذا فعل لـ زوموف؟».

– «يد قديمة في "القسم الخامس"، على ما أعتقد. مهام متفرقة. مُخلّصاتي. هو مقرب من زوموف. هو وزوموف كانا صبيين معًا في بطرسبورغ».

– «ما مدى تأكدك؟».

– «في الغالب».

– «لقد أطلت النظر لفترة لا بأس بها لتكون متأكدًا تمامًا، إن كنت لا تمانع قولي هذا يا فرانكي. لقد ماطلت في الأمر».

– «كنت أفكر في كذبة».

– «ألم تستطع تدبير واحدة؟».

– «الدماغ عصيدة، كما أقول. أريفيديرتشي، آنسة أرتميس وسيد تشارلز. أنا سأغطي حساب الإفطار. أديوس».

نادى فرانكي النادل برقم فيلا خاطئ، وتسلل مبتعدًا، خارج الردهة ونحو المسبح.

***

في غرفة بروكتر، استقرت الصورة التي اختارها فرانكي على المكتب بجانب كومة من ربطات الشعر التي استخرجتها من قاع حقيبتها. الصورة، لقطة للرأس، تضمنت تعليقها القصير في الأسفل: روديون فيساريونوفيتش بليتكوف، عقيد، SVR، القسم الخامس(أوروبا).

ريمورا .تلميذ قديم لـ زوموف.

عقدٌ داخل عقد، هكذا فكرت، وتساءلت عما إذا كانت قد شعرت بتعب أكثر من هذا في أي وقت مضى.

***

جلس سام وبروكتر في غرفتها ولمدة ثلاث ساعات استعرضا الأمر كله، من الألف إلى الياء. عرفا أن ثيو كذب، مثلًا، بشأن ترتيب الحضور لاجتماع

مارس مع ريمورا في فرنسا، وقلقا من أن التفسير البريء أمر مستبعد؛ عرفا أن ثيو وماك وغاس قدموا روايات مختلفة عن ترتيب الوصول انحرفت أيضًا عن سجل البرقيات؛ عرفا أن ريمورا كان أحد رجال زوموف؛ عرفا أن ديبس طردت بيترا ديفين من الـ CIA لتشكيكها في قضية ريمورا وإثارة الغبار حول وجود "خلد"؛ عرفا أن ماك لم يذكر توقفه القصير في محطة نيويورك وإيجازه مع غاس وديبس؛ عرفا أن غاس كان تحت مراقبة قانون FISA بعد موسكو وربما لا يزال؛ عرفا أن ديبس جعلت البيت الأبيض يدمن على المعلومات الاستخباراتية واستخدمت هذا الإدمان لتلميع أوراق اعتمادها. أخيرًا، عرفا أن "الخلد" لا يزال يعمل: لم يستطيعا تفسير كشف شبكة تارمان واختفاء CLAW بأي طريقة أخرى.

ما لم يملكاه، بوضوح، هو أي دليل قاطع. بالتأكيد لا شيء يمكن لضابطين موصومين بالعار تقديمه على أمل أن يؤخذا على محمل الجد.

قالت «الزعيمة»:

– «ولنكون صريحين يا جاغرز، لا أعتقد أننا سنحصل عليه. أعتقد أننا وصلنا إلى حدود هذه الدردشات الصغيرة».

وهكذا اقترحت بروكتر — ووافق سام — أن ينسحبا إلى زواياهما المنفصلة. هي إلى فلوريدا، وهو إلى شمال فيرجينيا، في نوع من "الوقت المستقطع" الطقوسي لمعرفة ما إذا كان بإمكانهما اتخاذ مسار بديل، وأكثر خطورة بكثير. ذلك الطريق، كما أدرك كلاهما، سيغير مسار تحقيقهما: من سلسلة من النقاشات التي تبدو بريئة — مع قشرة رقيقة من الغطاء العملياتي لكل منها — إلى تدخل حقيقي في عمليات الـ CIA، وهو ما سيفعل ما هو أسوأ بكثير من مجرد نفث العادم في وجهيهما إذا جاءت النتائج عكسية.

شعر سام أيضًا، لكنه لم يقل، أن «الزعيمة» لم تتصالح بعد مع حقيقة أن صديقًا عزيزًا قد خانها — خانهم جميعًا. هل تشوشت رؤية بروكتر، المعروفة بعدم عاطفيتها، بسبب قائمة مشتبه بهم مكونة من أصدقائها القدامى؟ ربما كان لا بد من بعض المسافة قبل أن تتمكن تلك الحقيقة القاتمة

من تغطية الهوة بين عقل «الزعيمة» وقلبها. لاحظ سام، كمثال دامغ واحد، أنه طوال استخلاصهما للمعلومات، امتنعت «الزعيمة» عن دمج استنتاجات دردشاتها في فيرجينيا مع الكتلة الذهبية التي استُخلصت من فرانكي: إذا كان ريمورا أحد رجال زوموف، فهذا يجعل ريمورا المسؤول المحتمل عن تشغيل "الخلد". القضية مقلوبة رأسًا على عقب.

أدرك سام أن بروكتر تدرك هذا؛ في الواقع، اشتبه في أنها كانت قد سمرت هذه النقطة قبل المجيء إلى فيغاس. لكن ملامحها المنطفئة الآن تشي بأنها جمعت هنا النقيض تمامًا لما أرادته: لقد حصلت على التأكيد.

قالت:

– «سأفكر في الأمر مليًا لفترة. سأتأمل، ثم سأكشط قذارة هذه المدينة الملعونة عن جلدي حتى لا تتسبب الرائحة في طردي من الطائرة. كن مطيعًا وأنهِ الأمر مع ناتالي. لكن خفف عنها الصدمة برفق، بحق السماء، وكأنك تنهي خدمات عميل رائع كان جيدًا معنا للغاية. أنت تعرف السيناريو، مضافًا إليه أنها تستحق أفضل منك. هذا أمر لا يحتاج تفكيرًا. والآن اخرج من هنا، سأكون على اتصال».

الفصل الرابع والثلاثون

دالاس / فورت وورث / إل باسو / منطقة بيغ بيند

تعلّمنا من التاريخ — كما أوضحت إيرين — أن جنود روسيا غالباً ما يضطرون للقتال بلا مؤونة، أو سلاح، أو تدريب. نحن محظوظون بامتلاك المال؛ هكذا قالت، فما بالنا بطعامنا الطيب ومأوانا المريح؟ إنها رفاهيةٌ مستحيلة بالنسبة للجندي الروسي. أما قلة خبرة آل فينبل؟ فكانت عقبةً ستُذلّل؛ فالغيلةُ حِرفة، وهما سيصيران فيها من أرباب البيان وصُنّاعاً مَهَرة.

قالت إيرين وهي تنحني لتُخرج خلاط «المارغريتا» من خزانة المطبخ:

– «ومن حسن حظنا يا بيتر، أن معركتنا لن تقع في صقيع الشتاء القارس.»

ومع نهاية الجولة الثانية من المشروبات، استقر رأيهما على القنبلة؛ السلاح المفضل للثوار، والفعل الذي يجمع بين البعد الدرامي والوسيلة العملية لخلق مسافةٍ آمنة عن موقع الحدث، لكي — وكما صاغتها إيرين — «نظل أحياءً لنواصل القتال». وجد بيتر أن الثرثرة التي خالطها السكر حول القنبلة كانت مثيرة، غير أن فكرة القتال اللامتناهي طغت على نشوة الإثارة التي منحتها إياه «التيكيلا»، فتركته فريسةً للقلق وحده.

كان التقدم بطيئاً في البداية؛ فالقرار باستخدام القنبلة لم يخلُ من التعقيدات، ولكن — وكما دأبت إيرين على القول — فقد اختيروا لهذا العمل لقدرتهم على حل المشكلات وتجاوز العقبات.

– «إنهم يثقون بنا لأننا سنعرف كيف نتدبر الأمر يا حبيبي.»

قاما بتحميل دليلٍ صاغه فرع تنظيم القاعدة في اليمن (مترجمٌ بالفعل إلى الانغليزية)، وتصفحا بائعي «الشبكة المظلمة» الذين يروجون لمسوحاتٍ ضوئية سرية بصيغة PDF لتقنيات القنابل العسكرية الأمريكية المستفادة من حربي العراق وأفغانستان. وشاهدا معاً عشرات الساعات من فيديوهات «يوتيوب» حول الدوائر الكهربائية. خاضا نقاشاتٍ لا تنتهي حول المعايير: أداة التوصيل، نوع المتفجرات، الصواعق، والدوائر الكهربائية.

في العمل، كان بيتر ينقّح عروض الـ PowerPoint، ويعدّل نماذج الـ Excel، ويعاني من ساعات الاجتماعات العقيمة. كان الضجر يقتله، غير أن هذا المشروع سرعان ما تضخم ليتحول إلى تعقيدٍ شيطاني، ولدهشة بيتر الشديدة، وجد في ذلك نشوةً وتحدياً؛ فما عسى أن يكون هذا إن لم يكن أعظم تحدٍ في حياتهما؟

***

في تكساس، لا شيء يفوق الأرض وفرةً سوى السلاح.

غادر بيتر مقصورته في شركة الطيران بعد ظهر يوم الجمعة، وبحلول وقت العشاء، كان هو وإيرين يتجولان بين ألف ومائتي بائع في معرض فورت وورث للأسلحة[30] داخل مركز «ويل روجرز». من عند طاولة «أيه جاك للسكاكين»، اشتريا نصلين من طراز «أمتك نورثمان». ومن طاولة «تكساس شوتس»: مسدسين من طراز «سيغ ساور P320»، وبندقية «سبرينغفيلد 30-06»، وعدة صناديق من الذخيرة. دفعا الثمن نقداً، مبرزين رخص القيادة لإثبات الإقامة في تكساس، ولكن، ولأن العديد من البائعين كانوا يمارسون البيع — قانونياً — كهواةٍ غير مرخصين، فإن اسم آل فينبل وعنوانهما لن يرتبطا بهذه الأسلحة في أي قاعدة بيانات رسمية. اشترى بيتر أيضاً صندوقاً يحتوي على خمسين ظرفاً فارغاً من عيار «30-06» وثلاثة أرطال من المسحوق الأسود؛ لأنه أحياناً — كما أخبر البائع في تمثيليةٍ تدرب عليها مع

[30] معرض الأسلحة في فورت وورث هو فعالية تجارية تُقام في مدينة فورت وورث بولاية تكساس، يُعرض فيها طيف واسع من الأسلحة النارية والذخيرة والمعدات التكتيكية بشكل قانوني

إيرين – يفضل تعبئة ذخيرته بنفسه. كانت الابتسامات العريضة تعلو الوجوه. حمّلا كل شيء، وكلها مشتريات قانونية، في مقطورة «يو هول» ملحقة بسيارتهما «المرسيدس» الدفع الرباعي الملطخة بالوحل، وقضيا الليل في فندق «شيراتون فورت وورث»، محتفلين بجولة التسوق بكأسٍ أخيرة في حانة «رياتا».

في صباح اليوم التالي، قاما بجولة تسوق حول فورت وورث. مرا بمتجر «REI»، و«هوم ديبو»، ومتاجر خردوات صغيرة، و«أوتو زون»، وصيدليتين، ومتجر «تارغت»؛ حيث ضمنت لهما رشوة سخية تحت الطاولة لمساعد مدير المتجر الحصول على عارضة أزياء «مانيكان» ترتدي سروال جينز من طراز الأمهات وقميصاً مزيناً بالزهور يحمل رسالة تقول: «احلم بحياتك». وفي كل محطة، كانا يدفعان نقداً، ويرتديان أقنعة N95[31] الثقيلة وقبعات بيسبول، ويستخدمان مطهر اليدين بكثرةٍ تمثيلية لاستكمال المشهد. دخل بيتر إلى بعض المتاجر، ودخلت إيرين إلى أخرى. أما لوحة سيارتهما، كمعظم هيكلها، فكانت مكسوةً بطبقةٍ سميكة من الوحل.

ومع حلول المساء، كانا يتجهان غرباً. توهجت الشمس بحمرةٍ قانئة كدمٍ مسفوح قبل أن تنهار في الأفق المنبسط. لم يسبق لأي منهما أن زار مناطق تكساس الواقعة غرب نهر برازوس.

انشرحت نفس بيتر وهما يعبران السهول المتموجة، حيث انفتحت السماء وبدأت الأرض تتمدد في كل اتجاه. كانت طواحين الهواء والماشية تنتشر في المراعي العشبية البنية، وتخفُّ الأشجار مع كل ميلٍ يقطعانه، حتى غلبه ذلك القفر وعظمة الخلاء.

هكذا كانت تشعرني "الوطن الأم (الرودينا)"؛ فكر بيتر وهو يتذكر رحلةً صيفية بالسيارة شرقاً من نيجني مع عمه. كانت الأرض بريةً ومفتوحة، قادوا

---

[31] أقنعة *N95* هي أقنعة ترشيح عالية الكفاءة تُصمَّم لحجز ما لا يقل عن 95٪ من الجسيمات الدقيقة المحمولة جواً (مثل الغبار والهباء)، وتُستخدم طبياً وصناعياً للحماية من الاستنشاق الضار. ويستغلها الإرهابيون أحياناً كوسيلة لإخفاء الملامح والحد من التعرّف عليهم بالكاميرات.

لساعاتٍ وكل ما حولهم كان روسيا. لقد احتضنته في ثناياها، وهدهدته في رحمها.

***

معرض أسلحة إل باسو هو حدثٌ يستمر ليومين يحتفي بالبنادق والذخيرة والمتفجرات في مجمع «آل معيدة شرينرز».

جاء آل فينبل من أجل «التانيريت»، الذي قضى بيتر عشرات الساعات في البحث عنه عبر الإنترنت. إنه متفجرٌ ثنائي؛ وقوده مسحوق الألمنيوم والتيتانيوم، ومؤكسده نترات الأمونيوم والبيركلورات، وهو شائع الاستخدام في التدريب على الرماية. بات بيتر الآن يعرف عنه كل شيء تقريباً، من الكيمياء حتى التطبيق العملي. فبعد خلط مسحوق الوقود مع حبيبات الأمونيوم، ينفجر عند إصابته بطلقةٍ عالية السرعة، مُحدثاً دويّاً وسحابةً من الدخان. كان بيتر، متقمصاً شخصية رياضيٍ شغوف بالرماية، قد اتصل باثني عشر بائعاً مشاركاً للتأكد من توفر «التانيريت» للبيع في الموقع.

وبينما كان بيتر وإيرين يتجولان بين الأكشاك — حيث أثارت أقنعة N95 ودروع الوجه مزيجاً من الاستياء والسخرية والتسلية لدى الحشد — وصلا إلى بائعٍ يبيع المتفجرات: قنابل يدوية، ومسحوقاً أسود، ونعم — كما قال — لديه «تانيريت» في مؤخرة إحدى شاحناته خلف الكشك.

قال بيتر:

– «أودُّ شراء كمية كبيرة. لديَّ حوالي عشرين رجلاً سيأتون إلى المزرعة للرماية هنا في غضون بضعة أسابيع. ما هو الحد الأقصى؟»

رد الرجل وهو يرمق بيتر بنظرةٍ غير ودودة:

– «لا يوجد حد أقصى. ولكن لماذا ترتدي درع الوجه هذا على أي حال؟»

أجاب بيتر:

– «زوجتي تخضع للعلاج الكيميائي، وهذه أوامر الأطباء. أعلم أننا نبدو كالمجانين.»

غار وجه البائع وذبلت ملامحه:

– «يا للهول، أنا آسف يا رجل.»

ولم تكن هناك أسئلة أخرى بعد ذلك.

في تلك الليلة، في فندق «سوبر 8» بـ إل باسو القريب من المطار، غطت إيرين في النوم خلال دقائق، أما بيتر فظل يتقلب في فراشه، يساوره القلق بشأن العتاد الموجود في المقطورة. وفي صباح اليوم التالي، وبعد احتساء كوبين كبيرين من القهوة الرديئة لكل منهما، شرعا في القيادة جنوباً نحو مزرعةٍ استأجراها في منطقة بيغ بيند.

***

كان المنزل الرئيسي يتكون من طابقين، مبني من الطوب اللبن المصبوغ بالأبيض بلمساتٍ حمراء، يربض في غابةٍ من خشب الصنوبر والعرعر في المرتفعات الشمالية من بيغ بيند. كان المنظر من الشرفة الملتفة يمتد عبر مراعي الأراضي المنخفضة حتى يلتقي بخطٍ جبلي صخري عبر الوادي. شرب بيتر وإيرين القهوة وراقبا شروق الشمس. قررا العمل في المؤخرة؛ حيث توجد مساحة خرسانية كبيرة مخصصة لتنظيف الصيد، تظللها الأشجار ويغطيها سقفٌ مرتفع يشبه الجناح. كانت أقرب ملكية مجاورة تبعد عدة أميال، ومع ذلك كان الخصوصية التي تمنحها الأشجار مبعثاً للراحة. قاد السيارة فوق الكتلة الخرسانية، وفتح الصندوق، وجهّز الطاولة القابلة للطي التي ستعمل كمنضدة عمله.

قبلته إيرين وانطلقت لتستطلع الأراضي بحثاً عن مواقع للاختبار. قرر بيتر البدء بالصاعق. ومع مراجعاتٍ متكررة للأدلة السرية وفيديوهات «يوتيوب»، حفر ثقبين صغيرين في قاع ظرف ذخيرة «30-06» فارغ. تأكد من أن الظرف نظيفٌ وجافٌ تماماً. عبأ المسحوق الأسود، وكبس الفوهة، وأغلقها بمادة «الإيبوكسي» اللاصقة، ثم وضعه تحت أشعة الشمس ليجف.

للحظة، فكر في زملائه بشركة «ساوث ويست» وكيف يقضون عطلات نهاية الأسبوع: تدريبات الأطفال الرياضية، وجبات الفطور المتأخر في «أب

تاون» و«لور غريفين»، ومباراة الكرة الطائرة الأسبوعية لقسم التخطيط والتحليل المالي كل أحدٍ عند الظهيرة، في مقر الشركة تحت ظلال الطائرات وهي تقلع وتهبط. نظر إلى حمولة السيارة من الإمدادات وإلى الصاعق وضحك.

كلهم خرافٌ بلهاء.

اختار قائمة أغاني «روك»، ورفع صوت هاتفه إلى أقصى حد.

قام بتجميع أحد الصناديق الكرتونية الكبيرة وقيم أبعاده. تالياً، جاء دور الدوائر الكهربائية. أخرج من الحقيبة التي اشتراها من متجر الخردوات في فورت وورث غراء «غوريلا»، وساعة، ومسماراً معدنياً بطول بوصتين، ومنشاراً حديدياً، ومبرداً. قطع المسمار وبرده. وعندما تبلغ الساعة الثانية عشرة، ستلمس عقارب الدقائق معدن المسمار، فقام بإلصاقه بالساعة.

ثم، وهو يلعن نفسه، أدرك أنه كان ينبغي له اختبار الصاعق بدون المسحوق. حفر ثقبين في قاع ظرف «30-06» آخر، ثم مرر سلكين عبر الثقوب بحيث يبرزان داخل النحاس كأطراف الشوكة. وصل هذين السلكين بالبطارية. فظهرت شرارة صغيرة لامعة داخل الظرف.

نعم، تباً، نعم!

سألت إيرين بابتسامة وهي تقترب منه:

– «هل يسير الأمر على ما يرام؟»

رفع رأسه عن الطاولة وقال:

– «لدينا شرارة.»

صفقت وقبلته، ثم سألت:

– «ماذا يمكنني أن أفعل؟»

أشار إلى كومةٍ من الصناديق. بدأت إيرين في تفريغ قضبان المغنيسيوم من مجموعات إشعال النار، والكرات الفولاذية، وحزم المسامير. كان المغنيسيوم مادةً سريعة الاشتعال؛ فداخل نصف قطر الانفجار، سيحترق أي

شيء قابل للاشتعال. كان هذا «بوليصة تأمين»، كما قررا، لزيادة فرص النجاح.

بينما كانت إيرين ترتب المغنيسيوم والشظايا في الصندوق، مع الحرص على ترك مساحةٍ في المركز لدلو «التانيريت»، انهمك بيتر في العمل على «ميزان الارتجاج». ستقوم الساعة بالعد التنازلي لمدة عشر دقائق، أو ربما عشرين — وهو وقتٌ كافٍ للابتعاد — وعندها سيصطدم عقرب الدقائق بالمسمار، ليكمل الدائرة الكهربائية الأولى. وحين يحرك الهدفُ الصندوق، سيكمل ميزان الارتجاج الدائرة الثانية؛ وعندها ينفجر الصندوق.

أخرج من حقيبة الصيدلية محقنةً وقطع إبرتها، حتى لم يتبقَ منها سوى أنبوب بلاستيكي. وكما فعل مع الظرف، حفر ثقبين صغيرين في الأعلى بعناية، وسحب سلكين من خلالهما، ثم ثبتهما في مكانهما بالغراء. انزلق بكرةٍ فولاذية داخل المحقنة وقطع قطعة صغيرة من البلاستيك لسد الطرف المفتوح. ثم أخذ شريحتين رقيقتين من الخشب وألصقهما بالمحقنة بحيث تستقر بشكلٍ مستوٍ، كأنها سفينة داخل زجاجة. جهز أحد الصناديق الكرتونية الأصغر وألصق المحقنة في قاعه. تدرب على الأمر: يرفع الصندوق، يميله، يسقطه. كانت الكرة تتدحرج بسلاسة. فألصقها داخل قاع الصندوق الأكبر.

والآن جاء دور التوصيل الكهربائي. شاهد مرة أخرى أحد أكثر فيديوهات «يوتيوب» فائدة، بينما كانت إيرين تقرأ بصوتٍ عالٍ من دليلٍ سري على جهاز الـ iPad وهو يعمل، فارشاً الأسلاك على الخرسانة كمخططٍ معقد.

عندما شعر بالثقة في التوصيلات، قال:

– «يمكننا القيام بالجزء الأخير في الموقع.»

حزما مواد القنبلة، وحبلاً بطول مائة قدم، وعارضة الأزياء (المانيكان) في السيارة، وانطلقا نحو موقع الاختبار الذي اختارته إيرين. ومما أثار قلقه، أن الموقع كان محاطاً بساترٍ من الأشجار.

تمتم بيتر:

– «إيرين، قد نتسبب في حريق غابة. المغنيسيوم.»

نزعت إيرين نظارتها الشمسية ونظرت حولها، ثم عضت شفتها وقالت:

– «تباً!»

تجولا في الأراضي لمدة ساعة أخرى بحثاً عن بقعةٍ مناسبة، حتى استقرا أخيراً على قطعة أرضٍ خالية من الأشجار في قاع الوادي، وسط حطامٍ صخري عند قاعدة أحد المرتفعات. ملأ بيتر الدلو بخمسين رطلاً من «التانيريت».

أغلق الغطاء ودسَّ الظرف المملوء بالمسحوق في الداخل عبر ثقبٍ حفره، متأكداً من انغماسه في المادة المتفجرة ومن وجود سلكٍ كافٍ يبرز من الطرف الخلفي لإغلاق الدائرة. وضع البطارية في الصندوق بجانب دلو «التانيريت». لَفَّ بيتر الحبل حول الكرتون، ملقياً عليه عدة عُقدٍ رُبطت على عجل. بينما أوقفت إيرين (المانيكان) بجانب الصندوق.

كانت يداه ترتجفان وهو يكمل التوصيلات. كان وجه إيرين متورداً عندما رفع بصره إليها أول مرة. وفي المرة التالية التي التقت فيها عيناه بعينيها، كانت وجنتاها محمرتين، وبحلول وقت انتهائه، بدتا وكأن كدماتٍ تعلوهما. همست قائلة:

– «ركّز يا حبيبي، لقد اقتربنا. أنت تبلي بلاءً رائعاً.»

عندما انتهى، أدار عقارب الساعة بأصابعه ليمنحهما عشرين دقيقة. وضع الساعة في الصندوق، ولثانيةٍ توقف فيها النبض، استشعر السكون، ونعيق غرابٍ بعيد، وحفيف العشب الطويل وهو ينبسط مع الريح. ضبطت إيرين موقتاً على هاتفها، وجمعا الحبل وصعدا تلاً منخفضاً حتى نفد طول الحبل وصار مشدوداً.

كانا على بعد سبعين أو ثمانين قدماً من القنبلة. هل هذا كافٍ؟ لوم نفسه: لماذا لم أشترِ حبلاً أطول؟

بقيت عشر دقائق.

رغم أننا في أوائل نوفمبر، إلا أن الطقس كان معتدلاً، والشمس عالية ومشرقة. كان القلق ينهش أحشاءهما، وكلاهما غارقٌ في عرقه. أضاء هاتفه — لم تكن هناك تغطية طوال الصباح، لكنها توفرت الآن فوق هذا التل. تصفح

رسائل بريد العمل بآلية. كان رئيسه يريده أن يراجع حسابات نموذج مالي بناه. امتعض، ونظر إلى إيرين والعرق يلطخ قميصها.

سألت:

– «هل هناك خطبٌ ما يا حبيبي؟»

– «لا.»

أدرك أنه نسي تفعيل رسالة «خارج المكتب». انزلق الهاتف في جيبه.

دقيقتان. شعر أنهما ربما قريبان جداً. هل ينبغي له قول شيء؟ نظرة واحدة إلى إيرين جعلته يدرك أن الصمت الحازم والصلب هو الجواب.

طمأن نفسه: لا شيء في هذا غير قانوني. أنت هنا لتستمتع ببعض الوقت مع زوجتك.

انطلق موقت الهاتف. انطبق فك إيرين، وحولت عينيها المذعورتين نحو الحبل الملقى على التراب.

قالت:

– «فلنفعلها معاً.»

عقدَا أيديهما معاً، وحامت أصابعهما المتشابكة فوق الحبل. جذبها إليه ليقبّلها، وحرّك شفتيه بصمتٍ قائلًا:

– «أحبكِ.»

فأجابت:

– «وأنا أحبك أيضاً.»

ثم أزلق كفيهما المشتبكتين حول الحبل، وتأهبا كأنهما في مباراةٍ لشد الحبل، ثم جذبا الحبل جذبةَ رجلٍ واحد.

ملأ ضغطُ الانفجار أذنيه، فانحنى ثم سقط، ولا يسمعُ إلا طنيناً معدنياً خافتاً. تساقطت الشظايا فوق ظهره بوقعٍ رتيب، فرفع بصره.

كانت نافورةٌ من الغبار قد اندفعت في الهواء فوق موقع الاختبار، فحجبت ملامح الجبل خلفها. وضعت إيرين يدها على فمها، بينما سال خيطٌ رقيق من الدم من منخرها، لكنه استطاع أن يرى ابتسامةً تشرقُ على وجهها.

***

بعد ثلاثين دقيقة، وبينما كانا يعبران بقعةً من العشب الطويل في جولةٍ لتفقد الدمار، وزجاجة «التيكيلا» الاحتفالية في يده، توقف بيتر ليأخذ رشفةً منها، ثم حدق إلى الأسفل إثر سماعه صوت تحطمٍ تحت قدمه. كان قد داس على كرةٍ بلاستيكية متفحمة؛ فانحنى ليتفحصها، فإذا هي النصف العلوي من رأس المانيكان.

الفصل الخامس والثلاثون

كيسيمي

في غبش الضوء داخل المقطورة، وحيث الهواء المشبع بالرطوبة يندفع عابرًا المستنقع ليتسلل من النوافذ التي أُشرعت لتطلق سراح الدخان، جلست أرتميس بروكتر على مقعدها الجانبي، قبالة كومة من الأوراق القانونية الصفراء، ومنفضة سجائر نحاسية أثقلها العمل، صِيغت على هيئة خطم تمساح. استقر صندوق أحذية قديم على السطح فوق غسالة الأطباق، وإلى جواره تكورت كومة عشوائية من الصور الفوتوغرافية الباهتة. لم تكن بحاجة إلا لواحدة، من ذلك اليوم المشؤوم في أفغانستان، لقطة لهم جميعًا وهم يقفون أمام حاجز «هيسكو» في القاعدة. كانت تلك، كما اعتقدت، آخر صورة باقية تجمع الخمسة معًا. وكانت مقصاتها تشق طريقها عبرها بحفيف مسموع.

أرادت تلك الصور لأنها كانت مضطرة للتفرس في وجوههم في هذا الجزء، لتجعل الأمر حقيقيًا. انتصب أفق من زجاجات المشروبات الكحولية التي ابتاعتها حديثًا على طول العتبة أسفل الستارة الخرزية. كانت لدى بروكتر ذكريات غائمة عن استخدام قطع الشطرنج لتثبيت الصور في قصص الجواسيس القديمة، لكن الكحول كان أكثر انسجامًا مع مزاجها الحالي. أضف إلى ذلك أنها تستطيع شرب الخمر، بينما كانت تكره الشطرنج كرهًا عميقًا. كان الخفقان العرضي للأجنحة ورفرفتها يسبح عبر النافذة المفتوحة. كانت بروكتر مستغرقة في عملها لدرجة أنها لم تسمع ارتطام خفاش الفاكهة بالسطح المعدني للمقطورة، ولا المواء الصاخب لقطين في حالة تزاوج.

في جوهر القلب الأسود النابض لأي عملية خيانة مزدوجة تكمن كذبة جوهرية ومُعمية، تجبرك على التعامل مع نسختها الخاصة من الحقيقة، وتفرض عليك مجموعة من الوقائع التي تناسب نظريات بريئة تمامًا، فتقلب كيانك رأسًا على عقب. عُقدٌ داخل عُقد. في ذلك المساء، وحيدةً مع أفكارها، وضعت أخيرًا هيكلًا لذلك الواقع المظلم الذي يثقل كاهلها.

كانوا جميعًا على متن الرحلة القادمة من فيينا، حين أعادت الـ CIA سام إلى الوطن. واتباعًا لتقاليد تبادل الجواسيس، أحضر كل واحد من أصدقائها شيئًا للشرب، من أجل الأنخاب. وكان جاغرز قد زودها بالتفاصيل خلال استخلاص المعلومات الذي استمر طوال الليل حين ظهر لأول مرة على عتبة دارها في فلوريدا.

كان ماك قد حمل زجاجة «بلو ليبل» للرحلة من فيينا، كما قال سام. لكن مخزونها المالي السري كان يتضاءل، لذا ابتاعت زجاجة «بلاك ليبل» وعدّلتها بقلم Sharpie أزرق. ألصقت الصورة المقصوصة لرأسه على عنق الزجاجة. التالي، غاس. غاس الممتنع عن الكحوليات كان يرتشف مياهًا فوارة في رحلة العودة — Perrier. ثُبتت صورة غاس على الزجاجة. ثم ثيو، الرجل الذي لم يكن إدمانه للكحول إلا وظيفيًا، ومعقولًا ماليًا حتى. «لا أحب أن أُفلس بسبب عادتي السيئة يا أرتميس»، هكذا أخبرها ذات مرة، وقد أمسكت لسانها عن التعليق على نوعية النساء اللواتي يبتاعهن. كان ثيو قد جلب معه عبوة كبيرة من ويسكي Canadian Club. وعلى الزجاجة الجاثمة فوق العتبة وُضعت صورته؛ قصت جسده بالكامل لأنه في الصورة كان يؤدي تحية الإصبع الأوسط. وأخيرًا، ديبس، تلك الشقية، جلبت الفودكا. «أي نوع من المعتلين اجتماعيًا»، كما قال ماك، «يجلب زجاجة فودكا روسية ليقدمها لرجل خرج للتو من سجن روسي؟». كان بإمكانها أن تكون عاقلة وتجلب Grey Goose. تذكرت بروكتر أن ديبس حملت معها زجاجة فاخرة، تبدأ بحرف الـ K، لكنها لم تستطع العثور عليها في كيسيمي، لذا رضيت بـ Stoli. أُلصق وجه ديبس على عنق الزجاجة. جالت بروكتر ببصرها عبر وجوههم،

وللمرة الأولى أجبرت نفسها على قول الأمر بصوت عالٍ، لتخرجه إلى حيز الوجود.

وضعت بروكتر إصبعًا على صورة ماك، المستقرة على زجاجة «بلاك ليبل» المعدلة بالأزرق.

همست:

– «رجل غني».

كطفلة، في نزهاتها بين أشجار الصنوبر، كانت بروكتر تجمع الحجارة أحيانا وتغني أغنية عدّ صغيرة. في ذلك الوقت لم تكن تدرك النسخة البريطانية من القافية، واستخدامها في البحث عن "خلد" خيالي. وكشخص بالغ، شعرت أنه من المناسب وضع النسخة الأمريكية قيد العمل لمطاردة "خلد" حقيقي.

ثم غاس — ومضة من ابتسامة ساخرة عند ذكرى سيارته «الميني فان» والوضع المالي للعائلة.

– «رجل فقير».

ثيو، وزجاجة Canadian Club من الرفوف الرخيصة:

– «شحاذ».

تحدثت بصوت أعلى الآن، واثقة، وقد أمسكت بزمام الأمر.

فودكا ديبس الروسية باهظة الثمن بشكل سخيف:

– «لصة».

مستحيل. ومع ذلك يجب أن يكون كذلك، لأنه لا يمكن أن يكون غير ذلك؛ لقد تجمعت حقائق أكثر مما ينبغي.

متخطية «الطبيب» و«المحامي» و«التاجر» (بقية القافية)، رفعت بروكتر صورتها الخاصة فوق زجاجة Sapphire، حيث حدقت في البقية من علٍ.

– «الزعيمة».

نفثت بروكتر آخر ملء رئتيها من الدخان نحو الخارج، وأغلقت النافذة، وأطفأت الأنوار. ذهبت سيجارة ما قبل النوم إلى كومة المنفضة. جلست قبالة

الصور لفترة طويلة، وكأنها في اجتماع سري، أو جلسة تخطيط عملياتية — يكسرون الخبز، يخططون، يتجادلون، يشربون. كانت الأشواك العاطفية هنا كثيفة بشكل لا يطاق. فكرت في سام، وكيف عانى، وبينما كانت تنزلق إلى السرير وجدت أن ذلك جعلها تكره نفسها. ذلك الإحساس، الدخيل وغير المرحب به، أوقف كل تفكير بانتفاضة مفاجئة، كما لو أن عصا قد حُشرت بين أسلاك عقلها. ثم غطت في النوم.

الفصل السادس والثلاثون

طريق I-10 شرقاً / طريق I-75 جنوباً / كيسيمي

كانت آخر رحلة برية طويلة قطعها بيتر وإيرين في العام الأول من زواجهما. حينها، كان ثمة فيضٌ من الأسرار المكتومة بداخل إيرين، سقطت منه قطعةٌ مظلمة — بمحض الصدفة — في الأشهر الأولى من حياتهما الزوجية. لا يزال بيتر يحفظ ذلك التاريخ موثقاً في أرشيف ذاكرته: الثامن عشر من مارس من ذلك العام. في ذلك المساء، خرج لركضته المعتادة، لكنه قرر اختصار مسافة الأميال العشرة إلى النصف، مما أعاده إلى المنزل قبل ساعةٍ مما كان متوقعاً. رأى إيرين حينما انعطف نحو الزقاق الخلفي.

كانت قد أخرجت حاويات القمامة بانتظار مرور شاحنة الجمع في الصباح التالي، وكانت تحدق في شيءٍ ما على الأرض — لم تلاحظ حتى اقتراب بيتر من الزاوية. كان وجهها وعنقها متوردين بوضوح. كان يمازحها دوماً قائلًا: «تصبحين حمراء كسيارة الإطفاء حين تشتعل رغبتك يا حبيبتي»، فتهدّل صوتها مجيبة: «حسناً، أطفئ الحريق إذن». لكنَّ تلك الإثارة التي كانت تعتريه عادةً عند رؤية وجه زوجته المتورد، لم تكن ذلك اليوم سوى رعبٍ خالص. سمع صوتاً يشبه الصرير، ورأى طائر «أبو حناء»، كانت ساقاه الصغيرتان عالقتين تحت حذاء «غولدن غوس» الذي ترتديه زوجته، ذلك الحذاء الأبيض ذو النجوم الوردية الذي سيتخلص منه — لاحقاً وبشكلٍ سري.

انقبض شيءٌ ما بداخل بيتر، فجفل وتوقف عن الحركة. كان حذاؤها يلتف ويتحرك فوق ساقي الطائر دون أن يجهز على صريحه. انسحب بيتر

عائداً إلى خلف الزقاق، بعيداً عن الأنظار، حين سمع صوت خبطةٍ قوية بالقدم. انقطع الصرير. التفت بيتر وأطلق ساقيه للريح ركضاً.

بعد ساعة، عندما عاد إلى المنزل، كان العشاء جاهزاً؛ شطائر «برغر» مفرطة النضج، وبطاطس مقلية معلبة، وسلطة تسبح في الخل — لا يزال يذكر تلك الوجبة، فقد أجبر نفسه على ابتلاعها كلها — ثم شاهدا التلفاز لبضع ساعات قبل أن يقرأا جنباً إلى جنب في السرير.

قالت إيرين وهي لا تزال غارقة في كتابها:

– «أنت هادئ الليلة يا حبيبي، ما الخطب؟»

فتذرع بضغوط العمل. عرضت عليه ممارسة الحب لتهدئة أعصابه، أو ربما — بالنظر للأمر الآن — لإسكاته.

قال بيتر:

– «أحبك يا حبيبتي، لكن هل يمكننا تأجيل الأمر؟»

وشفع قوله بقبلةٍ محتشمة على جبهتها لم تثر لديها سوى استهجانٍ صامت. رقد مستيقظاً تلك الليلة ينهشه ذلك الشعور المباغت الذي يصاحب اكتشاف خيانةٍ زوجية أو غدرٍ سافل. هل كانت تلك الوحشية في الزقاق مجرد زلة عابرة، أم أن شيئاً حقيقياً وعميقاً قد طفا على السطح؟ ماذا كانت إيرين تفعل بالضبط؟ والأهم من ذلك كله: من هي في حقيقة الأمر؟

ظنَّ بيتر أن رحلة برية طويلة قد تمنحه المساحة للإجابة عن هذه الأسئلة. تخيل أنهما سيقضيان كل تلك الأيام معاً في السيارة، وأنه سيستدرج هذا الشيء المكنون بداخلها لتخرجه، فتشرح كل شيء، وتبدي الندم والأسف والتوبة، وبحلول الوقت الذي يعودان فيه إلى منزلهما، سيكون حبهما قد ازداد توهجاً. كانت تلك الرحلة الأولى: من دالاس إلى ناشفيل إلى أتلانتا ثم سافانا وتشارلستون ووصولاً إلى واشنطن وشيكاغو ثم العودة. وحين وصلا إلى منزلهما، لم يستجمع الشجاعة الكافية ليسألها سؤالاً واحداً عن حادثة الطائر. لقد قطعا طريقاً حافلاً بالحفلات الصاخبة والمشاهدات السياحية المحمومة والثرثرة اللامتناهية، لكنه قرر حينها أن ما رآه كان يتوارى بما يكفي ليتركه

وشأنه؛ مجرد ورمٍ حميد يلتف حول الأعضاء الحيوية لعلاقتهما. شعر أن استئصاله سيقتل الزواج نفسه.

في الرحلة الحالية، وكما حدث في سابقتها، داعب خيال بيتر وضع كل أنواع الأسئلة والأفكار أمام زوجته. وأهمها: «متى يمكننا التوقف؟». ظل هذا الخيال يراوده خلال مرحلة قصيرة في شمال تكساس، وهم في طريقهم لشراء شاحنة «ترانزيت» لا تحمل أي علامات من أحد موردي «أمازون» الذين يصرفون بضائعهم الزائدة — من تحت الطاولة طبعاً — كان قد عثر عليه عبر متجرٍ في «الشبكة المظلمة». وبمجرد تحميل الشاحنة، أقنع بيتر نفسه أنه عندما يتجهان شرقاً، سيطرح هذه الأسئلة بجرأة على زوجته. ومن يدري؟ قد يفتح موضوع الطائر، أو — يا للهول — موضوع أوكلاهوما. سيحصل على إجاباته أخيراً.

لكنه بدلاً من ذلك، استسلم لاسترسال إيرين في الحديث. طوال الطريق عبر ولاية لويزيانا، تحدثت بهوسٍ عن روسيا، وعن زياراتها لوالدها ووالدتها حين كانت صغيرة. كانت تسرد هذه القصص دون تلقين، وكان هو سعيداً بالاستماع لأنه لم يعد لديه ما يقوله. تحولت الرحلة إلى ما يشبه جلسة اعتراف؛ كانت تسبر أغوار «هواجس والدها» — كما وصفتها — ثم تنحرف لتروي قصصاً وردية عن فطائر «البلينتز» التي كانت تصنعها والدتها، ورحلةٍ من نيويورك إلى عالم «ديزني» حين كانت في العاشرة. ثم خيم عليها الصمت لفترة طويلة، وكانت تغير قوائم الأغاني باستمرار، تتأرجح بفوضوية بين أغاني البوب الأمريكية السكرية والكلاسيكيات الروسية لـ «بروكوفييف» و«راخمانينوف» و«تشايكوفسكي». وقضت وقتاً طويلاً في تصفح حسابات المؤثرين على «إنستغرام». قضيا ليلتهما الأولى في نيو أورليانز، وفي اليوم التالي توجها إلى «ديزني وورلد».

***

في ضحى اليوم التالي لرحلة «ديزني»، لم يكن السرير قد لفظهما بعد. استيقظ بيتر أولاً، وجهه مغروس في كتف إيرين، مواجهاً طبعة «ميني ماوس»

على ظهر قميصها، وفمه جاف كقطعة قطن. اعتدل في جلسته، وفرك عينيه، ولم يستطع للحظة تحديد مكانه. وبينما كان يترنح متجهاً إلى الحمام، تعثر في حقيبة التسوق التي ملآها بالهدايا التذكارية. شعر بقدمه تحطم أحد الأكواب، ثم دلو فشار «السيد تود»، وانقلبت الحقيبة معه وهو يسقط، فانطلق صوت السيف المضيء «لايت سيبر» ورنت الميداليات وتدحرجت بقية الأكواب، وانسكبت محتويات حقيبة يد إيرين المطبوعة بصورة «ميني ماوس» على الأرض. تماسك مستنداً إلى مقعدٍ صغير.

أطلقت إيرين كلماتٍ مبعثرة من المفاجأة وهي على السرير.

قال بيتر:

– «تباً، تباً!»

كانت قدمه تنبض بالألم. انحنى يتلمس قدميه في تلك الغرفة الغارقة في الظلمة، فلمس سيلاً دافئاً من الدماء. جلس على المقعد، فأشعلت إيرين الضوء.

سألته:

– «يا حبيبي، هل أنت بخير؟»

أجاب:

– «لقد دستُ على أحد تلك الأكواب اللعينة.»

في الضوء، استطاع رؤية شظية من أذن «ميكي ماوس» غارزة في قدمه. انتزعها وهو يتألم.

***

تناولا قطع حلوى القنب واستلقيا حتى وقت الغداء، يقلبان في هواتفهما حتى شعرا بالخوف من أنهما إن لم يتحركا، فسيستسلمان لسطوة قيلولة بعد الظهر. وبينما كانا يحزمان الحقائب، شعر بيتر بما توقعه: خيوطٌ من الغثيان تتسلق حلقه. كانت إيرين تأكل شطيرة «بوريتو» ساخنة بشهية، بينما ظلت شطيرته على الطاولة الجانبية لم تمسّها يد.

سألته إيرين وهي تمضغ لقمة:

– «ما الخطب يا حبيبي؟»

كانت ترتب أكواب «ديزني» في حقيبتها بعناية، وتلفها بالملابس كي لا تنكسر.

قال بيتر:

– «أتمنى لو كنا نعرف ما إذا كان هناك كلب.»

جعلته نظرة الشفقة في عينيها يكره نفسه. مررت راحة يدها على وجنته، وعضت شفته السفلية ومررت لسانها خلف أسنانه العلوية وقالت:

– «دعني أريك شيئاً يا حبيبي... من أجل الشجاعة.»

فتحت الحاسوب المحمول وتصفحت إحدى قنوات «تيليغرام» المعتادة؛ شاهدا فيديو لجنودٍ روس في اندفاعٍ مجنون لتطهير منزلٍ ما في أوكرانيا. كانت الكاميرا المثبتة على خوذة أحد الجنود تهتز بعنف وسط أصوات الطلقات والدخان والصخب. وتبين أن الفتية الروس قد قُتلوا جميعاً. أخرجت الكاميرا صوت تشويش ساكن، فأغلقت إيرين الحاسوب.

قالت:

– «لقد دخلوا كرجال. بلا خريطة للمكان. أدوا واجبهم. تركوا زوجاتهم وصديقاتهم في موسكو أو بيتر أو نوفغورود أو أي مكان آخر، وانطلقوا من تربة روسيا السوداء للدفاع عنها، ليموتوا في مجدٍ وشرف.»

قبلته مرة أخرى، وارتسم ظلٌ وحشي على وجهها. ثم جمعا الحقائب.

***

كان العنوان عبارة عن مستنقع. لا توجد مبانٍ ظاهرة في صور الأقمار الصناعية على «جوجل ستريت فيو». كان «الإسباني» قد قال إن هناك مقطورة الآن، رغم أنه لا يعرف مكان ركنها. أوقف بيتر الشاحنة جانباً وراحا يتفرسان في الأشجار الكثيفة. لا شيء. هزت إيرين كتفيها.

قادا لمسافة ربع ميل في الطريق حتى وصلا إلى ممرٍ مغطى بالحصى يغوص في أعماق المستنقع. ترجل من السيارة وراح يحدق من خلال تشابك أشجار النخيل والصنوبر التي تحجب الممر. كانت الموسيقى التصويرية

للمكان عبارة عن طنينٍ مستمر للحشرات ونباح كلبٍ بعيد — لم يكن ينبعث من ملكية امرأة الاستخبارات المركزية، لحسن الحظ.

همست إيرين:

– «يجب أن ندخل لنرى.»

قال بيتر بعبوس:

– «لا نعرف ما إذا كانت موجودة.»

ردت:

– «سنقول إننا ضللنا الطريق. نحن من "أمازون" على أي حال. انعطاف خاطئ. يجب أن نرى ما الذي نتعامل معه يا بيتر.»

تحركا ببطء فوق الحصى وبعد ميلٍ تقريباً خفت الأشجار والشجيرات ورأيا مقطورةً على بقعة رملية تطل على المستنقع.

تمتم بيتر:

– «إنها ضابطة سابقة في وكالة الاستخبارات المركزية... وتعيش هنا.»

ترك الشاحنة تعمل عن بعد وراح يبحث عن كاميرات. لم يرَ أي واحدة. لكن لابد أنها موجودة، أليس كذلك؟ لا أثر لكلب، لكنه قد يكون في الداخل. سمع حفيف غلاف قصديري بينما كانت إيرين تخرج قطعاً من علكة النعناع وتمضغها بصخب وفمٍ مفتوح، وهو ما تفعله حين تغرق في التفكير، وهو ما يمقته تماماً؛ وقد أخبرها بذلك مراراً. كانت تمضغ العلكة وتعبث بأحد أظافرها المكسورة.

قال بيتر:

– «سنعود في الليل.»

ثم وضع ناقل الحركة في وضع الرجوع.

***

في ذلك الظهر، سجلا دخولهما في الفندق وقادا السيارة لمدة خمس عشرة دقيقة إلى غاتورفيل. كانا يرتديان أقنعة N95، وسارا عبر فم التمساح الجبسي الضخم الذي يشكل مدخل المتنزه. ضرب بيتر يده على أحد الأسنان،

وهو يستوعب المشهد بقدرٍ من الدهشة والاشمئزاز. وبعد أن قالا «نعم، بالطبع سندفع نقداً، فالمكان ليس عالم ديزني اللعين»، سألت السيدة التي تعمل في شباك التذاكر عما إذا كانا من سان فرانسيسكو أو نيويورك أو ربما بورتلاند، نظراً لأنهما لا يزالان يرتديان تلك الأقنعة السخيفة. ألقى بيتر قصة العلاج الكيميائي («أوامر الطبيب»)، فابتسمت السيدة وانحنت لتبحث في خزانة. وبعد لحظة أخرجت قناعين صُمما ليشبه خطم التمساح، فم مفتوح وأسنان بارزة.

– «لدينا الكثير من هذه متبقية. استمتعا بوقتكما.»

وجدا الهدف تؤدي عرضاً للمصارعة. كان «الإسباني» قد زودهما بعدة عشرات من الصور مما سماه «الأرشيف». في الحقيقة، كان من المستحيل أن تخطئ عيناه ذلك الشعر المتطاير، حتى وهو مربوط تحت قبعة فريق كليفلاند إنديانز القديمة. وعندما أخذا مقعديهما، كانت تقترب من التمساح من الخلف، وتضع إصبعها على شفتيها، طالبةً من الحشد السكوت فيما ظنه بيتر في البداية مجرد حركة درامية، لكنه عند التدقيق في ملامح المرأة وجد حنقاً شديداً. توقفت، وهي تستجمع قواها، ثم قفزت على ظهره وأحكمت يديها حول فكه بمرونة. كان قريباً بما يكفي ليرى أن فكرة قتل الحيوان لم تكن بعيدة عن ذهنها. تأرجح التمساح يمنة ويسرة لكن الهدف ظل متمسكاً، وهي تشرح التجربة عبر ميكروفون الرأس بكلماتٍ متداخلة ومبهمة. كان من المستحيل تمييز التفاصيل، لكن الجوهر كان بسيطاً: كانت تفيض حنقاً.

إيرين، التي كانت ترفع عينيها عن «إنستغرام»، أنزلت نظارتها الشمسية لتلقي نظرةً فاحصة، وتحدثت عيناها نيابةً عنهما:

هل تهتم موسكو لأمر هذه المرأة؟ هل أُرسلنا لقتل هذا الشيء؟

الفصل السابع والثلاثون

كيسيمي

حين ركنت بروكتر سيارتها الـ RAV4 بمحاذاة مقطورتها، جلست هناك لبضع دقائق، وقد غابت عن الوجود مستسلمةً لضجيج المستنقع المريح. قطع صوت ارتطام حشرة بالنافذة حبل شرودها، فدخلت إلى الداخل. غير آبهةٍ بالاغتسال — وهو شعور لازمها كثيرًا منذ عودتها من فيغاس — تجردت من قميصها، وألقته على السرير، ثم سحبت منفضة السجائر، وأعدت لنفسها سيجارة عند المقعد الجانبي. دهنت مرهم «بنغاي» بسخاء على أسفل ظهرها وكتفيها وذراعيها، وحاولت جاهدة ألا تنظر إلى الزجاجات المصطفة عبر العتبة. كانت كثيرًا ما تتجنب التقاء العيون مع صور أصدقائها القدامى، وعادة ما كان ذلك بسبب الغضب أو عدم التصديق، لا — كما هو الحال الآن — بسبب إغراء ذلك النوع من الشرب الذي يُفضل ممارسته في الوحدة، دون رقيب.

كانت تعلم أنه لا يجدر بها فعل ذلك، لكنها أيضًا لم تستطع ابتكار أي أسباب وجيهة للامتناع، لذا صبت لنفسها مقدار إصبعين من زجاجة «بلاك ليبل» المعدلة بالقلم الأزرق (ماك: رجل غني) لتؤنس وحدتها بينما تحل كلمات متقاطعة. بعد ساعة، كانت قد تذوقت الـ Canadian Club (ثيو: شحاذ) والـ Stoli (ديبس: لصة)، وكانت مستعدة لرفع الراية البيضاء أمام الكلمات المتقاطعة، التي بدأت — مقترنة بسكرها — تثير غضبها الشديد. أطفأت آخر سيجارة «سليم» لتلك الليلة، ونقرت الصورة لتطير عن زجاجة

Perrier (غاس: رجل فقير)، وأخذت الماء إلى غرفة نومها، حيث غطت ـ في النوم فورًا.

في تلك الليلة، انسلّ الحلم عائدًا. غير مرحب به وغير مدعو، كالعادة، لكنه لم يكن نادرًا منذ زارها سام بأخبار "الخلد".

في الحلم، كانت ـ في أفغانستان مع أصدقائها القدامى، وكانوا جميعًا على وشك الموت، يتحركون متثاقلين عبر نافذة الصمت المؤقتة التي تلت التفجير الانتحاري وقبل حلول الأسوأ. كانوا ـ في الغرفة العلوية للمنزل معًا، يعقدون سلامًا مع آلهتهم أو أنفسهم. كان هناك شيء مقدر، بل ومشؤوم، حول أصدقاء سابقين تفرقوا منذ زمن، يجدون أنفسهم معًا، بعد سنوات، ـ في الجانب الآخر من العالم. كما لو أن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث دون عنف أو مأساة. كانت تستطيع سماع أفكار أصدقائها، تشعر بمشاعرهم، وترى، بألوان ساطعة نقية، لوحة عواطفهم. كانت مع غاس وهو يفكر ـ في حبه لـ كوني وأطفاله، وذنبه وهو يفكر ـ في الموت وتركهم للحياة، ورواقيته ـ في يقينه بأنه لم يكن هناك طريق آخر؛ كانت مع ثيو ورغبته ـ في العيش رغم أن حياته كانت بائسة للغاية، مدركة أنه رغم امتلاكه لابنة، كانت ميلي غائبة عن ذهنه ـ في تلك اللحظة؛ كانت مع ماك، وأفكاره عنها وعن لولو، ودهشته من أنه ـ في الموت قد يثبت أخيرًا أنه بطل أمام والده، الذي لم يكن قد رحل بعد حينها، والذي سيكتفي ـ في النهاية بهز كتفين غير مكترثة كونية تجاه ابنه الوحيد رغم عودته كأسطورة حقيقية للوكالة؛ أبحرت مع ديبس وخوفها العميق حتى النخاع من أن كل شيء كان عبثًا، وأنه بعد هذا لا يوجد سوى العدم؛ وتواصلت روحيًا مع غوسفورد، الذي كان يتفقد مسدسه الـ «غلوك» مرة تلو الأخرى تلو الأخرى، وشعرت بإيمانه بأنه سيخرج من تلك الليلة بطلًا، وهو إيمان أحمق، حينها والآن، ومع ذلك ثبتت صحته بطريقة ما. تحدثت إلى ماك وهو ينزف حتى الموت على أرضية الكوخ. بماذا كان يفكر؟ أين كان أصدقاؤها؟

استيقظت بروكتر ـ في بركة من العرق البارد. كان الليل لا يزال مخيمًا؛ بطانية ساكنة وثقيلة من الظلام. الرعد يضرب ـ في البعيد. ألقت الملاءات جانبًا،

وجلست، وأخذت بضع رشفات من الـ Perrier. كانت غرفتها تميل عن محورها، تدور، وتتقلب. أغمضت عينيها وأملت أن تُعفى من زيارة أخرى لعالم الأحلام من أصدقائها.

***

بدّل بيتر وآيرين ملابسهما ليرتديا الدروع المرنة في مؤخرة شاحنة Transit وتفقدا الحقائب الأخرى: سكاكين «نورثمان»، مسدسات، وذخيرة. إذا سارت الأمور على ما يرام، فلن تكون هناك حاجة للمسدسات والسكاكين.

كانت الليلة حالكة بلا قمر. في الطريق إلى المستنقع اشتدت الأمطار، تجلد الزجاج الأمامي بقطرات كثيفة سرعان ما تحولت إلى ستائر من الماء المنهمر. «جدول بوغي»، هكذا قالت اللافتة. كان قد فاته ذلك أثناء جولة الاستطلاع في وقت سابق من اليوم. انعطفا عن طريق المقاطعة ودحرج الشاحنة عبر الممر حتى وصلا إلى المقطورة. أومض البرق عبر حواف السماء. كانت سيارة الهدف هناك: طابقت آيرين لوحة الترخيص مع الأرقام الموجودة في الملفات التي قدمها الإسباني في المكسيك. كانت المقطورة مظلمة.

زحف بيتر إلى مؤخرة الشاحنة، وتبعته آيرين. اللحظة — لحظتهما — قد حانت. كان الانتظار قد خلف ثقلًا رهيبًا في معدته، لكن ذلك الحجر قد اختفى الآن، تفتت إلى قطع بفعل صفعة الأدرينالين الغريبة لحقيقة واحدة بسيطة للغاية: كل شيء على المحك. الزواج، تقدير الذات، الشرف. النصف ساعة القادمة في ساحة المعركة ستحدد أي نوع من الرجال هو. لم ينبس بيتر بكلمة لأنه كان يعلم أنه لو فعل، سيتلعثم.

تحقق من أن الكرية المعدنية في المحقنة لا تلامس الأسلاك الكهربائية.

أعاد عقرب الدقائق إلى الوراء — خمس دقائق. لم يحتاجا لأكثر من ذلك.

وصل الأسلاك بالبطارية.

ثم أغلق الصندوق ومرر شريطًا لاصقًا من Amazon عبر الشق.

فتح الأبواب الخلفية للشاحنة على صوت تحطم الرعد. قفز للأسفل، وحمل الصندوق عبر المطر نحو اللوح الخرساني أمام المقطورة. حملت آيرين المظلة في محاولة عبثية لحماية الصندوق من المطر. تركه على اللوح الخرساني. كانت هناك مظلة علوية، لكن هبات الرياح العرضية كانت تدفع المطر جانبيًا، مما بلل أحد جوانب الصندوق.

رن جرس الباب. ثم ركضا عائدين إلى الشاحنة.

***

طغى الرنين على صوت الانفجارات؛ قطع حديث ماك في حلمها.

استيقظت، ورأسها يطفو، على أزيز جرس الباب. وقفت، ثم ارتمت عائدة على السرير، ثم نهضت مرة أخرى، ربطت شعرها ومشت عبر المطبخ. كانت تترنح ككرة بينغ بونغ — اصطدمت بكل شيء: غسالة الأطباق، المقعد الجانبي، الجدران. كان صوت نقر المطر مسموعًا على السقف. فتحت الباب الأمامي، متشبثة بالإطار لتبقي نفسها منتصبة.

كانت بروكتر تنظر إلى صندوق كبير، يميل، ينزلق، ويدور. العالم عبارة عن جيروسكوب يديره الكحول. صندوق. هاه. ومضة من البرق منحت وضوحًا مفاجئًا لشريط لاصق من Amazon عبر الطرد. دمدم الرعد. هي لم تطلب شيئًا. هدية؟ جعلتها الفكرة تضحك بصوت عالٍ.

كانت قطرات المطر تسقط على الصندوق. نظرت بروكتر لأعلى نحو الظلام المائل وسقطت قطرة مباشرة في عينها. ثم اشتد الهطول، السماء أخيرًا مستعدة لإطلاق أسوأ ما في العاصفة.

***

راقب بيتر وآيرين عبر المناظير المبللة من بين مجموعة أشجار عبر المستنقع.

قالت آيرين:

– «إنها تفحص. تتأمل».

قال بيتر:

– «إنها تترنح».

همست آيرين:

– «ثملة. جيد».

كان هناك صدع من البرق، ودمدمة أخرى للرعد في البعيد، والمطر يجلد المقطورة في ستائر متقاطعة.

وضعت الهدف يديها على الصندوق.

وضعت آيرين يديها على ذراعه.

قالت:

– «ستدخله إلى الداخل. لا تريده أن يبتل».

***

تمتمت بروكتر:

– «أمازون اللعين».

مررت يدها عبر الجزء العلوي وحاولت تحريكه. الشيء كان ثقيلًا.

سحبت كرسيًا من المطبخ لتثبيت الباب مفتوحًا. كان المطر ينهمر بغزارة الآن؛ الممر تحول إلى وحل رملي. كان دمها يسبح بالكحول. انحنت لتلتقط الصندوق.

***

ارتمى بيتر وآيرين على الرمال، وأغلقا عيونهما، واستعدا للانفجار.

كان هناك دوي، وفرقعة. ارتجف.

ثم نظر لأعلى.

دمدمة رعد أخرى. حدق عبر المنظار. كانت الهدف تضع يدها على الصندوق. كانت تتخذ وضعية القرفصاء.

هسّهست آيرين:

– «ماذا حدث؟».

قال:

– «الكرة في مفتاح الاهتزاز ربما لم تلمس الأسلاك. يجب أن ترفعه بالكامل».

***

رفعت بروكتر الصندوق.

***

ومضة برق أخرى. ثم دوي تموج في قرع طبول منخفض.

راقب بيتر الهدف وهي تلتقط قنبلته وتحملها داخل مقطورتها. تأرجح الباب مغلقًا.

سألت آيرين:

– «ما الخطب بحق الجحيم يا بيتر؟».

شعر بالغثيان من الفشل.

قال:

– «أنا محلل مالي يا آيرين، لست خبير متفجرات».

هل ارتكب خطأ في توصيل الدائرة؟ هل كان البارود الأسود مبتلًا؟ لم يكن يعرف.

– «كان يجب أن نستخدم المسدسات منذ البداية».

صفعته، بقوة، على قمة رأسه.

قالت:

– «أنت جندي. تصرف كواحد».

قال وهو يقف ويمسح مياه الأمطار عن جبينه:

– «إنها ثملة. لنطلق النار عليها فحسب».

سواء كانت مبللة بالكبرياء أو بالمطر فحسب، كانت عينا آيرين تلمعان.

ثم كانا في الشاحنة، المصابيح مطفأة، يرجعان للخلف من مكان الوقوف الجانبي للدخول إلى الطريق الرئيسي. كانت آيرين تحشر المخازن في المسدسات، وتتفقد السكاكين في أغمادها.

***

كانت بروكتر في المقعد الجانبي، تدخن، وتستمع للعاصفة. عينها المفتوحة الوحيدة كانت ملتصقة بالصندوق المبلل. «لنلقِ نظرة».

ثبتت نفسها على الخزائن وسطح الموقد لتمشي عبر المطبخ الضيق. كان المطر يرشق المقطورة. شقت الشريط بسكين مطبخ وقلبت الصندوق لفتحه.

قالت بروكتر:

– «يا إلهي العظيم».

***

كان المطر قد غسل ممر المقطورة الرملي وحوله إلى حساء. أبقى بيتر الشاحنة على وتيرة بطيئة وثابتة، الإطارات تصدر أصوات احتساء وتنزلق عبر الوحل. كان منحنيًا فوق المقود لينظر عبر الزجاج الأمامي. لم يستطيعا المخاطرة بإشعال الأضواء.

توقف على بعد بضع مئات من الأقدام من المقطورة، قبل أن يرق الغطاء الشجري وينسكب الممر في الفسحة التي باتت كثيفة بالطين.

قال:

– «يجب أن نستخدم الشفرات إن استطعنا».

انكبا خارجين من الشاحنة. محتمين بالأشجار على طول الممر، تسللا نحو المقطورة، السكاكين مُشهرة، والمسدسات في الأغماد. مع كل خطوة، كان بيتر يراقب الغمد يرتد على ورك زوجته.

***

أطفأت بروكتر الأنوار وسحبت خصلة من الخرز واختلست النظر من النافذة الأمامية. انتظرت، تحاول تثبيت تنفسها، ودماغها المخلل بالكحول يجهد للتركيز.

صدعٌ من البرق وتحول العالم إلى البياض ورأت وميض معدن بين الأشجار. حركة. شكل ما. ربما اثنان أو أكثر. صعب المعرفة. كانت ثملة جدًا.

فكرت لثانية — ثم اثنتين، ثلاث، أربع. نفس عميق. هزت رأسها كما لو أن ذلك قد يطرد قليلًا من الكحول.

ثم، إلى غرفة النوم، جثمت على الأرض، تتلمس تحت سريرها حيث تحتفظ بالأسلحة. بندقية «موسبيرغ» عيار 12. صديقة عزيزة، لكنها غير مفيدة الآن. مضرب بيسبول. نفس الشيء. بندقية «كاربابن M4». أخرجت تلك.

ورشاشها الـ Mk 48 Mod 1، القابع في حقيبة Pelican ذات أقفال كبيرة سببت ليديها الثملتين بعض المتاعب. في الداخل كان هناك رشاش متعدد الأغراض يُلقم بشريط وحامل ثنائي. كان لديها بعض جيوب الذخيرة، كل منها يحتوي مائة طلقة. انزلقت في واحد منها، وعلقت الـ M4 على كتفها، ودخلت إلى الخزانة. كانت هناك فتحة أرضية للوصول إلى الهيكل السفلي للمقطورة. انتزعتها وقفزت للأسفل. كل شيء وحل هنا بالأسفل؛ وجودها أزعج أيًا كان ما اتخذ من هذا المكان منزلًا، لأن أشياء كانت تركض وتزحف نحو الزوايا. مدت يدها وسحبت الغطاء لإغلاقه، وأخذت نفسًا عميقًا وزحفت نحو فتحة مغطاة بشبكة خشبية رقيقة.

***

عند الباب، وجد بيتر المقبض غير مقفل. انتظر دمدمة الرعد ليفتحه قليلًا. اختلس النظر للداخل، متوقعًا نصف توقع أن يُطلق عليه الرصاص، لكن المقطورة كانت هادئة ومظلمة. أين فقدت وعيها؟ صوب مسدسه ودفع نفسه للداخل، نبضات قلبه في أسنانه. كانت أصابعه تهتز وتجعل المسدس يرتجف. تخطى بضعة صناديق ومسح المطبخ بنظره. فارغ.

قالت آيرين بصوت عالٍ فوق عويل العاصفة:

– «أنت تفقد غرفة النوم. وأنا سأتفقد الخلف».

مومئًا برأسه، انزلق بيتر بحذر حول القنبلة وعبر المطبخ إلى غرفة النوم.

من مكان ما بالخارج — ربما بالأسفل؟ — جاء صوت تكسر وفرقعة خشب. حيوان يخشخش تحت المقطورة. ثم ضربة رعد مدوية وكانت آيرين تنادي لكنه لم يستطع فهم كلماتها. وجه المسدس نحو غرفة النوم وضغط الزناد لكن تأمين اللعنة كان مفعلًا، فألغاه وبدأ بإطلاق النار، مندفعًا للأمام.

عندما وصل هناك أفرغ رصاصات في الخزانة، السرير، الخزائن. شعر وكأن قلبه سينفجر.

***

زحفت بروكتر عبر الوحل والمطر الذي يعمي الأبصار بينما ذابت طلقات الرصاص في الرعد. ثم وقفت، وركضت نحو مجموعة من الأشجار، حيث التقطت أنفاسها. دوت المزيد من الطلقات داخل المقطورة. مسدس يدوي، فكرت بروكتر، يشغله معتوه. انتظرت تحطم رعد آخر ثم انطلقت عبر رقعة من الوحل وغاصت خلف شريط من النخيل القصير. انسكب ضوء خافت عبر الباب الأمامي، الذي كان يتأرجح على مفصلاته. طلقة أخرى. على ماذا كان يطلق ذلك الأحمق النار في الداخل؟

كانت السماء معرّقة بالبرق.

ظهر شكل من خلف المقطورة، ثم اختفى في الليل.

ارتمت بروكتر في الوحل وصوبت الـ Mk 48 نحو المطبخ، حيث تركت الصندوق. استخرجت الحامل الثنائي لتثبيت السلاح. لقمت الذخيرة. ألغت التأمين. نفس عميق، ثم ضغطت الزناد.

***

كان بيتر قد مزق المكان وأطلق النار في كل أرجائه وما زال لا يستطيع العثور على امرأة الـ CIA؛ نادى آيرين، التي صرخت ردًا من مكان ما بالخارج.

صاحت آيرين:

– «إنها تركض! آثار أقدام! تعال يا عزيزي!».

كان قد وصل لتوه إلى المطبخ الضيق حين سمع هدير سلاح يعود للحياة.

***

كان للسلاح عضة أقوى مما تذكرت بروكتر. ولكن مرة أخرى، هي لم تكن أبدًا بهذه الثمالة أثناء تشغيل الرشاش، الذي تأرجح الآن يسارًا، يمزق غرفة نومها لثانيتين قبل أن تحاول التصحيح، مروحةً يمينًا، كشاف بحث قاتل

يسكب اثنتي عشرة طلقة في الثانية، يثقب جلد المقطورة ليحوله إلى مبشرة جبن مهترئة. تتبع تصويبها عبر المطبخ، نحو الصندوق، وثبتته هناك تمامًا، تغمر منزلها بوابل كثيف من الرصاص حتى انفجرت القنبلة، وتحول كل شيء إلى ضجيج وضوء، نار وشظايا، وبالكاد أغلقت عيناها، بغريزة من التدفق المفاجئ للسطوع، حين شعرت بموجة الضغط الانفجارية تقتحم جسدها، وبعدها لم تستطع تمييز ما إذا كانت عيناها مفتوحتين، أو مغلقتين، أو قد احترقتا من جمجمتها.

كان العالم أسود، ثم أبيض، ثم أسود مرة أخرى. لم تكن هناك سماء. وذلك الطنين، يا إلهي، ذلك الطنين.

الجزء الرابع

وجبة الباريوم

الفصل الثامن والثلاثون

كيسيمي / أورلاندو، فلوريدا

حين رفّت جفون بروكتر مجددًا، وجدت فمها مُترعًا بالطين، وأنفها يزكمه عبق الشعر المحترق. اكتشفت أنها قادرةٌ على الجلوس؛ ورغم أن أذنيها كانتا لا تزالان تقرعان كأجراس الكنائس، إلا أنها كانت تبصر، وعلى ذراعيها خُطّت بعض الخدوش الدامية، لكنَّ أشلاءها وأوصالها كانت لا تزال متصلةً ببعضها.

كان شعرها ملوّحًا بالنار لكنه لم يشتعل، شأنه شأن معظم الشجيرات والأشجار والهيكل المتناثر لمقطورتها؛ كلّ شيءٍ غارقٌ في البلل من أثر المطر، ومع ذلك يشتعل بوهجٍ أبيض. التقطت بندقية «M4» التي طارت عن ظهرها، وراحت تتمشى لبضع دقائق، تتفادى النيران المتفرقة وأشتات حياتها التي تناثرت شظايا بعد الانفجار: نصف باب الثلاجة، دمبل حديدي وزنه أربعون رطلًا وقد تشوّه تمامًا، بقايا ملتوية من إطار السرير، وكومة من أشرطة «VHS» الذائبة تغلي بجوار شجرة بلوطٍ معقودة.

في الرمال القريبة من المستنقع، عثرت على يدٍ بشريةٍ شوّتها النيران وقد بُترت منها بضعة أصابع؛ وبجانب بستانٍ من النخيل الذي يتصاعد منه الدخان، وجدت شظيةً من جمجمة. كانا اثنين، هي مستعدة لتقسم على ذلك. تفحّصت الجزأين مرة أخرى. هل تنتمي اليد إلى الرأس؟ لم تستطع التمييز، فقد كان السواد المتفحم يكسو كل شيء.

أطالت بروكتر النظر إلى المعدن الملتوي، وإلى تلك المواقد البيضاء الاثنتي عشرة التي تنقّط أرضها. هل نجا أحد؟ من بعيد، تناهى إلى سمعها

عويلُ صفارات الإنذار المقتربة. الشرطة المحلية ستكون أول الواصلين، ثم ربما ضباط الولاية، وسرعان ما سيصل «المكتب».

للحظةٍ عابرة، راودها خيال الهرب. فكرة حمقاء. كان الروس يطاردونها بوضوح؛ فلماذا تضيف «المكتب» إلى القائمة؟ بدأت الأضواء الحمراء والزرقاء تصبغ ممر الدخول، وارتفع عويل الصفارات. وضعت بروكتر البندقية أرضًا، ورفعت كفّيها نحو السماء.

دمشق، سوريا.

موسكو، روسيا.

والآن، أضافت بروكتر إلى قائمة معتقلاتها: مقاطعة أورانج، فلوريدا.

تتشابه الأمكنة وإن اختلفت الجرائم. سيطرح عليك محققون أشداء أسئلةً لا تنتهي، سيجعلونك تشعر بالذنب، وسواء كنت مذنبًا أم لا، فهذا خارج الموضوع. سيودعونك في زنزانةٍ خرسانيةٍ تزكم الأنوف برائحة العفن والبول. وإذا مالت الأمور نحو الشدة، سيدفعون إليك برفيق زنزانةٍ غريب الأطوار ليحرضك على الاعتراف أو ربما ليزعجك أثناء نومك. لم يكن الأسر في مقاطعة أورانج مختلفاً كثيرًا عن دمشق أو موسكو، باستثناء أنها هذه المرة لم تكن مذنبةً بشيء.

بجسدٍ مرتعدٍ ورأسٍ يثقله دوار ما بعد السُّكر، استخدمت مكالمتها الوحيدة للاتصال بـ كامينغز، لتخبره بأنها لن تحضر للعمل في اليوم التالي، ولتسأله عما إذا كان بإمكانها الاستعانة بالفريق القانوني لشركة «غاتورفيل» في مكتب «كارلسبيرغ، كراغ، وبيترز» هناك في كيسيمي.

كانت الليلة الأولى تحقيقاً منهكاً مع اثنين من عملاء الفيدرالية من مكتب أورلاندو الميداني ومستشارها القانوني ضئيل الشأن. وفي اليوم التالي، ظهرت بضعة وجوهٍ من مكافحة التجسس، جاءوا من المقر الرئيسي للمكتب لإجراء محادثاتٍ متوترة.

كانت رفيقتها في الزنزانة تُدعى باربرا، وهي مدمنةٌ بائسة قُبض عليها وهي تخدش الحياء العام أمام الناس قرب بحيرة إيولا، لكن بروكتر نامت

بسلام، مفترضةً أن باربرا يمكنها أن تعرض ما تشاء، طالما بقيت عيناها هي مغلقتين.

حملت نهاية اليوم الثاني أجواءً مغايرة. حين اقتادوها مرة أخرى إلى الغرفة البيضاء للحديث مع الفيدراليين، كان انحناء كتفي المحقق المسكين ووقفته المترهلة يشيان بكل شيء: لقد خسر هذا المحقق متهمًا مثاليًا أمام سطوة الحقائق. خمّنت أنهم ربما عثروا على المزيد من البصمات أو آثار الأقدام أو الـ «DNA»؛ أو أنهم اكتشفوا أدلة تدين طرفًا آخر في مكانٍ ما. بقايا مواد متفجرة من موقع التصنيع، اتصالات بموسكو، أو رسالة ما. وبالطبع، لم يفصح عملاء المكتب عن شيء.

على أية حال، بحلول صباح اليوم التالي، كانت جدران الغرفة الجديدة من الطوب، وجلست هي على أريكةٍ خضراء ولم يعد أحد يصرخ في وجهها. كقاعدةٍ عامة، كانت بروكتر تفضل المحادثات التي يتخللها الصراخ، لكنها كانت ممتنةً هذه المرة؛ فهي مدرجةٌ على قائمةٍ روسيةٍ ما، وقد قرروا أن تمتد أيديهم لتطال الناس داخل الولايات المتحدة، وكان البقاء في الحبس يجعلها على أعصابها. فكّرت أن باربرا قد لا تمانع طعنها حتى الموت مقابل بضعة كوبيكات (عملة روسية). أعادوا إليها متعلقاتها الشخصية بعد أن أنهت الأوراق. لم يكن هناك الكثير: قبعة بيسبول لفريق إنديانز، بنطال جينز موحل، هاتف، وعشرات الرسائل الصوتية والنصية من ماك، وثيو، وغاس. لقد دمر التفجير الهاتف المؤقت الذي كانت تستخدمه للتواصل مع سام. حتى الموظف المسؤول عن إجراءات خروجها بدا حزينًا بعض الشيء لأجلها.

***

خرجت بروكتر لتبدأ بإجراء المكالمات الهاتفية، وحينها رأت ديبس.

كانت قد تساءلت عمن سيظهر، وناقشت نفسها إن كان ظهور أحدهم سيخبرها بشيء، أو يقدم أي تلميحٍ أو طرف خيط. كانت نائبة مدير العمليات ترتدي سترةً بيضاء بحمالاتٍ رفيعة، وحذاءً أبيض بكعبٍ عالٍ، وتنورةً ضيقةً

طُبعت عليها وردةٌ صفراء بحجم كرة السلة. كان وجهها صارمًا، بل غاضبًا، لكن عينيها كانتا تبتسمان.

تمتمت بروكتر:

– «آسفة لأنني لا أزال على قيد الحياة.»

– «لا أحد كامل.»

– «هل أنتِ هنا للمساعدة، أم لتتأملي حطام حياتي؟»

– «أراد جميع أصدقائك القدوم. فور سماعنا بالخبر، حجز ماك وغاس وثيو تذاكرهم للاطمئنان عليك. لكنني منعتهم. أردتُ أن أكون أول من يتحدث.»

جلستا على مقاعد في فناءٍ داخلي. كانت أشجار النخيل تتطاول فوق رؤوسهما، منحنيةً كالمصلّين نحو حجر المبنى المتسخ.

قالت ديبس وهي تسوّي تنورتها:

– «أطلعني المكتب على تفاصيل الهجوم. ما هذه اللعنة؟»

سألت بروكتر:

– «هل لديهم أي خيوط؟»

– «يعتقد المكتب أن الأشلاء الموجودة في مقطورتك تعود لفردٍ واحد، ذكر، لكنهم لم يتمكنوا من تحديد هويته بعد. لم يتطابق الـ «DNA» مع أيٍّ من قواعد بياناتهم الجنائية، ولا أيٍّ من القواعد العسكرية التي يمكنهم الوصول إليها بسهولة. ولم يتبقَ من رأسه ما يكفي لإجراء أي تعرفٍ على الوجه أو الأسنان. اكتشفوا مجموعةً أخرى من آثار الأقدام وشاحنة أمازون مهجورة، لكن، مرة أخرى، لا خيوط. هل لديك أي نظريات عمن حاول قتلك؟»

أجابت بروكتر:

– «يصعب الجزم. هناك الكثير ممن لديهم دوافع.»

وضعت ديبس ساقًا فوق أخرى، وملّست تنورتها، وشدت خيطًا كان قد انفلت قرب طبعة الوردة، رامقةً إياه بنظرةٍ مشمئزة.

قالت:

– «لدي ثلاث حقائق. الأولى: أعلم أنك وصديقًا مجهولًا زرتما «إمبريال» في لاس فيغاس الأسبوع الماضي. لا أعرف السبب، ولا أعرف كيف عثرتِ عليه، لكنه اشتكى من الزيارة لمسؤوله هناك، الذي كتب برقيةً يسأل فيها عما إذا كان المقر الرئيسي قد تجاوزه لسببٍ ما. إذًا هذه واحدة. لقد قابلتِ روسيًا ملتوياً في فيغاس. الثانية هي أنه بعد أقل من أسبوع حاول شخصٌ ما قتلك. والثالثة هي أنه قبل شهر، وفي نوبة حنينٍ غريبة، اتصلتِ بي فجأة، وفي أجواء ذلك البار الكاراوكي الخانقة بالدخان، طرحتِ عليّ مجموعةً من الأسئلة الغريبة والمستفزة للغاية.»

سألت بروكتر:

– «هل أحتاج إلى محامٍ؟ كان لدي واحد في الداخل، يمكنني إحضاره مرة أخرى. اسمعي، لقد سألتني عمن أعتقد أنه حاول قتلي، وجوابي هو الروس. لا أعرف لماذا الآن أو من أرسلوا، لكن لديهم أسبابهم. عملنا السري العام الماضي، والاضطرابات في موسكو، وحساب بوتين البنكي المستنزف؛ كلها أسباب تأتي على رأس القائمة. هناك الكثير غيرهم، لكن هؤلاء يكفون تمامًا.»

قالت ديبس:

– «أتفق مع ذلك. لكن التوقيت خاطئ.»

نبرت بروكتر بحدة:

– «الروس لا ينتقمون وفق جدولك الزمني. إن الدوافع الداخلية لساديتهم غامضةٌ وعصيةٌ على الفهم.»

همست ديبس بحدةٍ مماثلة:

– «وفّري عليّ المحاضرة. حدث هذا مباشرةً بعد اجتماع «إمبريال». وما الذي كنتِ تحاولين انتزاعه مني أثناء دردشة الكاراوكي تلك؟ لا، الأمر برمته تفوح منه رائحةٌ مريبة بالنسبة لي.»

فكت ديبس تشابك ساقيها، واستدارت لتواجه بروكتر مباشرةً:

– «أنت تخططين لشيءٍ ما يا أرتميس. وأريد أن أعرف ما هو. لذا إليكِ ما سيحدث. سأمنحكِ فرصةً لإبقاء هذا الأمر داخل العائلة في الوقت الحالي. لدي ما يكفي لاستصدار مذكرة «FISA» ضدك الآن. وليس هناك أدنى فرصة أنك بحاجةٍ لذلك في حياتك. ولا المكتب يحتاج لذلك أيضًا. إنه صداعٌ كبير. سيضطر بعض عملاء قسم مكافحة التجسس المساكين للزحف إلى شركة «T&AT» مع حزمةٍ من المحامين ليعرضوا عليهم المذكرات ويشفطوا كل مكالماتك. سيتحتم عليهم قراءة رسائلك الإلكترونية، وتتبعك عبر الإنترنت إلى أي زوايا مظلمة تحشرين أنفك أو أجزاء أخرى منك فيها. ولا سمح الله أن يزرعوا أجهزة تنصت في أي خرابةٍ ستحطين فيها رحالك تاليًا، نظرًا لأن مقطورتك قد تبخرت. كل تلك التسجيلات؟ يا إلهي، ستكون مزعجةً بشكلٍ خيالي، ألا تظنين ذلك؟ ناهيك عن أطنان العمل.»

قالت بروكتر:

– «لا أعتقد أن لديك ما يكفي للحصول على مذكرة «FISA». على أي أساس؟»

– «على أي أساسٍ أختاره. أتريدين اختباري؟ كان غوسفورد والنائب العام زميلين في نفس الأُخوية. ألا تظنين أنني قادرةٌ على إغراقك في عالمٍ من الألم بمكالمةٍ هاتفية واحدة؟ أنتِ مصدر إزعاج، لكنك لستِ غبية.»

– «ما الذي تريدينه بحق الجحيم يا ديبس؟»

كانت بروكتر تشعر بشفتيها تختلجان؛ عاد صوت الصفير يقرع داخل جمجمتها، موسيقى تصويرية غاضبة تعوي في رأسها. كان عليها التحدث إلى سام.

– «ستأتين معي، اليوم. سنذهب إلى «المزرعة». وهناك ستشرحين لي بالضبط ما الذي يجري.»

الفصل التاسع والثلاثون

كيسيمي

في ربيعها الرابع عشر، كتبت أيرين فينبل ورقةً بحثيةً لمادة التربية الوطنية حول عقوبة الإعدام. حينها، استبدَّ بها ولعٌ خاصٌّ بقضيةٍ بعينها: قضية مواطنٍ باكستاني يُدعى مير أيمل كانسي، الذي قاد سيارته في عام 1993 متوجهًا إلى مقر وكالة الاستخبارات المركزية، وأطلق النار على ضابطين من ضباط الوكالة بينما كانا ينتظران دورَهما للانعطاف يسارًا نحو المجمع. فرَّ الرجل إلى باكستان، وبعد أربع سنوات، أُلقي القبض عليه وسُلِّم إلى الولايات المتحدة، حيث حوكم وأُدين بجريمة قتلٍ عمد، ثم نُفذ فيه حكم الإعدام بالحقنة القاتلة.

لكن ما أثار فضول «أيرين» الصغيرة آنذاك — وهي التي كانت قد سمَّمت أولى قطط الشوارع التي صادفتها — وما بدا لها مثيرًا للاهتمام بشدة الآن وهي هاربة، لم يكن التسليم ولا الإعدام اللاحق، بل حقيقة أن مير أيمل كانسي قد أفلت بفعلته في البداية.

قاد «كانسي» سيارته إلى متنزهٍ بعد عمليات القتل، حيث انتظر لأكثر من ساعة. عاد إلى شقته، وأخفى البندقية، وتناول طعامه في مطعم ماكدونالدز — كتبت في ورقتها البحثية أنه تناول وجبة «بيج ماك»، ولم تكن تدري إن كان ذلك حقًا أم لا، بل مجرد تفصيلٍ اختلقته من خيالها — ثم حجز غرفةً في فندقٍ لقضاء الليل، وفي صباح اليوم التالي كان على متن رحلةٍ متجهةٍ إلى باكستان. نجا بجلده، طليقًا كأنه لم يفعل شيئًا.

انطلقت «أيرين» من المقطورة راكضةً على حواف المستنقع وصولاً إلى الشاحنة، ثم قادتها إلى موقف سيارات تابع لمتجر أدواتٍ يبعد عشر دقائق سيرًا على الأقدام من الفندق. تفحّصت مؤخرة الشاحنة؛ بنادق، سكاكين، حقائب سفر، ثياب للتنكر، وملابس نظيفة لترتديها بعد الهجوم. لا شيء يربط ما هنا بـ أيرين فينبل المقيمة في دالاس بولاية تكساس. انتعلت زوجًا جديدًا من أحذية «ريبوك»، وارتدت بنطالًا من قماش «الكاكي» وقميصًا ثقيلاً.

عادت إلى الفندق وجلست على السرير، ومسدسها بجانبها. طوال ساعتين، وتحت وطأة الصدمة، راحت تنتظر وصول الشرطة. كانت أصوات صافرات الإنذار تتردد في الأفق البعيد. وعلى ذلك السرير، كانت تصارع طيف زوجها الراحل بيتر، في مزيجٍ حادٍّ من لوعة الفقد وغيظ الهجران. بكت. صبّت جام غضبها عليه لأنه أفسد اللعبة بتلك القنبلة اللعينة. ذرفت دموعًا حزينة فوق غطاء السرير الخشن في فندق «سوبر 8» المتواضع بمدينة كيسيمي في ولاية فلوريدا.

سمعت خفقات ريش المروحيات فوق رأسها. ثم المزيد من الصافرات. وجّهت مسدسها نحو الباب، وعقدت العزم على إطلاق النار بمجرد أن يطرق أحدٌ الباب. لكن لم يطرق أحد.

غير أن عقلها كان يسابق الزمن؛ فالمسألة ليست سوى وقتٍ قبل أن يظهر عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي أو رجال الشرطة لاستجواب من في الفندق. لقد رأى مدير الاستقبال «بيتر».

أين زوجكِ؟ سيألونها حتمًا.

كانت تدرك منذ البداية أنها و«بيتر» سيُطاردان، وأن قطيعةً حاسمةً مع ماضيهما قد وقعت، وأنهما في لحظةٍ ما لن يتمكنا أبدًا من العودة إلى منزلهما في تكساس. وبدلاً من ذلك، سيمضيان إلى الوطن. كانت قد بحثت مع «بيتر» في كيفية استخدام الشرطة ومكتب التحقيقات الفيدرالي لخوارزميات التعرف على الوجوه وطريقة المشي للبحث عنهما، وكيف سيقوم خبراء الأدلة الجنائية بمعاينة المسرح. فالمركبات تترك آثار إطارات، ولوحات الأرقام تُصوَّر، ولا بد

من وجود بقايا دمٍ أو شعرٍ أو بصماتٍ أو لعاب. هل كانت بياناتهما موجودة في أي قاعدة بيانات يسهل وصول الشرطة إليها؟ لم يعتقدا ذلك. وعدم القبض عليها حتى الآن لم يكن يعني سوى أمرٍ واحد: لديها متسعٌ من الوقت. لكنه وقتٌ ضئيل.

استحمت «أيرين»، وحزمت أمتعتها، وسجلت خروجها. سارت لكتلتين سكنيتين وصولاً إلى مطعم ماكدونالدز.

طلبت وجبة «مير أيمل كانسي». ومع وصولها لمنتصف شطيرة الـ «بيج ماك»، داهمها إدراكٌ مرير بمدى خطورة موقفها. زوجها رحل، وهي بلا سيارة. وفي لحظةٍ ما، سيربط المحققون بين أشلاء زوجها وبين بيتر فينبل، وستُملأ شاشات الأخبار بصورتها، أليس كذلك؟ أم تراهم ينجحون في الإفلات؟

للحظاتٍ، فكرت في الهرب: تطير إلى مكسيكو سيتي، وتدخل السفارة الروسية مثلاً؟ وضعت الشطيرة جانبًا لتبحث عن الرحلات الجوية حتى باغتتها فكرةٌ أصابتها بالغثيان: لقد فشلت هي و«بيتر». لقد فشلا تمامًا.

لقد فشلتِ يا أيرين، أيتها الحمقاء الصغيرة.

وخيّل إليها أنها في سيارة عمتها، تفرُّ من والدها ومن منطقة شيبسهيد باي، تقود نحو الجنوب — نحو أي مكان — ومرةً أخرى، وللحظةٍ مروعة، عادت تلك الفتاة الصغيرة الخائفة المكلومة بالخزي. إذا ساءت الأمور، فلا بد أنه خطؤكِ أنتِ. أما بالنسبة لرواد ماكدونالدز الآخرين، فقد بدت امرأةً هادئة — غريبةً عن المكان قليلاً، بلا شك — تستمتع بوجبتها. لكن في الداخل، كانت أيرين فينبل مرجلاً يغلي بأصواتٍ ومشاعر وذكريات تتصارع في أعماقها، تزداد حرارتها توهجًا حتى شعرت بشيءٍ واحد، شعورٍ واحد، كلمةٍ واحدة تخرق كيانها: لا.

فكرت: لا، بل ألف لا. لا، لا، لا، لا.

هو من فشل. بيتر هو من أخفق. ثم تسبب في مقتل نفسه وتركني هنا — أنا زوجته! — وحيدةً، ألملم الحطام وأواصل المسير. هذه أخطاؤه هو، وليست أخطائي. تناولت اللقمة الأخيرة من شطيرة الـ «بيج ماك».

كانت بحاجةٍ إلى وسيلة نقل. لكن كيف؟

تذهب سيرًا؟ المسافة بعيدة جدًا، وستكون مثيرة للريبة.

تطلب خدمة «أوبر»؟

تستأجر سيارة؟ ولكن، عند مكتب التأجير، هل تدفع نقدًا؟ سيطلبون بطاقة هوية، وستُدخل البيانات في نظام الحاسوب. لم يرق لها ذلك.

وفجأة، ومن زاوية عينها، شعرت بنظراتٍ تلاحقها. شعرت بحرارة الالتفات. رفعت بصرها، فإذا بشابٍّ ينظر إليها بخجل قبل أن يخفض رأسه لاهيًا بهاتفه. أجرى نظامها الإدراكي الفطري حسابًا سريعًا: في أوائل العشرينيات، عينان ضعيفتان، نحيلٌ ووسيم لكنه يفتقر للقوة البدنية، نظيف الهندام — لا تبدو عليه آثار عملٍ يدوي — يميل للارتباط بالنساء، ومفتاح تشغيل سيارته موضوعٌ على الطاولة.

وضعت حبة بطاطس فوق لسانها. شعرت بغصةٍ مالحة في حلقها. يمكنها أن تتوارى تحت سطح الأحداث دون أن يشعر بها أحد. لقد فعلت ذلك من قبل، عند هروبها من شيبسهيد باي، وبإمكانها أن تستحضر كل ما تملكه من دهاءٍ وجلدٍ لتكرار الأمر. يمكنها أن تكون القانصة، والمقتنصة في آنٍ واحد.

ابتسمت «أيرين»، وأومأت له بلمحة دلالٍ غاوية، ثم نادته قائلةً:

– «أنا ستيف.»

ثم ضربت بكفها على مقعد الطاولة الخشبي، وتابعت:

– «ثمة متسعٌ كبير هنا على طاولتي.»

الفصل الأربعون

المزرعة

كان الطريق إلى «المزرعة» أشبه بحصنٍ منيعٍ من الأشجار، وسياجٍ معدنيٍّ خِيطت حوافه بأسلاكٍ شائكة، وبوابةٍ تسبح في ضوء مصابيح الصوديوم الأصفر. من نافذة سيارة الدفع الرباعي، رمقت بروكتر هذا المشهد بنظرةِ سجينٍ هاربٍ يُعاد إلى زنزانته؛ شعورٌ نبع جزئيًا من تلك الهالة العقابية التي تُعرف بها «المزرعة»، لكنه نبع أيضًا من كراهية بروكتر لهذا المكان لأسبابٍ مغايرةٍ تمامًا. كانت «المزرعة» تذكيرًا بأن الحياة كانت يومًا ما صفحةً بيضاء ممتدةً أمامها، والآن أصبحت معظمها — وربما أفضل أجزائها اللعينة — خلف ظهرها بأميال.

لوّح الحراس للسيارتين بالمرور. كانت بروكتر في المركبة الأولى، وقد تعززت أجواء السجن بوجود ضابطي أمن يرافقانها. بينما كانت ديبس في السيارة الخلفية. طقطقت العجلات فوق أرضية المجمّع، متجهةً نحو طريقٍ مفروشٍ بالحصى يقود إلى عددٍ من المنازل التي تخصصها الوكالة للضيوف المميزين.

غير أن رائحة «المزرعة» كانت هي ما أثار انزعاجها حقًا. هاجمتها الرائحة، كما تفعل دائمًا، لحظة فتح باب السيارة المستأجرة: رائحة السنة الأولى بالجامعة. تفوح من المكان رائحة مياه النهر، ومن المباني رائحة غداء المدارس والمطهرات، ومن الساكنين رائحة العرق والجنس. كانت حافلة مدرسية تتثاقل في سيرها حول القاعدة، يا للهول، تتهادى بين المهاجع، والصالات الرياضية، والساحات المفتوحة، وقاعة الطعام، والبار — مبنى

الترفيه الطلابي «SRB» — بألعاب السهام وتنس الطاولة. كان المكان يغصّ بالقراد والغزلان والمكبوتين جنسيًا، وكثيرٌ منهم كانوا مدربين أيضًا.

كان مسكن بروكتر — أو زنزانتها، حسب وجهة النظر — أحد المنازل العديدة التي تنقّط القاعدة الفسيحة، رابضًا بمحاذاة النهر. كانت سيارة ديبس تدور محركاتها في الممر؛ ربما كانت نائبة المدير تجري مكالمة. قاد ضباط الأمن بروكتر إلى الداخل، حيث استقبلها ضابط دعم وأخبرها أن كوخها عادةً ما يُستخدم لكبار الشخصيات: قيادات الطابق السابع، أعضاء الكونغرس الزائرين، وكبار أعضاء أجهزة الاستخبارات الأجنبية الصديقة.

قال الرجل:

– «أنتِ محظوظة يا آنسة بروكتر لأن هذا المكان متاح.»

منزل هيل: مبنىً من الطوب الأحمر بطابقين على الطراز الكولونيالي، تحيط به شرفةٌ مُسوّرة بأعمدةٍ بيضاء يتقشر طلاؤها. كانت الغرف مُزيّنة وكأنها إقطاعيةٌ في فيرجينيا: جدرانٌ مكسوةٌ بالألواح الخشبية، وعُلّقت عليها بشكلٍ عشوائي لوحاتٌ زيتيةٌ باهتةٌ من حقبة ما قبل الحرب الأهلية لأرستقراطيين يصطادون الثعالب. كان المنزل جاثمًا وسط الغابة، بعيدًا عن الأحياء الكبيرة في القاعدة. خمّنت أن ذلك يجعل مراقبتها أسهل.

قال ضابط الدعم وهو يفتح باب غرفة نومها:

– «حقيقة طريفة: أقام نوسينكو هنا من يونيو 66 إلى أغسطس 67.»

أصدرت همهمةً تدل على المعرفة؛ فالمنشق العجوز كان شخصيةً أسطوريةً في «البيت الروسي». المسكين وقع ضحيةً لكوابيس الحرب الباردة: لثلاث سنوات لم تكن الوكالة واثقةً إن كان منشقًا حقيقيًا أم عميلًا مزدوجًا للـ «KGB»، لذا حبسه أنغلتون في المزرعة وضيّق عليه الخناق ليصل إلى حقيقة الأمور. كانت بروكتر تحمل يقينًا راسخًا بأن التجسس في تلك الأيام كان أكثر مغامرةً وقرصنة. بالتأكيد كانت المساحة المتاحة للحركة أكبر، حتى لو كانت في حالة نوسينكو قد مُدّت فقط لتسمح للوكالة بإساءة معاملة (يظهر مصطلح

«تعذيب» في بعض السجلات التاريخية، وهو ما رأته بروكتر مبالغة) منشقٍ مخلصٍ كان يقول الحقيقة، من بين كل الأشياء اللعينة.

سألت بروكتر وهي تشعل الأضواء في غرفة جلوسٍ مستهلكةٍ جُرِّدت من الأثاث:

– «لم أكن أدرك أنهم حافظوا على الغرفة كما كانت في أيامه. هل هذا بمرسومٍ من جمعية الحفاظ على التراث، أم مجرد عدم كفاءةٍ معتاد؟ وهل هذا هو المكان الذي جعلوه يهذي فيه تحت تأثير الـ LSD؟»

هز ضابط الدعم كتفيه، وقال إن عليها الاتصال إذا احتاجت لشيء. رغم أنه لم يبدُ صادقًا، ولم يعطها رقمًا قط. لم يكن الأمر مهمًا، فليس لديها هاتف أصلاً؛ فقد صادره أحد ضباط الأمن. ولم تكن تملك سيارة أيضًا؛ لقد نقلوها بسرعة من أورلاندو في إحدى طائرات بومبارديه التابعة للفرع الجوي التي أعارها غوسفورد لنائبة المدير للسفر الداخلي. وكانت سيارة ديبس لا تزال تدور في الخارج.

هوت بروكتر على السرير في حالةٍ من عدم اليقين المظلم. جزءٌ منها فكّر في أنها تستطيع انتظارهم، لترَ ما سيلقونه عليها، وإلى متى. والجزء الآخر تذكر الجنايات التي ارتكبتها مؤخرًا، وتحديدًا مشاركتها في سرقة وثائق سرية للغاية من خزائن وقواعد بيانات داخل مقر الوكالة. لقد اصطدمت بتحولٍ مريضٍ في الحبكة، حيث انقلب جهاز الاستخبارات رأسًا على عقب. لم يكن بإمكانها إجراء التحقيق دون خرق القانون. والآن، يمكن لهذا القانون أن يُستخدم ضدها من قِبل "الخلد"، وهو الشخص الأكثر التزامًا بتدمير الجهاز. تعقيداتٌ داخل تعقيدات. فجأة شعرت بإرهاقٍ شديد.

تنهّد الباب الأمامي وانفتح. نادت ديبس من أسفل الدرج:

– «أرتميس، لننهِ هذا الأمر. انزلي.»

وجدت ديبس جالسةً على إحدى الأرائك الخضراء الباهتة في غرفة المعيشة. أشارت لـ بروكتر بالجلوس.

قالت ديبس:

– «أسوأ كوابيسنا قد حلّ. سنحظى بمحادثةٍ طويلةٍ ولطيفة.»

ارتمت بروكتر قبالة صديقتها القديمة. ذكّرتها المفارش المطرزة على طاولة القهوة بـ بيترا ديفاين، وهي ذكرى وجدتها مريحةً بشكلٍ غريب رغم قلقها. هذا أفضل ما لدي، فكرت، واختارت أحد المفارش ليكون نقطة تركيز بصرها. ستحتاج إليها خلال فترات هذه المحادثة التي ستشعر فيها برغبةٍ عارمةٍ إما في تحطيم الأشياء أو الهجوم على صديقتها السابقة.

قالت ديبس ببرود:

– «لنبدأ بلاس فيغاس. زيارتك لرؤية «إمبريال». المعروف هناك باسم فرانكي. أخبريني لماذا ذهبتِ. ومن كان معك؟ هل كان سام؟ وما الذي ناقشتموه بالضبط؟»

– «كانت جولةً في ممر الذاكرة. لقاءً بمحض الصدفة.»

– «قابلتِه عند طاولات الرهان العالي، هاه؟ مكانٌ معتاد، أفترض، لموظفٍ من «غاتورتاون».»

تمتمت بروكتر:

– «غاتورفيل. غاتورتاون هم المنافسون.»

ابتسمت ديبس وأغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا وتأمليًا. وحين فتحتهما قالت:

– «أخبر فرانكي جليسه أنك زرتِه مع صديقٍ يُدعى تشارلز. من هو تشارلز؟ وهل تشارلز هو سام في الحقيقة؟»

– «تشارلز هو تشارلز.

– «أرتميس، هل تشارلز هو سام جوزيف؟»

– «كيف يمكن لـ تشارلز أن يكون سام؟ تشارلز هو تشارلز.

– «أوه تبا لكِ يا أرتميس. إذا كان لقاءً بمحض الصدفة، فلماذا أخبر فرانكي مسؤوله أنك اتصلتِ به قبل ذهابك إلى هناك؟ ولماذا اشتكى؟»

قالت بروكتر:

– «لقد ربح فرانكي كثيرًا تلك الليلة. وأنا شبه متأكدة من أنه ضاجع ما لا يقل عن ثلاث نساءٍ جذاباتٍ للغاية. لا أستطيع أن أتخيل ما الذي كان عليه أن يشتكي منه.»

كررت ديبس بهدوء، وكأنها لا تثق بنفسها لرفع صوتها فوق الهمس:

– «ما الذي تخططين له بالضبط؟»

شبكت ساقيها الطويلتين. وبعد بضع ثوانٍ من تبادل النظرات البلهاء، قالت ديبس:

– «دعيني أرتب لكِ المشهد يا أرتميس. هناك ضيقٌ عام في «البيت الروسي» وفي وكالة الاستخبارات المركزية ككل منذ وصول فين غوسفورد. إنه ضابطٌ سابق باع نفسه، كما يقولون، إنه غير تقليدي، إنه متمرد، إنه...»

قالت بروكتر:

– ««متمرد غير تقليدي» عبارة منمقة لوصف إدارته. برافو. لديك مستقبلٌ في العلاقات العامة بعد الوكالة.»

تمتمت ديبس:

– «أوه، اخرسي. لقد فهمتِ القصد. الوكالة رفضته. ورفضت فكرة «الارتداد». لم يرغب أحدٌ في أن نحشر أنوفنا في شؤونهم الخاصة، ونسائل الأشياء. نتدخل. فين وأنا قوبلنا ببرودٍ عام منذ وصولنا. وأنا أثير غضب واستياء أصدقائي القدامى في مافيا «البيت الروسي» أكثر لأنني أطالب بأن أكون في الصورة. ومن يكره الشفافية أكثر من خبراء روسيا في الوكالة؟»

– «ربما الروس الحقيقيون فقط.»

– «ذكية. إن تفويض فين الكامل هو إبقاء الوكالة بعيدةً عن الأخبار. لا أخطاء، هذا حرفيًا ما قاله له الرئيس حين أدى اليمين. في المكتب البيضاوي، بتلك الكلمات. ثم في الأسبوع الأول من العمل تحدث كارثة سنغافورة. إنها فكرتكِ أنتِ، وكانت كارثة. وتصفين المدير بـ «السافل» في اجتماع. وبالطبع كنا بحاجةٍ إلى كبش فداء، وأنتِ مناسبةٌ تمامًا لأنك مسؤولةٌ عن الكارثة ومتمردةٌ أيضًا. لذا تم طردك.»

أوضحت بروكتر:

– «قلتُ إنه كان يتصرف بسفالة، أتذكرين؟ ليس أنه سافل.»

– «أنتِ وغدةٌ حقًا يا أرتميس. شوكةٌ في الحلق. وفي كل مكانٍ آخر. الفكرة هي أن لانغلي كانت مهيأةً للتمرد. وتعرفين ما أظنه؟ أنكِ تبحثين عن مواد لاستخدامها ضد فين وضدي. لا أعرف ما هي، لكنكِ تضغطين باتجاه شيءٍ ما. وأعتقد أن هذا الشيء قد دفعكِ للوراء بقوة.»

– «كما ناقشنا، لدى الروس أسبابٌ قديمة لاستهدافي.»

– «هذا صحيح. لكن هذه الدفعة الأخيرة حدثت مباشرةً بعد لقائك بمنشقٍ روسي. وجاءت بعد نبشك في الماضي المصبوغ بالصبغة الروسية مع كل رفاقك القدامى. هذا يترك المرء يتساءل يا أرتميس، أليس كذلك؟ مثل، ما الذي يجري بحق الجحيم؟»

قالت بروكتر وعيناها تثقبان المفرش:

– «الروس فجّروا مقطورتي يا ديبس. ما الذي تلمحين إليه بحق الجحيم؟ هل ستشنين هجومًا شاملًا على ضابطةٍ سابقة كادت أن تُمزق أشلاءً بقنبلةٍ روسية؟ حتى هذا يعتبر تلفيقًا صعبًا لقسم الدعاية في نظام غوسفورد. وبصراحة، أتعلمين؟ تباً لكِ. لقد طردتني من الوكالة، وسممتِ حياتي، ومزقتِ فريقي، ووضعتني في القبو، وخبأتِ مجموعةً من الصور القذرة في مكتبي، وسلطتِ عليّ مكتب تكافؤ الفرص، أنتِ...»

– «انتظري. لقد رفضتُ ترقيتك، ونعم، جردتُ قسم موسكو-إكس. لكنني لم أضع أي صورٍ في مكتبك، هذا مؤكد. لماذا أفعل ذلك؟ وبالتأكيد لم أُقحم مكتب تكافؤ الفرص في الأمر. ولماذا أتكبد العناء؟ أنا نائبة المدير للعمليات بحق السماء، ولا أحتاج لسببٍ لإنهاء خدمة كبار الضباط. أحتاج فقط لقصة.»

نفد وقود الشجار؛ وخيّم صمتٌ بينهما.

تمتمت بروكتر:

– «كان هناك عددٌ من الشكاوى الأخلاقية في تلك الأشهر.»

– «أنا متأكدة من وجودها، بمعرفتي بأخلاقك وأسلوب إدارتك. لكن هل عليّ أن أفهم يا أرتميس أنك ستلزمين الصمت والمماطلة؟ وأنك لن تجيبي على أيٍ من أسئلتي؟»

– «حسنًا، يعتمد ذلك على ماهيتها.»

– «ماذا عن هذا السؤال: لماذا طلبتِ مقابلتي قبل شهر؟»

– «جولة في ممر الذاكرة، كما قلت.»

– «آه نعم. الكثير من التجوال في الذاكرة لـ أرتميس بروكتر. معي، ومع أصدقائك القدامى، وفرانكي.»

– «ماذا عساي أقول، أزمة منتصف العمر جعلتني فريسةً سهلةً للحنين.»

– «إنه أمرٌ مثيرٌ للاهتمام يا أرتميس. بعد محادثتنا الغريبة الشهر الماضي، أرسلتُ مجساتي لبعض الأصدقاء الغارقين حتى آذانهم في عالم المقاولات. وهم بدورهم سألوا أصدقاءهم في «داينكوتيل»، الذين قالوا إنك لم تتقدمي بطلب توظيف هناك أبدًا، ناهيك عن القدوم لمقابلة.»

قالت بروكتر:

– «هاه. حسنًا، «داينكوتيل» مؤسسة كبيرة. ومشاركة المعلومات مشكلة لديهم أيضًا. أسوأ من الوكالة. إذا كانت مصادرك في القسم الخطأ، فلن يسمعوا بي أبدًا.»

– «أحقًا؟»

– «حقًا.»

– «في أي قسمٍ قلتِ إنك تجرين المقابلة؟»

قالت بروكتر وعيناها تجدان المفرش على الطاولة:

– «التهديد الداخلي.»

– «الآن، هذا مذهل، لأن هذا هو بالضبط المكان الذي تعمل فيه مصادر صديقي. ما رأيك في ذلك؟ وقسم التهديد الداخلي لم يسمع بكِ قط.»

قالت بروكتر وهي تحدق عبر المفرش إلى العدم:

– «إنها مؤسسة كبيرة.»

نظرت ديبس مباشرةً إلى المفرش أيضًا، وعلى وجهها ابتسامةٌ عريضةٌ خبيثة.

– «سيكون فريقٌ من المحققين الأمنيين وخبراء كشف الكذب هنا في الصباح الباكر. حظًا سعيدًا.»

***

في منزل هيل بعد ظهر ذلك اليوم، حاولت بروكتر عبثًا أن تأخذ قيلولة، لكنها ظلت تتقلب وتتململ في الملاءات الخشنة. بعد فترة، نزلت بخطواتٍ ثقيلة وأشعلت التلفاز. تسربت ذكرى عبر ذهولها الشارد. كانت قبل خمسة وعشرين عامًا، وهي تقود سيارتها مبتعدةً عن المزرعة.

كانت دورة تدريبهم قد تزامنت مع عيد الميلاد، لذا ذهبت لتنضم إلى زوجها آنذاك — وطليقها المستقبلي — توم وعائلته لقضاء العطلة. لم يكن أحدٌ هناك يعرف طبيعة عملها حقًا. باستثناء توم. وفي تلك المرحلة كانت تدرك أنها تعشق العمل، وأن كل ذرةٍ فيها تقريبًا لم تكن تطيق الانتظار للانتهاء من العائلة والعودة إلى المزرعة، فورًا. لكن الجزء الآخر منها، الجزء الذي باتت تكرهه بشكلٍ متزايد، كان عليه قضاء بضعة أيامٍ يعاني داخل سترة صوفية سميكة بياقةٍ عالية في شتاء جنوب أوهايو، وخاتم الزواج الذهبي يضغط على إصبعها، وألبوم عيد الميلاد لفرقة «كاربنترز» يصدح، والجميع متجمعون في المطبخ كأنهم في لوحةٍ لعينة لـ نورمان روكويل، وتوم يثرثر في حلقةٍ مفرغة حول التقديم لبرامج الدكتوراه — كلها في الولايات المتحدة.

خلاصة القول إنه لم يردها أن تذهب للخارج. ظل يهذي حول كيف يمكنهم الحصول على قرضٍ من والديه — سيكونان سعيدين بذلك، مبتهجين، يريدان المساعدة — حتى تتمكن من ترك الوكالة وربما يستأجران مكانًا في بوسطن أو بالو ألتو حسب البرنامج الذي يختاره. وربما أيضًا، قال بنبرةٍ متوسلة، ربما تجد أرتميس في قلبها متسعًا للذهاب إلى متجر «كريت آند باريل» خلال العطلة، لقضاء بعض «وقت البنات» مع أمه وأخته الكبرى التي

تعيش في هيوستن مع أربعة أطفال وابتسامةٍ مفعمة بالحيوية وزوجٍ يعمل شيئًا ما في الرهون العقارية.

وبروكتر، التي كانت حينها أرتميس جاكسون، بعد أن رضخت أخيرًا للضغط وغيرت اسمها، كانت في المطبخ وقالت: «هاي، أعطوني عملاً، شيئًا أساعد به»، فجعلتها أم توم تبدأ بتقطيع أحد الديوك الرومية. كان في المنزل أكثر من عشرين شخصًا ذلك اليوم. عائلة جاكسون الممتدة بأكملها محشورة هناك معًا — عيد ميلاد مجيد لعين! — وشمل ذلك أربع بنات إخوة وثلاثة أبناء إخوة دون سن السادسة، وكانت هي متوترةً للغاية بينما تشرح الطائر، مشتتةً قليلاً، كما قالت لاحقًا. في تلك اللحظة، كانت نزهة «كريت آند باريل» التي تلوح في الأفق سحابةً سوداء بالتأكيد، لكن الأعمق من ذلك كان الشعور المتنامي بأنها في مسار تصادم، وأن القطارات المختلفة التي تجر حياة أرتميس أفروديت بروكتر ستصطدم ببعضها البعض وسيكون الأمر مقرفًا.

رأت صدر الديك الرومي يتحول إلى الأحمر القاني حتى قبل أن تشعر بالألم الحارق في إصبعها. وأطلقت العنان للسانها، ناعته الطائر بأنه سافلٌ لعين ونحو دزينةٍ من التنويعات على نفس هذا المعنى. غطى البالغون آذان الأطفال بأيديهم، وأبدى المتفرجون اهتمامًا مفاجئًا بأحذيتهم، وكانت هناك الكثير من هزات الرأس الحزينة في كل مكان. قالت حماتها: «أرتميس، أرجوكِ، الأطفال»، فقالت هي: «أنا آسفة، أنا آسفة، لكنه يؤلم بشدة، هل يمكن لأحدكم أن يناولني منشفةً لعينة. ماذا؟»

لاحقًا، كانت هي وتوم دافئين في سريرهما الخالي من الجنس، يحدقان في السقف، وإصبعها مضمدٌ بالشريط والشاش لأنها لم ترغب في تدمير عشاء العائلة أكثر بجعل توم يقودها إلى الرعاية العاجلة، رغم أنها كانت بحاجةٍ لغرزٍ على الأرجح. أخيرًا، قال توم: «من أين جاء ذلك؟» وأرادت أن تسأل: «ماذا؟»، لكنها كانت تعرف عما يتحدث. قالت: «أنا آسفة، حسنًا؟ كان الألم فظيعًا وأنا آسفة». ثم مرّا بإحدى تلك الوقفات الطويلة حيث التوتر لا يُطاق ولكن ربما قد يغفو أحدهم. وحتى الآن كانت تتمنى لو أن أحدهم فعل. لأن توم

قال أخيرًا: «لا يعجبني ما يفعله العمل بكِ. إنه يلوِيكِ. يحولكِ إلى شيءٍ آخر. وأحيانًا لا أتعرف على المرأة التي تزوجتها.»

فكرت أن تلك الليلة كانت المرة الأولى التي رأى فيها حقيقتها، ولو حتى ذلك الجزء الصغير الذي يطل فوق سطح الماء. وقد كرهه. وقالت: «اسمع يا توم، أنا أحب عملي. لا أستطيع فعل أي شيء آخر». صمتٌ طويلٌ آخر. ثم انقلب توم، وسحب السلسلة ليطفئ المصباح، ونام.

***

أطفأت بروكتر التلفاز. لدى توم ثلاثة أطفال الآن، عرفت ذلك من بحثٍ أجرته على غوغل قبل بضع سنوات. أشارت الصور إلى أنه لم يسمن، وهو أمرٌ مؤسف. كان يركض في سباقات الماراثون مع زوجته، التي بدت أصغر بعشر سنوات وكانت فاتنة. كتب الرجل ستة كتب وحصل على التثبيت الوظيفي، كما استنبطت من صفحته على ويكيبيديا. لقد اختارت الوظيفة على حساب توم لتنقذ نفسها. لكن ربما كانت تنقذه هو أيضًا.

عبثت بروكتر بالمفرش في أصابعها وطوته بشرود؛ ولفترةٍ طويلة طقطقت الأفكار بلا جدوى داخل علبة رأسها، حتى نهضت وتمشت عبر ضوء الظهيرة المتلاشي إلى الحمام، حيث رفعت قميصها ونظرت إلى النجوم التسع الموشومة في خطٍ عبر عضلات ظهرها، وفوقها حُفرت كلمة «تكريمًا». نجمةٌ لكل ضابطٍ سقط وانتقمت له. جدارٌ تذكاري شخصي على جلدها. نظرت بتمعنٍ إلى تلك النجوم في المرآة. كان هناك عالمٌ تتوقف فيه فحسب، وتترك الأمر برمته. لقد لفظتها الوكالة. فالمبنى لا يبادلك الحب في النهاية. ما الذي يمكن أن تدين به لمكانٍ حررها من نذورها؟ ومع ذلك...

ذهبت بروكتر إلى غرفة النوم وفتشت حقيبتها. لم تجد ما تريده، فنزلت بخطواتٍ خافتة ورفعت وسائد الأريكة. حلوى «لايف سيفر». بنسان. فتات. ها هي ذي — عملة ربع دولار.

جلست على الأريكة، ورفعت العملة نحو الضوء، وأخبرت نفسها كيف سيكون الحال في كلتا الحالتين. مصيرها بين يدي آلهة الاستخبارات.

نبرت العملة في الهواء، التقطتها بكفها، وصفعتها على ظهر يدها الأخرى. اختلست نظرة.

جورج واشنطن.

صاحت:

– «اللعنة.»

وقذفت بالعملة عبر الغرفة.

***

حزمت حقيبتها ومشت إلى البوابة الرئيسية، مفترضةً أنها ستطلب سيارة أجرة لتقلّها من الخارج. كان الدخول إلى المزرعة صعبًا، لا الخروج منها. عند رؤيتها، قال الحارس إنه يجب أن يجري مكالمة.

قالت:

– «لا. افتح البوابة.»

– «آنسة بروكتر، لدي تعليمات.»

– «بمن ستتصل؟»

– «مكتب نائبة المدير.»

– «الوقت متأخر جدًا يا رجل، وكانت ديبس هنا للتو. قالت إنه يمكنني المغادرة، لذا أنا مغادرة. افتح البوابة.»

قال الحارس ويده على بندقيته:

– «لماذا لا تنتظرين حتى الصباح للمغادرة؟»

– «أرغب في المغادرة الآن.»

أشارت بروكتر إلى الذراع الحاجز المنخفض. ابتسم الحارس بوهن، ونظر إلى الأسفل، ونقر بكفه على بندقيته، وهي حركة اعتبرتها تشنجًا لا إراديًا أكثر منها تهديدًا.

– «يجب أن أتحدث مع نائبة المدير أولًا.»

وقفت بروكتر هناك تتأمل الحاجز المنخفض. أخبرت الحارس أن يتصل بـ ديبس في الصباح وكادت تبتعد غاضبةً حين توقفت وقالت:

– «هل الـ SRB لا يزال مفتوحًا؟»

أعطاها الحارس ابتسامةً بالكاد تُلحظ وأومأ برأسه.

***

مبنى الترفيه الطلابي، الـ «SRB»، يضم الحانة الرئيسية في المزرعة. يقع في مبنىً مشترك تحيط به المهاجع، وهو القلب النابض للقاعدة. تذكرت بروكتر زملاء دراسة أثمرت جهودهم هنا عن أزواج وأحباء سابقين، وعلاقات ليلة واحدة وعلاقات حب، وبراعة في العمل السري و«كلاميديا»، وأحيانًا الاثنين معًا.

ورغم أن بروكتر من عشاق الحانات عمومًا، إلا أنها لم تكن مولعةً بالـ «SRB». كانت معظم ذكرياتها تتضمن المشي ذهابًا وإيابًا على الأرصفة بالخارج، تحرق دقائق هاتفها في محادثات متوترة مع توم بينما كان زملاؤها في الداخل يشربون ويلعبون السهام ويتبخترون محاولين مضاجعة بعضهم البعض.

في البار، كان متدربون ذوو وجوهٍ نضرة يلعبون البلياردو ويرمون السهام، يشربون ويضحكون ويخبرون بعضهم البعض بالأكاذيب. لمحت بروكتر نادلةً عرفتها من أيامها في المزرعة — امرأة بعيونٍ دامعة وارتعاشاتٍ تسكب الكثير من المشروبات وتعمل أيضًا كإحدى طاهيات الغداء في الكافيتريا. كانت عجوزًا في ذلك الوقت، والآن أصبحت زبيبة. طلبت بروكتر بيرة وركزت نظرها على قطيع من أصحاب اللحى الرمادية والكروش. المدربون.

تطلبت الفصول الدراسية مدربين يتسللون معظم الليالي إلى الـ «SRB» لاحتساء بضع كؤوس وتلقين المتدربين عقيدة أخوية العمليات (وكانت أخويةً بالفعل). كان المدربون يشجعون الشرب الجماعي والمزاح الليلي الصاخب، وهم الذين، بالإضافة إلى تدريب الطلاب على العمل السري، كانوا يراقبون عن كثب كيف يتعاملون مع خمرهم وألسنتهم وأجسادهم تحت تأثيره. والآن،

والبيرة في أيديهم، غائصين في كراسي خضراء متعبة، كان ذوو اللحى الرمادية يراقبون مؤخرة متدربة تنحني وتتهادى وهي تصوب ضربة البلياردو.

اقتربت بروكتر من العجائز، وقالت إنه مر وقت طويل منذ كانت في المزرعة، وهل لا يزال المدربون المقيمون بشكل دائم هنا يحصلون على المنازل القريبة من النهر؟ مجرد فضول، لا أكثر. فقد فكرت أنها تبدو فرصةً من الطراز الأول وكانت تفكر في طرح اسمها لوظيفة نقل دائم هنا. ابتسم أحد ذوي اللحى الرمادية.

قال:

– «بالطبع. أنا هنا منذ خمسة عشر شهرًا. حصلت على أحد الأكواخ البيضاء بالقرب من الرصيف A.»

أطلقت بروكتر صفيرًا وجلست على مسند ذراع. أمال مدربان رأسيهما للرؤية من خلفها. لوت عنقها لتختلس النظر إلى شق صدر المتدربة المنبسط على القماش الأخضر لتسديد ضربةٍ صعبة أخرى. التفتت بروكتر عائدةً إلى صاحب الكوخ الأبيض.

قالت:

– «دعني أحزر. لقد وضعتَ أجر العمل الإضافي وبدل المخاطر من بضع جولات في مناطق الحرب في قاربٍ جميل.»

ابتسم؛ هز أحد رفاقه رأسه في إحباط العارف، وكأن وجهه يقول: ليس هذه القصة اللعينة مرة أخرى.

قال المدرب الأول وهو يتهلل:

– «قارب ألبيمارل، سبعة وعشرون قدمًا.»

قالت بروكتر:

– «سبعة وعشرون قدمًا؟ لا تمزح! كلفك مبلغًا محترمًا؟»

قال الرجل:

– «لنقل الأمر هكذا. إنه أقل تكلفةً وأكثر متعةً من زوجةٍ جديدة. ومن الزوجة القديمة أيضًا. القسط أقل حتى من النفقة.»

***

تُعد المزرعة منشأةً آمنةً تحميها أسوار بارتفاع خمسة عشر قدمًا، وأسلاك شائكة، وحراس، وكاميرات مثبتة على أعمدة، وجيش من الكاميرات وأجهزة الاستشعار بالأشعة تحت الحمراء غير المرئية. لكن داخل القاعدة، لا أحد تقريبًا يقفل المنازل أو السيارات. المفاتيح تُترك في العراء. والدراجات ملقاة في كل مكان.

مشت بروكتر نحو الصف الطويل من عقارات المزرعة الفاخرة المطلة على النهر. كان الظلام دامسًا، ومن الطريق، عبر غطاء الأشجار، لم تستطع تمييز لون وتصميم كل منزل بوضوح، ولا وجود مقطورة في الممر. أربع مرات صعدت ممرات السيارات لتجد لا مقطورة ولا كوخًا أبيض.

في المرة الخامسة وجدته. تمتمت بروكتر: «يا للجحيم»، واكتفت بالنظر إليه للحظة، وعقلها يشتعل في كل الاتجاهات تحت وطأة الذكريات. الرجل يسكن في منزل غانستون القديم. تخيلت نفسها هناك مع أصدقائها، تنظر لأسفل إلى نفسها بعد عقدين من الزمن، حبل طويل ممدود عبر السنين. هبت ريح باردة وبدأت الصفارة التي أعلنت انتصاراتها وإخفاقاتها — دمشق، دوشنبه، مزرعة سوداء خارج بطرسبرغ، أفغانستان — تعوي من عمق علبة دماغها، واستطاعت أن تشعر بالحقيقة، الحقيقة المروعة بأن الجهاز بأكمله قد قُلب رأسًا على عقب بواسطة أحد أصدقائها، وأن مؤخرة لانغلي الجماعية قد سُحبت عبر فمها مثل لسان، ولسانها من مؤخرتها مثل ذيل، وإذا لم تقم بدورها، فإن كل شيء معلق على ذلك الحبل من حينها إلى الآن سيذهب سدى.

كان القارب موصولاً بشاحنة بيك آب سوداء من طراز «كينغ رانش». كانت أبواب السيارة مفتوحة لكنها لم تجد المفاتيح بداخلها. أمعنت النظر داخل المنزل المظلم. رنت جرس الباب. لا إجابة. ومثل كل شيء آخر، كان الباب الأمامي مفتوحًا. وعاء خشبي استقر على طاولة في الردهة. أوراق، أقلام، سجائر، ولاعة. مفاتيح فورد. ضغطت زر الفتح فاشتعلت المصابيح الأمامية

في الممر. وهي تفتش بين الأوراق، عثرت على حلقة مفاتيح أخرى بسلسلة بلاستيكية كُتب عليها: مرسى دوف والرياضات المائية.

بدافع نزوة، توقفت وهي في منتصف طريقها للخروج من الباب. استدارت وصعدت الدرج إلى غرفة النوم الرئيسية. فتحت الخزانة أسفل المغسلة وتحسست قاع الحوض. لمست أصابعها شريطاً لاصقاً، ثم ورقاً. نزعت الشريط، ثم، وهي جاثية على ركبتيها، كشطت نتوء الغراء الذي وضعته على الصورة في ذلك النوفمبر البعيد. يبدو أن سباكاً لم يزر هذه المغسلة خلال ربع القرن الفاصل. سحبتها للخارج، نفخت عنها الغبار، وحدقت فيها للحظة: مصفرة ومهترئة وباهتة. كانت تظن الصورة فاضحة آنذاك، وتذكرت وكز كتف ديبس للضحك بينما كانت تقصها. لكن الآن؟ تباً، بعد خمسة وعشرين عامًا، كانت قد فعلت الأشياء الموجودة في الصورة بنفسها. أكثر من مرة، في الواقع. دست الصورة في جيبها وهرعت إلى الأسفل.

رمت حقيبتها في الشاحنة وقادت إلى الرصيف A، مرجعةً المقطورة إلى الأسفل نحو المنزلق المائي. كان متدربان يتبادلان القبلات على الرصيف، ولم يكلفا نفسيهما عناء السؤال عن سبب قيام بروكتر بإنزال قارب إلى النهر بمفردها، وفي وقت متأخر جدًا من الليل. في الشاحنة، خربشت ملاحظة تقول: سأترك القارب قرب «النقطة». آسفة لهذا. وضعتها على لوحة القيادة وتركت المفاتيح في الكونسول الأوسط.

رمت حقيبتها في القارب، وأحيت بروكتر المحرك، وانسلت بهدوء إلى مياه النهر الزجاجية المقمرة.

الفصل الحادي والأربعون

طريق 95-I شمالًا / كريستال سيتي

في تلك اللحظة، كانت بروكتر قد أحكمت ربط القارب ومضت نحو إحدى الحانات. من هاتف الحانة، اتصلت بـ سام على الرقم المجهول الذي حفظته عن ظهر قلب، ثم طلبت سيارة أجرة نقلتها إلى محطة الحافلات؛ هناك، دفعت ثمن تذكرةٍ نقدًا على متن آخر حافلة «غرايهاوند» متجهة شمالًا، وهي الآن تغالب زحامًا ليليًا غير مبرر على طريق 95-I السريع. كانت الحركة متقطعة، تارةً تندفع وأخرى تتوقف، لكن بروكتر لم تكد تشعر بذلك؛ فقد غرق عقلها في التفكير فيما أوشكت على إطلاقه من أحداث، وهي تعتصر ذاكرتها لتسترجع كل تفصيلة من تفاصيل قضية «ريمورا» التي ضاعت في سديم الماضي، قبل أن تتحول هذه القضية القذرة إلى رحلةٍ غارقة في الدماء نحو أغوار روحها السحيقة. توهجت أضواء المكابح أمامها باللون البرتقالي، فتوقفت الحافلة من جديد، وتصاعدت تذمرات الركاب الجماعية. أسندت بروكتر رأسها إلى النافذة وهي تشعر بالإنهاك. لم تكن تعتقد، حتى تلك اللحظة، أنها قد تذوق مرارة السجن بسبب جرائمها. أما الآن؟ حسنًا، بعد أن ألقت بتلك العملة المعدنية، لم تعد متيقنة من شيء.

***

كان الهواء في المخبأ الآمن بـ كريستال سيتي ثقيلًا وراكدًا حين دفعت بروكتر الباب على مصراعيه، وأومأت لـ سام بالدخول. كان المكان يعمه الفوضى؛ ولا يدري سام إن كان ذلك بسبب الإهمال الطويل، أم نتيجة الساعات القليلة التي قضتها «الزعيمة» هنا بمفردها. كان طابورٌ من النمل

يتسلل فوق أحد الرفوف نحو ثمرة ليمون شاحبة بلون الورق المقوى. كانت قد أعدت إبريقًا من القهوة، وبالنظر إلى الرائحة الفواحة، يبدو أنها أحرقت ما يقرب من نصف علبة سجائر، مطهرةً المكان بدخانها بانتظار وصوله. وضع سام حقيبة البقالة التي كان يحملها، فأغلقت الباب خلفه.

قالت بلهجةٍ حادة:

– «إياك أن تغدق عليّ بتعاطفك اللعين بشأن حادث التفجير، لا طاقة لي بسماع ترهات المشاعر منك. لنأكل فقط. أجل، يمكنك وضع الحقيبة هناك.»

قام بشواء قطع اللحم على الموقد، ثم رتّب المائدة واضعًا رغيفًا من خبز الخميرة الطبيعية، وقطعة من الجبن الأزرق، وكأسين ملأ كلًا منهما بمقدار إصبع من الويسكي. وبينما كان يقترب من إنهاء حصته من اللحم، قال سام:

– «هل تعلم سويت أنني كنت معكِ في فِيغاس؟»

أجابت:

– «تعلم أن شخصًا ما كان معي، لكنها لا تعرف بالضرورة أنه أنت، وإن كانت الشكوك تساورها. يبدو أن وصف فرانكي لك لم يكن دقيقًا بما يكفي.»

دهن سام الجبن على قطعة خبز وتابع:

– «الثلاثة الآخرون سيخمنون أنه أنا على الأرجح. والجاسوس المنغرس بينهم سيعرف ذلك يقيناً.»

قالت بروكتر:

– «الجاسوس يعلم بالفعل أنك متورط.»

– «ولماذا حاولوا قتلكِ إذن؟»

– «قد يأتيك الدور تالياً، مَن يدري؟ هل قطعتَ علاقتك بـ ناتالي بعد؟ لديك الآن عذرٌ أقوى من ذي قبل: سلامتها.»

تمتم قائلاً:

– «ليس بعد، فقد كانت الأحداث متلاحقة.»

– «أنت أحمق. بالمناسبة، هل تمانع إن دخنت؟»

– «أعتقد أنكِ استحققتِ ذلك.»

– «بارك الله فيك.»

تراجعت بروكتر بكرسيها بعيدًا عن المائدة، ومدت يدها إلى جيبها تبحث عن قداحتها. ارتسمت على شفتيها ابتسامةٌ عارفة وهي تبحث في جيب سروال الجينز، ثم أفرغت ما فيه على الطاولة. نحّت القداحة جانبًا، وفردت صورةً واحدة. في البداية، بدا عليها الاستمتاع وهي تبتسم — وبدا الأمر غريبًا لـ سام، إذ بدت شبه سعيدة — لكن ملامحها فقدت مرحها كلما أطالت النظر. ذابت تلك الابتسامة لتتحول إلى ابتسامة واهنة ونادمة، سرعان ما تلاشت تمامًا، لتترك «الزعيمة» في حالة من الحزن البادي. طوت الصورة بعنف ثم أشعلت سيجارتها بصعوبة بالغة مستخدمة قداحتها الرخيصة.

مد يده عبر الطاولة وقال:

– «هل يمكنني رؤيتها؟»

دفعتها نحو كفه بابتسامةٍ ساخرة. فضّ الغلاف ونظر إليها، ثم رمش بعينيه بدهشة.

– «يا إلهي، أهذه حقيقية؟ لا يبدو هذا ممكنًا.»

قالت وهي تنفث سحابة من الدخان فوق كتفها:

– «أوه، إنه ممكن جدًا، صدقني.»

– «هل تحملينها معكِ كأنها تميمة طمأنينة مشوهة؟»

– «وجدتها في المزرعة، تذكارٌ صغير.»

– «هل هي...؟»

– «نعم، هي بعينها. نسخة أصلية. تبين أن الرجل الذي سرقتُ منه القارب يعيش في منزل غانستون القديم، فدخلت لاستكشاف المكان.»

ضحكت وهي تأخذ نفسًا عميقًا من سيجارتها.

– «ومَن الذي أخفاها هناك؟»

– «مَن تظن؟ لا أحد من أولئك المهرجين كان بإمكانه العثور على مكانٍ آمن لدرجة أن تظل فيه لخمسة وعشرين عامًا. ربما لم أكن الأبرز بينهم، لكنني كنت الأكثر دهاءً ومراسًا، ضع ذلك في حسبانك.»

كانت ضحكتها هذه المرة غارقة في الشجن.

– «كان ذلك صحيحًا في المزرعة، وصحيحًا مرة أخرى في أفغانستان، والآن...»

توقف صوتها، وساد صمتٌ رفيق بينهما؛ عاد هو إلى لحمه وعادت هي لسيجارتها، حتى استجمعت قوتها للمتابعة.

– «لديّ نظرية أود اختبارها معك، وأراهن أنك توافقني على معظمها بالفعل، لكنني أظن أن الوقت قد حان لقولها جهرًا، لنحدد وجهتنا القادمة.»

استرخت في كرسيها، وهي تحرق سيجارتها ببطء، وبدأت:

– «لقد جنّد الروس ضابطًا رفيعًا في وكالة الاستخبارات المركزية. لكن بدلاً من عملية "اقلب واحرق" لتدمير شبكتنا في موسكو وكشف عشرين مصدرًا في ليلة وضحاها، يلعب زوموف لعبته ببطء وإبداع، وربما يرجع ذلك إلى إدراكه لطبيعة الطينة التي يشكلها هنا. لقد أوقع صيدًا ثمينًا في صنارته؛ رجلاً أو امرأة يدرك أن ما حدث لـ آميس وهانسن كان سببه جزئيًا أن تقاريرهما أدت إلى مقتل عملاء أو سجنهم، مما جعل المحللين يربطون الخيوط ببعضها تباعًا. يرى زوموف في هذا الجاسوس "ذو شأن" محتمل؛ ربما شخصًا قد يصبح نائب مدير الوكالة أو حتى مديرها يومًا ما. شخصًا يمكنه تسليم الوكالة، فعليًا، للسيطرة الروسية. زوموف صبور مع جاسوسه المتغلغل. خطة اتصال تقليدية بدائية، لقاءات متباعدة، ربما سنوية، أو مرتين إن وجدا غطاءً مناسبًا. الجاسوس يفعل ذلك من أجل المال بكل تأكيد، ولكن أيضًا بدافع تعصبٍ خفي لا أستطيع، حتى الآن، رؤيته أو فهمه حقًا. وأزعم أن المرة الأولى التي أطل فيها هذا الجاسوس برأسه كانت للوشاية بتواصل غوليكوف واجتماعك في سنغافورة. لقد فوجئ الجاسوس بـ غوليكوف — واللعنة، إن كان ما قاله لك ذلك الروسي صحيحًا، فقد حدث تسريبٌ ما في "القسم الخاص"، والمفترض في مكتب زوموف أنه لا يسرب شيئًا. وأراهن أيضًا أن استدعاء المسكين بوكانير من اليونان، وربما كشف كلاو، كانت تجاوزات أو أخطاء، أو نتيجة مكائد بيروقراطية أو خلل وظيفي في موسكو.

فجهاز الاستخبارات الخارجية لا يتفق دائمًا مع أبناء عمومته في جهاز الأمن الفيدرالي، والعكس صحيح. أستطيع أن أرى جهاز الأمن الفيدرالي متلهفاً للاعتقالات.»

كان سام يثبت نظره باتجاه جدار غرفة المعيشة، تارةً يطوي منديله بين أصابعه، وتارةً أخرى ينقر بها بتوتر على الطاولة.

– «وكيف للجاسوس أن يعرف ما كان غوليكوف ينوي مشاركته معي؟»

– «أعتقد أنه كان تخمينًا مدروسًا. رسالة غوليكوف لم تكن محددة، لكنها كانت عاجلة جدًا وخطيرة للغاية، وكان يمتلك نفوذًا هائلاً داخل الكرملين. نظريتي — وأكرر يا جاغرز، إنها مجرد نظرية — تقول إن الجاسوس اعتقد، بناءً على منصب غوليكوف، أنه قد يحاول بيع هويته لنا. وفي هذه الحالة، كان لا بد من فعل شيء ما. كان لا بد من التحرك.»

قال سام:

– «والتوقيت يبدو منطقيًا، حتى لو افترضنا أن خطة الاتصال بدائية وتقليدية.»

اعترفت قائلة:

– «بالكاد، لكنها تفي بالغرض. في هذه النظرية، تكمن خدعة زوموف الكبرى في العميل المعروف باسم «ريمورا»، وهو عقيد في الاستخبارات الخارجية الروسية، ويُعتبر الآن الجوهرة في تاج "مكتب روسيا"، والذي كانت معلوماته» — كانت تراقبه عن كثب لترى وقع كلماتها عليه — «حاسمة في ثلاثة أحداث كبرى خلال العام الماضي. أولاً: أعطى إشارة للقاء طارئ تماماً بينما كنتُ أنا وأنت نخطط لـ سنغافورة، وفي هذا اللقاء أخبر ماك و ثيو و ديبس أن الروس يسعون لاستهداف أمريكيين في آسيا. ثانياً: قدم «ريمورا» مبرراً بريئاً لسجنك، وفي تحولٍ مثير، ساعد الوكالة في استهداف ضابط الاستخبارات الخارجية الذي سنبادله بك في النهاية. وثالثاً: كان «ريمورا» هو من أرسل الإشارة مرة أخرى بينما كنا نكثف هذا التحقيق، وقبل تفجير مقطورتي الذي نفذه وحوش يعملون بلا شك لصالح الكرملين. ثلاث إشارات

طوارئ سبقت اجتماعات في فرنسا تتعلق بـ غوليكوف، وسجنك، ومحاولة اغتيالي. هذه حقائق لا يمكن دحضها. والآن، لقد أعطانا «ريمورا» معلومات قيمة يا جاغرز. إنها قضية من الطراز الأول، وقد رفعت هذه الغنيمة من شأن ضباط العمليات في "مكتب روسيا". إنها النوع الذي يصنع سمعة الضباط. ومن زاوية معينة، هذا كل ما في الأمر.»

سألها:

– «ومن الزاوية الأخرى؟»

– «إنها قطرات من السم للعب بعقولنا، والتأثير علينا، ولتوفير غطاء عملياتي للجاسوس ليلتقي بالروس ويبيع أسرارنا. الحقائق تتفق مع نظرية مفادها أن ما رأيناه هو نمط من المحاولات الروسية — التي يديرها بكل تأكيد ريم زوموف — لحماية جاسوسهم. لتأمين وصولهم واستثماراتهم.»

قال سام:

– «ولكن لا يوجد دليل. بعد كل هذا، لا يوجد دليل بعد.»

قالت:

– «صحيح. هذا الكلام لن يُقبل في أي مكان. هناك نمط في المعلومات الاستخباراتية النهائية: يعطوننا الثمين لنقع في الشباك، ثم الغثّ حتى لا يخسروا كل شيء. هناك طرد بيترا ديفاين بعد أن بدأت تنبش في الأمر. هناك تذكر فرانكي بأن «ريمورا» هو أحد رجال زوموف. هناك دوافع واضحة بين قائمة المشتبه بهم لدينا. هناك أكاذيب وخداع من النوع المعتاد، خاصة بشأن من حضر اجتماع «ريمورا» قبيل سنغافورة، وبأي ترتيب، ومتى. لكنني لا أعتقد يا جاغرز أن مجرد تحليل مكتبي سيفكك هذا الخيط. لا يكشف الجاسوس إلا جاسوس مثله. لن تعطينا أي مصفوفة بيانات الجواب، لكنها ضيقت النطاق، و...»

قاطعها سام بنبرة قوية:

– «إذاً، إذا ضاق النطاق، وإذا قبلنا فرضية أن» — نقر بإصبعه بإصرار على الطاولة — «قضية «ريمورا» مقلوبة رأساً على عقب. إذا صدقنا ادعاء

فرانكي بشأن تاريخ «ريمورا» مع زوموف، وافترضنا أنهما لا يزالان يعملان معاً، وأن «ريمورا» يعمل لصالح زوموف.»

قالت:

– «هذا منصف تماماً. إذا قبلت كل ذلك، فلديّ مشتبه بهم وفكرة يمكن أن تستدرج جاسوسنا وتجعله يظهر فوق السطح.»

– «وما هي هذه الفكرة بالضبط؟»

– «هل سمعت يوماً بـ "وجبة الباريوم" يا جاغرز؟»

– «أهذا أحد مصطلحات أيام المجد في الحرب الباردة؟»

– «تعني أننا نغذي النظام بشيء ما ونراقب من أين سيخرج في الطرف الآخر، أو من مَن سيخرج.»

امتعض وجه سام وقال:

– «هذا يقتضي أن نراقب الطرفين.»

أجابت:

– «أوه، الأمر لا يقتضي ذلك فحسب، بل هو جوهر العملية. نحن نضع الوجبة في أفواه قليلة، ثم نتموضع جيداً لنراقب النتائج.»

سكتت قليلاً، ثم قالت:

– «انظر يا رجل، سيكون من الصعب القيام بذلك بدونك. لكنني لست متأكدة تماماً. لقد اتخذتُ قراري، لكن اليقين لا يزال يراودني.»

سألها:

– «ولماذا اتخذتِ قراركِ إذن؟»

– «كنتُ مترددة بنسبة خمسين بالمئة، لذا ألقيتُ عملة معدنية في المزرعة. تركتُ لآلهة الاستخبارات حرية القرار. "ملك" أستمر في الأمر، "كتابة" أختفي تماماً. فكانت النتيجة "ملك". لذا غادرتُ المزرعة مسرعة، ثم اتصلتُ بك.»

الفصل الثاني والأربعون

فيرفاكس، فيرجينيا / كريستال سيتي

كان بول بورتنوي، الطبيب النفسي المتعاقد مع وكالة الاستخبارات المركزية، ضابط حالةٍ سابقاً لم يذع صيته قط، غادر الخدمة قبل ثلاثة عقود، حين قرر أن يعالج الأمراض النفسية بدلاً من أن يُذكي نارها باستدراج الأجانب لارتكاب الخيانة. في البدء، أقسم بورتنوي ألا يعود لأيّة روابط تجمعه بالوكالة، لكن بحلول منتصف العقد الأول من الألفية، أصاب الركود عيادته الخاصة، وكان لدى الوكالة مالٌ وفيرٌ تلقيه في طريقه. كانت تلك الأيام ذروة «الحرب على الإرهاب»، وكان ثمة الكثير من الضباط العائدين من مناطق الحرب محملين بمشكلاتٍ تحتاج إلى حل. وفي أي وقتٍ من الأوقات، كان نصف عدد مرضى بورتنوي تقريبًا يأتي من تعاقده مع الـ «CIA»، التي كانت تدفع فواتيرها في موعدها، بل وجهزت له غرفة استشارة ومكتبًا مصنفين كمنشآتٍ تجاريةٍ لمعلوماتٍ حساسة ومقسّمة، أو ما يُعرف بـ «SCIFs[32]». وبموجب شروط عقده الرئيسي مع الوكالة، كان بورتنوي مطالبًا بكتابة برقياتٍ عقب كل جلسة. كان العديد من الضباط يعانون من مشكلاتٍ شتى — اضطراب كرب ما بعد الصدمة «PTSD[33]»، والإرهاق المهني، وما إلى ذلك

---

32 منشأة المعلومات الحساسة (*SCIF*): غرفة أو منطقة محصنة كلياً ضد التنصت والاختراق الإلكتروني، مخصصة حصراً لتداول الوثائق والمحادثات المصنفة "عالية السرية" بأمان تام.

33 اضطراب ما بعد الصدمة (*Post-traumatic stress disorder*) (*PTSD*): حالة نفسية حادة تعقب التعرض لأحداث مروعة (كالحروب أو التعذيب)، وتميز باستعادة ذكريات الرعب لا إرادياً، الكوابيس، والقلق المزمن.

– وكانت أقسامهم في لانغلي تريد أن تعرف ما إذا كان بالإمكان الوثوق بهم مجددًا في الميدان. وكان توقيع بورتنوي حاسمًا لإعادة بناء تلك الثقة.

والآن، كان أحد مرضاه، سام جوزيف، وهو ضابط حالةٍ فُصل من الخدمة مؤخرًا، جالسًا على الأرض خارج مكتبه، يلوّح بيده حين انعطف بورتنوي قادمًا من جهة المصاعد. كان شعر جوزيف أشعث، وتعتفيه حالةٌ من الهيجان والطاقة الجنونية. حتى هذه اللحظة، كان المريض يؤدي وظائفه بشكلٍ جيدٍ بالنظر إلى الظروف، لكن حين اقترب بورتنوي، تملّكه انطباعٌ واضح بأن سام واقعٌ تحت تأثير مخدرٍ ما.

نادى سام وهو ينهض واقفًا:

– «يا دكتور! دكتور بورتنوي! علينا أن نتحدث. نجري دردشة.»

قال بورتنوي:

– «سام، موعدنا ليس قبل الأسبوع القادم.»

رد سام بلسانٍ ثقيل متلعثم:

– «لازم نعملها النهاردة.»

فكر بورتنوي: مخدرات، بلا ريب، وهو يهيئ نفسه لما سيكون بالتأكيد بدايةً بغيضةً لصباحه.

مد سام يده لـ بورتنوي، وحين صافحه الطبيب، لفحته رائحة الويسكي النفاذة. تفرّس في المريض من رأسه إلى أخمص قدميه للحظة.

– «هل تتعاطى المخدرات يا سام؟»

– «لا يا دكتور.»

– «لا؟»

– «لا شيء غير قانوني. فقط "منتشي" قليلا.»

كان بورتنوي في غنىً عن هذا كله. لديه ساعة ونصف قبل موعده الأول في العاشرة، لكنها كانت مخصصةً لتدوين الملاحظات ومسك الدفاتر. وبعدها لديه جدول مواعيد ممتلئ عن آخره.

قال بورتنوي وهو يعبس:

– «هل تراودك أفكار انتحارية؟ إذا كنت تفكر في إيذاء نفسك، فسأرافقك إلى قسم الطوارئ.»

قال سام متجاوزًا حديثه:

– «يلزم أن ندخل غرفتك المحصنة الـ SCIF. حالاً. أمر بحالة صعبة.»

تنهد بورتنوي. ما تفوح رائحته من هذا الأمر، بخلاف الخمر، هو صباحٌ ضائع. ساعة مهدورة في مجالسة معتوه. جلسة، وإن كان بوسعه أن يرسل فاتورتها للوكالة، إلا أنها لن تستحق العناء، بالنظر إلى كمية البرقيات المحبطة التي سيضطر لصياغتها في أعقابها. كان بإمكانه الاتصال بالشرطة، لكن ذلك سيؤدي حتمًا إلى تدمير الصباح بأكمله.

سأله بورتنوي بوجوم:

– «ما مدى سُكرك؟»

– «ليس كافيًا. انظر.»

وقف سام وسار واضعًا الكعب أمام إصبع القدم في خطٍ مستقيمٍ إلى حدٍ مقبول. ثم قال:

«Z–، Y، X W، » . . .

صاح بورتنوي:

– «كفى! لننهِ هذا الأمر بسرعة.»

***

فتح بورتنوي الغرفة المحصنة وجلس إلى مكتبه. نقر زر تشغيل الميكروفونات وتناول دفتر ملاحظات وقلمًا. أزّت الأضواء الساطعة في السقف؛ وفوقها كانت ساعة حائط تدق. ارتمى سام على أحد المقاعد الخضراء المريحة التي أنهكها الزمن.

سأل بورتنوي ببرود:

– «ما الذي يحدث؟ ما الذي لم يكن يحتمل الانتظار؟»

– «كنت أفكر أكثر في الوقت الذي سبق اعتقالهم لي. الدقائق القليلة التي كنت أتحدث فيها معه.»

قال بورتنوي بسخط:

– «هم؟ من هم؟ ومن هو؟»

– «"هم" يعني الروس. و"هو" يعني غوليكوف. حين عدت إلى المنزل، قضيت بضعة أسابيع في لانغلي أسترجع ما قلته للروس في موسكو، وما سمعته من غوليكوف قبل أن يختفي. وهنا تكمن العقدة يا دكتور، لقد كان ذهني مشوشاً والذكريات تعود بشكلٍ متقطع، في موجات، وكنت أتحدث إلى ناتالي» — سيكتب بورتنوي في البرقية: المقصودة ناتالي كرم، شريكة ضابط الحالة — «هذا الصباح، وقلت إنني كنت ألعب البوكر أكثر من اللازم، ربما أكثر مما ينبغي، وهي مشكلة نوعًا ما لأن ضبط النفس تحدٍ صعب بعد تلك "الأحداث غير السارة"» — وهنا اختلس بورتنوي نظرةً إلى وجه سام، متذكرًا ما فُعل به في روسيا، وكيف كان شكل الرجل حين قص حكايته أخيرًا — «وذكرتُ كيف أنني قبل بضعة أسابيع ذهبت إلى فيغاس لبعض المقامرة وكنت على طاولة أدردش مع الموزع وفجأة، صرت، لا أعرف، كأنني نُقلت إلى سنغافورة، وكنت أتذكر الكلمات القليلة التي شاركها غوليكوف معي قبل أن يصعد إلى غرفته، وإذا كانت ذاكرتي تسعفني بشكلٍ صحيح، فالأمر مهمٌ للغاية.»

في خضم ما بدا كأنه انهيارٌ ناتجٌ عن الـ «PTSD»، خربش بورتنوي كلماتٍ غير مقروءة في دفتره. بينما استمر سام في ثرثرته، كان صوته يرتفع وينخفض عشوائيًا، وقدمه تهتز بعنفٍ لدرجة أنه ربما يخلخل طلاء السقف في الطابق السفلي، مرسلاً إياه كالمطر فوق رؤوس الموظفين الطيبين في مختبرات «لابكورب».

سأل بورتنوي:

– «ما الذي كان مهمًا لهذه الدرجة؟»

أجاب سام:

– «في سنغافورة، قال غوليكوف إن جهاز الـ «SVR» لديه شخصٌ داخل الـ «CIA».»

عند هذه الجملة، أدار بورتنوي رأسه ليواجه سام مباشرة، وقد جف جلده المتعرّق بطبعه فجأة وبرد.

قال:

– «هييه. هييه، لحظة. على مهلك يا سام. ماذا؟»

– «قال غوليكوف إن الـ «SVR» لديه شخصٌ داخل الـ «CIA». يديره "القسم الخاص". هناك خيوطٌ أخرى لا أستطيع تذكرها. لكنني سأتذكر، أو أظن أنني سأفعل.»

قال بورتنوي مرة أخرى:

– «اسمع، أنت ثمل. لنكن صادقين بشأن هذا. ربما ننهي الأمر هنا، ولا أكتب تقريرًا بذلك، وتعود غدًا لنرى إلى أين وصلنا؟»

قال سام، وهو يحدق عبره بنظرةٍ تحمل قدرًا ليس باليسير من التهديد:

– «دكتور بورتنوي، أنا أتذكر الأمر بوضوح الشمس الآن. هذا مهم.»

بدأ بورتنوي بالكتابة وسأل:

– «حسنًا. هل هذا بالضبط ما قاله المدعو غوليكوف؟ أعطني تسلسل المعلومات، إن كنت تذكره؟»

– «قال غوليكوف إنه حصل عليها من شخصٍ في... مجلس الأمن الروسي. لا أتذكر الاسم، لكنه نطق به، سأتذكره. قال، وأنا أقتبس: "الـ SVR لديه شخصٌ داخل الـ CIA، عميلٌ يديره القسم الخاص". هذا ما جاء إلى سنغافورة ليبيعه. ومن هنا يصبح الأمر ضبابيًا. دخانٌ في الدماغ. اكتب هذا يا دكتور، يلزم أن نثبت الحقيقة، يلزم أن نصلح هذا الوضع.»

***

بعد مغادرته مكتب بورتنوي، أجرى سام المكالمة من المنزل الآمن في كريستال سيتي باستخدام هاتفٍ مؤقت جديد، اشتراه نقدًا، ومزوّد بشريحة اتصال دولية من «ألترا موبايل» حصل عليها من متجر إلكترونيات يديره صربيون. وكما هو متوقع، لم يُجب رامي كساب. ولماذا قد يفعل؟ فهو لا يعرف الرقم. لكن سام ترك رسالةً صوتيةً قصيرة، قائلًا إنه سيكون في باريس

لبضعة أيام ومتحمسٌ لرؤية الإخوة. وأنهى المكالمة ملمّحًا إلى أنه يود الخروج لتناول بعض «البرازق»، وهي حلوى سورية مغطاة بالسمسم والفستق الحلبي المطحون.

ورغم أن سام يحب البرازق بالفعل، إلا أنه لم يكن لديه أي أوهام بأن هناك أيًا منها بانتظاره في باريس. كانت كلمة شيفرة مقتضبة، من أيام دمشق؛ حيث كان الإخوة يذكرون البرازق في الاتصالات الحساسة زمنيًا للإشارة إلى «الخلو من المراقبة المعادية». اتصل بـ ناتالي وأخبرها أنه سيسافر لبضعة أيام. «سأعود قريبًا يا حبيبتي»، أجبر نفسه على قولها، وحين أنهى المكالمة صفعته بروكتر على مؤخرة رأسه، وقالت إنها ليست غاضبة منه، بل فقط خائبة الأمل.

رد سام:

– «يا زعيمة، تمهلي علينا. لماذا كان يجب أن ينفجر منزلينا في وقتٍ واحد؟»

اشترى سام وبروكتر تذاكرهما بأسمائهم الحقيقية — مخاطرة، لكن ما العمل؟ الوقت ضيقٌ للغاية. انخرطا في جولة تسوقٍ مسعورة لشراء أي معدات يمكنهما الحصول عليها داخل الولايات المتحدة وحشرها في حقائب اليد. كانت كاميرات المراقبة المتاحة تجاريًا الآن صغيرةً ومرنة ورخيصة لدرجة أنه كان من السهل الحصول على كمية كافية منها بسرعة.

أعاد رامي كساب الاتصال بـ سام قبل مغادرتهما إلى المطار. واتفق هو وسام على تناول الإفطار فور الوصول إلى باريس. وحين سأل رامي عن الغرض من رحلته، قال سام إنه «عمل»، وترك الكلمة معلقةً لبضع ثوانٍ من الصمت. كان بإمكانه سماع أنفاس رامي عبر السماعة، وصوت شفتيه وهما تطبقان مفكراً. لم يكن لدى عائلة كساب أدنى فكرة أن سام وبروكتر لم يعودا يعملان مع الوكالة. «لا ينبغي أن نثقل كاهل أولئك الفتية المساكين بمزيدٍ من التعقيد»، هكذا ألحت بروكتر. «لنُبقِ الأمر بسيطًا لهم».

سأل سام بعد أن أغلق الخط:

– «كيف سندفع لهم؟»

– «نـ دفع؟ أنت هو قرش البطاقات يا جاغرز، دبر حالك.»

الفصل الثالث والأربعون

موسكو

وفقًا للملف الشخصي الذي أعدته وكالة الاستخبارات المركزية، والذي مرره الدكتور «ب»، كان الأمريكيون يعتقدون أن ريم بطلٌ في الشطرنج. ذكرت الوثيقة أنه كان شغوفًا باللعبة منذ صباه، وقَدَّرت أنه نقل دروسًا مستفادة بصعوبة في التفكير الاستراتيجي والصبر والتكتيك إلى مجال تجنيد الجواسيس وإدارتهم. أثار هذا التحليل الخاطئ سخرية ريم وشعوره بالإطراء في آنٍ واحد؛ فليس من السيئ أبدًا أن يصورك الخصمُ في صورة «كارلا[34]» المعاصر — ذلك الجاسوس الأسطوري — داهيةً وكفؤًا، ويسبق الجميع بخطوةٍ دائمًا. أعاد ترتيب وسادة «الدونات» الطبية التي يجلس عليها؛ فقد عاودته آلام البواسير مؤخرًا، لتشكل تشتيتًا مزعجًا فوق آلام ركبتيه وفخذيه الناتجة عن التهاب المفاصل.

في الحقيقة، لم يكن ريم يلعب الشطرنج كثيرًا، وبالتأكيد لم يبرع فيه وهو صبي. كان يجد اللعبة مملة: رهاناتها منخفضة، وطقوسها يغلفها التكبر، وقطعها ليست سوى آلاتٍ مبرمجة سلفًا. لم يكن ريم ينظر إلى عالمه كرقعه شطرنج، ولم يستخدم مثل هذه التشبيهات لترتيب خطواته. والآن، ورغم التعقيد المستعر للحرب التي يخوضها، لم يفكر إلا في كيفية الحفاظ على الدكتور «ب» ليواصل تقديم تقاريره، وكيفية القضاء على التهديدات التي تواجهه. وهنا، حتى لو كان الشطرنج ملعبه المفضل، لكان ريم قد جاهد عبثًا

---

[34] كارلا (*Karla*): شخصية خيالية محورية في روايات "جون لو كاريه"، تُمثل العقل المدبر الغامض للمخابرات السوفيتية (*KGB*) والخصم اللدود والند الأسطوري للجاسوس البريطاني "جورج سمايلي".

لإيجاد أي وجه مقارنة بين الواقع وبين لعبة لوحية يجلس فيها خصمان بأدبٍ على مقاعدهما، ويحركان قطعًا بلاستيكية فوق لوحٍ في حربٍ وهمية.

صور الأداء الكارثي لـ ميكي و ميني، أولًا وقبل كل شيء، وضعت حدًا لأي فكرة عن صراعٍ رصين يُدار فوق ميدان معركةٍ خشبي. أزاح المطبوعات فوق الطاولة، وضم كفيه حول أنفه، ونظر مباشرةً إلى غينادي قائلًا:

– «قنبلة؟»

أطرق غينادي ببصره نحو الأسفل وقال:

– «ماذا قال لهم رجلكم الإسباني؟»

أجاب غينادي:

– «لم يطلب منهم صنع قنبلة، وهم لم يخبروه أنهم بصدد صنع واحدة.»

– «يعيشون في بلدٍ يفوق فيه عدد الأسلحة عدد البشر، ويختارون صنع قنبلة؟»

– «يبدو أنها لم تكن قنبلةً جيدة.»

أومأ ريم بذقنه نحو الصور؛ كانت الصورة التي في الأعلى لقطةً مقربة لرأسٍ متفحم. مثل هذه المشاهد تجعل ريم يتذكر أفغانستان. وحتى الآن، كان يكره مجرد التفكير في أفغانستان.

– «هذه الجثة لـ «ميكي»؟»

– «نعم.»

سأل ريم:

– «و «ميني» تطلب التوجيه؟»

– «صحيح. لقد أرسلت رسالةً عبر القناة المعتادة تطلب فيها التعليمات.»

– «من المؤكد أنه سيُقبض عليها قريبًا، أليس كذلك؟ ما رأيك؟»

– «أفترض ذلك، بل يجب أن نفترض ذلك.»

– «جمّدوا تواصلكم بها. لا اتصال، لا شيء على الإطلاق. ليس بعد هذا الإخفاق الذريع. لقد انتهى أمرها. والآن، لا أحبذ القيام بهذا، لكن أحضر لي لاسكين. الآن فورًا.»

***

كان ريم يكره لاسكين أكثر من كرهه للتفكير في أفغانستان. في الواقع، عندما كان يضطر للاستعانة بـ لاسكين، كان يفعل ذلك عادةً عبر وسطاء، وغالبًا ما يكون المدير هو الوسيط، فالمدير هو الوحيد الذي يطيعه لاسكين بلا نقاش. أما النقاشات... فمع لاسكين هناك دائمًا سيلٌ من الأسئلة، وكلها تُلقى بنبرةٍ فظة لدرجة أنها تلامس حدود العداء الصريح.

– «وما الذي يحدث بالضبط في ذلك المنزل الريفي الفرنسي؟»

كان هذا سؤال لاسكين الرابع، وكان الأكثر عدائية بمراحل. أشار بيده نحو الخريطة الموضوعة على الطاولة، حيث وُضع ملصقٌ أزرق يحدد موقع المنزل.

كانوا في مكتب ريم، يجلسون حول الطاولة الركنية المطلة عبر النوافذ على الغابة. عندما خرج ريم في ذلك الصباح، وجد الهواء منعشًا ينبئ بقدوم شتاءٍ لم يحلَّ تمام الكامل بعد بفضل رحمة القدر. كانت سماء موسكو زرقاء مشرقة. تبادل نكتةً أو اثنتين مع جاره واستفسر عن إنجازات ابنه في السباحة. تناول إفطارًا هادئًا وقانعًا مع نينيل، التي جهزت له ثيابه، فارتداها دون أي توقع بأن يصل إلى المكتب ليجد صورًا لمحاولة اغتيال خرقاء وإشارة طوارئ من الدكتور «ب». إنها أوقاتٌ غريبة ليكون المرء فيها بيروقراطيًا روسيًا.

زمجر ريم قائلًا:

– «لا يهم ما يحدث في المنزل، المهم فقط هو من يتواجد هناك.»

التفت لاسكين بتوسل إلى غينادي، ولما لم يجد منه دعمًا معنويًا، استدار نحو النوافذ كأنما يستنطق الأشجار لتسانده.

– «وهل لديك إذنٌ بهذا يا ريم؟ هل هذا المشروع معتمد؟»

هز ريم إصبعه محذرًا، وكانت كل حركة من يده تبدو وكأنها تدفع لاسكين نحو حافة فقدان أعصابه. طرق أحد المساعدين الباب ليحضر الشاي، فصرخ ريم:

– «اذهب من هنا!»

وأنصتوا لصوت خطواته وهي تبتعد. قال ريم:

– «قبل أن أطلب الإذن، أحتاج لمعرفة الموارد المطلوبة. وكلانا يعلم يا عقيد لاسكين مدى هشاشة هذه الموافقات وتذبذبها. كل هذا يصبُّ في إطار إعداد الملف المتكامل. أمامنا ساعاتٌ وليس أيامًا. إننا نكرر سيناريو سنغافورة من جديد.»

أثار ذكر سنغافورة تذمرًا ضعيفًا من لاسكين، ثم لمعت في عينيه نظرةٌ جعلت ريم يتمنى لو يقذفه أمام حافلةٍ مسرعة. قال لاسكين:

– «يُستعان بي دائمًا لألملم حطام حماقاتكم، كالعادة. لا أعرف ما الذي تحميه بالضبط يا ريم، لكن الأمر يثير أعصابي. أليس من المفترض أن يكون هذا القسم مملًا؟ عملًا هادئًا وروتينيًا؟ مجرد ثرثرة مع الأمريكيين في حفلات الكوكتيل وما شابه؟ لقد سُفكت دماءُ غزيرة مؤخرًا، وهذا لا يشبه أسلوب خريجي الإدارة الرئيسية الأولى الذين يجوبون العالم. ليست علامةً جيدة أن تستدعي لاسكين العجوز من القبو لتتحدث معه عن حماية مصدر. فعندما أتدخل أنا، فهذا يعني — بالتعريف — أن المصدر لم يعد محميًا.»

قال ريم بجفاف:

– «أيها العقيد، أحيانًا يكون من الأفضل أن تبقي فمك مطبقًا.»

بدأ غينادي ببسط الخرائط على الطاولة. كان لاسكين قد قال كلمته، ورفع يديه مستسلمًا؛ تراجعٌ متوقع تمامًا من هذا الرجل الذي وقف الآن يتفحص الخرائط التفصيلية التي تصور قرية لاكوست البروفنسالية وما يحيط بها. كان جهاز الاستخبارات الخارجية قد أعد خرائط عالية الجودة للمنطقة بعد تجنيد الدكتور «ب».

نقر ريم بإصبعه على الملصق الذي يحدد المنزل الريفي. دفع غينادي ملفًا من الصور نحو لاسكين قائلًا:

– «هذه صورٌ للمناظر الطبيعية والتضاريس، وهناك وحدة تخزين «فلاش» تحتوي على بضعة مقاطع فيديو.»

قال ريم:

– «ساعتان يا لاسكين. أمامك ساعتان لتخبرني كم عدد الأشخاص الذين تحتاجهم لفرض رقابةٍ كاملة على هذا العقار والتدخل إذا لزم الأمر، وكم عدد الذين يمكنك تسريبهم إلى فرنسا دون إشعارٍ مسبق.»

قال لاسكين بنبرةٍ تشبه نبرة المحامين، وهو لا يزال منكبًا على الخريطة:

– «هذا الوقت ليس كافيًا.»

فهر صرخة في وجهه قائلًا:

– «ساعتان لعينتان، هذا كل ما تملكه أيها العقيد.»

***

هذه المرة، طلب مدير جهاز الاستخبارات الخارجية من ريم مرافقته لمقابلة الرئيس. وجد ريم نفسه ضمن موكبٍ من أربع سيارات «لاند كروزر» مصفحة، بصافرات إنذار زرقاء مدوية، تنطلق بسرعةٍ فائقة في المسار الأوسط المخصص للطوارئ. كان ألم ركبته يزداد سوءًا مع مرور الوقت، وكان يتضور جوعًا من ركض هذا اليوم الطويل، ومنهكًا من الجدال المستمر مع لاسكين، الذي امتد بشكلٍ مضنٍ حتى بعد الظهر، تمامًا كما حدث في سنغافورة؛ يا له من وغدٍ لا يُطاق. إن لاسكين من نوعية المرؤوسين الذين يجعلونك تداعب خيالات العودة إلى العهد الستاليني، فقط لتنتهي الجدال برصاصةٍ في عنقه.

كانت السيارة تحتضن ريم: هادئة، فاخرة، ودافئة، كأنها رحمٌ لولا رائحة الدخان اللذيذة ورائحة الحمضيات الطاغية التي ذكرته بـ روما. كانت الرحلة سلسة كالرخام، وهدير السيارة الرقيق يداعب جفنيه. كان المدير يقرأ ملف إحاطة في صمت، وبدا هو الآخر يترنح من النعاس؛ وعندما كان المدير ينتفض

جالسًا، كان يضغط بأصابعه على زوايا عينيه ويرمش بشدة ليستعيد تركيزه. أما ريم، فقد استسلم تمامًا، واحتضن وثائقه وغط في نومٍ عميق.

استيقظ على صوت السائق وهو يقول:

– «سعادة المدير؟ رفيقي المدير؟»

كانت نبرته ملحة، تغلفها مخاوف واضحة من كونهما قد فارقا الحياة. ومن الواضح أنها لم تكن محاولته الأولى لإيقاظهما.

مسح المدير لعابه من زاوية فمه وترجل بصعوبة من السيارة قائلًا:

– «لنأمل أن ننهي هذا الأمر بسرعة، أحتاج لتناول شيءٍ ما حتى أتمكن من أخذ حبوب ظهري.»

***

كانت الغرفة الملحقة بالمكتب بنية اللون: جدران من خشب الماهوجني الداكن، سقف من الألواح المحفورة، ساعة منقوش عليها عقاب الإمبراطورية المزدوج، كراسٍ وأريكة من الجلد البني، ورف كتب يئن تحت وطأة مجلدات بنية، يبدو أنها مجموعة موسوعات. خضعوا لاختبار «PCR» الخاص بكورونا، وأكملوا الاستبيانات الطبية، وقبل ساعة من الآن، حصلوا على الضوء الأخضر للقاء الرئيس وجهًا لوجه.

والآن ينتظرون. لا طعام، ولا شاي. كان ريم وحيدًا وجائعًا في بحرٍ من اللون البني. كانت الكراسي رقيقة الحشوة، كأنها شفرات تحت ظهره. أثارت الغيبة المقلقة لطاقم الحراسة تساؤلًا في ذهن ريم عما إذا كان هذا الاجتماع سيُلغى. ومن قبيل الحذر من أي تسريبات داخل طاقم الرئيس، قُدّم موضوع الاجتماع تحت مسمى «إحاطة المدير» — وبالطبع لم يرد ذكر للدكتور «ب» — وتساءل ريم الآن عما إذا كان ذلك خطأً، أو إشارةً بأن هذا الاجتماع يمكن تجاوزه أو ربما يحضره مساعدٌ غير مخوّل. انسكب ضوء تشرين الثاني (نوفمبر) الكهرماني المائل عبر النافذة، فجعل أطرافه تشعر بالخدر. ولمحاربة النوم، راح يتدرب على ما قد يقوله ردًا على أي عددٍ من الأسئلة المحددة حول عملية فرنسا، أو مكي و ميني، أو الدكتور «ب».

بعد ساعتين، أشار إليهم أحد المساعدين بالدخول إلى مكتب الرئيس. كان بوتين يجلس خلف مكتبٍ بحجم وشواغل شاحنة مسطحة فارغة. كان يقرأ حزمةً رقيقة من الأوراق التي كان ريم على يقينٍ من أنها لا تمت بصلةٍ لهذا الاجتماع. لم يحيِّهما، ولم يبدِ أي اهتمام بوجودهما. جلس الرجلان عند طاولة طويلة من خشب الصنوبر تبعد خمسة أمتار على الأقل، بانتظار أن يوجه إليهما الحديث.

قال الرئيس:

– «تجمعٌ صغير من أجل اجتماع ميزانية.»

رد المدير بصوتٍ عالٍ:

– «ماذا؟ لا، هذا في الأسبوع المقبل. هذا الاجتماع بخصوص الطبيب الجيد، مصدرنا الأمريكي.»

– «آه، نعم؟»

قال المدير وهو يمرر كفه فوق الطاولة:

– «الدكتور «ب» في ورطة، نعتقد أن...»

فتح أحد المساعدين الباب بعنف، واتجه مسرعًا نحو الرئيس وهمس بشيءٍ في أذنه، فجعلت وقع الكلمات عينيه تدوران. تمتم الرئيس للمساعد، وربما بصوتٍ أعلى مما أراد:

– «أخبرهم أنني سأتحدث إليه أولاً.»

هرع المساعد للخارج، وأُغلق الباب — الذي لاحظ ريم الآن أن ارتفاعه لا يقل عن ستة أمتار — بهدوء، وبقي الجميع يحدقون في بعضهم البعض.

سأل الرئيس:

– «متى مناقشة الميزانية؟»

فكر المدير في الإجابة، لوقتٍ أطول مما ينبغي كما رأى ريم.

– «الثلاثاء المقبل، على ما أعتقد.»

استنشق بوتين الهواء، وأومأ برأسه، ثم زمجر للمدير كي يواصل.

تابع المدير قائلًا:

– «الدكتور «ب» في ورطةٍ ما. نحن بحاجة لإجراء محادثة في فرنسا. وهذا أمرٌ طبيعي، ولكن كانت هناك بعض الضغوط مؤخرًا، وأسباب تجعلنا نتساءل عما إذا كان الدكتور قد يصل إلى الاجتماع تحت مراقبة. وإذا كان الأمر كذلك، فنحن بحاجة لمزيدٍ من العيون والآذان على الأرض؛ لنتأكد من أننا نسيطر على الساحة. نضع هذا بين يديك لأنني أقترح أننا قد نضطر للقضاء على المشكلات فور ظهورها.»

وأتبع المدير هذا الطلب المبطن بسعلةٍ خفيفة.

سأل الرئيس والاهتمام يبدو عليه:

– «ألم يحدث هذا منذ فترة؟»

– «نعم، في سنغافورة. كان هناك تسريب، وقمنا برتقه قبل أن يعرف الأمريكيون أي شيء ذي قيمة، لكن الأمر كان فوضويًا كما تذكر.»

– «لقد كان عملاً أخرق.»

– «هذه المرة لن تكون هناك فوضى.»

– «أذكر هذا الوعد من المرة السابقة. شخصٌ ما قال ذلك، ربما أنت يا ريم ميخائيلوفيتش.» التفت بوجهٍ مائل نحو ريم.

ظهر المساعد مرة أخرى. هذه المرة كانت خطواته نحو المكتب أثقل، وهمساته أخفت. وعندما انتهى من حديثه، أمال الرئيس رأسه نحو المساعد بتعبيرٍ عالمي معناه: أتمزح معي؟ ولوح بيده في إشارة صرفٍ جافة. انحنى الرئيس الآن للأمام في مقعده – ورغم أن الأمر لم يكن مرئيًا، اعتقد ريم أن يد الرئيس كانت تستقر فوق فخذه – حيث رفع أحد الهواتف وأجرى مكالمة بينما جلس ريم والمدير يعبثان بأصابعهما. وعندما انتهى، وقف الرئيس، وارتدى سترة بدلتِه، ونظر إلى المدير قائلًا:

– «معلومات الدكتور «ب» لا تُقدر بثمن. تأكدا من عدم فقدانها.»

***

في رحلة العودة إلى الغابة، لم ينم ريم والمدير. بدلاً من ذلك، أعادا بناء المحادثة كلمة بكلمة، ولحظة بلحظة، يستشفان رغبات الرئيس المتقلبة من

كلماته، ونظراته، ولغة جسده، وصمته. لم يكن ريم أحمق، فلم ينطق بما في قلبه، بل انتظر المدير ليفعل ذلك.

وبحلول الوقت الذي ترجلا فيه من السيارة للدخول إلى مقر القيادة، كان ريم على يقينٍ من أمرين: لا هو ولا المدير لديهما أدنى فكرة عما يريده الرئيس، وأن المهمة ستقع على عاتقه لاتخاذ القرار النهائي. كان جهاز الاستخبارات الخارجية نظامًا هرميًا، وهذا يعني أن المهام القذرة تتدحرج دومًا إلى الأسفل. المهام الشاقة والقتال — العمل الحقيقي — ينهمر على رجالٍ مثل ريم، الذين يتشبثون بهذا العمل كزوجةٍ معنِّفة لا فكاك منها. ستذكره نينيل بتقاعده الوشيك، وستطلب منه التراجع وترك شخصٍ آخر يتولى الأمر. ولكن كيف له ذلك؟

كان يعرف بالضبط ما يجب فعله. كان يعرف منذ وصول المعلومات في ذلك الصباح، لكنه اضطر لتحمل هذا السيرك من أجل التغطية القانونية، ولنكن صادقين، من أجل المظاهر. فما الفائدة من بيروقراطية ضخمة ورئيس روسي إن لم تستخدم الآلة؟ يجب تبرير الفواتير بطريقةٍ ما. وصلا إلى المبنى، فقبض المدير على كتفه بحميميةٍ قائلًا:

– «ثقتي بك كبيرة يا ريم. ستتدبر الأمر، فهذا هو تخصصك.»

الفصل الرابع والأربعون

باريس

سلك كلٌ منهما طريقًا منفصلاً في رحلته. استقلت بروكتر طائرةً إلى بروكسل، ثم استأجرت سيارةً لتقطع المسافة إلى باريس، بينما طار سام إلى لندن ومنها ركب قطار «يوروستار» عبر النفق البحري. وبحلول الوقت الذي التأم فيه شملهما خارج محطة «غار دو نور»، كانت بروكتر قد رضخت لفكرة المساهمة في التمويل المشترك. وفي التاكسي الذي شقّ طريقه عبر الضواحي نحو مقهىً في الدائرة الثالثة، كانا قد اتفقا على تقاسم أتعاب آل كسّاب، في حال طُرح موضوع المال للنقاش.

كانت تبتهل في سرّها ألا يطلبوا أجرًا حين يكتشفون في النهاية حجم المخاطر — وأن الحكومة الأمريكية لا تدفع فاتورة هذه العملية. خصم الأهل والأصدقاء، هكذا أمّلت نفسها، سيكونون مبتهجين لمجرد العودة إلى "اللعبة". وصلوا مبكرين وقد أنهكهم دوار السفر، فاشتروا قهوة ماكينات خفيفة كالمياه من مخبزٍ قريب، وراحوا يستطلعون المنطقة المحيطة بالمقهى. تصاعدت من محطة مترو «سان بول» رائحةٌ بدت لـ بروكتر مزيجًا من الورق المحترق، والمصارف المسدودة، والبول: تلك هي رائحة باريس. راقبا كلب رجلٍ عجوز وهو يقضي حاجته عند رأس درج المحطة.

كان للمقهى مظلةٌ حمراء زاهية، وقد نبتت على حجارته الرمادية لحيةٌ كثيفة من اللبلاب. فُتحت نافذةٌ مخصصةٌ للشطائر السريعة، وكان النادل يرتب الطاولات والكراسي وأجهزة التدفئة. ومثل كل النادلين الباريسيين، كان يتفانَى في تجنب تلاقي العيون، خاصةً مع أجنبيين يجران حقائب سفر.

قالت:

– «سأذهب لأتمشى.»

عرض سام:

– «سآتي معك.»

– «وحدي.»

كان هذا الحي ملكها ذات يوم. في جولتها الخارجية الأولى، بعد عامٍ واحدٍ من «المزرعة»، وكان توم يجرجر خطاه معها على مضض. تجولت عبر الشوارع الضيقة المرصوفة بالحصى، تحت أسقف «المانسارد» السوداء والفوانيس المعلقة التي تومض وتنطفئ في ضوء الصباح الرمادي. مرت بواجهة المتجر الزرقاء بلون زهرة الذرة؛ مقهى، يقدم بطًا من الطراز الرفيع، هكذا تذكرت. وبعد بضعة مجمعاتٍ سكنية، وصلت إلى المخبز الصغير الذي يديره الزوجان الغاضبان. اختلست بروكتر نظرةً إلى الداخل، فرأت امرأةً مألوفة تثرثر بفرنسيةٍ سريعةٍ كالرصاص في وجه زوجها، الذي لم تميز بروكتر سوى ظهره. بدت المرأة عجوزًا الآن. لكنها، بخلاف بروكتر، كانت لا تزال متزوجة.

بدأت الشمس تتسلل شظاياها عبر الغيوم، لكن البرد كان لا يزال قارصًا، فانكمشت بروكتر داخل سترتها المصنوعة من التويد وهي تتابع سيرها. كانت قد تركت معطفها الأثقل في حقيبتها مع جاغرز في المقهى.

بعد بضعة شوارع، عثرت على الشقة القديمة. كان الباب لا يزال أخضر؛ والطلاء لا يزال يتقشر لكنه بات منتفخاً بفعل الزمن. نظرت إلى الأعلى. الطابق الثاني، النافذة التي تشترك في جدارٍ مع أحد البنوك. أصص زهورٍ فارغة على الحافة. ستائر حمراء. لم يتغير الكثير.

لم يكن متجر التبغ يبيع سجائر «سليمز»، لذا اضطرت للاكتفاء بتدخين سيجارة «جالوان» خارج مبناها القديم، المكان الذي أحبّت فيه، وطهت، وضاجعت، وبكت، وتجادلت، وتصالحت، وتجادلت أكثر، وأخيرًا، انسلخت عن جلدها القديم لتصبح ما كانت عليه دائمًا. كان توم قد عاد إلى الوطن بعد ستة

أشهرٍ مريعة؛ ولم تره سوى مرةٍ واحدةٍ بعد ذلك، حين زارت شقتهما في العاصمة واشنطن لتأخذ حقيبة ملابس. في طريق العودة إلى المقهى، تعثرت بحجر رصفٍ ناتئ، وبالكاد نجحت في استعادة توازنها بالاستناد إلى دراجةٍ ناريةٍ متوقفة. نفضت الغبار عن نفسها، وعدّلت مقود الدراجة، وبصقت في الطريق.

قالت بروكتر:

– «مدينة النور.. اللعنة.»

***

«بانديتو» كان الاسم الرمزي الذي أطلقته الوكالة على التوائم الثلاثة من آل كسّاب: إلياس، ويوسف، ورامي. كانوا من أصول الدعم السابقة للـ «CIA» — من النوع الذي يستطيع تأمين السيارات، والشقق، والمعدات، أو إجراء المراقبة. كان آل كساب مواطنين مزدوجي الجنسية (سوريين أمريكيين) ينحدرون من عائلةٍ مسيحيةٍ ثريةٍ كانت تملك يومًا وكالات سيارات في جميع أنحاء سوريا ولبنان. أدى انهيار كلا البلدين إلى فرار العديد من أبناء الطبقات الوسطى والعليا في المشرق إلى ملاذاتٍ أكثر أمانًا: لندن، دبي، باريس. جند سام الإخوة، قبل سنوات، في إسطنبول. وقد ساعدوا في بضع عملياتٍ شائكةٍ أثناء خدمة بروكتر في دمشق. لكن في مرحلةٍ ما بين إغلاق أعمال العائلة والانتقال الدائم إلى باريس، أنهوا علاقتهم بالوكالة. لا ضغائن، تذكرت بروكتر. العملاء يتوقفون عن العمل طوال الوقت. ليس هناك الكثير مما يمكنك فعله لإقناعهم بخلاف ذلك. كان العمل لصالح الـ «CIA» ضربًا من الجنون في المقام الأول. يجب أن يكون لديك صامولةٌ مفكوكةٌ في عقلك، هكذا استنتجت بروكتر. واللعنة، هي أكثر من يقدر ذلك؛ فلديها ما يكفي من مساميرها المرتخية لتدير شؤونها.

حين عادت بروكتر إلى المقهى، كان الإخوة يجلسون مع جاغرز على طاولةٍ هادئةٍ في الخلف، يضحكون. تلاشت ابتسامة يوسف ما إن رآها تقترب. قالت:

– «استرخِ يا يوسف.»

استدار رامي وإلياس ليروها، ثم عادا بنظرهما إلى سام، بنظرةٍ تقول: ليس هذه المرأة.

حشرت بروكتر نفسها في المقصور بجانب يوسف. قبلت وجنتيه، ثم مالت عبر الطاولة وفعلت الشيء نفسه مع رامي وإلياس. نادت نادلاً وطلبت بفرنسيةٍ مهشمةٍ قهوةً سوداء وعجةً وزجاجة شمبانيا. سأل النادل عن نوع الشمبانيا، فردت بروكتر، وقد تلبست روح غاس ربما: «أرخص نوعٍ لديكم». لم يكن هناك خبز، فطلبته، ودخلت في شجارٍ سريعٍ صغيرٍ مع «الغارسون» بحجة أن سلال الخبز تُقدم عادةً وقت الغداء، لكن بعد ذلك، وكما جرت العادة، تبادلا نظراتٍ لزجةً لبضع ثوانٍ فعرف النادل أن الأمر لن ينتهي حتى يحضر الخبز، لذا هرول بعيدًا وعاد ببضع شرائح من خبز العجين المخمر وكوبٍ صغيرٍ من الزبدة المملحة. كانت بروكتر تتضور جوعًا. دهنت شريحةً بطبقةٍ كثيفة من الزبدة، وأخذت قضمة، ثم أدركت أن أحدًا لا يتحدث.

كان إلياس ينظر إلى الباب. يفكر في الانسحاب، فكرت بروكتر، ربما ليست الخطوة الأسوأ لهؤلاء الثلاثة الآن.

قالت:

– «حسنًا، من الجيد رؤيتكم يا شباب مجددًا. كيف العائلة؟ كيف الحياة في هذه المدينة القذرة؟»

***

تشاركوا الطعام والشراب لساعة. نفدت الشمبانيا، فطلب رامي زجاجةً أخرى. زجاجة باهظة الثمن واللعنة. أفرغوا تلك أيضًا. لم يأتِ ذكرٌ لسوريا، أو للوكالة. كان ذلك ليعد فجاجةً في وقتٍ مبكرٍ كهذا من الرقصة. وبينما هم يتحدثون، وتتلاشى صدمة «الباندیتوس» الأولية وعدم تصديقهم، بدأت عجلة الهامستر المتهالكة داخل رأس بروكتر — تلك التي تقيّم البشر وتستقطبهم وتجندهم — تدور بصرير. حان وقت تحريك الأمور. وكما ناقشت مع جاغرز، قلبت شوكتها ونقرت بإصبعها على أسنانها.

حين انتهى يوسف من وصف اهتمام صديقته بالعمل في استوديو فني، التفت سام بلطفٍ إلى رامي.

– «هذه زيارة جزء منها اجتماعي، وجزء عمل، كما قلت على الهاتف. هناك مهمة، وأنا وأرتميس يمكننا استخدام بعض المساعدة.»

قال رامي:

– «مهمة؟»

أشرق وجهه. جيد، فكرت بروكتر، يمكننا العمل مع هذا. وكذلك فعل وجه إلياس. أما يوسف، فلم يتحمس كثيرًا.

قال سام:

– «توجد مزرعة في الجنوب، خارج لاكوست. سيلتقي الروس بشخصٍ ما هناك. نريد أن نعرف من هو.»

نظر الإخوة إلى بعضهم البعض، ومرت طاقةٌ غير منطوقة بينهم. كانت لديهم جميعًا نفس اللوازم الحركية، لكنهم لم يشبهوا بعضهم كإخوة. كان رامي ممتلئًا وقصيرًا، وازداد امتلاءً؛ ويوسف طويلاً ونحيلاً؛ أما إلياس فكان دائمًا في الوسط، وظل كذلك.

قال إلياس:

– «الروس.. لا نحب الأشغال التي تشمل الروس.»

قالت بروكتر:

– «صحيح؟ يا إلهي. لكن هذه هي الأوراق التي وُزّعت علينا. نحن نعيش في عالمٍ فيه روس، ربما في الحياة القادمة لن نضطر للتعامل معهم، لكن الآن؟ نحن عالقون تمامًا. اسمعوا، نحتاج مساعدتكم يا شباب. نحتاج لاستطلاع المكان، وزرع أجهزة تنصت صوتية ومرئية، ورؤية ما سيحدث. نحتاج أن نبدأ الآن.»

سأل رامي وهو يرمق يوسف بنظرةٍ محتارة:

– «تتحدثون عن اليوم؟»

قال سام:

– «إخطار قصير.»

رد إلياس عابسًا:

– «هذا يسمى بلا إخطار. هل لديكم معدات؟»

قال سام:

– «البعض. قد نحتاج مساعدتكم في بضعة أشياء.»

سأل يوسف:

– «كم الدفع؟»

قالت بروكتر بقلبٍ مفعم:

– «نحن ندفع بالشرف والامتنان.»

قال إلياس:

– «هل باتت الوكالة تدفع بالشرف والامتنان هذه الأيام؟»

عقب سام:

– «يمكنك القول إن الأمر غير رسمي بعض الشيء.»

زاغت عيون الإخوة في المكان مجددًا. سعل رامي.

تنهدت بروكتر:

– «اللعنة.»

الفصل الخامس والأربعون

لاكوست، فرنسا

في أفلام الجاسوسية التي كانت تستهوي بروكتر في مراهقتها، كانت عمليات الاقتحام والتسلل تُنفذ عادةً بواسطة فرقٍ من العملاء ذوي الأجساد المفتولة والملامح الصارمة، مدججين بأدواتٍ تقنية معقدة وطباعٍ حادة. كانت تلك الفرق صغيرةً في الغالب، ولا تولي اهتمامًا كبيرًا لمحو آثارها، ولا تستخدم طبقاتٍ من المراقبة المضادة كدرعٍ للحماية، بل كانت تزرع الكاميرات والميكروفونات في أماكن يستطيع المحترفون كشفها في دقائق معدودات. وفوق هذا كله، لم يكن يقع فيها أي خطأٍ عشوائي فادح، كما حدث مع بروكتر ذات مرة حين كانت تدير عملية اقتحام في عمان، حيث اصطدم رجالها بمربى زجاجي في منزل الهدف، فخرج منه عقربٌ أليف لدغ أحد أفراد فريقها في ذراعه، وكاد الرجل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في مستشفى أردني يغطيه الغبار.

وفي تلك الأفلام أيضًا، كان المراقبون يجلسون لمتابعة البث، وتشتعل الأجواء إثارةً وتوترًا بسبب وسامة طاقم العمل وتلاصق أجسادهم داخل حافلةٍ ضيقة.

كانت «الحافلة» هي الجزء الوحيد الصادق في تلك الأفلام. فالحافلة الجيدة ركنٌ أساسي لا غنى عنه، وقد عثر فريق «الباندیتو» على ضالتهم: حافلة من طراز «مرسيدس سبرينتر» نالت منها يد الزمن، اشتراها الإخوة من تاجرٍ في إحدى ضواحي باريس. لكن بروكتر كانت تواجه الآن معضلةً حقيقية؛ فهي تدير عملية اقتحامٍ تفتقر للتمويل الكافي، وللعدد اللازم من الأفراد، وللتجهيزات المناسبة — تمامًا كما في الأفلام — ولكن بدلًا من آلات الثقب

الصامتة وزملاء المراقبة الفاتنين، كانت تترنح الآن فوق طريقٍ ترابي وعر وسط حافلةٍ كريهة الرائحة، يئن سقفها تحت ثقل الأشرطة اللاصقة والأسلاك والسلالم، ومعها ثلاثة سوريين لم يمارسوا العمل الميداني منذ مدة، وزميلٌ متقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية مُلطخ بالخزي مثلها، يحدوهم الأمل في الإمساك بطرف خيطٍ يوصلهم إلى خائنٍ من الوكالة.

كان صباح يوم الاثنين؛ وكانت بروكتر تصارع إعياءً نفذ إلى نخاع عظامها، جراء الضربات المتلاحقة لليالٍ جفاها النوم، ووتيرة عملٍ محمومة، ونوباتٍ مستمرة من القلق. في الليلة الماضية، عندما حاولت النوم، كانت خفقات قلبها من السرعة بحيث تسمع دويَّها في أذنيها، وتشعر بوقعها يرتجُّ فوق ملاءات السرير. لقد مرت ثلاثة أيام على حديث سام مع بورتنوي والبرقية التي — إن صدقت حدسهم — ستدفع نحو اجتماعٍ آخر مع «ريمورا». كان يوم السبت، بعد العرض الذي قدمته لـ «البانديتو»، رحلة تسوقٍ مسعورة. وفي يوم الأحد، أَمّنوا الحافلة، وبحلول الظهيرة انطلق كل منهم في طريقه؛ قاد «البانديتو» الحافلة نحو «بروفنس»، يتناوبون القيادة طوال الليل. أما سام و بروكتر، فقد استأجر كل منهما سيارةً منفصلة، متجنبين القطارات ومخاطر مقابلة أيٍّ من أصدقائهم القدامى الذين قد يكونون في طريقهم إلى هنا للقاء «ريمورا». اجتمعوا ثانيةً مع «البانديتو» في منزلٍ متهالك استأجره الإخوة خارج قرية لومبير، وهناك، في ذلك الصباح، وضعوا اللمسات الأخيرة قبل الانطلاق نحو المنزل الريفي.

كانت عقارب الساعة تطاردهم وبقوة؛ إذ تقضي خطة اتصال «ريمورا» بأنه بمجرد إرسال إشارة الطوارئ، يجب أن يتم الاجتماع في المنزل الريفي خلال ثلاثة أيام، وهو ما قد يحدث في وقتٍ مبكر من ذلك المساء. وبناءً على الرسالة التي مررها سام إلى الوكالة عبر بورتنوي، فإن الجاسوس المنغرس بينهم لا بد أن يكون في غيبوبةٍ تامة إن لم يرسل إشارة لطلب لقاءٍ عاجل.

عند الاقتراب الأخير من المنزل، تجدد الخلاف بين سام و بروكتر حول جدوى إدارة عملية مراقبة مضادة بإمكانياتٍ هزيلة. لكن بروكتر أرهقته بإصرارها قائلةً:

– «لا، يا سام، إن وصلوا إلى هنا قبلنا فقد خسرنا المعركة سلفاً، ولن نتمكن من رؤية شيء؛ ليس بالوقت والعدد الذي نملكه. لا أقصد الإهانة يا رجل، فهذا تعليقٌ على الكم لا الكيف.»

ومع ذلك، أتموا دورةً كاملة حول المنعطفات الجبلية فوق المنزل لرسم خريطة لزوايا الرؤية وتقدير مخاطر تطفل الجيران. كانت المخاطر ضئيلة — كما قرروا — ليست منعدمة ولكنها ضئيلة، وهو ما يفسر بلا شك اختيار هذا العقار لأعمال الوكالة. كانت أبراجٌ من أشجار السرو تحجب معظم المنزل والطريق المؤدي إليه، وللحصول على رؤية واضحة للمنزل نفسه، كان الأمر يتطلب السير بعيدًا عن الطريق، نزولاً من التل ثم صعوداً نحو تلٍ آخر، إلى منطقةٍ غابوية تقع فوق امتداد مزارع الكروم مباشرةً.

فتحوا البوابة الحديدية التي لم تكن موصدة، وسارت الحافلة فوق الحصى الذي أحدث جلبةً تحت الإطارات حتى توقفت أمام المنزل. كان بناءً من طابقٍ واحد، مشيدًا من الحجر، ببابٍ من خشب البلوط العتيق، ونافورة جافة متقشرة تزدان بتماثيل «كيوبيد». بدت حافلتهم البيضاء المليئة بالصدمات مجرد حافلةٍ عادية؛ يمكن أن تكون شاحنة توصيل أو حافلة لسباك، لولا أن الأشخاص الذين ترجلوا منها كانوا يرتدون ملابس تشبه ملابس فنيي المختبرات الجنائية أكثر من كونهم حرفيين؛ حيث ارتدى الفريق بأكمله أقنعة «N95»، وقفازات «النيتريل»، وأغطية أحذية، وشبكات للشعر. أما خصلات شعر بروكتر الكثيفة فقد تطلبت شبكتين، أخفتهما تحت قبعة رياضية.

لم يستعصِ قفل الباب الأمامي طويلاً أمام براعة يدي بروكتر، وسرعان ما صاروا في الداخل. كان سام و يوسف يلتقطون الصور ويسجلون مقاطع الفيديو ليتأكدوا من ترك المنزل في حالته البكر عند المغادرة. ومن حسن

حظهم، اكتشفوا أن الأثاث لم يكن كثيرًا، وكانت الغرف متقشفة وخالية من التفاصيل المعقدة، مما يعني أنهم لن يضطروا لتحريك الكثير من الأشياء.

في الحالات الطبيعية، كان عليهم مسح المكان بحثًا عن أي أجهزة مراقبة مضادة، وإجراء فحص لترددات الراديو لمعرفة ما إذا كان التلفاز — مثلاً — أو الميكروويف يصدر طاقةً زائدة. لكنهم لم يمتلكوا محلل ترددات، ولم يكن لديهم متسعٌ من الوقت. لاحظوا عدم وجود أسلاك إضافية تتدلى من الأجهزة أو تتسلق الجدران الخارجية. لا شيء لزج على الباب، ولا شريط لاصق ذا وجهين يحمل شعرةً عالقة. كما أشارت برقيات «ريمورا» إلى أن المنزل لم يكن مزودًا بأسلاك تنصت. لم يكن أمامهم سوى الطرق على الخشب تفاؤلاً، والمضي قدمًا.

ومع ذلك، كانوا يتمتعون بميزتين مقارنةً بعمليات الاقتحام التقليدية. الأولى: أن معداتهم لا تحتاج للعمل إلا لبضع ساعات، لا لأيامٍ أو أسابيع أو شهور. وهذا يعني أنهم لم يحتاجوا لنزع الحواف الخشبية للأرضيات أو قوالب الزينة في الأسقف، ولا تمديد أسلاك من مصدر طاقة عبر الأرضيات والجدران لتصل مثلاً إلى خلف نظام صوتي تختبئ داخله كاميرات دقيقة. فرغم أن الكاميرات التي أخرجها سام من حقيبته كانت أكبر حجمًا وأغلى ثمنًا مما كانت بروكتر تتمنى، إلا أنها كانت تعمل ببطارياتٍ تدوم لأيام؛ وهو وقتٌ يفيض عن حاجتهم بكثير.

أما الميزة الثانية: فهي أن أهدافهم لم يطؤوا هذا المنزل منذ شهور، وهم لا يعيشون فيه أصلاً. في العادة، يقوم فريق الاقتحام بخلخلة نظام حياة الهدف في منزله أو مكتبه، أما في هذه الحالة، فمن المستبعد أن يلاحظ الزوار إطارات صور مائلة أو قطع زينةٍ وضعت في غير مكانها.

راحت بروكتر تتفحص جميع موجات البث الست عشرة من جهاز المحمول الخاص بها، بينما كان سام و «البانديتو» يوزعون الكاميرات والميكروبات في المصابيح، والثريات، والخزائن، والسقف، ومآخذ التيار الجدارية. بدأ شعورٌ باليأس ينهش أحشاءها، ويهمس في أذنها: «هذا عبث،

لقد جننتِ حقاً بمحاولتك هذه». خبا ضوء الشمس الشاحب مع انخراطهم في العمل، ورغم أن النوافذ كانت موصدة، إلا أن النسمات وجدت طريقها للداخل، حاملةً معها شذىً ترابيًا زاد من توتر أعصاب بروكتر التي كانت قد بلغت حد التلف.

الفصل السادس والأربعون

لورمارين، فرنسا / لاكوست

في داخل مبنىً من الكتل الخرسانية يربض في ظل مصنع نبيذٍ متداعٍ على بعد عشرين كيلومتراً إلى الجنوب، بالقرب من لورمارين، كان قطيعٌ من الروس يفرغون معدات المراقبة ومجموعةً من الأسلحة التي هُرّبت في رحلةٍ ملتويةٍ بدأت في شرق ليبيا قبل أن تنتهي في مخبأٍ تابعٍ لجهاز «SVR» خارج أفينيون. سافر أعضاء الفريق الروسي إلى فرنسا بأسماء مستعارة وجوازات سفر سياحية — كثيرٌ منها ألماني — عبر مساراتٍ معقدة تطلبت، في أكثر الحالات تطرفاً، أكثر من يومٍ من السفر المتواصل، عبر ما لا يقل عن دولتين وثلاث وسائل نقل. عبر الجميع الحدود الفرنسية بالسيارة أو القطار، ودفع الجميع ثمن تذاكرهم نقداً. ولو كانت أجهزة الأمن الفرنسية تعلم بوجود أيٍّ منهم داخل البلاد، لكانت مهتمةً للغاية بطرح أسئلةٍ على أكثر من واحدٍ منهم — ولاسكين في مقدمتهم.

لو كان الفريق أقل ترهلاً — إذ كان مؤلفاً من قتلة لاسكين ومن «أرجل» العملية، أي فريق مكافحة المراقبة الذي وصل أولاً — أو لو دارت تروس البيروقراطية في موسكو بنفس سرعة عملية أرتميس بروكتر التقشفية، لكانوا قد وصلوا في الوقت المناسب لإحباط عملية الاقتحام التي أنجزها فريقها بعد ظهر ذلك اليوم. بدلاً من ذلك، انكب لاسكين ورجاله على الخرائط يحددون نطاق التغطية، غافلين تماماً عن الخطر الجسيم الذي تشكله شاحنةٌ مهترئةٌ متوقفةٌ في ساحةٍ ظليلةٍ على بعد عدة مئات من الأمتار أسفل الطريق من المزرعة.

على مدار الساعات الست التالية، انتشرت فرق المراقبة الروسية عبر المنطقة، متخذةً مواقع عند الشرايين الرئيسية المؤدية إلى المزرعة. قاد أحد الفرق جنوباً، باتجاه إيكس أون بروفانس، ليلتقطوا ذيل «الدكتور ب»، ويتتبعوا العميل إلى المزرعة للتأكد من خلوه من المراقبة.

وفي سيارتي رينو سيدان مستأجرتين، أخذ لاسكين أربعةً من رجاله شمالاً إلى بونيو قبل أن ينعطف غرباً نحو لاكوست. ساروا تحت حراسة أشجار السرو الإمبراطورية، وعبر كرومٍ تعرّت الآن من عنبها وخضرتها، مروراً بجدرانٍ حجريةٍ منخفضةٍ منقطةٍ بالطحالب. صعدت السيارات الطريق المتعرج وتوقفت عند مطلٍ مشرف. جمعوا حقائبهم، وقفزوا فوق سورٍ حجري، يخوضون وسط الأوراق الجافة المقرقشة حتى تحولت الكروم إلى جيوبٍ من أشجار الزيتون المعقودة، وحينها استطاع تمييز المنزل في امتداد الوادي بالأسفل.

درس لاسكين المنطقة بمنظاره لفترةٍ طويلة. كان وقت ظهيرةٍ رمادياً وبارداً، والممرات والساحات خالية. لم يلمح أي أضواءٍ أو حركةٍ داخل المنزلين المجاورين. أحصى كل مركبةٍ في نطاق المنزل: سيارتان متوقفتان عند كل منزلٍ من المنازل المجاورة، وثلاثٌ في ساحة مصنع النبيذ، وشاحنة «Van» أعلى الطريق، خارج مقهى، متواريةً في مجموعة أشجار.

***

من على أرضية شاحنة «سبرينتر»، جلست بروكتر بجوار سام يراقبان البث القادم من المنزل على أربع شاشات كمبيوتر. كان «البانديتوس» مكدسين خلفهم. كان سام يمضغ بعض العلكة بصوتٍ مسموع.

قالت بروكتر وهي تناوله غلاف شطيرةٍ فارغاً:

– «توقف عن ذلك.»

أضاءت العقارب الخضراء لساعة سام وجهه في ظلام الشاحنة. أزلق العلكة من فمه ولفها داخل الغلاف.

قال:

– «الجميع متأخرون.»

***

التقى لاسكين بالعقيد بليتكوف في مركز القيادة المرتجل بالقرب من لورمارين. كان قد فهم من زوموف أن الـ «CIA» تعرف بليتكوف باسم «ريمورا» (سمكة اللزّاق)، ولم يملك لاسكين إلا أن يجد الاسم مسلياً، ويرجع ذلك أساساً إلى أنه اعتبر الرجل طفيلياً قبل وقتٍ طويلٍ من إطلاق الوكالة هذا الاسم الرمزي عليه. كان بليتكوف جالساً على كرسيٍ خشبيٍ مكسور، تهتز قدماه، ويراجع ملاحظاته. كان قلةٌ من رجال المراقبة منكبين على حواسيبهم المحمولة؛ وتمتم أحدهم بشيءٍ ما في جهاز الراديو المشفر الخاص به. لم يرفع بليتكوف نظره إلى لاسكين.

قال الرجل:

– «هل الطريق آمن؟ يجب أن أذهب حقاً. النافذة ستكون قصيرة الليلة.»

أجاب لاسكين:

– «لم نرَ شيئاً.»

قلب بليتكوف الصفحة بكسل.

– «هذا لا يعني أن الطريق آمن.»

هل لمح لاسكين بدايات تثاؤبٍ تمتد عبر وجه الرجل؟ لو كان على لاسكين أن يشوه أو يقتل أحداً الليلة، فضلاً عن أي شخصٍ قد يلقي به الأمريكيون في طريقه، لاختار بليتكوف.

كرر لاسكين:

– «لم نرَ شيئاً.»

***

سرعان ما مرت سيارة رينو زرقاء بمحاذاة الأجمة الكثيفة التي تحجب شاحنة المراقبة، وأبطأت، ثم دخلت ممر المزرعة. التفتت بروكتر إلى الشاشات ورأت، من خلال بث الردهة، الباب يفتح. دلف رجلٌ واحدٌ إلى داخل المنزل. ها هو «ريمورا» بشحمه ولحمه. أشعل الأضواء، وألقى حقيبته على أريكة، ثم

أجرى مروراً سريعاً عبر كل غرفة، ماسحاً المكان بذاكرته. تحرك «ريمورا» عبر المزرعة بثقة، كرجلٍ يعرف ما يفعله، يتفقد مكاناً مألوفاً ليرى كيف تغير خلال الأشهر الفاصلة. رصدت بروكتر عينيه تزوغان هنا وهناك، وعنقه يستدير، ومنخراه يتسعان كأرنبٍ يتحسس الأشياء العميقة غير المرئية التي تنذر بالخطر. بدا حذراً لكن غير قلق، متيقظاً لكن غير منزعج. حين أكمل تفتيشه، أخرج «ريمورا» من الخزائن زجاجة سكوتش، وكوبين، وعلبة سجائر، ونشرها على طاولة القهوة في غرفة المعيشة.

أشعل سيجارته ودخن بترفٍ لا مبالٍ: سحب أنفاساً طويلة وعميقة، لتتصاعد سحب الدخان نحو السقف قبل أن تتهادى حوله. بدا مرتاحاً في انتظاره.

فكرت بروكتر: زوموف كان ليتأكد من وجود ذلك.

***

إذا كان التجسس عبارة عن كتابةٍ في معظمه، فإن جزءاً كبيراً من البقية هو الانتظار. عاد سام إلى العلكة، لكن بروكتر لم تعد تملك الطاقة لمشاجرته بشأنها. كان إلياس ينقر في بقايا خبز؛ بينما جلس رامي ويوسف مذهولين في وهج الشاشات. راقبت بروكتر الروسي وهو ينهي سيجارته الثالثة ويفتح زجاجة السكوتش وفكرت: ماذا لو كنا مخطئين؟ كانت تصلي، في الواقع، أن تكون مخطئة. أن يحزموا كل شيء بعد بضع ساعات ويقولوا «خطأ كبير، الحمد لله». لقد اختلطت علينا الأمور. فهمنا القصة بالمقلوب في النهاية.

***

في ضوء الغروب الليلكي المتلاشي عند المُطل، خشي الرائد، وهو أحد رجال لاسكين، أن يكون قد أغرق محرك «الفيسبا» بالوقود. أدار المفتاح فصدرت تأتأةٌ وأزيز. محاولةٌ أخرى استدعت أزيزاً أكثر حزناً وسعلةً ميكانيكية. انتظر للحظة. ومن الخلف جاء صوت دقات محرك. وسرعان ما انتشرت أضواء المصابيح الأمامية عبر الطريق، ومرت سيارة بيجو سيدان فضية مسرعة، تتهادى نزولاً نحو الوادي. تعرف على الصنع والموديل ورقم

اللوحة من تقارير المراقبة في وقتٍ سابقٍ من ذلك اليوم. لم تكن لدى الرائد أدنى فكرة عمن في السيارة، سوى أن شاغلها هو عميلٌ لـ «SVR». وعميلٌ ذو قيمةٍ هائلةٍ أيضاً، ليستحق كل هذه القوة البشرية لاجتماعٍ بسيطٍ في جنوب فرنسا.

حاول مرةً أخرى، وهذه المرة سعل المحرك داباً فيه الحياة. نزل الرائد متعرجاً أسفل التل حتى وصل إلى المسار المستقيم للطريق الذي ينصف قاع الوادي. مرّ بجوار منزلٍ مطفأ الأنوار، ثم المزرعة.

وبالاقتراب من المقهى المغلق، نكز المصباح الأمامي قليلاً لليسار، جاعلاً السكوتر ينحرف لفترة وجيزة إلى المسار الأيسر. لمح آثار عجلاتٍ محفورة في الحصى تقود مباشرةً إلى مكان وقوف الشاحنة بين الأشجار. لم يلاحظ الآثار في وقتٍ سابقٍ من اليوم، حين قام الفريق بمسح المنطقة مبدئياً. أرسل الخبر لـ لاسكين عبر الراديو.

قال لاسكين:

– «سنلقي نظرة إذًا. نظرة عابرة. عد إلى هنا وسيذهب بضعةٌ منا.»

انقطع صوت الراديو.

لم يشارك الرائد في عملية سنغافورة، لكنه سمع شائعاتٍ عما فُعل لحماية مصدر زوموف الثمين. لم يكن لاسكين يبالي إن كان ركاب الشاحنة مجرد غجر بحاجةٍ إلى قيلولة، أو عشاقاً تعساء من عمال المزارع بحاجةٍ إلى الخصوصية وسطحٍ مستوٍ. الأمر لن ينتهي نهايةً سعيدةً بالنسبة لهم.

الفصل السابع والأربعون

لاكوست

في المقعد الأمامي لإحدى سيارات «رينو» الصالون، كان لاسكين يقلّب النظر في سلاحه من طراز «بيريتا M12» ويتفحصه مرارًا. لقد قاموا بتنظيف وتجهيز كل قطعة سلاح في قرية لورمارين، لكن هذا السلاح تحديدًا ظلّ مكدسًا في مستودعٍ خارج مدينة أفينيون لعدة سنوات، وقبل ذلك، كان قد شهد أتون الحرب الأهلية الليبية. ومن يدري ما الذي فعله الليبيون الملاعين به؟ بعدما اطمأن أخيرًا، وضع السلاح على أرضية السيارة. كانت مزارع الكروم الغارقة في الظلمة تمرُّ وراء النافذة بينما كانت السيارات الروسية الأربع تنحدر هبوطًا، هبوطًا، نحو أعماق الوادي.

قال لاسكين للموجِّه (الميجور):

– «لنمارس لغتك الفرنسية مرة أخرى؛ أخبرني، كيف ستقدم نفسك للأشخاص الموجودين في الحافلة؟»

الفصل الثامن والأربعون

لاكوست

وصلت السيارة قادمةً من اتجاه بونيو؛ كانت سيارة «بيجو» فضية اللون، تنطلق بسرعةٍ مدروسة. حين انعطفت نحو الطريق المؤدي للمنزل، شعرت بروكتر برئتيها تلتصقان بضلوعها من فرط التوتر. ومهما حاولت، فإن فكَّ رباط شعرها المجعد وإعادة ربطه لم يفلح في تهدئة أعصابها المحطمة. هل سلكتُ منعطفاً خاطئًا في طريق حياتي؟ هل أنا الآن تائهة بقدر ما كنتُ منذ البداية، وربما أكثر؟ ثم داهمتها رغبةٌ مفاجئة، لا تُقاوم، في النوم؛ أن تجد الخلاص في غيبوبةٍ تمنحها إياها تلك الكؤوس الكثيرة، أو أن تحطم كل قطعة معدات في الحافلة في نوبة غضبٍ عارم. كانت كل فكرةٍ تداعب خيالها للحظات عابرة، قبل أن تستسلم لشللٍ تام، وتجلس في النهاية بذهولٍ وجمود تراقب ما يحدث، وتصلي لعلَّ شيئًا ما يقع — ولا يزال يحدوها الأمل في ذلك — يقنعها تمامًا بأنها كانت مخطئة في كل ظنونها.

الفصل التاسع والأربعون

لاكوست

عبر شاشة الحاسوب المحمول، راقبت بروكتر «ريمورا» وهو ينهض بتمهّلٍ عن الأريكة عند رؤية أضواء المصابيح الأمامية في الممر. كانت دقة الفيديو عالية جدًا لدرجة أنها استطاعت رؤية اهتزاز الويسكي في كأسه وهو يجرُّ قدميه نحو الباب. كان وجه «ريمورا» خاليًا من أي تعبير؛ كأنه يستعد لاستقبال ساعي البريد الذي يطرق الباب برفق.

دخل صديقها إلى المنزل، وأغلق الباب خلفه. عانق «ريمورا».

ولا تزال بروكتر تتشبث بوهم أنها مخطئة في كل شيء.

ألقى «ريمورا» عبارة الافتتاح المعتادة، وكأنه هو من يدير اللقاء:

– «كم لديكِ من الوقت؟»

أجابت:

– «ساعة واحدة قبل وصول الرفقة.»

ومع ذلك، حتى في تلك اللحظة، كانت بروكتر – كما ستتذكر لاحقًا – تتلذذ بفكرة: هذا لا يثبت شيئًا.

سأل «ريمورا»:

– «ويسكي؟»

قال ماك:

– «ضع لي حصة مضاعفة.»

ثم تابع:

– «رجالك أخطأوا الهدف، لم يقتلوها.»

همس سام:

– «يا له من وغد لعين.»

ثم أصدر صوتًا لم تتبين إن كان كلماتٍ أم مجرد أنين.

دفعت بروكتر أبواب الحافلة الخلفية لتفتحها على مصراعيها. اندفع الهواء البارد إلى الداخل. كانت اللحظة مشحونةً لدرجة أنها لم تستطع استيعاب سوى تفاصيل تافهة: بريق الرسوم (الغرافيتي) تحت ضوء القمر على جدار المقهى، وانعكاسات الشاشات وهي تراقص جدران الحافلة. شعرت بقهوة الظهيرة تندفع إلى حلقها، فابتلعت ريقها، وأخذت أنفاسًا عميقة وطويلة لتملأ رئتيها بالهواء. غرزت أحد المسدسات في حزام سروال الجينز، وفعل سام الشيء نفسه. قفزا من الحافلة وركضا عبر الساحة. وانطلقا يركضان تحت غطاء الأشجار والأحراش الكثيفة المحاذية للطريق، متوجهين نحو المنزل.

الفصل الخمسون

لاكوست

كان الركض نحو المنزل الريفي أشبه بطيفٍ باهت، حلم مروع تقطعه وخزات الأغصان بين الحين والآخر، وحفيف الأوراق اليابسة تحت الأقدام، وزفير سام الثقيل والمضطرب. ورغم كل التقلبات التي شهدها الشهر الماضي، صارت غريزة بروكتر الآن بسيطة ومخيفة: إنها تركض عبر غابات بروفنس مدفوعةً برغبةٍ عارمة في أن يتألم ماك، وفي أن تكون هي و سام مَن يذيقه هذا الألم. كانت تخطط — في تلك اللحظات المجيدة التي تسبق تسلُّم عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي لزمام التحقيق — أن تحطم هي و سام أشياء كثيرة فيه: أنفه، وفكه، وأصابعه، وأضلاعه. لم يكن الهدف هو التلذذ بالانتصار، وبالتأكيد لم تكن تنوي طرح مزيدٍ من الأسئلة؛ كان الهدف أن يعاني ماك. فالخونة يُنظر إليهم في النهاية كحالاتٍ مثيرة للشفقة، أو يُصنَّفون كنوعٍ من مجرمي الياقات البيضاء، لكن هذه كانت لحظةً سانحة للتعامل مع ماك كما تراه الآن: وحشاً. تعثرت بروكتر بصخرةٍ وسقطت وسط كومة من الأوراق. وحين نهضت، رأت خطوطاً من الدم تغطي يديها؛ فقد جرحتها الأغصان بجروحٍ بالغة. لكنها واصلت الركض.

الفصل الحادي والخمسون

لاكوست

بدأ إطلاق النار بطلقاتٍ متفرقة ومترددة، قبل أن ينفجر إلى زئيرٍ منخفض ومتواصل يشبه قرع طبولٍ جنائزية. جاء الصوت من الخلف، من اتجاه الحافلة. توقفت بروكتر، وانحنت، ثم عادت مسرعةً نحو الأحراش. انطلقت صلية رصاصٍ طويلة أخرى لتمزق سكون الهواء البارد. وعندما صمت الرصاص، سمعت صرخةً وحيدة يائسة، ثم دوى صوت طلقةٍ واحدة من مسدسٍ يدوّي مزق سكون الليل. سمعت بعدها طلقتين متتاليتين، وربما كان أثر تلك الطلقات قد نفذ إلى أعماق روحها؛ لأنها لم تعد تسمع الوجبة التي تلتها. لم تسمع صوت أبواب الحافلة وهي تُغلق بعنف، ولا صوت محركها وهو يزمجر معلناً الانطلاق. لقد ركضت فحسب.

لكنها الآن كانت تركض في الاتجاه المعاكس.

اندفعت عبر الأشجار، عائدةً نحو الساحة المظلمة والحافلة، و سام يلهث خلفها، تزيح الأغصان بيديها، تتعثر بالصخور والجذور التي لا تراها، وقلبها يكاد يقفز من حنجرتها. غرزت بضعة أغصانٍ أخرى في جلد يديها ووجهها، لكنها كانت تشعر بآلامٍ أكبر من أن تلتفت لوجع الجروح. ومع كل خطوة، كانت تتقيد بخيوطٍ سوداء تنغرس في أعماقها، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى حافة الساحة المرصوفة بالحصى، تجمدت الحقيقة المروعة في ذهنها: لقد سُفكت دماءٌ أخرى. لقد أُصيب أصدقاءٌ آخرون. إنها غلطتها هي. لقد تفوقوا عليها بالدهاء. كانت آثار الإطارات الحديثة تندب وجه الحصى في الساحة. لقد اختفت الحافلة.

الفصل الثاني والخمسون

لاكوست / لوميير

توقفت بروكتر مرتين لتتقيأ من فرط الإعياء خلال رحلة العودة ركضًا إلى المخبأ، والتي استغرقت خمسًا وأربعين دقيقة. لم تنم منذ أربعة أيام، ولم تأكل شيئًا يُذكر منذ يومين. أحد أعز أصدقائها حاول قتلها مرتين، وثلاثة أصدقاء آخرين حجزوا تذاكرهم إلى العالم الآخر بدلاً منها. كل ما كانت تشعر به هو مرارة الاحتراق، والألم الناتج عن اعتصار آخر قطرات الطاقة من جسدها وعقلها وروحها. تعثرت مرةً وانزلقت في التراب، ولولا وجود سام لبقيت ملقاةً هناك حتى يجدها أحدٌ ما ويقتادها بعيدًا.

دخلت بروكتر و سام إلى المخبأ الذي شاركاه مع «البانديتو»، وهما يتساءلان عما إذا كان الروس سيقفزون في وجههما لاعتقالهما أو تصفيتهما، وشعرت بخيبة أملٍ طفيفة لأنهم لم يفعلوا؛ ففي تلك اللحظة، كانت رصاصةٌ في العنق ستُسجل في دفتر حساباتها كفعل رحمة. لم تقل أيًا من هذا لـ جاغرز. كانا في حالةٍ من الهياج والاضطراب لدرجة أنهما لم ينطقا بكلمةٍ تقريبًا منذ اختفاء الحافلة. اهرب من موقع الخطر — هذا كل ما كان يشغل بالهما. الابتعاد. إعادة ترتيب الصفوف. جمعا الحقائب وتفحصا الخرائط لمعرفة كيف يمكنهما الخروج من منطقة لوبرون دون الاصطدام بالفريق الذي قتل آل كساب. تفقدا مواعيد الرحلات الجوية. كان أنفها يسيل؛ مسحته وسدته بورق المرحاض لكن النزيف لم يتوقف.

قالت بروكتر وهي تمسح وجهها بكمِّ ردائها:

– «سأقود أنا إلى مارسيليا، ومنها أستقل أول رحلة إلى لندن، ثم إلى مطار دالاس الدولي.»

قال سام:

– «وأنا سأذهب من نيس إلى باريس، ثم إلى دالاس. لقد قُتل آل كساب، أليس كذلك؟»

كان يحك أنفه بحدة كأنه يريد تمزيق غضاريفه بأظافره.

أجابت بروكتر:

– «سمعتُ وابلًا من الرصاص.»

قال سام وهو يقذف بحقيبةٍ في صندوق سيارته المستأجرة:

– «لم يعد لدينا شيء يا "زعيمة"، كل الأدلة كانت في تلك الحافلة.»

قالت بروكتر:

– «لدينا اسم ماك، ولدينا كلمتنا.»

– «كلمته في مواجهة كلمتنا.»

ولم يجد ما يقوله، فواصل حكَّ أنفه فحسب.

– «سألقاكِ خارج بوابة الجمارك في مطار دالاس.»

قذفت بحقيبتها في سيارتها المستأجرة وأغلقت الصندوق بقوة، وتابعت:

– «الكابوس يواصل فصوله.»

الجزء الخامس

الزعيمة

الفصل الثالث والخمسون

هبطت طائرتا بروكتر وسام، كلٌّ على حدة، في مطار دالاس عصر اليوم التالي. التقيا عند منطقة استلام الحقائب، ومن هناك انطلقت هي بهما مباشرةً صوب لانغلي. ولأنّهما لا يحملان شارات الدخول، اضطُرّا للانتظار ساعةً كاملةً عند البوابة الرئيسية، ريثما تمكّن ضباط الحماية أخيرًا من التواصل مع مكتب ديبس، ونقلوا رسالة مفادها أن نائب مدير العمليات تودّ أن تعرف «ماذا بحق الجحيم الذي تفعله بروكتر هنا؟» وإلى أي جحرٍ زحفت بعد هروبها من «المزرعة»، وغيرها من عبارات الترحيب اللطيفة، وإن كان الضابط قد نقل الرسالة ببرودٍ مهذّب، وبلغةٍ أقل عدائيةً بكثير.

أجابت بروكتر:

– «أخبرها أن الأمر يتعلق بريمورا. أخبرها أنني كنتُ هناك، في فرنسا، وكنتُ أراقب ذلك الاجتماع اللعين، وأن لديّ شيئًا في غاية الأهمية لأقوله. انقل لها ذلك حرفيًا، ومهما كان ردّها، وأيًّا كان العذر التافه الذي ستتذرع به لعدم قدرتها على الحديث معي الآن... حسنًا، قُل لها أن تفكّر: لماذا بحق السماء قد آتي إلى هنا ما لم أكن أحمل معي مصيبةً بحجم يوم القيامة؟ نائب المدير تكرهني حتى النخاع، وأنا أبادلها الشعور، وما كنتُ لأطأ هذا المكان لولا أن الأمر حاسم. في الحقيقة، هذا آخر مكان أود التواجد فيه؛ سأجد في جراحة فصّ المخ الترفيهية متعةً تفوق لقاء ديبورا سويت اللعينة الآن».

تراجع الضابط نصف خطوة مبتعدًا عن السيارة، وانحنى ليلقي نظرة على سام الجالس في مقعد الراكب، والذي اكتفى بالقول:

– «أبصمُ على كلامها».

تجمّع ضابطان آخران حول المركبة، وأحضرا كلبًا لشم الهيكل السفلي لسيارتها الـ«RAV4». بدا أحد الضباط متحمسًا للغاية لفكرة إطلاق النار عليهما.

سأل الضابط:

– «هل تعاطيتِ الكحول يا آنسة بروكتر؟»

– «للمفاجأة، لا. أخبر نائبة المدير بذلك أيضًا حين تحدثها. لا تنسَ ذكر هذه التفصيلة».

بعد مرور ساعة، كان سام وبروكتر يعلّقان على ياقات ملابسهما شارات زوار حمراء كُتب عليها «المرافقة مطلوبة». جلسا في غرفة الانتظار المكتظة الخاصة بالمدير، بصحبة مرافقٍ جليس يُدعى رودي، رجلٌ عجوز وجهه أشبه بقفاز «بيسبول» جلديّ قديم، وصوته مبحوحٌ كأنه يستجدي جراحةً في القصبة الهوائية. وكما طلبت بروكتر، ظهر غاس وثيو، ووقفا بجانبهما للانتظار نظرًا لنفاد المقاعد. كان سام، الجالس على الأريكة، ينقر بقدمه الأرض بقوةٍ كافيةٍ لإحداث أمواجٍ في كوب الماء الذي يحمله رودي. ارتسمت تجاعيد الحيرة على وجهي الرجلين وهما ينظران إلى سام، الذي لم يرفع رأسه حتى ليلحظ وجودهما. وفي غضون ثوانٍ معدودة، ومضت في أعينهما عشرات الأسئلة قبل أن تتلاشى كالشهب الساقطة، إلا أن ثيو همس بسؤال واحد:

– «ما الذي يحدث بحق الجحيم يا أرتميس؟»

– «سأخبركما عندما ندخل. أنا... مهلًا سام، توقف عن ذلك».

وضعت يدها على ركبته، وتابعت:

– «عليك التخلص من هذا التوتر، اخرج وتمشّ قليلًا في الردهة. رودي، ربما يمكنك أخذه في جولة؟»

قال سام:

– «أنا بخير. كل شيء تمام».

تدخّل غاس قائلًا:

– «ماك ليس هنا الآن».

ردّت بروكتر:

– «أعرف. إنه ـفي فرنسا. ولم أطلب حضوره».

تبادل ثيو وغاس مزيدًا من النظرات الحائرة، لكنهما لاذا بالصمت.

سأل ثيو:

– «هل كنتِ تشربين يا أرتميس؟»

قالت:

– «للمفاجأة، لا. ولا حتى على متن الطائرة».

سأل غاس:

– «الطائرة القادمة من...؟»

أجابت:

– «فرنسا».

تمتم ثيو، ملخّصًا الموقف ببراعة:

– «يا للروعة...»

همس غاس بحدة:

– «أرتميس، أخبريني عمّا يدور هذا الأمر الآن وفورًا».

– «ليس قبل أن ندخل يا غاس. طاقتي لا تكفي إلا لشرح الأمر مرة واحدة».

أخيرًا، تحدثت إحدى المساعدات التنفيذيات ـفي الهاتف قائلة «نعم، نعم، نعم»، ثم وضعت السماعة ولوّحت لهم:

– «يمكنكم الدخول الآن».

في المرة الأخيرة التي كانت فيها بروكتر ـفي هذا المكتب، تقيأت على الأرض ولوّثت سروالها، وكانت تظن أنه من المستحيل لأي زيارة لاحقة أن تكون أسوأ، لكن هذه الزيارة كانت ـفي طريقها لتكون كذلك، وبمراحل. جلس غوسفورد وديبس على الطاولة، ولم يكن أحد يبتسم. كانت ديبس ترتدي ثوبًا أصفر كناريًا ذا أكمامٍ مكشكشة ضخمة لدرجة أنها قد تصلح كطوافات نجاة في حال انتهى الاجتماع بهبوط اضطراري ـفي الماء. كان الثوب دراسةً صارخة

في التناقض مع عينيها، اللتين كانتا — ولا توجد كلمة أخرى لوصفهما — قاتلتين. تساءلت بروكتر للحظة إن كانت ديبس قد حاولت تسليط المباحث الفيدرالية عليها لكنها فشلت. جلس الجميع حول طاولة غوسفورد. هذه المرة لم تفكر حتى في «نجمة الاستخبارات» المعلقة على الجدار، ناهيك عن النظر إليها. كل ذلك بدا باهتاً الآن.

قال غوسفورد:

– «لديكِ خمس دقائق. لقد استجبنا لهذا الطلب الغريب، وأحضرنا غاس وثيو كما طلبتِ. رصيد صبري نفد تمامًا. انطلقي».

بدأت بروكتر، وهي تشير برأسها نحو سام:

– «ماك يعمل لصالح الروس. لقد سمعنا...»

قاطعها سام:

– «ورأينا».

أكملت:

– «ورأينا. سمعناه وشاهدناه يناقش محاولة تفجير مقطورتي مع «ريمورا». كانت جملته: "رجالك أخطأوا الهدف". ماك هو من أشار بطلب الاجتماع بعد البرقية التي وصلت من طبيب سام النفسي، بورتنوي. هو لم يجنّد ريمورا؛ بل ريمورا هو من جنّده. الروس يستخدمون هذه القضية كقناة لتمرير المعلومات التي يريدوننا أن نعرفها، ولتوفير غطاء عملياتي لماك كي يلتقي بهم. القضية برمتها مقلوبة رأسًا على عقب. ماك خائن».

وضع غوسفورد يده على فمه وشدّ شفته السفلى. الصوت الذي انبعث من ثيو ذكّرهم بشخص يحاول إخراج عظمة عالقة في حلقه. أما غاس فلم يملك إلا أن يضرب صدغيه براحتي يديه وينظر إليها في صمت مذهول. تمكن ثيو من استجماع شتات كلمة، جنحت نحو الغموض لكنها حملت شبهًا بكلمة بسيطة: «ماذا؟». تصلّبت ديبس وحدّقت فيها، بوجه خالٍ من التعبير وبارد. لم تنبس بكلمة.

توقف غوسفورد، الذي كان يقيّم جو الغرفة، عن شد شفتيه ومرر مفاصل يده عليها بدلًا من ذلك. التفت إلى بروكتر وقال:

– «تابعي».

وهكذا انطلق الحديث. بحلول الدقيقة الخامسة منحها غوسفورد عشر دقائق أخرى. وبحلول الدقيقة الخامسة عشرة لم يذكر أحد الوقت مجددًا.

سردت عليهم كل شيء، من الألف إلى الياء، باستثناء سرقة الوثائق؛ فالاعتراف بذلك لن يجلب أي نفع.

مرت ساعتان. لم يقل أحد إنها تكذب، ولم يقل أحد إنه يصدقها أيضًا. كان الأمر، بصراحة، أضخم من أن يُستوعب في جلسة واحدة، وكانت هي تدرك ذلك. راح غاس وديبس يتأملان كيف لعملية ريمورا أن تكون مختَرَقة ومعكوسة طوال هذه المدة؛ وطرح غوسفورد أسئلة منطقية حول موثوقية وقدرات العميل «إمبريال» (المدعو فرانكي بوتنيك) العقلية؛ وكذلك حول ذاكرة سام عن حديثه الخاطف في سنغافورة مع غوليكوف، والذي، بحسب وصف ثيو، ربما كان محاولة لنثر الدماء في مياه لانغلي لجذب أسماك القرش بكتلة فوضوية من المعلومات المضللة. ما كان يصعب دحضه هو أن شيئًا ما حاول قتل بروكتر؛ وأن بروكتر وسام ظهرا ومعهما شهادة عيان على آثام ماك؛ وأن إشارة الطوارئ الخاصة بريمورا تزامنت بشكل مريب مع سلسلة من الكوارث الأخيرة. من منظور معين، كان ريمورا يساعد وكالة الاستخبارات المركزية على التعامل مع هذه الكوارث، لكن من منظور آخر، كان هو ورفاقه سببها.

اختتمت بروكتر حديثها قائلة:

– «أنا إما مجنونة أو أقول الحقيقة».

فردّت ديبس فورًا بأن الجنون هو الحالة الافتراضية عندما يتعلق الأمر بأرتميس بروكتر، وعلاوة على ذلك، فالخياران لا ينفي أحدهما الآخر.

لكنهم استمعوا. وسواء كانت بروكتر تستنفد آخر قطرات الرحمة والمودة من صداقتها المحطمة مع ديبس، أو كان ثيو وغاس قد شكّا يومًا في ماك،

فهي لم تسأل. أفرغ كل من غوسفورد وديبس جدول أعمالهما لذلك المساء. وبناءً على إلحاح بروكتر، تم التحقق من مجموعتين من الحقائق. الأولى: الجدول الزمني لآخر اجتماع لريمورا: توقيت استلام إشارة الطوارئ مقارنةً ببرقية بورتنوي. والثانية: تسلسل تقارير ريمورا، عند قراءتها في ضوء كون القضية مخترَقة. هنا، توقف عقل غوسفورد عن العمل بصرير مسموع.

قال:

– «الآن، هذا الجزء، هذا ما لا أستطيع استيعابه حقًا. لا يوجد دليل ملموس، هل أسمعك بشكل صحيح؟ لا شيء صلبًا نتشبث به».

– «رأيتُ ذلك بأم عيني».

وللمرة الخامسة ربما في ذلك المساء، كررت كلمات ماك حرفيًا.

قال غاس:

– «تعنين أنك سمعتِها، عبر ميكروفون».

قالت ديبس:

– «وهذه ليست رصاصة فضية تكفي للمباحث الفيدرالية. من الصعب المراهنة عليها».

ردّت بروكتر:

– «يمكنهم المراهنة على شهادتي».

قالت ديبس:

– «أنتِ تدركين أنك تعترفين بالتدخل في عملية تابعة للاستخبارات المركزية؟ لقد قمتِ بزرع أجهزة تنصت في منزل آمن بشكل غير رسمي. لم تصرحي بذلك، لكن من المؤكد أن أحدكما وجد طريقة لتهريب وثائق من المقر الرئيسي».

لم ترد بروكتر على ذلك، وديبس... حسنًا، لم تتخيل بروكتر أبدًا أنها ستقول هذا، لكن بارك الله فيها، لم تضغط ديبس في هذه النقطة. كانت ديبس أشياء كثيرة، القليل منها جيد هذه الأيام، لكنها لم تكن خائنة.

شبك غوسفورد يديه أمام وجهه على شكل هرم، ومال بجذعه للأمام متكئًا بمرفقيه على الطاولة. كان قد استهلك خمسة أكواب من القهوة أثناء الاجتماع، وراح الآن يزيح كوبه الفارغ بكسل فوق سطح الطاولة. هيأت بروكتر نفسها لمحاضرة أستاذية، لكن غوسفورد وقف واستأذن للذهاب إلى الحمام. جلسوا جميعًا في صمت مطبق ورهيب، بانتظار عودته. لم يستطع أحد حتى النظر إليها، وبالكاد استطاعت هي النظر إليهم. شيء ما مات حين خرجت من لانغلي في وقت سابق من هذا العام، وشيء ما كان يحتضر مجددًا هنا. عاد غوسفورد، جلس، وشبك يديه الرطبتين مرة أخرى.

– «ما الذي تقترحين عليّ فعله؟»

كانت بروكتر قد تدرّبت على هذه الإجابة في طريقها إلى مارسيليا، بعد أن قدمت بلاغًا مجهولًا للشرطة الفرنسية حول تبادل إطلاق النار عند الشاحنة. وراجعتها مرة أخرى مع جاغرز أثناء القيادة من دالاس. اتفقوا على أن أي تصرف آخر سيكون غير مسؤول، ويجازف بقيام ماك بتسريب المزيد من المعلومات، ويقلل الفرص الضئيلة أصلًا لاستعادة ملفات «بانديتوس»، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا.

قالت بروكتر:

– «اجعل المباحث الفيدرالية تبدأ إجراءات محكمة المراقبة (FISA) على ماك. اجبره على الاستقالة فورًا، اليوم مثلًا. لا جدوى من إبقائه قريبًا، لأنكم لن تمسكوا به، وكلما طال بقاؤه في الداخل، زاد الضرر الذي سيحدثه. أعد بيترا ديفاين وفريق التفتيش الخاص بها في مشروع استثنائي لتمشيط كل شيء واستخراج ما يمكنهم العثور عليه. اقطع الصلة بريمورا، أنهِ القضية، واسحب كل ما أبلغ عنه حتى الآن. وابدأ بجس نبض الفرنسيين بخصوص عائلة كساب، اترك لهم بعض فتات الخبز لتحفيز تحقيق جنائي».

قالت ديبس:

– «قائمة طويلة. وصعبة».

قال سام:

– «الحديث مع الفرنسيين عن عائلة كساب ليس صعبًا».

قال غوسفورد:

– «طرد ماك ميسون من الاستخبارات المركزية هو الصعب. أن نجر أذيال خيبتنا ونزحف إلى وسط المدينة لنشرح لماذا يعتبر سيل معلومات ريمورا زائفًا... حسنًا، هذا هو الصعب. ألا توافقين؟»

علّقت ديبس:

– «هذه مواقف محرجة، وليست صعبة. على الأقل ليس من الناحية التقنية».

ضحك غوسفورد وقال:

– «حسنًا، يمكنك الذهاب للتحدث إلى الرئيس ومستشار الأمن القومي إذًا. ماك بطل. أفغانستان، بطبيعة الحال. ثم ساعد في إعادة سام إلى الوطن. إنه أحد أكثر ضباطنا تقلدًا للأوسمة».

قالت بروكتر، وهي تشير بذقنها نحو النجمة المعلقة على الجدار، ناصحةً في عدم النظر إليها تمامًا:

– «وأنت كذلك».

خيّم صمت بارد وعدائي على الغرفة.

قالت ديبس:

– «يبدو لي أنه ما لم نُعِد إحياء فريق التفتيش...»

قاطعتها بروكتر:

– «وهو ما يجب أن تفعلوه بحق الجحيم. هذا الأمر سهل جدًا. إنه...»

نهرتها ديبس:

– «دعيني أكمل. ما لم نُعِد إحياء فريق التفتيش ويشتمّوا رائحة دليل دامغ، أو ما لم يرتكب ماك خطأً، فإن قضية الادعاء ستستند إلى شهادتك وحدك. تذكّرِ لما قاله ماك في فرنسا. قضايا قانون التجسس عبارة عن معارك شاقة ومضنية. المعايير فيها عالية جدًا. أنتِ تعرفين هذا. وحسنًا،

بالنظر إلى ماضيك هنا، واعتمادهم على كلمتك، حسنًا، يعني، إنه... كيف لي أن... آه...»

قال غوسفورد، لكنه كان يحدق في بروكتر:

– «قوليها يا ديبورا».

قالت ديبس:

– «حسنًا، الأمر معروف للجميع، أليس كذلك؟ أرتميس كانت مغرمة بماك أيام أفغانستان. كانا على حافة العالم، وكانت هي مطلقة حديثًا، بينما كانت "لولو" مشغولة بمضاجعة رسامين أكثر نجاحًا من ماك بمراحل. كانت هناك قصص كثيرة — لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ كلنا سمعناها، هذه ليست أخبارًا جديدة — كانت هناك قصص عنهما الاثنين، بل وكانت هناك شائعات مشينة عن رحلة إلى باريس بوجود لولو في الصورة. سمعتُ أن الأمر انتهى، مثل معظم أعمال أرتميس، حسنًا... كيف أصوغ هذا الآن؟»

توقفت ديبس، كاشفة عن ذلك الوجه الخالي من التعبير بعينيه المبتسمتين:

– «بشكل غريب. هذه هي الكلمة. النهاية كانت غريبة، كما يبدو كل شيء معها».

قالت بروكتر:

– «وماذا بعد؟ ما هي نقطتك اللعينة؟»

كان صفير الإنذار يصدح داخل جمجمتها، جالبًا معه شريط صورٍ من العصور الوسطى يكاد يبلغ حد النشوة: إلقاء ديبس في قدر يغلي، واقتلاع تلك الأظافر المطلية بعناية، وتدوير ذراع الرافعة لتمزيق أوصالها.

قالت ديبس:

– «أنتِ تعرفين نقطتي اللعينة».

– «لقد مرّ ما يقرب من خمسة عشر عامًا. هذا لا علاقة له بالأمر».

– «بلى له علاقة. إنه يهدد بتشويه سمعتك. وتشويه روايتك للأحداث».

قالت بروكتر — وربما بصوت أعلى مما ينبغي، إذ كانت تتحدث فوق صوت صفير الإنذار في رأسها:

– «اجعلوا سام يتحدث إلى المباحث الفيدرالية إذًا. هو لم يضاجع ماك قط. ولا لولو. على حد علمي».

قال غوسفورد:

– «كفى. كفى تمامًا».

عقد ذراعيه، واتكأ بظهره إلى الخلف، ونظر إلى ديبس، ثم حدّق في السقف وأطلق زفيرًا طويلًا من أنفه. كانت لحظة طويلة، تلك التي انقلبت فيها الموازين. نظرت بروكتر إلى الأرض، وأدركت أنها جلست في نفس البقعة التي أفرغت فيها أحشاءها يوم طردها. دارت الدائرة دورتها الكاملة اللعينة.

مسح غوسفورد بنظره كل زوج من العيون عبر الطاولة قبل أن يثبته، أخيرًا، على سام، وفي النهاية على بروكتر.

– «سنأخذ كل هذا بعين الاعتبار. وسيحتاج كلاكما إلى محامين بارعين. أنا واثق تمامًا من ذلك».

أخرج غوسفورد من جيبه البطاقة التي تحمل جدول مواعيده، وارتدى نظارة القراءة، ثم أطلق زفيرًا طويلًا آخر:

– «انصراف».

الفصل الرابع والخمسون

لانجلي / كريستال سيتي

ساروا في زمرةٍ صامتة، يخطون بثباتٍ من الطابق السابع نحو المقصف. جلست بروكتر وسام إلى طاولةٍ تطلُّ نافذتها على الفناء، وتكشف بوضوحٍ ذلك المنحوت التشفيري القابع هناك، بينما جلس غاس وثيو في المواجهة. كانت حركة الغداء المتأخرة مجرد قطراتٍ شحيحة، لكن حشد القهوة المسائي بدأ يتكاثف؛ إذ امتدَّ طابور «دونكن دونتس» ليضمَّ عشرين شخصًا على الأقل. كانت رائحة القهوة الكيميائية تعبق في الأجواء فتزكم أنفها وتُغثي نفسها. لقد هُويت صداقةٌ بالفعل من حالق، وتخشى الآن أن تلحق بها صداقتان أخريان. كانت الصرصرة المألوفة في الردهات، ورؤية الغرباء الذين تعرف وجوههم — وكثيرين ممن تعرفهم حق المعرفة — تزيدها حزنًا فوق حزنها الذي لا يُطاق.

قال غاس رابتيس:

– «ما الذي فعلتِهِ بحق الجحيم يا أرتميس؟»

كانت شتيمة غاس نادرةً ومجلجلة، وقعت عليها كأنها صفعة، لكنها حوّلت حزنها إلى شرارة غضب.

قالت بروكتر:

– «لقد أدّيتُ خدمةً وطنيةً جليلة، هذا ما فعلتُه. وبالمناسبة يا غاس، على الرحب والسعة.»

استشاط غاس غضبًا:

– «ولماذا زججتِ بنا في ذلك الاجتماع؟ لقد أصبحنا متورطين الآن، لقد أصبحنا—»

قاطعته ثيو سويت بحدة:

– «أنت تعرف السبب جيدًا يا غاس. لو أنها أخبرت غوسفورد وديبس وحدهما، فمَن يدري ماذا سيحدث؟ ربما طويا الأمر وكتمناه. لكن أن تُشركنا نحن؟ حسنًا، متى انطلقت شائعةٌ كهذه في الأرجاء، فمن المستحيل—»

أجاب غاس:

– «إن النتيجة الوحيدة الممكنة لهذه الحركة البهلوانية التي قمتِ بها هي إجبار ماك على الرحيل، لا أكثر. أنتِ تدركين ذلك، أليس كذلك؟»

قالت أرتميس:

– «ليس لدي أدنى فكرة عما سيفعله غوسفورد. هناك مساراتٌ كثيرة لهذا الأمر، لكنني لم أستطع الكتمان، ليس بعد كل ما رأيته.»

قال غاس:

– «حسنًا، لن يرتدي غوسفورد ثوب النادم من أجل ماك، ولن يجرّ سمعة وكالة المخابرات المركزية في الوحل بسببه. هذا ما نعرفه على الأقل.»

تأملت ثيو سقف المقصف الشاهق وقالت:

– «ماك الآن في مرحلة "لا مبالاة الوداع". كم يبلغ من العمر؟ ثلاثة وخمسون؟ أربعة وخمسون؟ لديه عشرون عامًا في رصيد الخدمة، وأكثر من خمس سنوات قضاها وراء البحار. معاشه التقاعدي مضمون. لقد انضم للوكالة وهو أكبر منا سنًا بسبب تلك الجولة الفنية التي خاضها. على أية حال، لا يهم. النقطة المهمة هي أن غوسفورد لديه هامش مناورة لدفعه جانبًا، بغض النظر عما قيل في الطوابق العليا. وربما يرغب غوسفورد في ذلك أصلًا، فـ ماك يمثل منافسًا له بشكلٍ ما. أراهن أن غوسفورد كان يتحرق شوقًا لسببٍ يتخلص به منه.»

قالت بروكتر:

– «غاس، هل تصدقني؟»

نهض غاس ونظر عبر النافذة وقال:

– «ليس لدي أدنى فكرة عما يجب أن أصدقه. لقد ألقيتِ فوق رؤوسنا كومةً من القاذورات يا أرتميس.»

ثم خرج إلى الردهة، وانعطف عند الزاوية، وغاب عن الأنظار.

نظر ثيو إلى سام، ثم التفت نحو طابور «دونكن دونتس» وقال:

– «لا بد أنكِ استوليتِ على مجموعةٍ من الوثائق. وتلك الحركة مع أصول الدعم؟ يا رفاق، يا للهول...»

عبر النافذة، التقت عينا بروكتر برجلٍ يشعل غليونه على مقعدٍ في الفناء، فما كان منه إلا أن استدار فجأة، موليًا ظهره لها. فكرتْ أن الرغبة في إشاحة النظر هي دافعٌ قوي، وليست فكرةً سيئة حين يعجز المرء عن فهم ما يراه. راقبت الدخان وهو يتصاعد ويتلاشى، ثم نظرت إلى ثيو وهو يهمُّ بالنهوض عن الطاولة. وضعت يدها على ذراعه ووقفت لتواجهه.

– «ماذا تصدق أنت يا ثيو؟ أخبرني. تحدث فحسب.»

صوّب ثيو نحوها نظرةً مهيبة، ثم جذبها فجأة في عناقٍ وديٍّ حار، وقال ضاحكًا:

– «أنا أؤمن بالسمك أكثر من أي شيءٍ آخر.»

***

في تلك الليلة، جلست بروكتر وسام في البيت الآمن بـ كريستال سيتي. كانت هناك خياراتٌ أخرى طبعًا، ومساراتٌ بديلة، ناقشاها ببرودٍ يشبه اجتماعات التخطيط في الشركات الكبرى. كان ثمة عناصر من «مكتب التحقيقات الفيدرالي» قد يبدون تجاوبًا، أو ربما موظفون في «الكابيتول هيل» وأعضاء في لجنة الاستخبارات يمكن إطلاعهم على الأمر. وهناك الكثير من الصحفيين الذين قد يسيل لعابهم لسبقٍ صحفيٍّ كهذا. لكن في كل المسارات، كانوا يصطدمون بطرقٍ مسدودة حين يتطرق الحديث إلى فرص المقاضاة. فكل الطرق تؤدي إلى كلمتهما مقابل كلمة ماك — فهو في النهاية كان يلتقي

بعميل «ريمورا» في مهمةٍ رسمية للوكالة — وكلها تحمل خطر التشهير بوكالة المخابرات المركزية دون طائل.

وعندما استنفدا كل الخيارات، وتناولت بروكتر أخيرًا بعض أقراص النوم، على أمل أن تمنحها بعض الراحة الليلة، انقبض وجه سام وبدا غارقًا في تفكيرٍ حزين. شعرت هي بالأمر ذاته. ها هما الآن عند نهاية الطريق. هكذا تنتهي معظم المغامرات على ما يبدو: خيباتُ أملٍ مُرّة.

سأل سام:

– «ماذا ستفعلين الآن؟»

قالت:

– «سأجوبُ الغرب الأمريكي. أسيحُ في الأرض، من هذا القبيل. أرى مَن سأقابل، وأنتظر ما سيحدث. هل تصدق أنني لم أرَ "غراند كانيون" قط؟ لذا سألقي نظرةً عليه. لقد قضينا وقتًا طويلاً في الحديث عن الماضي حتى شعرتُ أن قطعًا منه قد التصقت بي، وأنا لا أحب ذلك. بضعة أشهر خلف المقود ستعيد إليّ توازني.»

قال:

– «هذا مضحك، فأنا حين أقود السيارة، لا أفكر في شيءٍ سوى الماضي.»

قالت:

– «هذا لأن عقلك ليس بالقوة الكافية، ولهذا السبب ظهرتَ على شاطئي في فلوريدا منذ البداية.»

ابتسم سام، ثم غابت البسمة وحلّت مكانها الجدية:

– «عائلة كساب ماتوا، أليس كذلك؟»

– «لا أرى سبيلًا ليكون الأمر غير ذلك.»

– «لقد تسببنا في—»

قاطعته بروكتر:

– «توقف عندك. هو مَن قتلهم. ماك وأصدقاؤه الروس. لسنا نحن. لا فائدة من التفكير في الأمر بأي طريقةٍ أخرى.»

– «هل تؤمنين بذلك حقًا؟»

– «يجب عليّ ذلك. البديلُ بشعٌ للغاية بحق الجحيم. لا يمكنني منح مساحة أكبر في عقلي لهذا الظلام، فقد أجّرتُ له الكثير بالفعل.»

سأل سام:

– «هل تعتقدين أنهم سيطاردوننا؟»

– «في هذه المرحلة، لا أستطيع أن أتخيل سببًا يجعلهم يهتمون. بعد ما حدث في فرنسا، لا يمكن للروس أن يستمروا في هذه القضية، فقد أصبحت شائكةً ومعقدةً للغاية. ومهما حدث، فإن موسكو ستتخلى عن ماك. ما الفائدة من قتلنا الآن؟ وفوق هذا كله، نحن مجرد نكرات.»

– «تحدثي عن نفسك.»

قالت:

– «بل أتحدث عنا نحن الاثنين. والآن: ماذا ستفعل أنت؟ رحلة قمار في فيغاس مع ناتالي؟ أم عربدة من النوع المعتاد؟ أم تقضي وقتًا مع العائلة؟ ربما تطوف الحقول والمزارع بحثًا عن حسناوات "مينيسوتا" اللواتي يترنحن مثل الجيلي؟ أو ربما تختار تشكيلةً من كل شيء؟»

قال سام:

– «تعرفين يا رفيقتي، نحن أصدقاء منذ زمنٍ طويل، وحين يسألني الناس، لا أزال أكافح لأشرح لهم ما الذي أصاب عقلك بالضبط.»

– «أخبرني إذا اكتشفتَ ذلك يومًا ما، فالفضول يقتلني.»

– «سأنهي علاقتي بـ ناتالي. أريد أن أستعيد صفاء ذهني. ربما أعود إلى منزلي لفترة. لكن لدي سؤالٌ أخير حول كل هذا.» نظر إلى السقف وتابع: «وبعدها، لن أتحدث ثانيةً.»

نظرت إليه.

سألها سام:

– «هل ارتبتِ في ماك منذ البداية؟»

أمالت بروكتر عنقها نحو السقف، ثم التفتت إليه وقالت:

– «لا، أبدًا.»

– «حتى بعد أن حصرنا قائمة المشتبه بهم؟»

– «انظر إليّ يا جاغرز.»

– «ماذا؟»

– «انظر إليّ.»

– «ها أنا ذا أنظر.»

قالت:

– «ماذا نكون نحن، أنت وأنا؟»

– «أصدقاء.»

– «بالضبط. أنا أنظر إليك الآن وأشعر بالمشاعر ذاتها التي شعرتُ بها تجاهه: رفقاء درب، ومسافرون على المتن ذاته، وأبناء قبيلةٍ واحدة، أو أيًّا يكن اللعين الذي يربطنا. لقد عشنا الحياة معًا لزمنٍ طويل. وفوق ذلك، لقد أنقذ حياتي؛ كنت سأصبح في عداد الموتى لولا أنه ارتمى أمامي في أفغانستان. موتى حقًا، وبلا عودة.»

سأل سام:

– «هل صحيحٌ ما قالته ثيو اليوم؟ أنكِ أحببتِهِ يومًا ما؟»

قالت وهي تطلق ضحكةً حزينة وتمسح أنفها:

– «حب؟ لقد شربنا وضحكنا معًا، وكان دائمًا يحمي ظهري. خمسة وعشرون عامًا وهو يحمي ظهري. تاريخٌ طويل. كيف كان لي أن أظن أنه هو؟ أو أيٌّ منهم؟ أن يكون أحد أعز أصدقائي هو—»

وفجأة، استنشقت أرتميس أفروديت بروكتر الهواء في شهقةٍ مكتومة، ثم غصّت الكلمات في حلقها، وأطلقت صرخةً قصيرة. انحدرت بضع دمعات على وجنتيها قبل أن تتمكن من حبسها، لكنها تداركت نفسها قبل أن يخرج الأمر عن السيطرة. استدارت لتجفف وجهها وقالت:

– «عطلٌ طفيف أصاب الآلة. اعتذر عن ذلك.»

قال سام:

– «سأضيف هذا إلى القائمة التي سأعرضها على الأطباء، أولئك الذين قد يخبروننا ما الذي دهاكِ.»

قالت:

– «أعتقد أن الأمر سيظل غامضًا بالنسبة لهم.»

– «رغم ذلك،» قال سام: «رغم ذلك.»

الفصل الخامس والخمسون

الهروب

انزلقت «آيرين» عائدةً لترتدي جلدها الأمريكي. غدت امرأةً ككل النساء، روحًا هائمةً بشغف الترحال تُعتم الزوايا القصيّة في وطنها المنسي. أمام مرايا الفنادق المشروخة، أتقنت رسم ابتسامةٍ عريضةٍ ودودة. وفوق مكاتب الفنادق الملطخة، حبكت أسطورتها وتاريخها المزعوم، مُرددةً إياه على مسامع نفسها وهي خلف عجلة القيادة. وفي الليل، وهي ممددة في فراشها، كانت تتدرّب على حواراتٍ مع رجال، ملوّحةً بأن الخدمات التي تطلبها قد تُردّ بجسدها، رغم أنها لم تكن لتفعل ذلك أبدًا. وكلما تحركت، كانت تكتسب وتراكم: وثائق، خطابات توصية، مالًا نقدًا، وسيارة. والأهم من هذا كله: رؤيةً لموطنٍ جديد. مكانٌ بعيد عن تلك الفنادق الرخيصة القذرة، وذلك الطعام المسموم، وأولئك البشر الخاوين من الروح. أملٌ بأنها قريبًا لن تشعر بلسعة الهجران، ولا بذلك الانهيار الذي يزلزل صدرها عند رؤية سيارة شرطة متوقفة أو سماع عويل صافرة إنذار.

بعد سنوات، وهي تُرضع طفلها ذي الخمسة أشهر على مقعدها الأثير، ذلك المقعد في غرفة نومها المواجه للنوافذ المطلّة على الغابة، وزوجها غارقٌ في النوم على السرير وابنتها في غرفة أخرى أسفل الرواق... ستعود آيرين بذاكرتها، كما تفعل غالبًا، إلى ليلةٍ في فندقٍ بمدينة جاكسونفيل، فلوريدا.

على بُعد آلاف الأميال وبضع سنوات من ذلك الجحر القذر، ستطفو الذكرى: رائحة العفن في الغرفة، صوت سحق صرصور مقلوب تحت قدمها، طعم الرعب الخالص في حلقها، ونظرة العينين الجامدتين للفتى الميت حين

حشرته في صندوق سيارته الخلفي قبل أن تسرقها. ألقت حقيبتها، جلست على السرير، وتفقدت الرسائل من جماعة «الإسباني». لم تكن هناك أي رسائل، لم تصلها أي منها في اليوم السابق، وأدركت حينها أنها لن تصل أبدًا. كانوا يقطعون صلتهم بها. بعد الكارثة التي حلّت بالمقطورة، وبعد فشلهم، أصبحت هي عبئًا عليهم. لن يأتي شيء من موسكو أو من الإسباني. على قصاصة ورق، خربشت المعلومات المهمة — عناوين، أرقام هواتف، أسماء كاملة — وحفظتها عن ظهر قلب، ثم فكرت فيما عساها أن تفعل. أن تسلم نفسها، أن تقتل نفسها، أن تختبئ، أو أن تواصل القتال؛ في تلك الليلة وازنت بين كل خيار بعناية فائقة. وبحلول الفجر، كانت قد عرفت طريقها.

فندق «ماربل سبرينغ»: مسقط رأس حياتها الجديدة.

ذهبت إلى تكساس لتحرق حياتهما القديمة. بكت مرة واحدة في تلك الرحلة، وكان بكاؤها على كلبها، «ستالين»، الذي وضعته في صندوق أمام ملجأ للحيوانات وهي تغادر المدينة. زارت اثنتي عشرة ولاية أخرى، باحثةً وهائمة. بعد ثلاثة أشهر، لم ترَ وجهها على التلفاز، ولا على موقع مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولا في أي مكان. بعد ستة أشهر، كان الرابط الوحيد العنيد بذاتها الميتة هو والدا «بيتر»، اللذان كانا يرسلان له رسائل إلكترونية بانتظام — حزينة، غاضبة، مشوشة، أو مزيجًا من كل ذلك — عاجزين عن استيعاب كيف قامت بغسل دماغ ابنهما المثالي إلى الحد الذي جعله يمتنع عن الحديث معهما.

وفي ذلك المنزل الجديد، البعيد، وطفلها يلتقم ثديها، كانت تتساءل أحيانًا عما إذا كان بيتر سيكرهها لما فعلته. أو ما إذا كان، كجندي حقيقي، سيدرك أنها أُجبرت على التضحية بكل شيء. كان ثمن مستقبلها هو حياتهما القديمة، ومعها شرفه.

بحلول الصيف، كان جرسٌ يقرع على باب، وكانت هي تدلف إلى الداخل، وتلك الابتسامة المشرقة مزروعة على وجهها. كانت تقود سيارة بلوحات ولاية «آيوا». واستقرت في حقيبتها رخصة قيادة من آيوا تحمل صورتها واسم

شخص آخر. كان بحوزتها إيجار ثلاثة أشهر نقدًا، ومصروف جيب لتغطية فواتيرها. قالت إنها تبحث عن عمل. كانت تحمل خطابي توصية، كلاهما لا تشوبه شائبة: واحد من مطعم في مدينة الإسكندرية القديمة، والآخر من حانة في أورلاندو.

قالت للمالك عندما سألها كيف قادتها الطريق إلى هنا، كما تدرّبت مسبقًا:

– «أنا رحّالة. أجد صعوبة في البقاء في مكان واحد، كما ترى».

ثم وميضٌ من تلك الابتسامة. في تلك الأيام، كانت رؤى مستقبلها — المنزل الذي لم تره بعد، والابنة والابن اللذان لم يولدا بعد، والزوج الذي لم تقابله بعد — هي ما يدفعها للمضي قدمًا. منحت هذه الرؤى آيرين أملًا في تحوّلٍ قادم، أملًا بأنها قريبًا ستنسلخ وتنعتق من قلب الأرض الأمريكية، لتتدثر أخيرًا بجلدها الحقيقي.

الفصل السادس والخمسون

لانجلي / موسكو

أُحيل ماك ميسون إلى مرعى التقاعد في مراسم رسميةٍ متكلفة، أُقيمت في جناح الجوائز بالطابق الأول من وكالة المخابرات المركزية. تولى «ركن المخبز» تجهيز الطعام، وقدم له نائب المدير درع التكريم؛ لأن فين غوسفورد — وإن كان منتشيًا بلا شك برحيل منافسٍ محتمل — كان منشغلًا بأمورٍ أخرى حالت دون حضوره. وفي الحقيقة، كان من الصعب تخيّل غوسفورد وهو يكيل المديح لـ ماك علنًا لأي وقتٍ مستفيض، لذا نِيب عن الآخرين للقيام بذلك المهمة الثقيلة. ألقى ثيو، الذي كان غارقًا في رصانةٍ كئيبة، خطابًا رتيبًا مصاغًا في قوالب جامدة، استعرض فيه شتاتًا من مغامرات ماك وإنجازاته في الوكالة. أما غاس فقد كان أكثر حماسًا، حتى بمعايير «لانجلي» الصارمة؛ إذ تحدث عن شجاعة ماك في أفغانستان، وعن مآثره التي نال بها «نجمة الاستخبارات»، وعن صداقتهما الطويلة وعقود الخدمة العامة التي بذلها.

بعد ذلك، وفي ضجيج جناح الجوائز الخالي من النوافذ، انتظر حشدٌ قوامه مئتا شخص — من مخلصي «البيت الروسي»، وزملاء قدامى من «المزرعة»، وأصدقاء ضائعين من أيام الصبا في أفغانستان ومركز مكافحة الإرهاب — في طابورٍ يشبه طوابير الخبز للحصول على شطائر مطاطية وكومة من المعجنات الفوضوية. كان ماك محاصرًا بالجموع في كل مكان، وكانت كل الكلمات التي تصله تفيض بالود والاحترام والتبجيل.

في ذلك الظهر، وتحت أنظار المحبين والأصدقاء، أتمَّ ماكينتوش ميسون مراسم خروجه الأخيرة. وبجانبه زوجته لولو، سلّم شارته إلى ضابط الأمن

المناوب في الردهة ذات الأرضية الرخامية لمبنى المقر الرئيسي القديم للوكالة. كان ماك مفعمًا بالبشر والحنين؛ بضع دمعات، والكثير من الابتسامات. توقف ثلاث مرات لالتقاط الصور الرسمية، ثم عبر الختم الرخامي وخرج من أبواب وكالة المخابرات المركزية، ولولو تتأبط ذراعه.

تأمل الكثيرون هذا الرحيل المفاجئ. كان ماك قد تذمر، مثلهم جميعًا، من العهد الجديد، ومن تضاؤل نفوذ الوكالة في العالم، ومن هؤلاء الصبية الذين يفسدون جهاز تجسسٍ كان يعمل بانتظامٍ بديع. كان يملك مالًا أكثر مما يملكون، فلديه صندوق مالي ضخم بفضل عائلة لولو، وهو ما سيضمن لهما تقاعدًا باذخًا، ولا شك أن هذا ساعده على اتخاذ القرار. أما ما كان يدور في خلد أعز أصدقائه، غاس رابتيس وثيو مونك، بشأن هذا الرحيل، فلم يستطع أحدٌ أن يتبينه. وحين استجوبهما بعض موظفي «البيت الروسي» في الفترة التي سبقت المراسم، تمنّع الرجلان عن الحديث. والأنكى من ذلك، أن أيًّا منهما لم يظهر في احتفالات ما بعد المراسم في حانة «فيينا إن». كان هذا أمرًا غير معتادٍ البتة، بالنظر إلى صداقتهم الطويلة، وبالنسبة لـ ثيو على وجه الخصوص، بالنظر إلى حقيقة وجود حانةٍ مفتوحة.

وباسترجاع تلك اللحظات، فكّر أحد موظفي «البيت الروسي» وهو يراقب سيارة «بورشه» الخاصة بعائلة ميسون وهي تغادر موقف السيارات ببطء، أن لا ثيو ولا غاس كانا موجودين في الردهة عندما خرج ماك من أبواب الوكالة للمرة الأخيرة.

***

في الأسبوع ذاته، بـ موسكو، كانت المسيرة اللامعة لـ ريم زوموف تخبو وتنتهي نهايةً باهتةً مماثلة. فمع رسالة التقاعد المنذرة التي أرسلها «دكتور"ب"»، انقضَّ المدير على الفرصة، قائلًا إن الوقت قد حان أخيرًا للرحيل. لم يكن لدى ريم أي فكرة عما سيحدث لـ «القسم الخاص» التابع له، ولكن بناءً على تعليماتٍ صريحة من المدير، ركّز طاقته الأخيرة — كما يفترض

بكل الرجال العجائز أن يفعلوا — على جعل نفسه غير ذي شأن. لقد قضى أيامه الأخيرة وهو يحفر قبره المهني بيده.

لقد منحت قضية «دكتور "ب"» لـ ريم هدفًا في سنواته الأخيرة في «الغابة». كانت فرصةً ألا يغيب في غياهب النسيان، بل أن ينجح — عكس الجميع تقريبًا ممن سبقوه — في المغادرة بضجيجٍ مدوٍ. ولكن ماذا سيحل بـ «دكتور"ب"»؟ وأي تحسيناتٍ أمنية قد تشهدها روسيا بفضل عمله؟ وما المكاسب التي قد تُجنى من بيع مواده للصينيين؟ لن يكون ريم موجودًا للإجابة عن هذه الأسئلة؛ فقد حان وقت رحيله.

أمضى ريم خمسة أيام في «غسل» مواد «دكتور "ب"»، محتفظًا بجوهرها الأساسي مع طمس مصدرها الحقيقي. وأُرسلت كل قصاصة معلومات قد تربط جهاز المخابرات الخارجية بـ «الطبيب الصالح» إلى المحارق.

نزل ريم بنفسه إلى الطابق السفلي بينما كانوا يحرقون ملخص الملاحظات العملياتية الورقية. ومنح نفسه امتياز إعادة قراءة الرسالة الأولى التي أرسلها ماكينتوش ميسون إلى روديون فيساريونوفيتش بليتكوف — الذي عُرف لاحقًا في الوكالة باسم العميل ريمورا — خلال فترة وجودهما في باريس. كانت الملحوظة قصيرةً للغاية، يشرح فيها ماك رغبته في لقاء بليتكوف «بعيدًا عن أعين أصدقائي». لقد كان ذلك أول خطٍ حقيقي يتجاوزه ماك. قرأها ريم في صمتٍ مهيب. فكر قائلًا:

أن توهم نفسك بخيانة وطنك وجهازك، فهذا أمرٌ وارد.. أما أن تخون أصدقاءك؟ فهذا ما يحدث في كل يومٍ لعين.

ثم وضع الورقة فوق الكومة. ضغط الموظف على الزر، فانزلقت الأوراق لتلتهمها النيران.

***

بدأت المراسم الرسمية في قاعة الاحتفالات بجهاز المخابرات الخارجية، حيث صعد الزملاء والأصدقاء والأعداء على حد سواء إلى المنصة طوال

ساعتين للإشادة بإنجازات ريم وانتصاراته. رُويت قصصٌ عن خدمته في أفغانستان، وعن أيامه الأولى في لندن، وعن جولته في روما. وعلق المدير على صدره الأيسر وسام «ألكسندر نيفسكي» الياقوتي، الذي يُمنح تقديرًا لأولئك الذين «حققوا استحقاقًا شخصيًا في بناء الأمة» بعد عشرين عامًا على الأقل في الخدمة المدنية. فكر ريم وهو يراقب المدير وهو يعالج الدبوس ببراعةٍ متعثرة:

ربما كان عليّ أن أحصل على وسامين إذن.

فقدَ ريم القدرة على حصر عدد الأنخاب التي رُفعت. كان أصدقاؤه وزملاؤه يتجرعون الفودكا كالماء، ومع حلول الليل، انتقل الاحتفال إلى أحد المنازل الريفية في مجمع «الغابة»، والذي يمكن الوصول إليه عبر ممرٍ ملتفٍ يغوص في غابات الصنوبر والرماد.

اقترب بليتكوف من ريم بينما كان الأخير يسكب لنفسه ماءً فوارًا. حتى ريم بدأ يفكر في الرجل باسمه الحركي لدى الوكالة: ريمورا.

قال بليتكوف وهو يقرع كأسه بكأس ريم:

– «وداعٌ يليقُ بك. ما الخطوة التالية؟»

– «عليك أن تسأل نينيل.»

ابتسم بليتكوف ابتسامةً باهتة وقال:

– «لا أحسدك.»

– «لا ينبغي لك ذلك. سأشعر بالضجر.»

– «لكن لديك نينيل. لا ينبغي لك أن تملّ. سيكون عارًا عليك إن فعلت.»

لوّح ريم بيده في الهواء وقال:

– «ومع ذلك.»

قال بليتكوف:

– «أنا أتطلع إلى التقاعد. السفر، وصيد السمك، والقراءة. وربما عشيقة أصغر سنًا. لا يزال أمامي عقدٌ من الزمن وهو يناديني بالفعل. أما أنت يا ريم؟ تلك الحرية تبدأ غدًا حرفيًا، أليس لديك خطة؟»

– «سأجد مخرجًا يا روديون فيساريونوفيتش.»

– «فكر في الأمر بهذه الطريقة يا ريم ميخائيلوفيتش: ماذا كنت ستفعل، لو كان بإمكانك فعل أي شيء؟»

ربت ريم على كتف بليتكوف، ورفع كأسه محييًا أحد المهنئين المارين، وتجرع جرعةً طويلة ثم قال:

– «كنتُ سأعمل.»

الفصل السابع والخمسون

شيرمانز كورنر، مينيسوتا
بعد أشهر

انزلق سام جوزيف إلى مقعده المعتاد. طلب من النادلة قهوة سادة، وبيضًا مخفوقًا، وخبزًا محمصًا. طالع صحيفتين أثناء وجبته، وأنهى النصف الأول من رواية مع ثلاثة أكواب أخرى من القهوة. تحوّل رواد الإفطار إلى رواد الغداء، فطلب كوبًا رابعًا، مواصلًا الغوص في كتابه. كان ضيقه بالعالم الواقعي شديدًا لدرجة أنه بات يلتهم رواية يوميًا منذ ثلاثة أشهر؛ شعر سام أن مواجهة الواقع قد تنتزع الروح من جسده انتزاعًا. كانت القراءة توقد في داخله آمالًا بوجود شيء آخر؛ بوجود عوالم بديلة.

استقر طبق يحمل شطيرة لحم مشوي وبطاطس مقلية — طلبه المعتاد — على الطاولة محدثًا جلجلة خفيفة؛ رفع بصره. لم يطلب هذا. كانت النادلة تبتسم.

قالت:

– «على حساب المحل اليوم. يبدو أنك غارق في التفكير».

– «شكرًا. هل أنتِ متأكدة؟»

– «متأكدة تمامًا».

كان للنادلة عينان بنيّتان فيهما براءة ساذجة، وشعر أسود فاحم، ولم يتذكر أنه رآها تبتسم ولو مرة واحدة. لم يسألها عن اسمها قط، وشعر بالسوء حيال ذلك الآن؛ فقد كان زبونًا دائمًا منذ أشهر، حين جاء لقضاء بعض الوقت مع والديه.

قال وهو يمد يده:

– «بالمناسبة، أنا سام».

قالت:

– «ميليسا. والجميع ينادونني ميل».

كانت يدها ناعمة وجافة؛ ولاحظ حرارة بشرتها حين تصافحا. أهدته ابتسامة عريضة أخرى، وملّست مئزرها، وتلكأت للحظة قبل أن تقول:

– «إذًا. ماذا تقرأ يا سام؟»

– «كتابًا».

قلبت عينيها وهزت رأسها وضحكت؛ ضحكة عميقة صادقة احتضنته بدفئها. وقالت بنبرة مشوبة بالمداعبة:

– «توقعت أن تكون وغدًا. والآن صار لدي الدليل. استمتع بشطيرتك يا سام».

استدارت نحو المنضدة، فاختلس النظر إلى يدها اليسرى الخالية من الخواتم. لاحظ أيضًا ما قد يكون تضاريس أنثوية، متوارية تحت بنطالها العملي وقميص الخدمة الأسود ذي الأكمام الطويلة.

نادى:

– «ميل. متى تنتهي مناوبتك؟»

استدارت ونظرت إلى الساعة المعلقة فوق مقصورة سام:

– «بعد خمس عشرة دقيقة».

– «هل تتناولين الغداء معي؟»

– «لا أحب الأكل هنا».

– «لماذا؟»

– «الرفقة سيئة. والطعام أسوأ. اقترح مكانًا آخر، وقد تحظى بموافقتي».

كانت تبتسم مجددًا. وعدلت ملاحة ملح مقلوبة على إحدى الطاولات المجاورة.

– «لكنني حصلت على شطيرتي بالفعل».

***

بعد خمس عشرة دقيقة، كانت الشطيرة في علبة طعام بالمقعد الخلفي لسيارته، والمحرك يدور. خرجت ميل من المطعم متجهة صوب سيارتها. ناداها عبر الموقف:

– «يمكنني القيادة».

ضحكت وقالت:

– «لن أركب السيارة معك. كيف أعرف أنك لست قاتلًا متسلسلًا؟ أو منحرفًا؟»

شعر بعقدة في معدته اشتدت عند التفكير في ميل. كانت المرة الأولى منذ أشهر التي يتحمس فيها لرفقة شخص ما.

***

كان مقهى «ستونهاوس» ذا واجهة خشبية يقع على بعد عشرة أميال شمالًا، قبالة الطريق السريع 53 على مشارف «أور» و«بحيرة بيليكان». تناولت قهوتها سادة، مثله. كانت ميل تستمتع بالموسيقى الإلكترونية، وعملت سابقًا في التسويق لشركة رحلات برية يملكها عمها إلى أن أفلست. مات زوجها في العراق عام 2006. تزوجا صغيرين. قالت إنها لا تحتفظ بالصور؛ فهي لا تؤمن بمنح الماضي كل تلك السطوة. كانت تمتلك ذكاءً متأملًا يبدو وكأنه يطفو فوق شيء أكثر خشونة وصلابة. تساءل عما إذا كان شخصٌ ما، في مكان ما، قد هزمها.

بعد بضع ساعات أخبرها عن عمله في وكالة الاستخبارات المركزية. لم يذكر تفاصيل محددة بالطبع، لكنه خرج الآن — فما الجدوى من الاستمرار في هذه التمثيلية؟ في البداية لم تصدقه ميل، لكنه أصر على أنها ليست مزحة، وسرعان ما بدأت تطرح شتى أنواع الأسئلة. ولم تكن تلك الأسئلة السخيفة، الكرتونية، المروعة (هل قتلت أحدًا؟ هل كنت تحمل مسدسًا؟ هل أنت مثل جيمس بوند؟) التي كانت ستجعله يرغب في النهوض والمغادرة، ناهيك عن الإجابة. لا، سألت ميل الأسئلة التي كان يطرحها على نفسه. تلك التي كان

يتأملها في ساعات الأرق التي يتوقف فيها الزمن. خطر له أنهما ربما انتُشلا من الأعماق ذاتها. وصُهرا في الأتون نفسه. عبر الطاولة، شبك يده في يدها. فخلّلت أصابعها حول أصابعه. تحدثت بصراحة وعفوية عن شكوكها وأخطائها، بالطريقة التي لا يجيدها إلا الغرباء. وبعد فترة سألته عن أخطائه هو.

سألت وهي تضع يدها الأخرى على الطاولة ليمسك بها، وهو ما فعله:

– «ما الذي تندم عليه؟ أم أنك لا تندم على شيء؟»

فكر في الأمر قليلًا ثم قال:

– «كانت هناك امرأة، ذات مرة. كنا عاشقين. كانت هناك أسباب وجيهة تمنع ذلك، لكننا وقعنا في الحب. ولم ينجح الأمر. يصعب شرح ذلك، لكن الوكالة لم تكن لتسمح – لم تستطع السماح – بذلك. لا أعرف ما حلّ بها. كانت واحدة من تلك الأشياء الجميلة التي تفقدها وتسقط منك في رحلة الطريق».

قالت وهي تمسح على أصابعه:

– «أيهما تندم عليه أكثر؟ الوقوع في الحب من الأساس، أم عدم نجاحه في النهاية؟»

– «كلاهما».

– «هل تحقد على الوكالة لتدخلها في حبك؟ لمنعه؟»

– «لا. لولا الوكالة، لما التقيتها أبدًا».

– «ما رأيك في ذلك المكان؟»

– «الوكالة؟»

– «نعم».

– «سؤال صعب. ومعقد».

قالت:

– «عملت هناك لفترة طويلة، ثم طردوك. أنت تعيش في منزل والديك، وتلملم شتات نفسك، وتقتل الوقت بالقراءة في مطعم. بالطبع تدور في رأسك أفكار كبرى. أخبرني».

قال:

– «لقد امتهنتُ سرقة الأسرار لكي أعيش. وما تسألين عنه هو لغز، وليس سرًا. وهذا ليس من اختصاصي. لم أفكر في الأمر ولو مرة. كأنك تسألينني عن رأيي في كوكب الأرض. يمكنني أن أعطيك عشر إجابات. كلها ستكون حقيقية. وكلها ستكون أكاذيب».

قالت:

– «حسنًا، دعني أصغ السؤال بطريقة أخرى. في النهاية، هل كنت رجلًا طيبًا أم شريرًا؟»

– «هذا سهل. رجل طيب. وليس في النهاية فحسب».

كان الوقت قد تجاوز موعد الإغلاق بكثير، واضطر المدير للطلب منهما المغادرة. كانا قد ملآ أكوابهما أربع مرات، وطلبا العشاء، وظلا يتحدثان على الطاولة لما يقرب من عشر ساعات. كان القمر ساطعًا فوق البحيرة، وأفق أشجار الصنوبر يحيط بضفافها. أمسك بيدها، ومشيا ببطء نحو موقف السيارات. عند سيارتها، جذب ميل إليه وقبلها. في البداية لم تبادله القبلة — هل كانت صدمة؟ أم شعورًا بالذنب؟ — لكن سرعان ما تجاوبت معه، مقبلة إياه قبلة طويلة وعميقة.

حين ابتعد عنها، كانت عينا ميل مفتوحتين وذابلتين، وكأنها نائمة خلفهما. وحقًا، بعد كل ما تحدثا عنه وتشاركاه، لم يستطع فهم ذلك التعبير.

قال:

– «اقضي الليلة معي».

الفصل الثامن والخمسون

على الطريق

تحرّكي يا بروكتر، تحرّكي فحسب.

ومع حلول الصيف، كانت قد قطعت أوصال الغرب الأمريكي طولًا وعرضًا. خلّفت وراءها في ممرّها الهوائي عشّاقًا هجرتهم فتنفسوا الصعداء تارةً وارتعدوا فزعًا تارةً أخرى، وكميةً من زجاجات الخمر الفارغة تكفي لملء حاوية نفايات تجاريةٍ، وقدرًا ضئيلًا — على نحوٍ صادم — من الأدلة الفوتوغرافية أو الجنائية. كانت تتحدث كثيرًا مع سام وابن عمها كامينغز، وبين الحين والآخر كانت ثيو تطمئن عليها. اتصلت بـ غاس مرةً واحدة، وقضت بضع دقائق في دردشةٍ عابرة قبل أن ينقطع الإرسال في مساحةٍ ممتدة من غرب نبراسكا. كانت المحطات الأبرز في رحلتها هي منطقة «بيغ بيند» والمتنزهات الوطنية في يوتا، أما «غراند كانيون» فقد وجدته، في معظمه، أقل إثارةً مما سمعت.

وحين كان عقلها ينحرف — كما يحدث أحيانًا — نحو مساراتٍ عبثيةٍ مضطربة، أو بعبارةٍ أخرى: نحو الماضي، كانت بروكتر تُحدق بصرامةٍ عبر الزجاج الأمامي وتضغط بكل قوتها على دواسة الوقود، متخيلةً تلك الأفكار تسعى خلف السيارة على أقدامها، تلوح بيديها وتصرخ كطفلٍ منبوذٍ تُرِك وحيدًا. كانت تُحدّث نفسها:

إلى الأمام مباشرة، واصلي الطريق. هكذا تكون الفتيات المطيعات. تحرّكي.

***

كانت بروكتر غارقةً في تناول شطيرة برغر في حانةٍ بضواحي دنفر، حين اهتز هاتفها على الطاولة. رقمٌ مجهول. تجاهلته.

وعندما انتقلت إلى مقعد الحانة لتناول الجعة، اتصل الرقم المجهول ثانيةً. هذه المرة أجابت، كانت المتصلة هي ديبس.

قالت بروكتر:

– «يا للهول! هل اتصلتِ بي خطأً؟»

أجابت ديبورا فريزر سويت:

– «هذا مستحيل، فقد مسحتُ رقمكِ من كل هواتفي.»

– «حسنًا، إن كنتِ تتصلين للاعتذار عن كل شيء، فدعيني أقول إنني أقبل اعتذاركِ بتواضعٍ وامتنان. أنتِ الآن، يا ديبورا، مغفورٌ لكِ.»

– «أين أنتِ يا أرتميس؟»

قالت بروكتر بعد رشفةٍ طويلة من جعتها:

– «هذه المعلومة سريةٌ للغاية فوق ما يتخيله عقلكِ.»

– «بل هي معلومة صاخبةٌ للغاية، بالنظر إلى هذا الضجيج في الخلفية.»

– «أنا الآن وسط عامة الشعب، من باب التغيير. إنهم يجعلون شعري يقشعر، وأنا أحاول التعود عليهم. لكنني أسمعكِ بوضوح.»

قالت ديبس:

– «اسمعي يا أرتميس، هذه المكالمة لم تحدث أبدًا، هل فهمتِ؟»

– «بالطبع.»

– «لقد أوقف رجال "مكتب التحقيقات الفيدرالي" مراقبتكِ بموجب قانون "FISA". انتهى التحقيق، والأمر ذاته ينطبق على سام.»

– «وهل ما زالوا يراقبون ماك؟»

– «لقد بلغتِ الخط الأحمر يا أرتميس.»

– «هذا دأبي دائمًا.»

سُمِع نباح كلبٍ في الخلفية، فقالت بروكتر:

– «أخبريها أن أرتميس تُلقي عليها التحية.»

أخذت رشفاتٍ من الجعة بينما استمر النباح لفترة، وعندما توقف، ولأنها كانت بعيدةً جدًا عن «لانجلي»، أو ربما بسبب تأثير الارتفاع، قالت بروكتر:

– «هل كان "الإيبيكاك" هو ما وضعتِه في الكعكة يا ديبس؟ لقد كنتُ أتساءل.»

ساد صمتٌ قصير، ثم قالت:

– «ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدثين عنه.»

ضحكت ديبس، فضحكت بروكتر معها، ونظرت حولها في الحانة، فرفع رجلٌ عجوز يحتسي جعةً داكنة كأسه نحوها وابتسم. تجرعت بروكتر قدرًا كبيرًا من الجعة حتى توقفت ديبس عن الضحك.

– «شكرًا لأنكِ أخبرتِني يا ديبس. كان من الجيد سماع صوتكِ، لمرةٍ واحدة.»

– «وأنتِ أيضًا يا أرتميس. كوني بخير.»

– «لن أفعل.»

ثم أغلقت الخط.

***

انفصلت بروكتر عن العالم وغابت في مجاهل جبال روكي. وبعد أسبوع، في صباح يوم ثلاثاء، خرجت من البرية وهي تجرّ أقدامها بتعب، ومع حلول الليل كانت المصابيح الأمامية لسيارتها الـ «RAV4» ترسم ظلالًا على ألواح كوخها المستأجر.

بعد وقتٍ طويل، ستؤمن بروكتر أنها شعرت بالأمر في تلك اللحظة بالذات، لحظة خروجها من السيارة. كان ثمة انبعاجٌ جديد في كَوْنها، وظلامٌ تسرّب إلى أعماقها كأنما سُكب فيها زيتٌ أسود ثقيل.

في تلك اللحظة، عزت الأمر إلى شعورٍ بالارتباك ناتجٍ عن تدخينها وبعض تجارب الفطر في الجبال، وربما الإرهاق أيضًا؛ فقد كانت في حالة حركةٍ مستمرة منذ الفجر. كان ظهرها يؤلمها من ثقل الحقيبة، وساقاها متصلبتين من الجلوس خلف المقود. وبسبب تعبها الشديد الذي منعها حتى من تسخين

أي شيء في الميكروويف، اكتفت في عشائها ببعض ما تبقى من أكياس المكسرات واللحم المجفف.

أخرجت هاتفها من الخزانة لتتواصل مع العالم لبرهة، وجلست على حافة السرير. وما إن بدأ الهاتف بالعمل حتى انفجر في نوبةٍ جنونية من الرنين والتنبيهات، مع إشعارٍ يفيد بأن بريدها الصوتي قد امتلأ.

ثمة لحظاتٌ تدرك وأنت تعيشها أنها خطوطٌ فاصلة: نهاية حقبة وبداية أخرى. من هنا فصاعدًا، سيكون هناك "ما قبل" و"ما بعد"، يفصل بينهما هذا الشق الزمني. كان يوم أفغانستان أحد تلك الأيام، وهذه الليلة، بالنسبة لـ أرتميس أفروديت بروكتر، ستكون يومًا آخر.

كانت الأحاسيس الأولى فاترةً على نحوٍ غريب، وصلت عند الثانية العاشرة من رسالةٍ صوتية طويلة من ثيو، كأنها حجارةٌ تهتز داخل جرةٍ في رأسها. ثم حلَّ الألمُ المبرح. في البداية، شعرت به متركزًا ومؤلمًا كطرف إبرةٍ متوهجة انغرزت في رقبتها — صدمةٌ حارقة شلّت حركتها. ومع كل كلمة، كانت الإبرة الساخنة تلتوي وتنتفض، فترفع درجة حرارة جسدها، وتُشوش أطراف رؤيتها، وتجعل الجلد حول عينيها يرتجف، بينما كانت عيناها ترمشان بهستيريا.

احتفظت بروكتر بقدرٍ كافٍ من السيطرة على حواسها، بحيث إنه مع انتهاء الرسالة، لم يكن الهاتف قد قُذف عبر النافذة، ولا حُطّم على جدار، ولا سُحق في قبضتها، بل أعيد بلينٍ إلى رفّه في الخزانة. وقفت هناك في الظلام لفترة — لم تدرِ كم استمرت — ولم تتحرك إلا عندما شعرت بحرارةٍ لا تُطاق؛ كان جلدها يحترق، رغم أن مسامها لم ترشح بقطرة عرقٍ واحدة.

ترنحت بروكتر نحو غرفة المعيشة. العالم وراء النطاق الضيق لعينيها انزلق إلى ضبابٍ يشبه الحلم. كانت هناك لحظاتٌ وجيزة رائعة، وهي تلف أصابعها بخمولٍ في خصلات شعرها، تساءلت فيها إن كان هذا مجرد حلم، وحاولت يائسةً أن تنغمس في الراحة التي تأتي مع الاستيقاظ. لكن ذلك

الخيال تمزق إربًا مع الألم الصارخ الذي داهمها حين سددت لكمةً اخترقت الجدار الجبسي لتصطدم بخشب الصنوبر الصلب في هيكل البناء.

اجتاحتها نوبةٌ من الغضب واليأس والذنب، استمرت دون انقطاع لقرابة ساعة، والتهمت معظم الكوخ. امتلأ الجدار الجبسي بآثار الركبتين والمرفقين والقدمين ويدها السليمة. كُنست الرفوف والمكاتب من كل ما عليها، ثم استُخدمت تلك التحف الصغيرة كذخيرةٍ في مدافع غضبها، لتُقذف في كل الاتجاهات، ضد الأواني الزجاجية والنوافذ، والأجهزة والجدران.

كانت فترات الهدوء — اللاهثة واليائسة — سرعان ما تغرق في أمواجٍ من الذعر والغضب التي لم تخلف سوى مزيدٍ من الدمار. كانت هذه نارًا غير طبيعية لا يمكن إطفاؤها إلا بالكحول. نوعٌ من الشرب لا يكون ممكنًا إلا عندما لا يراك أحد. فشربت. وبكميةٍ صادمة حتى بالنسبة لـ أرتميس أفروديت بروكتر، شربت.

***

حين استيقظت بروكتر، كانت الشمس في كبد السماء، وهي منبطحة على فراشٍ من إبر الصنوبر. كانت ثمة لوحةٌ ممزقة ملقاة بجانبها على أرض الغابة. أما الميكروويف، الذي قُذف عبر النافذة، فقد استقر عند جذع شجرة تنوب. طفا صوتُ موسيقى خافت عبر باب الكوخ الأمامي المفتوح. حاولت بروكتر أن تجلس لكنها وجدت أنها لا تستطيع. انطلق سنجابٌ عبر العشب. وانخرطت في البكاء.

الفصل التاسع والخمسون

طريق العودة

انسلّت «آيرين» من بين الملاءات، وسحبت ملابس نظيفة من حقيبة ظهرها، وبدّلت ثيابها تاركةً «سام» ممددًا على السرير قبل بزوغ الفجر بساعات. ومع شروق الشمس، كانت قد توغّلت عميقًا في ولاية «آيوا». على أرضية المقعد الخلفي لسيارتها الـ«كيا» كانت تقبع حقيبة ظهر، وفي جوفها الصندوق الصغير الثمين، والأشرطة، وسكين، ونصف المبلغ النقدي مرتّبًا في رزمٍ أنيقة. أما البقية فقد خبأتها في أنحاء متفرقة من السيارة. وإلى جانب حقيبة الظهر، استقرت حقيبة قماشية تحوي بضع غيارات من الملابس، ومسدسها الـ«سبيشال» عيار ٣٨، وعلب ذخيرته، وحاسوبها المحمول. كانت ترتدي حفاضات لتقليل عدد وقفاتها، وتبتلع حبوب الكافيين وعقار «أديرال» لطرد النوم عن عينيها.

عبر زجاج سيارتها الأمامي، تكشّفت أمريكا ككابوسٍ تهرب منه أخيرًا. في «كانساس سيتي»، كانت المباني مشوّهة برسومات «الغرافيتي». وفي «تولسا»، كانت تتفتت كالكعك الجاف. وفي «أوستن»، كانت شرذمة من الأطفال تموء وتضرب الأرض بأقدامها طلبًا لمشروب «السلوربي» في محطة وقود، بينما انشغل آباؤهم، الذين يعانون سمنة مفرطة، بتصفح هواتفهم. وعند اقترابها من «سان أنطونيو»، راقبت رجلًا مختلًا يكيل الشتائم للمارة الذين تحاشوا النظر إليه جميعًا. ومضت الإشارة باللون الأخضر. فمضت في طريقها.

كانت تلك أيام الإمبراطورية الأخيرة، انحدارٌ لا تُرسم معالمه بمعركةٍ كبرى، بل بالموت البطيء المتورّم للترف والانحلال. كانت تندفع بسرعة جنونية عبر نفقٍ يوشك على الانهيار. لكنها لن تهلك. كانت جنديّةً في حالة زحف.

***

فتح مسؤول المحطة التابعة لجهاز الاستخبارات الخارجية الروسية (SVR) في مكسيكو سيتي باب غرفة المقابلة القنصلية بجلجلة معدنية، وعاد لمقعده أمام المرأة الأمريكية التي أصرّت على مخاطبته بروسيةٍ ركيكة.

قال وهو يدفع نحوها ورقة وقلمًا:

– «الأسماء. اكتبيها لي مرة أخرى. من الذاكرة. وبالإنجليزية. كفى محاولاتٍ بالكتابة السيريلية».

فعلت ما طلب، وأعادت الورقة بدفعةٍ وبقدرٍ من اللامبالاة المتعجرفة. لم ينزعج المسؤول بقدر ما أثارته الحيرة. من تكون هذه؟ أشعل لنفسه سيجارة وعرض عليها واحدة.

قالت:

– «لا، شكرًا. لديك ما تحتاجه».

أشارت بذقنها نحو الورقة وأردفت:

– «أجرِ اتصالاتك».

أذهله هذا التطاول، لكن كان عليه فعلًا إجراء اتصالات؛ لذا، وبعد بضعة أسئلة أخرى – تملّصت منها جميعًا بشكل قاطع – حول رحلتها إلى هنا، وحول الحقيبة التي كانت تتشبث بها وترفض التخلي عنها، والحاسوب المحمول الذي أصرّت على أن «يفحصه ممثلو جهاز استخباراتكم» (رغم أنه لم يخبرها بأنه تابع للاستخبارات)، استقل المصعد إلى الطابق السادس حيث مقر الاستخبارات، وأجرى اتصالًا عبر الخط الآمن بموسكو. بعد بضع دقائق تم توصيله.

قال حين سمع صوت صديقه القديم:

– «غينادي أركاديفيتش».

تبادلا التحايا، ثم تابع:

– «لديّ "عميلة وافدة" (Walk-in) هنا، أمريكية، تدّعي أنها تعمل لصالحنا. لقد كتبت اسم أحد رجالنا كدليل إثبات ولاء... نعم... نعم... دومينغيز، بالضبط. تدّعي أنه كان مسؤولها في الولايات المتحدة، وكنت أتساءل... فهمت. نعم. حسناً».

استمع إلى غينادي لبضع دقائق، ثم أنهى المكالمة.

أرسل رجال المسؤول صورًا وتسجيل فيديو لمقابلتها إلى موسكو. لو كان الأمر بيده، لاختار قتلها بهدوء، لكن للأسف، لم يكن القرار قراره. أرسلت إدارة غينادي ملف المرأة. طالع المسؤول الوثائق وهو يدخّن. وزادته المراجعة السريعة يقيناً بأن أسلوبه المقترح كان هو الأصوب: كان يجب عليهم قتلها.

في ذلك المساء، عاد المسؤول إلى غرفة المقابلة وجلس قبالة المرأة. عرّف نفسه بصفته كبير ضباط الاستخبارات الروسية في المكسيك، وأشار إلى أنه فهم أنها قدّمت خدمات للدولة، واستفسر عما إذا كانت لديها معلومات له، أو ربما طلب. أخبرها أنه أجرى اتصالات بموسكو. وأن أوراق اعتمادها ليست محل شك. وعليها أن تتحدث بحرية.

قالت:

– «لقد انتهت مهمتي. أُوكِل إليّ عمل، وقد أنجزت ما بوسعي».

دفعت حقيبة الظهر عبر الطاولة، وأومأت برأسها قائلة:

– «تفضّل. افتحها. أنا أعني ما أقول».

فتح سحّاب الحقيبة ونظر إلى رزمة من الدولارات الأمريكية.

قالت:

– «بضعة آلاف من هذا المبلغ جاءت من رجلكم، "الإسباني". أنا واثقة أنكم تستطيعون مطابقة الأرقام التسلسلية في مكان ما. لكن هناك ما هو أكثر بكثير في الداخل لأن ما قدّمه لم يكن كافيًا. في النهاية اضطررت لشراء عدة سيارات ووثائق بأسماء مستعارة».

تركتهما يجلسان في صمت، حتى أومأت نحو الصندوق الكرتوني الصغير:

– «ذلك. افتح ذلك الصندوق».

فتحه: أشرطة صغيرة من جهاز تسجيل.

قالت:

– «تلك نسخ احتياطية».

– «تحسبًا لماذ؟»

– «تحسبًا لعدم امتلاككم بصمات أصابعه».

– «لا أفهم ما تعنين».

مالت بجذعها فوق الطاولة لتدفع العلبة الأخيرة باتجاهه. بدت له كعلبة مجوهرات متوسطة الحجم. كانت مغلّفة بنايلون لاصق ومدفونة داخل كيس بلاستيكي قابل للغلق. لم يرغب المسؤول في فتحها.

قال:

– «تبدين مختلفة تمامًا عما في الملفات. يا له من تحوّل».

أجابت:

– «أجريتُ تعديلات من أجل البقاء. افتحها، أرجوك. أريدهم أن يعرفوا أنني انتهيت. هذا كل ما استطعت تدبيره. وأصلّي أن يكون ذلك كافيًا».

فتح المسؤول الكيس البلاستيكي. أزاح غلاف النايلون. ونزع الغطاء عن العلبة. كان هناك كيس آخر بالداخل. شدّه من زاوية ليلقي نظرة. لم يتفاجأ بمنظر اللحم الممزق والدم الجاف المتخثر بالداخل، بل صُدم بالكمية. بدت كومةً من الجزر القصير المبلل. وتلك الرائحة الخفيفة للعفن التي تسللت إلى منخارية تحولت فورًا إلى شعور بالغثيان. أغلق سحّاب الكيس، وأعاده إلى العلبة. ثم أشعل لنفسه سيجارة أخرى ليطرد الرائحة بالدخان.

– «ما الذي لدينا هنا؟»

قالت:

– «أصابع».

– «هل تعود كلها لـ صامويل جوزيف؟»

– «نعم».

– «عندما غطت الصحف جريمة القتل، لم تذكر أي أصابع مفقودة».

– «ولماذا قد يفعلون؟»

– «فهمتُ من زملائي في موسكو أن هناك هدفين».

ارتسمت على وجه المرأة نظرة ذليلة منكسرة. فكر في نفسه: إنها تشعر بالخزي، تظن أنها كانت فتاة سيئة.

عادت المرأة للحديث بلغتها الروسية المتعثرة:

– «لم أتمكن من العثور عليها. لقد بحثت، صدّقني، بحثتُ فعلًا. في فلوريدا. في واشنطن. كان لدي عنوان والديّ سام من جهاز الاتصال. أُرسِل إليّ قبل أن يتوقف رجالكم عن الاستجابة. قبل أن...»

قاطعها بالإنجليزية:

– «لقد قطعتِ طريقًا طويلًا. فأخبريني: لماذا أنتِ هنا؟ ماذا تريدين يا آيرين؟»

– «إيرينا».

تنهد مستسلمًا للغتها الروسية وقال:

– «إيرينا... ماذا تريدين يا إيرينا؟»

– «أريد العودة إلى الديار».

الفصل الستون

باريس، بعد عدة أشهر

عاد ماكينتوش ميسون إلى فرشاته وألوانه من جديد. كانت عضلاته قد تراخت وبطأت استجابتها، فجاءت محاولاته الأولى مجهدةً بقدر ما كانت مخجلة. بدأ الأمر معه كهوايةٍ عابرة، وسيلةٍ لتبديد ظهيرة باريسية ساحرة؛ فتارةً يرسم منظرًا طبيعيًا في «حدائق لوكسمبورغ» ولولو بجانبه تقرأ روايةً أو تفترش الأرض في نزهة، وتارةً في الحي الثالث قرب «ساحة الفوج»، حيث كان يصبّ ريشته على بابٍ أحمر دراميٍّ يقبع تحت أقواسٍ حجرية. كانت النتائج مخيبةً للآمال؛ فلا طاقة فيها ولا حياة، وكان صدى صوت والده يتردد في أذنيه وهو يعمل.

لكنها باريس، آهٍ من باريس.. مدينة النور. كان ماك فيها نكرةً، متخففًا من أعبائه، وحرًّا طليقًا. استملك هو ولولو معرضًا قديمًا في حي «الماري»، ومع حلول الصيف بدأت تلك العضلات الضامرة منذ الصبا تستعيد قوتها وعنفوانها. شدَّ الرحال مع لولو نحو الجنوب في عطلةٍ فنية؛ تنقلا بين «آرل» و«سانت ساتورنان» و«كوليور» القريبة من إسبانيا والمطلة على البحر. وسرعان ما أذابت رحلات المشي اليومية — التي بلغت عشرة أميال — خمسة عشر رطلًا من ترهلاته، وانقدحت شرارة رغبته في لولو من جديد، فكانت يداه تلامسانها دائمًا وفي كل مكان.

كان معرضهما، الذي أسمياه «لولو-ماك»، يقع في شارعٍ جانبيٍّ في حي «الماري»، على بُعد بضع كتلٍ سكنية شمال «ساحة الفوج». وإلى اليسار منه، كان يربض مقهىً بظلالٍ خضراء، يمثّل محطته الأولى كل صباح.

خلال أشهر الربيع الوادعة، دوّنت المراقِبةُ في تقريرها أن ماك ميسون قد أصبح «أسيرًا لروتينه»، وهو قرارٌ غير حكيم لرجلٍ في مهنته. توقفٌ عند المقهى صباحًا — المسلك ذاته دائمًا — خروجٌ للغداء — عادةً في واحدٍ من ثلاثة مقاهٍ تقع جميعها على مسافةٍ قصيرة سيرًا على الأقدام — ثم انطلاقٌ للرسم، والموقع هنا متغيرٌ لا يتبع نمطًا محددًا، ثم عودةٌ إلى المرسم فالبيت لاحتساء المشروبات قبل العشاء وممارسة الحب، تمامًا كأي باريسيٍّ صالح. ومع ذلك، أشارت السجلات في حالة ماك إلى أنه لم يمنح حبه إلا لـ لولو. لم يلحظ ماك وجود المراقبة قط.

كتبت المراقبة:

«غافلٌ من الناحية العملياتية.. إنها لعنة الشيخوخة.»

***

في صباح ربيعيٍّ مشرق، والقهوة والبريوش في يده، أدار ماك المفتاح في القفل ودفع باب «لولو-ماك»، متجهًا مباشرةً نحو المرسم في الخلف. كانت لولو في الجنوب مع والدتها في جولة تسوق، مما منحه وقتًا ثمينًا لوضع اللمسات الأخيرة على مشروعه الحالي: إعادة صياغة لعملٍ تكعيبيٍّ كان قد شرع فيه قبل انضمامه للوكالة. فتح باب المرسم وضغط زر الإضاءة.

تناثرت القهوة على الأرض الخرسانية، وتبعتها قطعة البريوش.

***

كانت أرتميس أفروديت بروكتر تقف في منتصف المرسم. كانت ترتدي سترةً، وقميصًا ثقيلًا، وسروال جينز، وقبعةً صوفية — كلُّها بالسواد. وشعرها الغجري الثائر كان محبوسًا في شبكةٍ ضيقة. كانت ترتدي قفازاتٍ وأغطيةً فوق حذائها، وتصوّب نحو رأسه بندقية «موسبرغ» أوتوماتيكية من عيار اثني عشر، رُكِّب على فوهتها كاتمٌ للصوت بحجم علبة القهوة.

أشاحت بسبطانة البندقية بعيدًا عن الباب وقالت:

– «خطوتين إلى الداخل يا ماكينتوش. كن فتىً مطيعًا.»

كان يقف أمام لوحةٍ تمتد من الأرض حتى السقف؛ مجموعة من المربعات الحمراء والسوداء. اضطرت بروكتر للنظر إلى هذا الشيء اللعين طوال الليل وهي تنتظره هنا، وقد كرهته حد اللعنة.

سألها ماك وعيناه تتجولان في المكان بحثًا عن مخرج:

– «ماذا تفعلين؟ ماذا تريدين؟»

قالت:

– «سأوضح لك أمرًا منذ البداية يا ماك. إذا حاولت الهرب، أو حاولت القتال، فسأقتلك. وبعد ذلك — ولا أريد فعل هذا يا ماك، وليشهد الله أنني لا أريد — لكن إن أجبرتني، فسأتوجه إلى شقتك، وأنتظر يومين، وأقتل لولو فور عودتها من "أفينيون".»

قال ماك:

– «لا تؤذي لولو.»

– «إذن لا تدفعيني لذلك.»

– «ماذا تريدين يا أرتميس؟»

– «سوف تعترف لي الآن. وفي المقابل، سأعفو عن لولو، التي شاركتكِ في هذا بالطبع.»

قال ماك:

– «ليس لديكِ دليلٌ على أي شيء يا أرتميس. هذا هراء، فلا تكوني حمقاء.»

قالت:

– «لكنني أعرف. أنا أعرف تمام المعرفة. لقد كنتَ عميلًا مزدوجًا. أنا أعرف ذلك، وأنت تعرفه أيضًا. وتعلم أيضًا أنني امرأة تفي بوعودها. لقد سرتُ في هذا الطريق حتى نهايته، ولهذا أنا هنا في مرسمك وبيدي بندقية. هل تظن أنني لن أذهب إلى شقتك وأنتظر عودة لولو؟ هل تظن أنني سأرحمها؟ لقد ألقيتُ بضبط النفس من النافذة منذ أن نجح أوغادك أخيرًا في إصابة

هدفهم وقتلوا سام. لولو هي شريكتك في المؤامرة هنا، كما هي شريكتك في كل شيء، وهذا أعرفه أيضًا. دمها مستباح.»

– «إنها لا تعرف شيئًا.»

تقدمت بروكتر خطوةً سريعة، وغرست فوهة البندقية في معدته؛ فأطلق أنينًا حزينًا، وجثا على ركبتيه، ثم انكمش على نفسه فوق الأرض. لوّحت بروكتر بالسلاح وقالت:

– «انهض. الآن.»

مسح يديه المبللتين بالقهوة في سرواله ونهض ببطء، وهو يمسك بمعدته.

قالت بروكتر:

– «سأعرض عليك نظرية، وسوف تجيبني بصدق وبالإنجليزية الفصحى اللعينة، لأنك تتحدث الآن لتفتدي حياة لولو. أتفهم؟»

أومأ بوجهه كمن يرتدي قناعًا، في إيماءةٍ بطيئةٍ ومكرهة.

تابعت:

– «العميل "ريمورا" لم يُجنَّد أبدًا. أنت وثيو كنتما تعملان على استدراجه في باريس، بينما كان هو يستدرجك. لقد جنّدك في نهاية تلك الفترة، لكن في نهاية المطاف، مَن يتولى توجيهك هو قطٌّ سمين في موسكو يُدعى زوموف. أليس كذلك؟»

لمع شيءٌ في عينيه، لكنه أشاح بنظره ولم يجب.

صوّبت البندقية نحو قدمه وقالت:

– «كان هذا سؤالًا. إن لم أحصل على إجابة، فسأمنح تلك القدم "تحية فين غوسفورد الخاصة".»

قال ماك:

– «زوموف عبقري.»

– «رائع. إذن زوموف يملك ماكينتوش ميسون، المجنِّد البارع للروس، ونجمه في صعود. أنت رئيس العمليات في "البيت الروسي".. أعني أن الروس

لم يسبق لهم أن امتلكوا شخصًا في هذا المنصب الرفيع. وهنا، وبصراحة، أذهلتني أنت وزوموف يا ماكينتوش. ذلك الصبر.. كبح جماح نفسك عن حرق كل عملاء "البيت الروسي". تواصلٌ تقليديٌّ قديم، أراهن على ذلك. لا أجهزة إلكترونية. هل أصبت؟»

– «نعم.»

– «وكارثة سنغافورة، حين اختُطِف سام. لنجرب هذه الرواية: سمعتَ عن غوليكوف من غاس. اتصل بك ليخبرك بالأنباء وأنت في عطلتك، أليس كذلك؟ وعلى الفور شعرتَ بالقلق مما قد يبوح به غوليكوف، فتركتَ لولو في جبال "أديرونداك" وهرعت إلى محطة نيويورك، حيث كان غاس يجهز ديبس. أردت أن ترى بعينيك ما الذي وصل إلينا، وقد أرعبك الأمر بشدة. لذا أرسلت إشارة طارئة إلى زوموف، نتج عنها طلب "ريمورا" للقاء، لخلق غطاء عملياتي يتيح لك الذهاب إلى فرنسا ومناقشة الأمر كله. لكنك واجهت مشكلة: ثيو سيأتي إلى فرنسا، ويا للصدف، ديبس أيضًا. ديبس كان يمكنك تأجيل لقائها، فهي لا تريد العمل على أي حال. لكن ثيو؟ حسنًا، هو رسميًا الآن المسؤول عن "ريمورا". لذا كنت بحاجة لإبعاده لفترة حتى تتحدث بحرية مع "ريمورا". ما الذي وضعته في طريق ثيو لتشتيته، وتأخيره عن الاجتماع، وجعله يرفض إخباري بالسبب؟ فتاة روسية؟»

أجاب ماك بنبرةٍ باردة ومتزنة، كمن يتلو حقائق جافة من كتاب تاريخ:

– «وماذا أيضًا؟ خطة "بودابست" الكلاسيكية[35]. بادر زوموف بالأمر؛ وضع فتاةً في حانةٍ يرتادها ثيو قرب "أفينيون"، وتولت رغبته الباقي. رأى زوموف أنه سيكون من المفيد أن يصبح ثيو مدينًا لنا.»

سألت بروكتر:

---

[35] خطة بودابست الكلاسيكية: مصطلح شائع يُشير إلى سيناريو "فخ العسل" (الاستدراج الجنسي) أو الكمين المُعد في مدينة معادية للإيقاع بالهدف وابتزازه أو اختطافه، وارتبطت التسمية تاريخياً بكون بودابست ساحة نشطة لهذه العمليات السوفيتية.

– «فكرة مَن كانت العبث معي في الأشهر التي سبقت طردي؟ أنت مَن وضع تلك الصور في مكتبي، أليس كذلك؟ وأطلقت حملة وشايات لتأجيج كل تلك الشكاوى الأخلاقية؟ هل كانت أفكارك أم أفكار زوموف؟ هل أقنعتَ ديبس بطردي؟»

– «ألا تعتقدين أنها كانت ستطردكِ على أي حال يا أرتميس؟ هيا بنا.»

– «مَن فعلها؟»

أشاح ماك بوجهه عنها، ونظر إلى الأسفل.

تابعت:

– «هل كانت فكرة زوموف أن يرفع شأنك من خلال صفقة التبادل مع سام؟ هل اختار ضابطًا مغمورًا في فيينا كطعمٍ لنا، بمجرد أن استجوب الروسُ سام بما يكفي وأدركوا أنه لا يعرف شيئًا؟ أنت مَن صمم العملية، وقدتَ حملة التبادل. لقد أصبحتَ بطلًا لعلك! لقد وضعك زوموف في موقعٍ مثالي لتتبوأ مقعدًا في "الطابق السابع" في غضون سنواتٍ قليلة. الخطة طويلة الأمد، كما قلتُ. كيف هو أدائي حتى الآن؟»

قال:

– «أداؤكِ جيدٌ جدًا بالنسبة لامرأةٍ مخمورة يا أرتميس. أحسنتِ.»

كانت ضحكتها مزيجًا حزينًا من الكراهية والاندهاش الحقيقي. تابعت قائلة:

– «إذن، لنستعرض الأمر، أليس كذلك؟ الدمار الذي أحدثتَه. لقد ضحيتَ بعميلين روسيين، أليس كذلك؟ "بوكانير" مات، وترك وراءه ابنةً صغيرة. "كلاو" مفقود، وغالبًا مات. قطط ضابطنا في موسكو ذُبحت، وزوجته "مولي" تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة. وبالطبع هناك غوليكوف؛ قُطّعت أوصاله وأُعيد إلى وطنه في صندوق. وبعد ذلك، عندما بدأتُ أنا وسام نلاحقك، أطلقتَ علينا وحوشك. حاولوا تفجيري إربًا. والعملاء الثلاثة القتلى في فرنسا، حسنًا، كان ذلك هو الثمن الذي جعلتمونا ندفعه أنا وأصدقاؤك لتأكيد خيانتك. والآن قتلوا سام، أيها اللعين. لقد قتلته.»

انغلق ماك على نفسه عند هذا الحد، ناظرًا إلى القهوة المسكوبة ليتجنب عينيها. كان يرتدي حذاء قيادة جلديًا، وسروال جينز ضيقًا للغاية ومطويًا عند الحاشية، وسترةً رياضية حمراء فوق قميصٍ أبيض، مع منديل حريري أبيض يبرز من جيب صدره. في البداية لم تلاحظ هذه الهيئة الحمقاء، أما الآن فلا يمكنها إشاحة نظرها عنها.

قال ماك فجأة:

– «لقد ساعدتُ في استعادته، أليس كذلك؟ أنا بالتأكيد لم أقتله يا أرتميس. لم أقتل أحدًا منهم.»

أخرجت من جيب سترتها الآخر ظرفًا، وهي تحرص على إبقاء البندقية مصوّبةً نحوه، وألقته على الأرض وركلته باتجاهه.

– «سوف تنظر إلى هذه الصور. كل واحدةٍ منها تعود لشخصٍ خنتَه. سوف تتأمل هذه الصور وكأنها الكتب المقدسة اللعينة.»

فتح المجلد بمضض. كانت قد حصلت على معظم الصور من ثيو، رغم أنه لم يعرف لمَ أرادتها. بدأت الكومة بصور "بوكانير"، و"كلاو"، وغوليكوف، وصور الهوية الخاصة بتوائم كساب. فكرت بروكتر أنه لم يبدِ تأثرًا بتلك الصور، فقد تصالح ماك مع الأمر باعتباره «عملاً خطيرًا»، لكنه توقف عند صورة مقطورتها المحطمة، وتوقف تمامًا عند الصورة الأولى التي توثق مقتل سام؛ صورة له وهو ممددٌ على سريرٍ غارقٍ بالدماء.

قالت بروكتر:

– «لقد فعلت ذلك بسكين.»

قال:

– «كفى. لم أطلب من أحدٍ أن يقتل أحدًا.»

رفعت البندقية وقالت:

– «لم يكفِ بعد. هناك المزيد. واصل.»

تصفح المزيد من الصور، ووجهه يستقر في ذلك القناع الفارغ.

سرى ألمٌ طويل في جسد بروكتر كأنه نصل. فكرت: هناك نسختان منه؛ ثمة شخصٌ آخر يسكن داخل صديقي القديم. كانت أفكار ماك مكشوفةً لها في الماضي، أما الآن، فلا تملك أدنى فكرة عما يدور في خلد هذا الرجل.

قالت:

– «لقد توصل رجال "مكتب التحقيقات الفيدرالي" إلى أن القاتلين هما بيتر وإيرين فينابل، من "دالاس" بـ "تكساس"، من بين كل الأماكن اللعينة! بيتر قُتل عند مقطورتي. ويخبرني ثيو أن إيرين حصلت على بضعة أوسمة، ومنزل ريفي، وعشيقٍ بحواجب سلافية كثيفة؛ تعيش في رغد العيش، غارقةً في غابات روسيا المظلمة. وهذا كله بسببك يا ماك. السلسلة تبدأ من عندك.»

– «لم أفعل هذا.»

ترك الصور تسقط على الأرض، وتناثرت بعضها في بقعة القهوة. احتقن وجهه وقال:

– «لماذا تفعلين هذا من أجلهم يا أرتميس؟ لماذا تخدمينهم بعد كل ما فعلوه بكِ؟ فين غوسفورد اللعين نصب نفسه بطلاً بعد أفغانستان، وهو ليس سوى محتال.. مرتزق يتاجر بتضحياتنا. وقد طردكِ يا أرتميس.. هو وديبس ضحيا بكِ من أجل مجدهما.»

بصقت بروكتر على الأرض وقالت:

– «كنا أصدقاء يا ماكينتوش، أنا وأنت.»

قال:

– «نعم، ونحن كذلك.»

بدأ التواصل البصري يثير اشمئزازها؛ فاضطرت للنظر للأعلى، نحو الجدار فوق رأسه.

قالت:

– «كم مضى؟ أربع سنوات منذ وفاة والدك؟ التوقيت مناسب، كما أرى. لم تستطع مواجهة ذلك الوحش في هذه الحياة، أليس كذلك؟ لم تنل رضاه

أبدًا، ولم تجرؤ على إخبارِه بأن يذهب إلى الجحيم. لذا كان عليك أن تخبره بذلك بعد رحيله. كم دفع لك الروس يا ماكينتوش؟»

زمَّ أنفه ولم يقل شيئًا.

قالت:

– «ستفعل أمرين من أجلي، الآن. ستكتب ملاحظة عما فعلتَه.. قصيرة، قوية، ومباشرة. سأشرف عليك، وسأقترح عليك بعض الجمل. وستخبرني أين خبأت المال، أو الألماس، أو الذهب.. أياً كانت الطريقة التي دفعوا بها. ابدأ بالملاحظة.» ولوّحت بالبندقية نحو المكتب: «هيا، تحرك.»

وقف هناك، وقد تشنج فكُّه، وربط ذراعيه فوق صدره. بدأت مادة بيضاء تشبه العجينة تتشكل عند زوايا فمه.

قالت:

– «افعل ذلك من أجل لولو. لا يزال بإمكانك إنقاذها.»

تحرك ماك نحو المكتب. كتب. رأت بروكتر أن المسودة الثانية جيدة بما يكفي.

قالت:

– «اتركها.» ووضعت المسودة الأولى في جيب سترتها بعد أن كرمشتها. «انهض، هكذا.. عُد إلى الجدار. والآن، المال.»

استغرق الأمر منه بضع لحظات ليجيب، وعندما انتهى قالت:

– «ستضيف حاشيةً إلى الملاحظة. الآن، حالاً.»

– «لا أحفظ كل التفاصيل عن ظهر قلب يا أرتميس.»

– «هراء. تقامر بحياة لولو من أجل مالٍ ملطخ بالدماء لا تحتاجه؟ ليس تصرفًا ذكيًا.»

كانت نظرته الآن تفيض بالكراهية الصافية. عاد إلى المكتب وكتب المعلومات بسرعة. كان العرق يتصبب من وجهه، فمسحه عن شفته العليا ومنابت شعره، وهو يفرك كفيه المبللتين في قميصه أثناء الكتابة. راجعت

بروكتر ما كتبه، وجعلته يكرره عليها عدة مرات لتراقب تعابير وجهه. لكن هل كان بإمكانها حتى أن تلمح أدنى إشارة لو كان يكذب؟

سألته:

– «هل تشعر بالرضا عن هذه المقايضة؟»

– «لم أفعل ذلك من أجل المال يا أرتميس، أرجوكِ.»

احتدمت نبرته، وازداد سواد عينيه، وتشنج وجهه بشكلٍ مروع. ثم بدأ ماك يهذي بمزيجٍ معقد من المبررات: الفوضى مع والده، ذكرى متجمدة لوالده وهو يتدلى من ساقه حتى تبلل بالبول؛ اللوحات الفاشلة ولولو — ومرة أخرى حاول تسويق الكذبة بأنها لا تعرف شيئًا. التفت ليشرح أمر اللوحة التكعيبية خلفه، ملوّحًا بيديه، وهو ينفث كلماتٍ غير مفهومة عن كيف كان يؤمن في شبابه بأن الفن يقدم أملاً للعالم، لكنه في الحقيقة لا يمكنه إلا أن يجسد الدمار. وظل يهذي ويهذي، يتبختر أمام لوحته الغريبة، ولم تكن بروكتر متأكدة من قدرتها على تحمل المزيد؛ فقد شعرت بالغثيان من مجرد النظر إليه، ومن سماع صوته، ومن رائحته التي تزكم أنفها.

قالت:

– «اصمت. اصمت.. تمامًا.»

تشتت انتباهه بينها وبين اللوحة. مسح جبهته اللامعة وسألها:

– «ألا تريدين معرفة لماذا فعلتُ ذلك؟ ألا يهتمك الأمر؟»

قالت:

– «لا، لا يهمني.»

تمتمت بروكتر بشيءٍ لنفسها، كأنها تعويذة. وقالت:

– «باسم الوفاء.»

ثم ضغطت على الزناد.

تناثر النصف العلوي من رأس ماكينتوش ميسون فوق القماش، لتكون اللمسات الأخيرة في تحفته الفنية قد رُسمت بريشة أرتميس أفروديت بروكتر، وبألوانٍ من دمه وعقله.

الفصل الحادي والستون

لانغلي / الميناء الحر بجنيف Geneva FreePort
بعد مرور أشهر

كانت بروكتر ممددةً على وجهها فوق السرير، وأذناها تضجّان بأزيز مسدس الوشم. وعلى الجانب المظلم من جفنيها المطبقين، راحت وجوههم تتراقص، وتمرُّ الأماكن التي ماتوا فيها، والأشخاص الذين قتلتهم ثأرًا لهم.

صمت المسدس. مرّر الوشّام منديلًا معقمًا فوق الحبر الطازج؛ وسمعت هي خشخشة غلاف ضمادة يُفتح.

سأل الوشّام:

– «هل ترغبين في رؤيته؟»

نهضت ببطء، وأدارت ظهرها للمرآة، لتتأمل بروكتر النجمة السوداء الجديدة بنقاطها الدموية الخمس. لقد انضمت إلى النجوم التسع الأخريات في مسارٍ يمتد من الترقوة إلى الترقوة.

تحدثت إلى سام عبر النجمة، وباحت له بكل الأشياء التي لم تقلها أبدًا.

***

وقف عشرة أشخاص، تسعة رجال وامرأة واحدة، أمام باب قبوٍ داخل مستودعٍ مبهم الملامح في أراضي الميناء الحر بجنيف[36]. كانت النافورة في البحيرة بالخارج تقذف ماءً أزرق نحو سماء صيفيةٍ أشد زرقة، لكن داخل الميناء الحر، لم يتمكن العالم من تقديم شيء سوى تنويعاتٍ من الأسود

---

[36] ميناء جنيف الحر: مستودع حصين ومعفى من الجمارك يُلقب بـ "أكبر متحف سري في العالم"، ويُستخدم لتخزين وتداول الثروات الفنية الهائلة بعيداً عن الضرائب والرقابة الحكومية.

والرمادي. أبواب، وبذلات، وسجاد، وستائر، وأرضيات: ورغم أن هذه المباني كانت تأوي لوحاتٍ ملونة، ونبيذًا فاخرًا، ومجوهراتٍ براقة، وتحفًا أثرية تقدر بمليارات الدولارات، إلا أن لامبرت لم يرَ لونًا واحدًا منذ مروا تحت العلم السويسري المرفرف في الخارج. ما كان ينبغي أن يكون أكبر معرض فني أو قبو نبيذ في العالم، كان بدلًا من ذلك متدثرًا بسرية الرمادي الكئيب.

وقفت ديبورا سويت، رئيسة لامبرت والمرأة الوحيدة في هذا الخليط العجيب، خلف المدير التنفيذي للمنطقة الحرة، الذي ارتدى بدلة رمادية، في ردهة طويلة تصطف على جانبيها مجموعات من الأبواب الرمادية مزدوجة الأقفال، يؤدي كل منها إلى قبو منفصل. خلف لامبرت تكدّس عدد من المسؤولين السويسريين، وخلفهم ثلّة من عملاء المباحث الفيدرالية القادمين من واشنطن وبيرن وجنيف، والذين لم يكونوا بأناقة السويسريين، لكنهم نجحوا بشكل مثير للإعجاب في تنسيق ملابسهم لتلائم اللون الرمادي السائد. وحدهما هو وسويت، ممثلا وكالة الاستخبارات المركزية، كانا بارزين. لامبرت ببدلته الكحلية وربطة عنقه الحمراء، وهي بفستانها الأحمر الضيق بلا أكمام، واللآلئ الزرقاء الضخمة التي تلتف حول عنقها كزينة مسرحية.

كان وفد الوكالة في عجلةٍ من أمره هذا الصباح لدرجة أن لامبرت لم يرتشف سوى قليلٍ من القهوة أثناء القيادة من قاعدة جنيف إلى الميناء الحر. أجبروه على التخلص من كوبه في سلة مهملات بالطابق العلوي في مكاتب الجمارك قبل زيارة الأقبية بالأسفل، وكان لامبرت يتوق الآن لجرعة كافيين. لم ينم إلا قليلًا طوال الشهر الذي انقضى منذ وصول المكالمة من باريس. كان هناك زمن يكتفي فيه بشرب أقل من خمسة أكواب من القهوة يوميًا بارتياح، لكن ذلك العالم تلاشى مع وصول رسالة انتحار ماك ميسون. كبت لامبرت تثاؤبه بصعوبة.

ضغط مدير الميناء الحر بإبهامه على الجهاز، فانفتح طاقم من الأبواب. دلف الجمع إلى قبوٍ بحجم ملعب كرة المضرب، رفوفه تمتد من الأرض إلى السقف. تبعوا المدير إلى الطرف الأقصى من الغرفة، حيث توقف أمام صندوق

معدني رمادي نُقشت فوق لوحة مفاتيحه الأرقام ٦,٢٤,٢ . ميز لامبرت الأرقام من رسالة الانتحار المفرغة ومن مذكرة التفتيش التي قدموها للسويسريين. دوى صوت المزلاج وهو ينفتح عبر الغرفة كأنه طلق ناري.

أُخرج صندوقان من الخزنة ووُضعا على طاولة وسط الغرفة. فتح المدير الصندوق الأول. اختلس لامبرت، الذي كان يزاحم هنا وهناك للحصول على رؤية واضحة، نظرةً إلى الداخل. كان الصندوق مبطنًا باللباد وتتخلله ربما عشرون أو ثلاثون حفرة ضحلة. كانت كل حفرة ممتلئة بالماس. للحظة، لم ينطق أحد. لاحقًا، سيتذكر لامبرت ذلك الصمت الشبيه بصمت القبور، وشعور الغثيان الذي تجمّع في حلقه.

سمع سويت تهمس:

– «يا إلهي. كنت أظنه مقلب».

***

كانت إحدى التداعيات الغريبة لقضية ميسون تتعلق بامرأة لم يعرفها لامبرت إلا من خلال سمعتها — وكانت سمعةً حافلة. أحدث معلومة مخزنة في ذاكرته عنها كانت أنها تقيأت على طاولة المدير أثناء طردها القسري. ربما بعد أسبوع من الرحلة إلى الميناء الحر ، طلبت منه سويت الاتصال بهذه المرأة، ضابطة ميدانية سابقة تدعى أرتميس بروكتر، لدعوتها إلى لانغلي من أجل اجتماع. في العادة، كان أحد مساعديه ليرتب الأمور اللوجستية، لكن بناءً على تعليمات سويت الصريحة، أجرى لامبرت المكالمة بنفسه. بدأ بشرح أن نائب مدير العمليات تود التحدث مع بروكتر بخصوص «انتحار ميسون». أصرّت سويت على أن يستخدم هذه الكلمات تحديدًا عند وصف غرض الاجتماع. المحادثة التي تلت ذلك كانت غريبة وفريدة لدرجة أنه سيتذكرها لاحقًا كلمة بكلمة:

قالت بروكتر:

– «اعطني ديبس على الخط إذًا».

– «لا، لا. إنها تريد التحدث إليكِ شخصيًا. هنا في لانغلي».

- «فقط اعطني اللعينة على الخط».
- «أنا... لا أستطيع. إنها ليست مكالمة من هذا النوع».
- «حسنًا، يبدو هذا مريعًا».
- «آه... إذن، هل يمكنك الحضور يوم الخميس؟ في الواحدة ظهرًا؟»
- «هل هذه مزحة ثقيلة؟»
- «كلا، ليست كذلك».
- «يوم الخميس لديّ عمل. أنا أغطي مناوبات فترة بعد الظهر، وأنا أصلًا مغضوب عليّ من قريبي الذي هو مديري في العمل».
- «سيسعدنا التواصل مع صاحب عملك وإبلاغه بأن حضورك مطلوب من قبل نائب مدير العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية. وبالطبع، سنتكفل بنفقات سفرك».
- «اسمع... آه... ما اسمك مرة أخرى؟»
- «لامبرت».
- «هل كنا نعرف بعضنا حين كنتُ أنا "داخل الوكالة" يا لامبرت؟»
- «لا. أخشى أن طرقنا لم تتقاطع أبدًا».
- «حسنًا، اسمع. لدي تاريخ مع ديبس وكذلك مع غوسفورد، وهو في الغالب تنويعات مختلفة على كارثة مشتعلة. لكن إذا كانت ديبس صادقة وتريد مني الحضور إلى لانغلي، فعليها أن ترسل إحدى طائرات الجناح الجوي التي يستخدمها مريدو الطابق السابع في تنقلاتهم داخل الولايات. أنا مستعدة لجرّ نفسي حتى مطار أورلاندو الدولي لملاقاة الطائرة. مستعدة لكن لست سعيدة بذلك. هذا هو تنازلي الوحيد. رحلة بالسيارة إلى أورلاندو. أما أنت...»

قاطعها لامبرت:

- «آنسة بروكتر، سنعوضك عن جميع النفقات. لا أستطيع...»
- «اخرس...»
- «لا أستطيع...»
- «اخرس لـ...»

– «آنسة بروكتر! لا أستطيع. أنا...»

– «لامبرت. لامبرت. لامبرت...»

كررت اسمه فقط حتى توقف عن محاولة التحدث فوق صوتها. ساد الصمت عبر الخط للحظات. سمع رنين مكعبات ثلج تسقط في كوب.

قالت بصوت مرح:

– «فُووه. أين كنا؟ نعم، الطائرة. ستخبر سيدتك ديبورا سويت أنني لن أركع لـ لانغلي ما لم ترسلوا الطائرة. والأمر لا يتعلق برفاهية الدرجة الأولى والدلال، هل تفهم؟ أنا لست "بريما دونا". طولي بالكاد خمسة أقدام، لذا لا أكترث بمساحة الساقين. وبما أنكم تزعمون تعويض نفقات سفري التجاري، فأنا أيضًا لا أكترث لتكلفة المشروبات على متن الطائرة. لا، الأمر يتعلق بإيماني الراسخ بأنه من الوارد جدًا أن أسافر إلى واشنطن، ولا يكون هناك اجتماع، وأتورط أنا في الفاتورة. إذًا، هذا ما لدي».

– «سأكون سعيدًا بحجز التذاكر بحيث لا تتحملين أي نفقات شخصية».

– «اذهب وتحدث إلى ديبس، واتصل بي حين تكون الإجابة بخصوص الطائرة "نعم"».

عندما نقل لامبرت مطالبها، اختلج فم نائب المدير بابتسامة جليدية. أشارت إيماءة سويت الصارمة بالموافقة للامبرت بأن هذه هي نوعية العلاقة التي لا تُنتزع فيها التنازلات البسيطة إلا عبر حرب ضروس. بعد يومين، التقطت طائرة «بومباردييه» المرأة المدعوة بروكتر من أورلاندو كما ينبغي، وفي ذلك الظهيرة كانت تجلس مع لامبرت خارج مكتب سويت. كانت قصيرة بالفعل، لكن شعرها هو ما لفت انتباهه. أسود فاحم، وكان أكثر شعر مجعد رآه في حياته. كشخصية كرتونية وُصلت بمقبس كهربائي. داخل المكتب، الشيء الوحيد الذي قالته للامبرت هو:

– «لا توجد فطائر شوكولاتة، هاه؟»

وقبل أن يتمكن من سؤالها عما تعنيه، فتحت سويت الباب. راقبهما وهما تتصافحان وتحدقان في بعضهما البعض بمزيج غريب من الازدراء والتسلية،

وكأنهما قد تطعنان بعضهما حتى الموت وتستمتعان بذلك. طلبت نائب المدير من لامبرت البقاء خارجًا هذه المرة. دخلت المرأة، وأغلقت سويت الباب.

كان من المقرر أن يستمر الاجتماع ثلاثين دقيقة لكنه امتد لأكثر من تسعين. سمع لامبرت، الذي يقع مكتبه مقابل مكتب سويت مباشرة، صراخًا وصياحًا في مرتين، وربما ثلاث. ارتفعت أصوات مكتومة بوتيرة متكررة. وكانت هناك نوبات قصيرة من الضحك. في مرحلة ما، أقسم أنه سمع رنين كأس. بعد مغادرة بروكتر، دلف لامبرت ليسأل نائب المدير عما تمخض عنه الاجتماع، إن كان هناك شيء. هل هناك متابعات؟ مهام للتوزيع؟ كانت رائحة خفيفة من الفودكا تطفو في الهواء، وزُينت الطاولة الفارغة بمظلتين ورقيتين صغيرتين تبرزان من كأسين فارغين يقفان بفخر وسط حلقات من تكثف بخار الماء. كانت سويت جالسة على مكتبها تدون ملاحظات في دفتر.

آمن لامبرت، الذي اعتاد على تقلبات مزاج رئيسته وقاموس وجهها، أن الاجتماع تركها في حالة من الاضطراب الشديد والتسلية البالغة في آن واحد. كانت زاوية جفنها الأيسر تختلج، وهو أثر واضح لغضبها. لكنها كانت تبتسم أيضًا. كانت ابتسامة حقيقية وسعيدة، وكان لديه انطباع بأنها لم تكن تدرك أنها تبتسم. كان يعلم أنها قادرة على إظهار كلا العاطفتين، لكنه لم يرها تجمعهما معًا في آن واحد من قبل. لوحت له بيدها ليخرج.

قالت:

- «سأتولى الأمر».

رغم أنه لم يمر على وجوده في مكتب نائب المدير سوى ستة أشهر، إلا أن لامبرت صار خبيرًا في أنواع الاجتماعات: الطويلة والقصيرة، الكبيرة والصغيرة، المتوترة والسعيدة، التافهة والمثمرة؛ لقد رآها كلها. ورغم أنه لم يعرف الكثير عن محتوى الاجتماع سوى العنوان الغامض الذي وضعته سويت، إلا أن الفوضى الظاهرة والضوء الغريب الذي يتدفق الآن من وجه سويت تركا لديه انطباعًا فريدًا بأن أمرًا ثقيلًا قد قُلب رأسًا على عقب، وأن سويت وبروكتر قد حملتا العبء معًا. كان يعلم أيضًا أنهما اتخذتا قرارات

تتطلب من سويت اتخاذ إجراءات. ففي النهاية، كانت تدون ملاحظات في دفترها الأخضر، الدفتر الذي لا تشاركه معه.

رأى لامبرت بروكتر مرة أخرى بعد حوالي شهر. كانت لمحة عابرة في الردهة، ولم يلاحظها إلا بسبب هالة شعرها. كانت ترتدي الآن الشارة الزرقاء لموظف دائم في الاستخبارات المركزية، وتعلق شريط مركز مهمة الصين، وعلى وجهها نظرة وعيد مستهتر. مرّا ببعضهما دون أي تحية.

جاءت رؤيته الثانية لها بعد أشهر خلال مباراة بيسبول داخلية، حين كان يلعب في القاعدة الثانية لصالح فريق «مفكات الطابق السابع». كانت بروكتر تلعب في مركز الدفاع لفريق «محاربي الحرب الباردة». في تلك المباراة، ضربت كرة أرضية فردية كادت تطيح فيها بلاعب القاعدة الأولى وهي تركض بأقصى سرعة، وأقسم لامبرت أنها حين انزلقت إلى القاعدة الثانية في شوط مزدوج حماسي في الجزء السفلي من الشوط الخامس، كانت رافعةً مسامير حذائها للأعلى. ترك غضبه يمر، متذكرًا المحادثة حول الطائرة والنظرة في عيني سويت بعد اجتماعهما. لكن في دكة الاحتياط، سأل لماذا كانت تلعب مع رابتيس ومونك وفريق «البيت الروسي» لمحاربي الحرب الباردة، وليس مع تنانين «مركز مهمة الصين».

صاح رجل يدعى توبين من آخر المقعد:

– «لا أنصحك بالتدقيق في الأمر».

– «لماذا؟»

– «إيه... سأتركها وشأنها لو كنت مكانك».

الرؤية الثالثة لبروكتر كانت في مراسم الذكرى السنوية في الربيع. عُلّقت نجمة واحدة فقط في ذلك العام، وبالنسبة للعامة كان المتلقي مجهولًا. لكن لامبرت كان يعلم أنها لضابط حالة سابق يُدعى سام جوزيف، قتله الروس في قضية ميسون. تابع لامبرت كل تفاصيل التحقيق، لكن الجزء المتعلق بقتل الروس لشخص على الأراضي الأمريكية كان معزولًا ومحاطًا بسرية تامة لدرجة أنه هو نفسه استُبعد من قائمة التوزيع. عرف لامبرت اسم جوزيف

وتلك اللمحة من السياق فقط لأن سويت أفرطت في الكلام ذات مرة أثناء التخطيط للحدث، متذمرةً من أن أرتميس بروكتر رفضت بشكل قاطع التحدث في النسخة المغلقة والسرية من مراسم تأبين سام. تساءلت سويت حينها: «ما هي علّتها بالضبط؟ خمسة وعشرون عامًا لعينًا معها، وما زلت لا أعرف الإجابة». ولم يكن لامبرت يعرف الإجابة أيضًا، ولم يكن مُطّلعًا على ملف سام جوزيف، لذا اكتفى بهز كتفيه وانتقلا إلى أعمال أخرى.

كانت مراسم الذكرى سريعة، مكتملة بالخطابات المعتادة عند جدار الذكرى من قبل المدير غوسفورد ونائب المدير سويت. لمح لامبرت هالة الشعر الأسود المجعد وسط الحشد، قبل بضعة صفوف منه، ساقاها متقاطعتان، ووجهها خالٍ من التعبير حين تمكن من اختلاس نظرة سريعة. كانت تجلس مع رابتيس ومونك من «البيت الروسي». استمعت بلا أي تعبير، وغادرت بسرعة بعد المراسم.

لاحقًا، عندما كانت سويت تجتمع مع عائلة سام، سأل أحد المستشارين الخاصين عن بروكتر.

قال المستشار، وهو لا يزال يواجه شاشة حاسوبه:

– «أوه، بالطبع. رئيسة قسم موسكو-إكس في زمن غابر، أليس كذلك؟ فعلت الكثير من الأشياء المرعبة ضد الروس. كانت رئيسة المحطة في دمشق قديمًا. وفي أماكن أخرى قليلة».

قال لامبرت:

– «سمعت أن الروس حاولوا ابتزازها. نشروا بعض الصور الفاضحة على الإنترنت. يقولون إنها كادت تقتل الروسي الذي حاول تجنيدها».

قال المستشار، ثم توقف للحظة:

– «تبدو قصة مختلقة. لكنهم يسمونها "ملاك الموت"، كما تعلم».

– «أنت تمزح».

همس المستشار، ملتفتاً الآن لمواجهة لامبرت:

– «هناك قصص. من أفغانستان. من سوريا. تقتل واحدًا منا، فتقتلك. لديها نجوم موشومة على ظهرها. نجمة لكل ضابط ثأرت له. لكن، يعني، كن جادًا. هذه على الأرجح مجرد شائعات، أليس كذلك؟»

***

في ذلك المساء، استقل لامبرت المصعد هبوطًا من الطابق السابع لتدخين سيجارة في الفناء، متتبعًا مسارًا متعرجًا قاده عبر الردهة قرب البهو. رأى الشعر المجعد يطل من خلف عمود بينما كان يقترب. كانت تواجه جدار الذكرى، وبدت من موقعه قريبة جدًا منه، عند الطرف الأقصى حيث النجوم الأحدث. فكر لامبرت في التوقف لإلقاء نظرة، لكنه لم يكن لديه ما يقوله لها، ولم يرغب في المخاطرة بأن تلمحه. وبينما كان يمر، نظر أسفل الدرج واختلس نظرة واحدة، سريعة وصافية، لـ أرتميس أفروديت بروكتر عبر الأعمدة. كانت يدها ممدودة لتلمس النجمة المحفورة حديثًا. خُيِّل إليه أن شفتيها تتحركان، لكنه لم يكن متأكدًا. قطع أحد الأعمدة رؤيته، واختفت هي عن الأنظار.

–تمت–

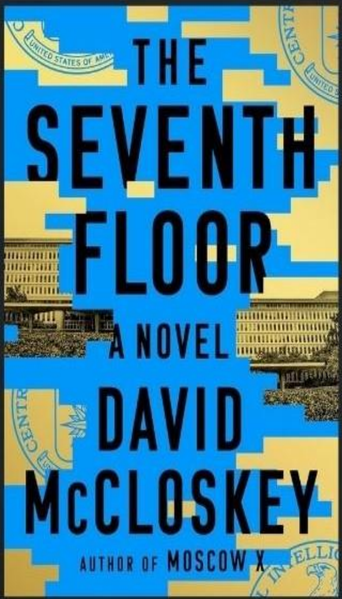
الطابق السابع

ديفيد مكلوسكي

ستة من ضباط الاستخبارات المركزية (CIA).. هم أصدقاء الروح، وهم الأعداء الألداء. على مدار ربع قرن، احترفوا سرقة أسرار الآخرين. أما الآن، فعليهم سرقة أسرار بعضهم البعض.

تبدأ اللعبة بوصول روسي إلى سنغافورة وفي جعبته سر للبيع. ولكن عندما يُقتل الروسي، ويختفي سام جوزيف -ضابط الوكالة المُرسل للقائه- تتحول آرتميس بروكتر، رئيسة العمليات، إلى "كَبش فداء" لهذه الكارثة وتُطرد من الخدمة. بعد أشهر، يظهر سام فجأة على عتبة باب بروكتر حاملاً سراً متفجراً: هناك "جاسوس" روسي (Mole) محفور بعمق داخل أعلى الرتب في وكالة الاستخبارات المركزية.
وبينما تحقق بروكتر وسام، تتقلص القائمة لتنحصر في دائرة ضيقة من المشتبه بهم: هم أقرب أصدقاء بروكتر، وأشرس أعدائها في آن واحد. تتطلب هذه المطاردة أن تنبش بروكتر في ماضيها المضطرب داخل الوكالة، مما يضع الثنائي في مرمى نيران "سيد جواسيس" روسي داهية، مستعد لفعل أي شيء لحماية عميله في "لانغلي" مهما كان الثمن.
ماذا يحدث عندما توضع الصداقات التي صُهرت بالعرق والدماء -من معسكر التدريب في "المزرعة"، إلى جبال أفغانستان، وصولاً إلى المكاتب التنفيذية في "الطابق السابع"- على المحك النهائي؟ وهل نعرف حقاً حقيقة من نحبهم؟
من لانغلي إلى موسكو وباريس وما بعدها.. تأخذنا رواية "الطابق السابع" (The Seventh Floor) في رحلة لاستكشاف جوهر الصداقة في مهنة لا تعرف الولاء، ومعنى أن تحب مكاناً لا يبادلك الحب أبداً.

ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks



ترجمة / قناة wadistreambooks
@t.me/wadistreambooks